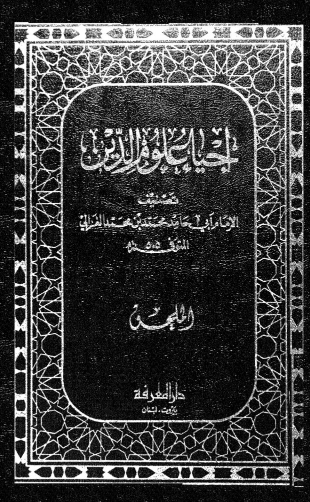

إحياء علوم الدين
تصنيف
الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي
المتوفى ٥٠٥ هـ
الملحق
دار المعرفة
بيروت . لبنان

ملحق

إحياء علوم الدين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

يشتمل هذا الملحق على : —

١ — تعريف الأحياء بفضائل الإحياء :

للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس

٢ — الإملاء عن إشكالات الإحياء :

للإمام الغزالي : ردّ به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من كتابه « إحياء علوم الدين » .

٣ — عوارف المعارف :

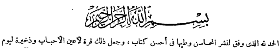
للعارف بالله تعالى : الإمام السهروردي

دار المعرفة

بيروت — لبنان

١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م

كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء



الحمد لله الذى وفق لنشر المحاسن وطيها فى أحسن كتاب ، وجعل ذلك قرة لأعين الأحبـاب وذخيرة ليوم المآب . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أحيا بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوى الألباب ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ماأشرقت شمس الإحياء للقلوب ، وتوجهت همة روحانية مصنفه الولى الموهوب ، إلى إسعاف ملازمى مطالعته ومحبيه بالمطلوب .

وبعد : فإنّ الكتاب العظيم الشأن المسمى بإحياء علوم الدين ـ المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين المشايخ العارفين ، المنسوب إلى الإمام الغزالى رضى الله عنه عالم العلماء وارث الأنبياء ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتهجدين ، مقتدى الأئمة ، مبين الحل والحرمة ، زين الملة والدين ، الذى باهى به سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء ورضى عن الغزالى وعن سائر العلماء المجتهدين ، لماكان عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير فى بابه ولم ينسج على منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتملا على الشريعة والطريقة والحقيقة كاشفا عن الغوامض الخفية مبيناً للأسرار الدقيقة : رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة على صبابة من فضله وشرفه ، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه ورتبته على مقدمة ، ومقصد ، وخاتمة . فالمقدمة : فى عنوان الكتاب . والمقصد : فى فضائله وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والخاتمة فى ترجمة المصنف رضى الله عنه وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه .

المقدمة : فى عنوان الكتاب

اعلم أن علوم المعاملة التى يتقرب بها إلى الله تعالى تنقسم إلى ظاهرة وباطنة ، والظاهرة قسمان : معاملة بين العبد وبين الله تعالى ، ومعـــاملة بين العبد وبين الخلق ، والباطنة أيضاً قسمان : مايجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة ، وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة . وقد بنى الإمام الغزالى رحمه الله كتابه « إحياء علوم الدين » على هذه الأربعة الأقسام فقال فى خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع . ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب العلم . كتاب قواعد العقـائد . كتاب أسرار الطهـارة . كتاب أسرار الصلاة . كتاب أسرار الزكاة . كتاب أسرار الصيـام . كتاب أسرار الحج . كتاب تلاوة القرآن . كتاب الأذكار والدعوات . كتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الأكل . كتاب آداب النكاح . كتاب آداب الكسب . كتاب الحلال والحرام . كتاب آداب الصحبة . كتاب العزلة . كتاب آداب السفر . كتاب آداب السماع والوجد . كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . كتاب أخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب . كتـاب رياضة النفس . كتاب آفة الشهوتين : البطن والفرج كتاب آفة اللسان . كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم

المال والبخل ، كتاب ذم الجاه والرياء ، كتاب الكبر والعجب ، كتاب الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة . كتاب الصبر والشكر . كتاب الخوف والرجاء كتاب الفقر والزهد . كتاب التوحيد والتوكل . كتاب المحبة والشوق والرضا . كتاب النية والصدق والإخلاص . كتاب المراقبة والمحاسبة . كتاب التفكر . كتاب ذكر الموت .

ثم قال رحمه الله : فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل في الفقهيات .

وأما ربع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي مما لا يستغني المتدين عنها .

وأما ربع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر في كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها يترتب ، ثم العلامات التي بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص ، كل ذلك مقرونا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي يتقرب بها العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، وثمرتها التي منها تستفاد ، وعلامتها التي بها تعرف ، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ماورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

المقصد : في فضل الكتاب المشار إليه

وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى ، جمع الناس مناقبه فقصروا وماقصروا ، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعز من أفرادها فيما علمت بتأليف ، وهي جديرة بالتصنيف ، غاص مؤلفه رضي الله عنه في بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المعاني ثم لم يرض إلا بكارها ، وجال في بساتين العلوم فاجتنى ثمارها بعد أن اقتطف من أزهارها ، وسما إلى سماء المعاني فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة ، وجليت عليه عرائس أسرار معاني فلم ترق في عينه منهن إلا بادية النضارة ، جمع رضي الله عنه فأوعى ، وسمى في إحياء علوم الدين فشكر الله لذلك المسعى ؛ فلله دره من عالم محقق مجيد ، وإمام جامع لشتات الفضائل محرر فريد ، لقد أبدع فيما أودع كتابه من الفوائد الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه وأملى ، بيد أنه في العلوم صاحب القدح المعلى ، إذ كان رضي الله عنه من أسرار العلوم بمحل لا يدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله .

هيهات لا يأتي الزمان بمثله ٭ إن الزمان بمثله لشحيح

وماعسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشتات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولى على غايات المناقب ، فشجرته في قرارة العلم والعمل والعلا والفهم والذكاء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، مع كونه رضي الله عنه ذا الصدر الرحيب والقريحة الثاقبة والدراية الصائبة ، والنفس السامية والهمة العالية . ذكر الشيخ عبدالله ابن أسعد اليافعي رحمة الله عليه أن الفقيه العلامة قطب اليمن إسماعيل بن محمد الحضرمي ثم اليمني سئل عن تصانيف الغزالي فقال من جملة جوابه : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء ومحمد بن إدريس الشافعي سيد الأئمة ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي سيد المصنفين . وذكر اليافعي أيضاً أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي بن حرزهم الفقيه المشهور المغربي كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين وكان مطاعاً مسموع الكلمة ، فأمر بجمع ماظفر به من نسخ الإحياء وهم بإحراقها في الجامع يوم الجمعة فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع فإذا هو بالنبي

صلى الله عليه وسلم فيه ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما والإمام الغزالى قائم بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فلما أقبل ابن حرزهم قال الغزالى : هذا خصمى يارسول الله فإن كان الأمر كما زعم تبت إلى الله ، وإن كان شيئاً حصل لى من بركتك واتباع سنتك فخذلى حقى من خصمى ، ثم ناول النبى صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء ، فتصفحه النبى صلى الله عليه وسلم ورقةورقة من أوله إلى آخره ثم قال : والله إن هذا لشىء حسن ، ثم ناوله الصديق رضى الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده . ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق إنه لشىء حسن ، ثم ناوله الفاروق عمر رضى الله عنه ، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصديق ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه على بن حرزهم عن القميص وأن يضرب ويحد حد المفترى ، فجرد وضرب . فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رضى الله عنه وقال : يارسول الله لعله ظن فيه خلاف سنتك فأخطأ فى ظنه ، فرضى الإمام الغزالى وقبل شفاعة الصديق ، ثم استيقظ ابن حرزهم وأثر السياط فى ظهره ، وأعلم أصحابه وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالى واستغفر ، ولكنه بقى مدة طويلة متألماً من أثر السياط وهو يتضرع إلى الله تعالى ويتشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن رأى النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره فعوفى وشفى بإذن الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ففتح الله عليه فيه ونال المعرفة بالله وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر رحمه الله تعالى .

قال اليافعى : روينا ذلك بالأسانيد الصحيحة فأخبرنى بذلك ولى الله عن ولى الله عن ولى الله عن ولى الله الشيخ الكبير القطب شهاب الدين أحمد بن الميلق الشاذلى عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله ياقوت الشاذلى عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبى العباس المرسى عن شيخه الشيخ الكبير شيخ الشيوخ أبى الحسن الشاذلى قدس الله أرواحهم وكان معاصراً لابن حرزهم قال : وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : ولقد مات الشيخ أبو الحسن ابن حرزهم رحمه الله يوم مات وأثر السياط ظاهر على ظهره . وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله وكان أدرك الإمام الغزالى واجتمع به قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفى سعد بن على بن أبى هريرة الإسفراينى يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الشاوى بمكة المشرفة يقول : دخلت المسجد الحرام يوما فطرأ على حال وأخذنى عن نفسى ، فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة مابى ، فوقعت على جنبى الأيمن تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة ، وكنت أطرد عن نفسى النوم ، فاخذتنى سنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى أكمل صورة وأحسن زى من القميص والعمامة ، ورأيت الأئمة الشافعى ومالكا وأبا حنيفة وأحمد رحمهم الله يعرضون عليه مذاهبهم واحدا بعد واحد ، وهو صلى الله عليه وسلم يقررهم عليها ، ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بطرده وإهانته ، فتقدمت أنا وقلت : يارسول الله ، هذا الكتاب - أعنى إحياء علوم الدين - معتقدى ومعتقد أهل السنة والجماعة ، فلو أذنت لى حتى أقرأه عليك فأذن لى فقرأت عليه من « كتاب قواعد العقائد » :

بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول فى ترجمة عقيدة أهل السنة ، حتى انتهيت إلى قول الغزالى : وأنه تعالى بعث النبى الأمى القرشى محمدا صلى الله عليه وسلم إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس ؛ فرأيت البشاشة فى وجهه صلى الله عليه وسلم . ثم التفت وقال : أين الغزالى ؟ وإذا بالغزالى واقف بين يديه فقال : ها أناذا يارسول الله ، وتقدم وسلم ، فرد عليه السلام ، عليه الصلاة والسلام ، وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالى يقبلها ويتبرك بها ، ومارأيت النبى صلى الله عليه وسلم أشد سروراً بقراءة أحد عليه مثل ما كان بقراءتى عليه الإحياء ، ثم انتبهت والدمع يجرى من عينى من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكان تقريره صلى الله عليه وسلم لمذاهب أئمة السنة ، واستبشاره بعقيدة الغزالى وتقريرها نعمة من الله عظيمة ؟ ومنة جسيمه ، نسأل الله تعالى أن يحيينا على سنته ويتوفانا على ملته ، آمين .

﴿ فصل ﴾ أثنى على الإحياء عالم من علماء الإسلام ، وغير واحد من عارفى الأنام : بل جمع أقطاب وأفراد ، فقال.

فيه الحافظ الامام الفقيه أبو الفضل العراقى فى تخريجه : إنه من أجل كتب الإسلام فى معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمى الظاهر والباطن ، ومرج معانيها فى أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتديا بقول على كرم الله وجهه : خير هذه الأمة النمط الأوسط يلحق بهم التالى ويرجع إليهم الغالى ، إلى آخر ما ذكره مما الأولى بنافى هذا المحل طيه ، ثم الانتقال إلى نشر محاسن الإحياء ليظهر للمحب والمبغض رشده وغيه . وقال عبد الغافر الفارسى فى كتاب الإحياء : إنه من تصانيفه المشهورة التى لم يسبق إليها . وقال فيه النروى : كاد الاحياء أن يكون قرآنا . وقال الشيخ أبو محمد الكازرونى : لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء . وقال بعض علماء المالكية : الناس فى فضل علوم الغزالى أى والإحياء جماعها ، كما سيأتى أنه البحر المحيط . وكان السيد الجليل كبير الشأن تاج العارفين وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضى الله عنه يكاد يحفظه نقلا وروى عنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء كل فصل وحرف منه وأعارده وأتدبره فيظهر لى منه فى كل يوم علوم وأسرار عظيمة ومفهومات غزيرة غير التى قبلها . ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحد أثنى على كتاب الإحياء بما أثنى عليه ، ودعا الناس بقوله وفعله إليه ، وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه . ومن كلامه رضى الله عنه : عليكم يا إخوانى بمتابعة الكتاب والسنة ، أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية ، خصوصا : كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس . ومن كلامه : عليكم بالكتاب والسنة أولا وآخراً وظاهراً وباطنا ، وفكرا واعتبارا واعتقادا ، وشرح الكتاب والسنة مستوفى فى كتاب إحياء علوم الدين للإمام حجة الإسلام الغزالى رحمه الله ونفعنا به . ومن كلامه : وبعد فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين ، وبقية المجتهدين ، حجة الإسلام الغزالى ، فى كتابه العظيم الشان الملقب : أعجوبة الزمان « إحياء علوم الدين » الذى هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة ؛ ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين فهو موضع نظر الله وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه فقد استوجب محبة الله ومحبة رسول الله ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة فى الدنيا والآخرة وصار عالما فى الملك والملكوت . ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما فى الإحياء . ومن كلامه : اعلموا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل فى لحظة كحضور سواد الحبر بوقوع الزاج فى العفص والماء ، وتأثير كتب الغزالى واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن . ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لاشىء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالى ومحبة كتبه ؛ فإن كتب الإمام الغزالى لباب الكتاب والسنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل على ما أقول . ومن كلامه : أنا أشهد سرا وعلانية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهو من المهتدين . ومن كلامه : من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر والباطن ، فعليه بمطالعة كتب الغزالى خصوصاً « إحياء علوم الدين » فهو البحر المحيط . ومن كلامه : اشهدوا على أن من وقع على كتب الغزالى فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما فعليه بمطالعة كتب الغزالى وخصوصاً البحر المحيط إحياءه أعجوبة الزمان ، ومن كلامه : نطق معانى معنوى القرآن ، ولسان حال قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء ، بل جميع أرواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفيه مثل العارفين والملامتية ، بل جميع سر حقائق الكائنات والمعقولات وما يناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هؤلاء المذكورين أن لاشىء أرفع وأنفع وأبهى وأبهج وأتق وأقرب إلى رضا الرب كمتابعة الغزالى ومحبة كتبه ، وكتب الغزالى قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المعقول المنقول ، وأنفع يوم ينفخ إسرافيل فى الصور ، وفى يوم نقر الناقور ، والله وكيل على ما أقول ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . ومن كلامه : كتاب إحياء علوم الدين فيه جميع الأسرار ،

وكتاب بداية الهداية فيه التقوى ، وكتاب الأربعين الأصل فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب منهاج العابدين فيه الطريق إلى الله ، وكتاب الخلاصة فى الفقه فيه النور . ومن كلامه : السر كله فى اتباع الكتاب والسنة : وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة فى كتاب إحياء علوم الدين المسمى أعجوبة الزمان : ومن كلامه : بخ بخ بخ لمن طالع إحياء علوم الدين أو كتبه أو سمعه . وكلامه رضى الله عنه فى تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالى وكتبه ، والحث على العمل بها خصوصا إحياء علوم الدين ، وقد كان سيدى ووالدى الشيخ العارف بالله تعالى شيخ ابن عبد الله العيدروس رضى الله عنه يقول : إن أهل الزمان جمعت كلام الشيخ عبد الله فى الغزالى وسميته (الجوهر المتلالى ، من كلام الشيخ عبد الله فى الغزالى) فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقنى الله لذلك ، تحقيقا لرجائه ورجاء أن يتناولنى دعاء الشيخ عبدالله رضى الله عنه ، فإنه قال غفر الله لمن يكتب كلامى فى الغزالى ، وناهيك ببشارة فى هذه العبارة التى برزت من ولى عارف وقطب مكاشف لايجازف فى مقال ولا ينطق إلا عن حال ، وفى هذا من الشرف للغزالى وكتبه مالايحتاج معه إلى مزيد ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ فإن العظيم لايعظم فى عينه إلا عظيم ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل ، وإذا تصدى العيدروس لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ووصف ، والشهادة منه خير من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء فى زمانه بسببه نسخ عديدة ، حتى إن بعض العوام حصلها لما رأى من ترغيبه فيه وألزم أعماه الشيخ عليا قراءته فقرأه عليه مدة حياته خمسا وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف ، ثم إن الشيخ عليا ألزم ولده عبدالرحمن قراءته عليه مدة حياته ، فختمه عليه أيضا خمسا وعشرين مرة ، وكان ولده سيدى الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن التزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شىء منه كل يوم ، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لا أترك تحصيل الإحياء أبدا ماعشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ قلت : وكذلك كان سيدى الشيخ الوالد شيخ ابن عبد الله ابن شيخ ابن الشيخ عبد الله العيدروس رضى الله عنه مدمنا على مطالعته وحصل منه نسخا عديدة نحو السبع ، وأمر بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل فى ختمه ضيافة عامة، فلاز مته ميراث عيدروسى وتوفيق قدوسى فن وفقه الله لامتثاله والعمل بما فيه واستعماله بلغ الرتبة العليا وحاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير على بن أبى بكر ابن الشيخ عبد الرحمن السقاف . لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم ، ففيه سر خفى يجذب القلوب شبه المغناطيس . قلت : وهو صحيح ؛ فإنى مع خسيس قصدى وقساوة قلبى أجد عند مطالعته من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا مالا مزيد عليه ، ثم يفتر برجوعى إلى ما أنا فيه ومخالطة أهل الكثافات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق ، وما ذاك إلالشىء أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه وحسن قصده . والمراد بالكافر هنا فيما يظهر : الجاهل بعيوب النفس المحجوب عن إدراك الحق ، أى فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ كان حريا أن يتعظ به سامعه ، وكما أن الله تعالى جعل لعباده الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون رتبة فوق غيرهم ، كذلك جعل لما يبرز منهم ويؤخذ عنهم بركة زائدة على غيره ، لأن ألسنتهم كريمة وأنوار قلوبهم عظيمة ، وهممهم علية وإشاراتهم سنية ، حتى يكون للقرآن أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير فى القلوب ظاهر ، ولعلومهم وفقههم أنوار ونفع متظاهر ، حتى تجد الرجل له العلم القليل وبعد ذلك ينتفع به كثير لحسن نيته ووجود بركته وغيره له أكثر من ذلك العلم ولم ينتفع به مثله لأنه دونه فى منزلته ، ومن تأمل ذلك وجده أمراً ظاهرا معهودا ، وشيئا مجربا موجودا ؛ فانظر إلى نفع الناس بكتاب الخلاف فى مذهب مالك رحمه الله تعالى ، والتنبيه فى مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، والجمل فى العربية والإرشاد فى علم الكلام وانتشارها ؛ مع أن ماحوت من العلم فى فنونها قليل ، وقد جمع غير هؤلاء فى هذه الفنون فى مثل أجرام هذه الكتب أضعاف مافيها من تحقيق تحرير العبارة وتشقيق المعانى وتلخيص الحدود ، وبعد هذا فالنفع بهذه أكثر وهى أظهر وأشهر ،

لأن العلم بمزيد التقوى وقوة سر الإيمان لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان ، كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يضعه الله فى القلب . قلت : ومما أنشده الشيخ على بن أبى بكر رضى الله عنه لنفسه فيه قوله :

أخى انتبه والزم سلوك الطرائق * وسارع إلى المولى بجد وسابق
أيا طالبا شرح الكتاب وسنة * وقانون قلب القلب بحر الرقائق
وإيضاح منهج للحقيقة مشرق * وشرب حميا صفو راح الحقائق
وإجلاء أذكار المعانى ضواحكا * بباهج حسن جاذب للخلائق
عليك بإحياء العلوم ولبها * وأسرارها كم قد حوى من دقائق
وكم من لطيفات لذى اللب منهل * وكم من مليحات سبت لب حاذق
كتاب جليل لم يصنف قبله * ولا بعده مثل له فى الطرائق
فكم من بديع اللفظ يجلى عرائسا * وكم من شموس فى حماه شوارق
معانيه أضحت كالبدور سواطعا * على درّ لفظ للمعانى مطابق
وكم من عزيزات زهت فى قبابها * محجبة عن غير كفء مسابق
وكم من لطيف مع بديع وتحفة * حلاوتها كالشهد تحلو لذائق
بساتين عرفان وروض لطائف * وجنة أنواع العلوم الفوائق
رعى الله صبارا تعاق جنانها * يروح ويغدو بين تلك الحقائق
ويقطف من ذاكى جناها فواكها * بساحل بحر بالجواهر دافق
خضم طمى قد علا فوق من علا * بشامخ مجد مشرق بالحقائق
فإن لم بهذا القول تؤمن لجربن * وأقبل على تلك المعانى وعانق
وراجع طريقا فى بديع جمالها * وطف فى حماها منشدا كل سابق
ترى فى بدور الحى أقمار قد بدت * بعالى جمال مدهش لب عاشق
فكم أنهلت صبا وكم قشعت عمى * وكم قد سعت فى غربها والمشارق
فيضحى براح الحب سكران مغرما * أصم عن العذال غير موافق
ويمسى يناديها طريحاً ببابها * منعم عيش فى الربوع الغوادق
صلاة على سر الوجود شفيعنا * محمد المختار خير الخلائق
وأصحابه أهل المكارم والعلا * وعترته وراث علم الحقائق

﴿ فصل ﴾ وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر ـ وفى التحقيق لا إشكال ـ أو أخبار وآثار تكلم فى سندها ؛ فأما من جهة تلك المواضع فممن أجاب عنها المصنف فى كتابه المسمى (بالأجوبة) وأسوق لك نبذة من ذلك هنا . قال رحمه الله : سألت ـ يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها وقرب لك مقامات الأولياء تحل معاليها ـ عن بعض ماوقع فى الإملاء الملقب بالإحياء ، عما أشكل على من حجب وقصر فهمه ولم يفز بشىء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطغام وأمثال الأنعام وأتباع العوام وسفهاء الأحلام وعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءه ومنتحليه ومطالعته ، وأفتوا بالهوى مجردا على غير بصيرة بإطراحه ومنابذته ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال ، ورموا قراءته بزيغ عن الشريعة واختلال ، إلى أن قال : ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ... وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ ثم ذكر آيات أخرى فى المعنى ، ثم وصف الدهر وأهله وذهاب العلم وفضله ثم ذكر عذر المعترضين بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين ، بل أفصح بذلك فى الآخر

حيث قال : حجبوا عن الحقيقة بأربعة : الجهل والإصرار ، ومحبة الدنيا ، وإظهار الدعوى . ثم بين ما ورثوه عن الأربعة المذكورة . قال : فالجهل أورثهم السخف إلى آخر ما ذكره . وأما ما اعترض به من تضمينه أخبارا وآثارا موضوعة أوضعيفة ، وإكثاره من الأخبار والآثار ـ والإكثار يتحاشى منه المتورع لئلا يقع فى الموضوع .

وحاصل ما أجيب به عن الغزالى ـ ومن المجيبين الحافظ العراقى ـ أن أكثر ما ذكره الغزالى ليس بموضوع كما برهن عليه فى التخريج ، وغير الأكثر وهو فى غاية القلة رواه عن غيره أو تبع فيه غيره متبرئا منه بنحو صيغة «روى» وأما الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعيف بكثرة ، فهو اعتراض ساقط ، لما تقرر أنه يعمل به فى الفضائل ، وكتابه فى الرقائق فهو من قبلها ، ولأن له أسوة بأئمة الأئمة الحفاظ فى اشتمال كتبهم على الضعيف بكثرة المنبه على ضعفه تارة والمسكوت عنه أخرى ، وهذه كتب الفقه للمتقدمين ـ وهى كتب الأحكام لا الفضائل ـ يوردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها ، حتى جاء النووى رحمه الله فى المتأخرين ونبه على ضعف الحديث وخلافه ، كما أشار إلى ذلك كله العراقى قال عبد الغافر الفارسى سبط القشيرى : ظهرت تصانيف الغزالى وفشت ولم يبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ولا لما آثره ... إلى آخر ما ذكره . ومما يدلك على جلالة كتب الغزالى ما نقل ابن السمعانى من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم : كأن الشمس طلعت من مغربها مع تعبير ثقات المعبرين بيدعة تحدث ، فحدثت فى جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه ، ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب أمر سلطانه على بن يوسف بإحراقها التوهمه اشتمالها على الفلسفة وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك ، فظهر بسبب أمره فى مملكته مناكير ووثب عليه الجند ، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد فى عكس ونكد ، بعد أن كان عادلا .

خاتمة فى الإشارة إلى ترجمة المصنف رضى الله عنه
وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضى الله عنهم

أما ترجمته رضى الله عنه فهو الإمام زين الدين حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى النيسابورى الفقيه الصوفى الشافعى الاشعرى ، الذى انتشر فضله فى الآفاق وفاق ، ورزق الحظ الأوفر فى حسن التصانيف وجودتها ، والنصيب الأكبر فى جزالة العبارة وسهولتها وحسن الإشارة وكشف المعضلات والتبحر فى أصناف العلوم فروعها وأصولها . ورسوخ القدم فى منقولها ومعقولها ، والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها ، مع ماخصه الله به من الكرامة وحسن السيرة والاستقامة والزهد ، والعزوف عن زهرة الدنيا والإعراض عن الجهات الفانية واطراح الحشمة والتكلف . قال الحافظ العلامة ابن عساكر والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى والفقيه جمال الدين عبد الرحيم الأسنوى رحمهم الله تعالى ولد الإمام الغزالى بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وابتدأ بها فى صباه بطرف من الفقه ، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين ، وجد واجتهد حتى تخرج فى مدة قريبة وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة فى أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه منه ، ثم خرج من نيسابور وحضر مجلس الوزير نظام الملك فأقبل عليه وحل منه محلا عظيما لعلو درجته وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محط الرحال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام الغزالى فيها اتفاقات حسنة من مناظرة الفحول ، فظهر اسمه وطارصيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته فى بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى فترك بغداد وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة مشتغلا بأسباب التقوى ، وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق إليها مثل « إحياء علوم الدين » وغيره ، التى من تأملها عرف محل مصنفها من العلم . قيل إن تصانيفه وزعت على أيام

عمره وأصاب كل يوم كراس ، ثم صار إلى القدس مقبلا على مجاهدة النفس وتبديل الأخلاق وتحسين الشمائل حتى مرن على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طوس لازما بيته مقبلا على العبادة ونصح العباد وإرشادهم ودعائهم إلى الله تعالى ، والاستعداد للدار الآخرة يرشد الضالين ويفيد الطالبين دون أن يرجع إلى ماانخلع عنه من الجاه والمباهاة ، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف ، حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة ـ خصه الله تعالى بأنواع الكرامة في أخراه كما خصه بها في دنياه ـ قيل : وكانت مدة القطبية للغزالي ثلاثة أيام على ماحكى في كرامات الشيخ سيد العمودى نفع الله به . وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى بإسناده الثابت إلى الشيخ الكبير القطب الرباني شهاب الدين أحمد الصياد اليمنى الزبيدى وكان معاصراً للغزالي نفع الله بهما قال : بينا أنا ذات يوم قاعد إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة وإذا عصبة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ومركوب نفيس ، فوقفوا على قبر من القبور ، وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع وأركبوه وصعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن جاوزت السموات السبع وخرق بعدها ستين حجابا ولا أعلم أين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لي : هذا الإمام الغزالي ، وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالى ، ورأى في النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم وقد باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال : أفي أمتكما حبر كهذا قالا ؟ لا ، وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالي . وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم منهم الشيخ الإمام الحافظ ابن عساكر في الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم في أن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة : أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالي رضي الله عنه . روى ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في الإمامين الأولين أعنى عمر بن عبد العزيز والشافعي ، ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته : البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة في الفقه ، وإحياء علوم الدين : وهو من أنفس الكتب وأجلها ، وله في أصول الفقه : المستصفى ، والمنخول ، والمنتحل في علم الجدل ، وتهافت الفلاسفة ، ومحك النظر ، ومعيار العلم ، والمقاصد ، والمضنون به على غير أهله ، ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وحقيقة القولين ، وكتاب ، ياقوت التأويل في تفسير التنزيل ، أربعين مجلدا ، وكتاب أسرار علم الدين ، وكتاب منهاج العابدين ، والدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة ، وكتاب الأنيس في الوحدة ، وكتاب القربة إلى الله عز وجل ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار ، وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرآن ، والأربعين في أصول الدين ، وكتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب القسطاس المستقيم ، وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة ، وكتاب المبادى والغايات ، وكتاب كيمياء السعادة ، وكتاب تلبيس إبليس ، وكتاب نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل في القياس والتعليل ، وكتاب المقاصد ، وكتاب إلجام العوام عن علم الكلام ، وكتاب الانتصار ، وكتاب الرسالة اللدنية وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إثبات النظر ، وكتاب المأخذ ، وكتاب القول الجميل في الرد على من غير الإنجيل ، وكتاب المستظهرى ، وكتاب الأمالي ، وكتاب في علم أعداد الوفق وحدوده ، وكتاب مقصد الخلاف ، وجزء في الرد على المنكرين في بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها نافعة .

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقليشي المحدث الصوفي صاحب كتاب النجم والكواكب :

أبا حامد أنت المخصص بالمجد ٭ وأنت الذي علمتنا سنن الرشد

وضعت لنا الإحياء تحيي نفوسنا ٭ وتنقذنا من طاعة النازغ المردى

فربع عباداته وعاداته التى * يعاقبها كالدر نظم فى العقد
وثالثها فى المهلكات وإنه * لمنج من الهلك المبرح والبعد
ورابعها فى المنجيات وإنه * ليسرح بالأرواح فى جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر * ومنها صلاح للقلوب من الحقد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله فى كتابه المنقذ من الضلال ماصورته :

أما بعد : فقد سألتنى أيها الأخ فى الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأحكى لك ماقاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولا من علم الكلام وما احتويته من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تعليم الإمام ، وما ازدريته ثالثا من طريق أهل التفلسف ، وما ارتضيته آخرا من طرق أهل التصوف ، وما تنحل لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل أهل الحق ، وماصرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعانى إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة ، فابتدرت لإجابتك إلى طلبتك بعد الوقوف على صدق رغبتك ، فقلت مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ، ومستوفقا منه وملتجئا إليه :

اعلموا ـ أحسن الله إرشادكم ، وألان إلى قبول الحق انقيادكم ـ أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق : بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ولم أزل فى عنفوان شبابى ـ منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى أن أناف السن على الخمسين ـ أقتحم لجة البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذاهب كل طائفة ، لأميز بين كل محق ومبطل ومستن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولاظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولافلسفيا إلا واقصد الوقوف على فلسفته ، ولامتكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولاصوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولامتعبدا إلا وأريد مايرجع إليه حاصل عبادته . ولازنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة من الله وفطرة وضعها الله فى جبلتى ، لاباختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت عنى العقائد الموروثة على قرب عهدمنى بالصبا ، إذ رأيت صبيان النصارى لايكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لايكون لهم نشوء إلا على التهود ، وصبيان الإسلام لايكون لهم نشوء إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فتحرك باطنى إلى طلب الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها من الباطل اختلافات ، فقلت فى نفسى أولا : إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى أن العلم اليقين هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لايبقى معه ريب ، ولايقارنه إمكان الغلط كالوهم ، ولايتسع العقل لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا للنص مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وإمكانا ، فإنى إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد لو قال لى قائل : الواحد أكثر من العشرة ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها وشاهدت ذلك منه ، لم أشك فى معرفتى لكذبه ، ولم يحصل معى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، وأما الشك فيما علمته فلا . ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه من هذا النوع من اليقين فهو علم لاثقة به ، وكل علم لاأمان معه ليس بعلم يقينى ، ثم فتشت عن علومى فوجدت نفسى عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة إلا فى الحسيات والضروريات ، فقلت الآن بعد حصول اليأس لامطمع فى اقتباس

المستيقنات إلا من الجليات وهى الحسيات والضروريات ، فلابد من إحكامها أولا لأتبين أن يقيني بالمحسوسات وأماني من الغلط فى الضروريات من جنس أماني الذى كان من قبل فى التقليدات أو من جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات ، وهو أمان محقق لاتجوز فيه ولا غائلة له ، فأقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات ، أنظر هل يمكنني أشكك نفسى فيها ! فأنتهى بعد طول التشكك بى إلى أنه لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات ، وأخذ يتسع الشك فيها ، ثم أنى ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت ما أردت أن أصنفه ، فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودى ، ولم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم عزمى على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر فيه أخرى ، ولا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة إلا حمل عليها جند الشهوة حملة فيغيرها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسبب ميلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخييل ، وإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطعها ؟ فعند ذلك تنبعث الرغبة وينجزم الأمر على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض ، والشأن العظيم الخالى عن التكدر والتنغيص والأمر السالم الخالى عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليه نفسك ولا تتيسر لك المعاودة ؛ فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعى قريبا من ستة أشهر : أولها رجب من سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطييباً للقلوب المختلفة إلى فكان لاينطق لسانى بكلمة ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قوة الهضم ومرى الطعام والشراب ، وكان لا تنساغ لى شربة ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا أن يتروح السر عن الهم المهم ؛ ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لا حيلة له فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبى الإعراض عن المال والجاه والأهل والأولاد ، وأظهرت غرض الخروج إلى مكة وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام ، حذرا من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على غرضى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبدا ، واستهزأ بى أئمة العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينيا ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات ، فظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجاجهم فى التعلق بى والإنكار على وإعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هذا أمر سماوى ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العلم ، ففارقت بغداد وفارقت ما كان معى من مالى ولم أدخر من ذلك إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفا على المسلمين ، ولم أر فى العالم ما يأخذ العالم لعياله أصلح منه ، ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريباً من سنتين لاشغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسى ، ثم تحرك بى داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة النبى صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، وثم صرت إلى الحجاز ، ثم جذبتنى الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، وعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه ، وآثرت العزلة حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغير فى وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لى الحال إلا فى أوقات متفرقة ، لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى عنها فيدفعنى عنها العوائق

وأعود إليها ، ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى ينبغى أن نذكره لينتفع به أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، وبالجملة ماذا يقول القائل فى طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحرم فى الصلاة استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى ، وهو أقواها بالإضافة إلى ما تحت الاختيار . انتهى .

قال العراقى : فلما نفذت كلمته وبعد صيته وعلت منزلته وشدت إليه الرحال وأذعنت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا واشتاقت إلى الأخرى ، فاطرحها وسعى فى طلب الباقية ، وكذلك النفوس الزكية ، كما قال عمر بن عبد العزيز . إن لى نفساً تواقة : لما نالت الدنيا تاقت إلى الآخرة . قال بعض العلماء : رأيت الغزالى رضى الله عنه فى البرية وعليه مرقعة وبيده عكاز وركوة ، فقلت له : يا إمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا ؟ فنظر إلى شزراً وقال : لما بزغ بدر السعادة فى فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل :

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل ٭ وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتنى الأشواق مهلا فهذه ٭ منازل من تهوى رويدك فانزل

﴿ انتهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه ﴾

كتاب الإملاء فى إشكالات الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ماخصص وعمم ، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والعجم ، وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكرم .

سألت ـ يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الولاية تحل معاليها ـ عن بعض ماوقع فى الإملاء الملقب بالإحياء بما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ، ولم يفز بشىء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطغام وأمثال الأنعام ، وأجماع العوام وسفهاء الأحلام وذعار أهل الأسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومنابذته ، ونسبوا مميليه إلى ضلال وإضلال ، ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة واختلال ، فإلى الله انصرافهم ومآبهم ، وعليه فى العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسئلون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولكن الظالمون فى شقاق بعيد ، ولا عجب فقد ثوى أدلاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، ولم يبق فى الغالب إلا أهل الزور والفسوق ، متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة ، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، متعاطين لحجج غير صادقة ؛ كل ذلك لطلب الدنيا أومحبة ثناء أومغالبة نظراء ، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر ، وتآلفوا جميعاً على المنكر ، وعدمت النصائح بينهم فى الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر ؛ إن نصحتهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ؛ أولئك الجهال فى علمهم، الفقراء فى طولهم ، البخلاء عن الله عزوجل بأنفسهم ، لايفلحون ولاينجح تابعهم ، ولذلك لاتظهر عليهم مواريث الصدق ، ولاتسطع حولهم أنوار الولاية ، ولاتخفق لديهم أعلام المعرفة ، ولايستر عوراتهم لباس الخشية ، لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ، ومراتب النجباء وخصوصية البدلاء ، وكرامة الأوتاد وفوائد الأقطاب ، وفى هذه أسباب السعادة وتتمة الطهارة ، لوعرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق وعلموا علة أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوة ، ولكن ليس هذا من بضائعهم ، حجبوا عن الحقيقة بأربع : بالجهل ، والإصرار ، ومحبة الدنيا ، وإظهار الدعوى . فالجهل أورثهم السخف ، والإصرار أورثهم التهاون ، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والإعجاب والرياء ﴿والله من ورائهم محيط﴾ ﴿وهو على كل شىء شهيد﴾ فلا يغرنك ـ أعاذنا الله وإياك من أحوالهم ـ شأنهم ، ولايذهلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم ، ولا يغوينك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم ، فكأن قد جمع الخلائق فى صعيد ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ وتلا ﴿ لقد كنت غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ فياله من موقف قد أذهل ذوى العقول عن القال والقيل ، ومتابعة الأباطيل ؛ فأعرض عن الجاهلين ، ولاتطع كل أفاك أثيم ﴿ وإن كان كبر عليك

إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ ﴿فاصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ ﴿كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ ولقد أجبناك ـ بحول الله وقوته وبعد استخارته ـ عما سألت عنه وخاصة ما زعمت فيه من تخصيص الكلام بالمثل الذى ذكر فيه الأقلام ، إذ قد اتفق أن يكون أشهر ما فى الكتاب وأكثر تصرفا على ألسنة الصدور والأصحاب ، حتى لقد صار المثل المذكور فى المجالس تحية الداخل وحديث الجالس ، فساعدتنا أمنيتك ، ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى إملائنا هذا بيانا غيره مما عدوه مشكلا ، وصار لعقولهم الضعيفة مخبلا ومضللا ، ونحن نستعيذ بالله من الشيطان ؛ ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان ونتضرع إليه فى المزيد من الإحسان ، إنه الجواد المنان .

ذكر مراسم الأسـئلة فى المثل

ذكرت ـ رزقك الله ذكره وجعلك تعقل نهيه وأمره ـ كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ، ولفظة التوحيد تنافى التقسيم فى المشهود كما ينافى التكرير التعديد وإن صح انقسامه على وجه لا يندفع ، فهل تصح القسمة فيما يوجد أو فيما يقدر ، ورغبت من مزيد البيان فى تحقيق كل مرتبة ، وانقسام طبقات أهلها فيها إن كان يقع بينهم التفاوت ، وما وجه تمثيلها بالجوز فى القشور واللبوب ؟ ولم كان الأول لا ينفع والآخر الذى هو الرابع لا يحل إفشاؤه ؟ وما معنى قول أهل هذا الشأن : إفشاء سر الربوبية كفر ؟ أين أصل ما قالوه فى الشرع ؛ إذ الإيمان والكفر والهداية والضلال والتقريب والتبعيد والصديقية وسائر مقامات الولاية ودركات المخالفة إنما هى مآخذ شرعية وأحكام نبوية ، وكيف يتصور مخاطبة العقلاء الجمادات ؟ ومخاطبة الجمادات العقلاء ؟ وبماذا تسمع تلك المخاطبة ؟ أبحاسة الآذان أم بسمع القلب ! وما الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلهى ؟ وما حد عالم الملك وعالم الجبروت وحد عالم الملكوت ؟ وما معنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته : وما الفرق بين الصورة الظاهرة التى يكون معتقدها منزها مجللا ؟ وما معنى الطريق فى ﴿إنك بالوادى المقدس طوى﴾ ولعله ببغداد أو أصفهان أو نيسابور أو طبرستان فى غير الوادى الذى سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، وما معنى فاستمع بسر قليل لما يوحى ؟ وهل يكون سماع القلب بغير سره ؟ وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبى ؟ أذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص ، ومن له بالتسلق إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الإله وإن كان على سبيل التخصيص ، والنبوة ليست محجورة على أحد إلا على من قصر عن سلوك تلك الطريق ، وما يسمع فى النداء إذا سمع هل أسمع موسى أو أسمع نفسه ؟ وما معنى الأمر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونهيه على أن يتخطى رقاب الصديقين ؟ وما الذى أوصله إلى مقامهم وهو فى المرتبة الثالثة وهى توحيد المقربين ؟ وما معنى انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق ؟ وإلى أين وجهته فى الانصراف وكيف صفة انصرافه ؟ وما الذى يمنعه من البقاء فى الموضع الذى وصل إليه وهو أرفع من الذى خلفه ؟ وأين هذا من قول أبى سليمان الدارانى المذكور فى غير الإحياء : لو وصلوا ما رجعوا ، ما وصل من رجع ؟ وما معنى بأن ليس فى الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكمل صنعا ولو كان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلا يناقض الجود وعجزاً يناقض القدرة الإلهية ؟ وما حكم هذه العلوم المكنونة هل طلبها فرض أو مندوب إليه أو غير ذلك ؟ ولم كسيت المشكل من الألفاظ واللغز من العبارات ؟ وإن جاز ذلك للشارع فيما له أن يختبر به ويمتحن ، فما بال من ليس شارعا ؟ انتهى جملة مراسم الأسئلة فى المثل .

فأسأل الله تعالى أن يملى علينا ما هو الحق عنده فى ذلك ، وأن يجرى على ألسنتنا ما يستضاء به فى ظلمات المسالك ، وأن يعم بنفعه أهل المبادى والمدارك ، ثم لابد أن أمهد مقدمة ، وأؤكد قاعدة ، وأؤكد وصية .

أما المقدمة فالغرض بها تبيين عبارات انفرد بها أرباب الطريق تغمض معانيها على أهل القصور فنذكر ما يغمض منها

ونذكر المقصد بها عندهم ، فرب واقف على مايكون من كلامنا مختصا بهذا الفن فى هذا وغيره فيتوقف عليه فهم معناه من جهة اللفظ .

وأما القاعدة فنذكر فيها الاسم الذى يكون سلوكنا فى هذه العلوم عليه ، والسمت الذى ننوى بمقصدنا إليه ؛ ليكون ذلك أقرب على المتأمل وأسهل على الناظر المتفهم .

وأما الوصية ، فنقصد بها تعريف ماعلى من نظر فى كلام الناس وأخذ نفسه بالاطلاع على أغراضهم فيما ألفوه من تصانيفهم ، وكيف يكون نظره فيها واطلاعه عليها واقتباسه منها ، فنذكر ما أوكد عليه أن يتعلمه من ظهورها فشردوا عنها وغلقت فى وجوههم الأبواب وأسدل دونهم الحجاب ، ولو أتوها من أبوابها بالترحيب وولجوا على الرضا بالحبيب لكشف لهم كثير من حجب الغيوب ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

المقدمـــــة

اعلم أن الألفاظ المستعملة منها مايستعمله الجماهير والعموم ، ومنها مايستعمله أرباب الصنائع ؛ والصنائع على ضربين : علمية ، وعملية ؛ فالعملية كالمهن والحرف ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاتهم ، ويتعاطون أصول صناعتهم . والعلمية هى العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة بما تحرر من الموازين ، ولأهل كل علم أيضا ألفاظ اختصوا بها لايشاركهم فيها غيرهم إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد ، وتكون المشاركة إذا اتفقت إما فى صورة اللفظ دون المعنى ، أو فى المعنى وصورة اللفظ جميعا ، وهذا يعرفه من بحث عن مجارى الألفاظ عند الجمهور وأرباب الصنائع ، وإنما سمينا من العلوم صنائع ماقصد فيها التصنع بالترتيب فى التقسيم واختيار لفظ دون غيره وحده بطرفين : مبدإ ، وغاية ؛ ومالم يكن كذلك فلا نسميه صناعة كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضى الله عنهم ، فإنهم لم يكونوا فيما عندهم من العلم على طريق من بعدهم ، ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذى هو عند من خلفهم ، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها لانسميها عندهم صناعة ، ونسميها بذلك عند ضبطها بما اشتهر من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب ، ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسمين بالسادة ، والملقبين بالصوفية والمتشبهين بالفقراء ، والمعروفين بالرقة ، والمعزى إليهم العلم والعمل : ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها فيما يتذاكرون أو يذكرونه ، ونحن إن شاء الله نذكر مايغمض منها ، إذ قد يقع منا عندما نذكر شيئا من علومهم ونشير إلى غرض من أغراضهم ؛ فلم نر أن يكون ذلك بغير ماعرف من ألفاظهم وعباراتهم ، ولا حرج فى ذلك عقلا وشرعا ، ونحن نحكم مصرف التقدير وهو على كل شيء قدير .

فمن ذلك السفر ، والسالك ، والمسافر ، والحال ، والمقام ، والمكان ، والشطح ، والطوالع ، والذهاب ، والنفس ، والسر ، والوصل ، والفصل ، والأدب ، والرياضة ، والتحلى ، والتخلى ، والتجلى ، والعلة ، والانزعاج ، والمشاهدة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والتلوين ، والغيرة ، والحرية ، واللطيفة ، والفتوح ، والوسم ، والرسم ، والبسط ، والقبض ، والفناء ، والبقاء ، والجمع ، والتفرقة ، وعين التحكم والزوائد ، والإرادة ، والمريد ، والمراد ، والهمة ، والغربة ، والمكر ، والاصطلام ، والرغبة ، والرهبة ، والوجد ، والوجود ، والتواجد .

فنذكر شرح هذه على أوجز ماتمكن بمشيئة الله تعالى ، وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم فى علومهم أكثر مما ذكرنا ؛ فإنما قصدنا أن نريك منها أنموذجا ودستورا تتعلق به إذا طرأ عليك مالم نذكره لك ههنا ، إذ لها مبحث وإليها سبيل ، فتطلبه بعد ذلك على وجهه .

فأما السفر والطريق ؛ فالمراد بها سفر القلب بآلة الفكر فى طريق المعقولات ، وعلى ذلك ابتنى لفظ السالك والمسافر فى لغتهم ، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التى بها يقطع مسافات الأجسام ، فإن ذلك مما شاركه فيه البهائم والأنعام . وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عز وجل معرفة قواعد الشرع وخرق حجب الأمر والنهى ، وتعلق

الغرض فيها والمراد بها ومنها ، فإذا خلفوا نواحيها وقطعوا معاطبها ، أشرفوا على مفاوز أوسع ، وبرزت لهم مهامه أعرض وأطول : من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية : النفس والعدو والدنيا ؛ فإذا تخلصوا من أوعارها أشرفوا على غيرها أعظم منها فى الانتساب ، وأعرض بغير حساب : من ذلك سر القدر وكيف خفى بحكم فى الخلائق وقادهم بلطف فى عنف ، وشدة فى لين ، وبقوة فى ضعف ، وباختيار فى جبر ، إلى ما هو فى مجاريه لا يخرج المخلوقون عنه طرفة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه ، والاشراف على الملكوت الأعظم ورؤية عجائب ومشاهدة غرائب : مثل العلم الإلهى ، واللوح المحفوظ ، والمبين الكاتبة وملائكة الله يطوفون حول العرش وبالبيت المعمور وهم يسبحونه ويقدسونه ، وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم التخطى منها إلى معرفة الخالق للكل والمالك للجميع والقادر على كل شىء ، فتغشاهم الأنوار المحرقة ، ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة فيعلمون الصفات ويشاهدون الموصوف ، ويحجبون حيث غاب أهل الدعوى ، ويبصرون ما عمى عنه أولو الأبصار الضعيفة بحجب الهوى .

والحال : منزلة العبد فى الحين فيصفو له فى الوقت حاله ووقته . وقيل :

هو ما يتحول فيه العبد ويتغير بما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال . وقال بعضهم : الحال لا يزول ، فإذا زال لم يكن حالا .

والمقام : هو الذى يقوم به العبد فى الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات ، فمتى أقيم العبد بشىء منها على التمام والكمال فهو مقامه حتى ينقل منه إلى غيره .

والمكان : هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية ، فإذا كمل العبد فى معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم .

مقامك من قلبى هو القلب كله ٭ فليس لشىء فيه غيرك موضع

والشطح : كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى ، إلا أن يكون صاحبه محفوظا .

والطوالع : أنوار التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها ونورها فيطمس سلطان نورها الأنوار ، كما أن نور الشمس يمحو أنوار الكواكب .

والذهاب : هو أن يغيب القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبها .

والنفس : روح سلطه الله على نار القلب ليطفئ شرها

والسر : ما خفى عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق . وسر السر : ما لا يحس به السر ، والسر ثلاثة : سر العلم ، وسر الحال ، وسر الحقيقة ، فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل ، وسر الحال معرفة مراد الله فى الحال من الله ، وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة .

والوصل : إدراك الفائت . والفصل : فوت ما ترجوه من محبوبك .

والأدب ثلاثة : أدب الشريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة ، والثانى أدب الخدمة وهو التشمر عن العلامات والتجرد عن الملاحظات ، والثالث أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة .

والرياضة اثنان : رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس ، ورياضة الطلب وهو صحة المراد .

والتحلى : التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال . والتخلى : اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق . والتجلى : هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب .

والعلة تنبه عن الحق . والانزعاج انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للأنس والوحدة .

والمشاهدة ثلاثة : مشاهدة بالحق وهى رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، ومشاهدة للحق وهى رؤية الحق فى الأشياء ، ومشاهدة الحق وهى حقيقة اليقين بلا ارتياب .

والمكاشفة أتم من المشاهدة وهى ثلاث : مكاشفة بالعلم وهى تحقيق الإصابة بالفهم ، ومكاشفة بالحال وهى تحقيق رؤية زيادة الحال ، ومكاشفة بالتوحيد وهى تحقيق صحة الإشارة .

واللوائح : مايلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من السمو من حالة إلى حالة أتم منها ، والارتقاء من درجة إلى ماهو أعلى منها .

والتلوين : تلوين العبد فى أحواله . وقالت طائفة : علامة الحقيقة رفع التلوين بظهور الاستقامة . وقال آخرون : علامة الحقيقة التلوين لأنه يظهر فيه قدرة القادر فيكسب منه العبد الغيرة .

والغيرة غيرة فى الحق ، وغيرة على الحق ، وغيرة من الحق ؛ فالغيرة فى الحق برؤية الفواحش والمناهى ، وغيرة على الحق هى كتمان السرائر ، والغيرة من الحق ضنه على أوليائه .

والحرية : إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبداً وعند غيره حراً .

واللطيفة : إشارة دقيقة المعنى تلوح فى الفهم ولا تسعها العبارة .

والفتوح ثلاثة : فتوح العبادة فى الظاهر وذلك سبب اخلاص القصد ، وفتوح الحلاوة فى الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطافه ، وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق .

والوسم والرسم : معنيان يجريان فى الأبد بما جريا فى الأزل .

والبسط عبارة عن حال الرجاء . والقبض : عبارة عن حال الخوف .

والفناء : فناء المعاصى ، ويكون فناء رؤية العبد لفعله بقيام الله تعالى على ذلك . والبقاء : بقاء الطاعات ويكون بقاء رؤية العبد قيام الله سبحانه على كل شىء .

والجمع : التسوية فى أصل الخلق . وعن آخرين : معناه إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق . والتفرقة : إشارة إلى اللون والخلق ، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد البارى سبحانه ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر ، فإذا جمع بينهما فقد وحد .

وعين التحلى : إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط فى الدعاء .

والزوائد : زيادات الإيمان بالغيب واليقين .

والإرادات ثلاثة : إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى وذلك موضع التمنى ، وإرادة الحظ منه وذلك موضع الطمع ، وإرادة الله سبحانه وتعالى وذلك موضع الإخلاص . والمريد : هو الذى صح له الابتلاء ودخل فى جملة المنقطعين إلى الله عز وجل بالاسم . والمراد : هو العارف الذى لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغير الأحوال والمقامات

والهمة ثلاثة : همة منية وهى تحرك القلب للمنى ، وهمة إرادة وهى أول صدق المريد ، وهمة حقيقة القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل ، فإن المراد إد والخطب جد ، والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة ، والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم . والطريق سد . وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد . وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد ؛ فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون . وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان . وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً . حتى ظل علم الدين مندرساً ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمساً . ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام . أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام . أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام . إذ لم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام ؛ فأما علم طريق الآخرة : هو مادرج عليه السلف الصالح وهى جمع الهمم بصفاء الإلهام .

والغربة ثلاثة : غربة عن الأوطان من أجل حقيقة القصد . وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال ،

وغيبة عن الحق من حقيقة الدهش عن المعرفة . والاصطلام : نعت وله يرد على القلوب بقوة سلطان فيستكنها
والمكر ثلاثة : مكر عموم وهو الظاهر فى بعض الأحوال ، ومكر خصوص وهو فى سائر الأحوال ، ومكر خفى فى إظهار الآيات والكرامات .
والرغبة ثلاثة : رغبة النفس فى الثواب ، ورغبة القلب فى الحقيقة ، ورغبة السر فى الحق .
والرهبة : رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق .
والوجد : مصادفة القلب بصفاء ذكر كان قد فقده .
والوجود : تمام وجد الواجدين ، وهو أتم الوجد عندهم . وسئل بعضهم عن الوجد والوجود فقال : الوجد ماتطلبه فتجده بكسبك واجتهادك ، والوجود ماتجده من الله الكريم ، والوجد عن غير تمكين ، والوجود مع التمكين
والتواجد : استدعاء الوجد والتشبه فى تكلفه بالصادقين من أهل الوجد .

القاعـــدة

وأما القاعدة التى ينبنى عليها هذا الفن بأسره فذلك اجتذاب أرواح المعانى ، والإشارة إلى البعد فى القرب وقصد الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى قصداً ذاتياً ، لا على ماسلكه أرباب علوم الظاهر ، ثم التصديق بالقوة والنظر إلى الملكوت من كوة ، ومعرفة العلوم فى الانصراف ، ومصاحبة القدر بالمساعدة وبالمعروف ومعاطاة الوجودات الخمس : الذاتى والحسى والخيالى والعقلى والشبهى حسبما فهم من الشرع وثبت معناه فى المحفوظ من الوحى ، وقلما أدرك شىء من العجز والعلم لا ينال براحة الجسم ، ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾ ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ .

والوصية

أيها الطالب للعلوم والناظر فى التصانيف والمستشرف على كلام الناس وكتب الحكمة : ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله ولله وفى الله ، لأنه إن لم يكن نظرك به وكلك إلى نفسك أو إلى من جعلت نظرك به أياً كان غيره من فهم أو علم أو حفظ أو إمام متبع أو صحبة معين أو ماشاكل ذلك ، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار عليك لغيره ونكصت على عقبيك وخسرت فى الدارين صفقتك ، وعاد كل هول عليك ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبت معه غيره ولاحظت بالحقيقة سواه ، ورؤية غيره دونه تعمى القلب وتهتك الستر وتحجب اللب . وإذا نظرت فى كلام أحد من الناس ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن يستغنى عنه فى الظاهر وله إليه كثير حاجة فى الباطن ، ولا تقف به حيث وقف به كلامه ؛ فالمعانى أوسع من العبارات ، والصدور أفسح من الكتب المؤلفات ، وكثير علم مما لم يعبر عنه ، واطمح بنظر قلبك فى كلامه إلى غاية ما يحتمل فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصد ولا تقطع له بصحة ولا تحكم عليه بفساد ، وليكن تحسين النظر أغلب عليك فيه حتى يزول الإشكال عنك بما تتيقن من معانيه . وإذا رأيت له حسنة وسيئة فانشر الحسنة واطلب المعاذير للسيئة ، ولاتكن كالذبابة تنزل على أقذر ماتجده ، ولا تعجل على أحد بالتخطئة ولاتبادر بالتجهيل فربما عاد عليك ذلك وأنت لاتشعر ، فلكل عالم عورة وله فى بعض ما يأتى به احتجاج . وناهيك ماجرى بين ولى الله تعالى الخضر وكليمه موسى على نبينا وعليهما السلام . وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن فى الظاهر بمحال أو اختلال ، فخذ ماظهر لك عليه ودع ما اعتاص عليك فهمه وكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، فهذه وصيتى لك فاحفظها وتذكيرى إياك فلا تذهل عنه :

اسمع وصيتى إن تحفظ حظيت بها وإن تخالف فقد يردى بك الخلف

وأزيدك زيادة تقتضى التعريف بأصناف العلماء لكى تعرف أهل الحقيقة من غيرهم ، فلك فى ذلك أكبر منفعة ولى

فى وصفهم أبلغ غرض . قال علماؤنا : العلماء ثلاثة : حجة ، وحجاج ، ومحجوج ؛ فالحجة : عالم بالله وبأمره وبآياته مهتما بالخشية لله سبحانه ، والورع فى الدين والزهد فى الدنيا والإيثار لله عزوجل المستقيم . والحجاج : مدفوع إلى إقامة الحجة وإطفاء نار البدعة قدأخرس المتكلمين وأفحم المتخرصين ، برهانه ساطع ، وبيانه قاطع ، وحفظه ماينازع شواهده بينة ونجومه نيرة ، قد حمى صراط الله المستقيم : والمحجوج : عالم بالله وبأمره وبآياته ، ولكنه فقد الخشية لله برؤيته لنفسه ، وحجبه عن الورع والزهد والرغبة والحرص ؛ وبعده من بركات علمه محبة العلو والشرف ، وخوف السقوط والفقر ، فهو عبد لعبيد الدنيا ، خادم لخدمها ، مفتون بعد علمه ، مغتر بعد معرفته، مخذول بعد نصرته شأنه الاحتقار لنعم الله ، والازدراء لأوليائه ، والاستخلاف بالجهال من عباده ، ونخره بلقاء أميره وصلة سلطانه، وطاعة القاضى والوزير والحاجب له قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه والاتباع له ومن يكون بعده قدوة به ومراده من الدنيا مثله ، فى مثل هذا ضرب الله المثل حين قال ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ فويل لمن صحب مثل هذا فى دنياه ، وويل لمن تبعه فى دينه ، وهذا هو الذى أكل بدينه غير منصف لله سبحانه فى نفسه ولا ناصح له فى عباده ، تراه إن أعطى من الدنيا رضى بالمدحة لمن أعطاه ، وإن منع رش بالذم لمن منعه ، وقد نسى من قسم الأرزاق وقدر الأقدار وأجرى الأسباب وفرغ من الخلق كلهم ، فنعوذ بالله من الحور بعد الكور ، ومن الضلالة بعد الهدى . وإنما زدتك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذى نحن فيه فقصدى أن يعلم من ذهب من الناس ومن يبق ، ومن أبصر الحقائق ومن عمى ، ومن اهتدى على الصراط المستقيم ومن غوى فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا وإن كان بقى منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولا مدرك بالملاحظة

غاب الذين إذا ماحدثوا صدقوا وظنهم كيقين إن همو حدسوا

وذلك لما سبق فى القضاء من ظهور الفساد وعدم أهل الصلاح والرشاد ، نعم وعدم الصنف الثالث على غربته وأعز شىء على وجه الأرض ؛ وفى الغالب مايقع عليه فى الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به ، وإنما الموجود اليوم أهل مخافة ودعوى وحماقة واجتراء وعجب بغير فضيلة ورياء ؛ يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وهم أكثر من عمر الأرض وصيروا أنفسهم أوتاد البلاد وأرسان العوام ؛ وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق ؛ وأخدان لعوائد السوء وعنهم يرد عتب الحكم الشائعة وانتقاض أهل الارادة والدين :

مثل البهائم جهال بخالقهم لهم تصاوير لم يعرف لهن حجا
كل يروم على مقدار حيلته زوائر الأسد والنباحة اللهثا

فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ؛ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون :

أولو النفاق فإن قلت اصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت اكذبوا صدقوا

ولنأخذ فى جواب ما سألت عنه على نحو مارغبت فيه ، وأستوهب الله نفوذ البصيرة وحسن السريرة وغفران الجريرة ؛ وهو ربى ورب كل شىء وإليه المصير

ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة

جرى الرسم فى الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب تشبيها لموافقة الغرض فى التمثيل به وذكرت أن المعترض وسوس أو بالخواطر هجس بأن لفظ التوحيد ينافى التقسيم إذ لايخلو بأن يتعلق بوصف الواحد الذى ليس بزائد عليه فذلك لاينقسم لا بالجنس ولا بالفصل ولا بغير ذلك . وإما أن يتعلق بوصف المكلفين الذين توجب لهم حكمه إذا وجد فيهم ؛ فذلك أيضاً لاينقسم من حيث انتسابهم إليه بالعقل ، وذلك لضيق المجال فيه ؛ ولهذا

لايتصور فيه مذاهب ، وإنما التوحيد مسلك حق بين مسلكين باطلين : أحدهما الشرك ، والثانى الإلباس ، وكلا الطرفين كفر ؛ والوسط إيمان محض ، وهو أحد من السيف وأضيق من خط الظل ، ولهذا قال أكثر المتكلمين بتماثل إيمان جميع المؤمنين والملائكة والنبيين والمرسلين وسائر عموم المرسلين ؛ وإنما تختلف طرق إيمانهم التى هى علومهم . ومذهبهم فى ذلك معروف ، ونحن لا نلم فى هذه الإجابة كلها بشىء من أنحاء الجدال ومقابلة الأقوال بالأقوال ، بل بقصد إزالة غير الاشكال ورد ما طعن به أهل الضلال والاضلال .

واعلم أن التقسيم على الاطلاق يستعمل على أنحاء يتوجه ههنا بشىء قدح به المعترض أو هجس به الخاطر ، وإنما المستعمل ههنا من أنحائه ماتتميز به بعض الأشخاص بما اختصت به من الأحوال ، وكل حالة منها تسمى توحيدا على جهة تفرد بها لا يشاركها فيها غيرها ، فمن وجد التوحيد بلسانه يسمى لأجله موحدا ما دام يظن أن قلبه موافق للسانه ، وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ماشرع فى الحكم ، ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه والميل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلاعلم يصحبه فيه ولا برهان يربط به سمى أيضا موحدا ، على معنى أنه يعتقد التوحيد كما يسمى من يعتقد مذهب الشافعى شافعيا والحنبلى حنبليا ، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده وسمى من أجله بشكوكه العارضة له فيسمى موحدا لأنه عارف به ، يقال جدلى ونحوى وفقيه ، ومعناه يعرف الجدل والفقه والنحو ، وأما من استغرق علم التوحيد قلبه ، واستولى على جملته حتى لا يجد فيه فضلا لغيره إلاعلى طريق التبعية له ، ويكون شهود التوحيد لكل ماعداه سابقا لجميع الذكر والفكر مصاحبا من غير أن يعتريه ذهول ولا نسيان له لأجل اشتغاله بغيره كالعادة فى سائر العلوم ؛ فهذا يسمى موحدا ويكون القصد بالاسم من ذلك المبالغة فيه .

فأما الصنف الأول وهم أرباب النطق المنفرد فلايضربون فى التوحيد بسهم ولا يفوزون منه بنصيب ولا يكون لهم شىء من أحكام أهله فى الحياة ، إلا مادام الظن بهم أن قلب أحدهم موافق للسانه ، كما نفرد القول عليه بعد هذا إن شاءالله عز وجل .

وأماالصنف الثانى وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبى صلىالله عليه وسلم أوالوارث أوالمبلغ يخبر عن توحيد الله عزوجل أو يأمر به ويلزم البشر قول لا إله إلا الله المنبىء عنه ، فقبلوا ذلك واعتقدوه على الجملة من غير تفصيل ولا دليل ، فنسبوا إلى التوحيد وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذى هو منهم ، وبمنزلة « من كثر سواد قوم فهو منهم » .

وأما الصنف الثالث والرابع فهم أرباب البصائر السليمة الذين نظروا بها إلى أنفسهم ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها فرأوا على كل منها خطا منطبعا فيها ليس بعربى ولاسريانى ولاعبرانى ولاغير ذلك من أجناس الخطوط ، فبادر إلى قراءة من لم يستعجم عليه وتعلمه منهم من استعجم عليه ، فإذا هو الخط الالهى المكتوب على صفحة كل مخلوق المنطبع فيه من مركب ومفرد وصفة وموصوف وحى وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن ومظلم ونير ، وهو الذى يسمى تارة بعلامة وتارة بسمة وتارة بأثر القدرة وتارة بآية ، كما قال الشاعر ، ولا أدرى عن سماع أو رؤية قلب :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

فلو قرءوا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه وشرحه أبدية مالكه والتصريف له بالقدرة على حكم الارادة بماسبق فى ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير ؛ فتركوا الكتابة والمكتوب وترقوا إلى معرفة الكاتب الذى أحدث الأشياء وكونها ولايخرج عن ملكه شىء منها ، ولااستغنت بأنفسها عن حوله وقوته ، ولاانتقلت إلى الحرية عن رق استعباده ، فوجدوه كما وصف نفسه ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ فخلصت لهم التفرقة والجمع وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها بإذنه وإيجاده عن غيره ، وعقلت أنها عقلت توحيده فسبحان من يسرها لذلك وفتح عليها بما ليس فى وسعها أن تدركه إلابه وهو اللطيف الخبير ، لكن الصنف الثالث لم يقتصر كل منهم أن

يعرف نفسه موجدا لديه فيما لايزال وهم المقربون ، والصنف الرابع لم يقصر كل واحد منهم أن عرف ربه موجدا لنفسه فيما لم يزل وهم الصديقون ، وبينهما تفاوت كثير .

وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم فلأن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده ؛ فأما من عدمت عنده فهو كافر إن كان فى زمن الدعوة أو على قرب يمكن وصول علمها إليه أو فى فترة يتوجه عليه فيها التكليف ، وهذا صنف مبعد عن مقام هذا الكلام . وأما من يوجد عنده فلا يخلو أن يكون مقلدا فى عقده أو عالما به ، والمقلدون هم العوام وهم أهل المرتبة الثانية فى الكتاب ؛ فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التى أعدت لصنفه دون النبوة ، أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ ، فالذى لم يبلغ وكان على قرب هم المقربون وهم أهل المرتبة الثالثة ، والذين بلغوا الغاية التى أعدت لهم وهم الصديقون وهم أهل المرتبة الرابعة ، وهذا التقسيم ظاهر الصحة ، إذ هو دائر بين النفى والإثبات ، ومحصور بين المبادئ والغايات ، ولم يدخل أهل المرتبة الاولى فى شىء من تصحيح هذا التقسيم ، إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ودعوى غير صافية ، ثم لابد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث ومزيد شرح وبسط بيان تعرف منه بإذن الله حقيقة كل مرتبة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والإمكان بما يجرى به الواحد الحق على القلب واللسان .

بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم

فأقول : أرباب النطق المجرد أربعة أصناف : أحدهم نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم لم يعتقدوا معنى ما نطقوا به لما لم يعلموه لا يتصورون صحته ولا فساده ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأه ولا صوابه ، إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه إما لبعد همتهم وقلة اكتراثهم ، وإما لنفورهم من التعب وخوفهم أن يكلفوا البحث عما نطقوا به أو يبدو لهم ما يلزمهم من الاعتقاد والعمل ، وما بعد ذلك ، فإن التزموها فارقوا راحات أبدانهم العاجلة وفراغ أنفسهم ، وإن لم يلتزموا شيئا من ذلك وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منغصة وملاذهم مكدرة من خوف عقاب ترك ما علموا لزومه ، ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب أو يعرض عليه ولكنه يمنعه عنه مخافة أن يتطلع منه على ما يغير عنه بعض ملاذه من الأطعمة والأشربة والأنكحة أو كثير منها ، فيحتاج إلى أن يتركها أو يرتكبها على رقبه وخوف أن يصيبه صورة ما يعلم ضرورة منها فيدع قراءة الطب رأسا . سئل هذا الصنف عن معنى ما نطقوا به وهل اعتقدوه فيقولون لا نعلم فيه ما يعتقد ، وما دعانا النطق إلا مساعدة الجماهير وانخراطا بإظهار القول فى الجم الغفير ولا نعرف هل ما قلناه بالحقيقة من قبل العرف والنكير ولا شك أن هذا الصنف الذى أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بمسألة الملكين أحدهم فى القبر ، إذ يقولون : من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فيقول لا أدرى سمعت الناس يقولون قولا فقلته فيقولان له لا دريت ولا تليت ، وسماه النبى صلى الله عليه وسلم الشاك والمرتاب . والصنف الثانى نطق كما نطق الذين من قبلهم ولكنهم أضافوا إلى قولهم ما لا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد ، وذلك مثل ما قالت السبابية طائفة من الشيعة القدماء ـ إن عليا هو الإله وبلغ أمرهم عليا رضى الله عنه ، وكانوا فى زمنه ، لحرق منهم جماعة ، وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ثم أصحاب نطقة مثل هذا النكير ويسمون الزنادقة ، وقد رأينا حديثا عنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى الجنة إلا الزنادقة » . والصنف الثالث : نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ولكنهم آثروا التكذيب واعتقدوا الرد ، واستبطنوا خلاف ما ظهر منهم من الإقرار ، وإذا رجعوا إلى أهل الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر ؛ فهؤلاء المنافقون الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله : ﴿ وإذا لقوا الذين قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ٥ الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ . الصنف الرابع قوم لم يعرفوا التوحيد وما نشأوا عليه ، ولا عرفوا أهله ، ولا سكنوا بين أظهرهم ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحد منا خوطبوا بالأمر المقتضى للنطق بالشهادتين والإقرار بهما ، فقالوا : لا نعلم

مقتضى هذا اللفظ ولا نعقل معنى المأمور به من النطق ، فأمروا أن يظهروا الرضا ويفهموا بلا مهلة، فسكنوا إلى ما قيل لهم ونطقوا بالشهادتين ظاهرا وهم على الجهل بما يعتقدون فيها ، فاخترم أحدهم من حينه من قبل أن يأتى منه استفهام أو تصور يمكن أن تكون له معه معتقد فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عز وجل، والحكم عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار تحكم على غيب الله سبحانه ، وربما كان من هذا الصنف فى الحكم عند الله عز وجل قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الذهن وفرط البلادة أن يدعوا إلى هذا النطق فيجيبوا مساعدة ومحاذاة ثم يدعون إلى تفهم المعنى بكل وجه فلا يتأتى منهم قبول لما يعرض عليهم تفهمه كأنما تخاطب بهيمة ، ومثل هذا أيضا فى الوجود كثير ولا أحكم على أحد مثله بخلود فى النار ، ولا يبعد أن هذا الصنف بأسره أعنى المخترم قبل تحصيل العقد مع هذا البليد البعيد بعض ما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته حين يقول تعالى : فرغت شفاعة الملائكة والنبيين وبقيت شفاعتى وهو أرحم الراحمين ، فيخرج من النار أقواما لم يعملوا حسنة قط ويدخلون الجنة ويكون فى أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجل ، والحديث يطول وهو صحيح ، وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على المعنى وحكم الصنف الأول والثانى والثالث أجمعين أن لا يجب لهم حرمة ولا يكون لهم عصمة ولا ينسبون إلى إيمان ولا إسلام ، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة الهالكين ، فإن عثر عليهم فى الدنيا قتلوا فيها بسيوف الموحدين ، وإن لم يعثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون تفلح وجوههم النار وهم فيها كالحون .

(فصل) ولما كان اللفظ المنبىء عن التوحيد إذا انفرد عن العقد وتجرد عنه لم يقع به فى حكم الشرع منفعة ولا لصاحبه بسببه نجاة إلا مدة حياته عن السيف أن يراق دمه ، واليد أن تسلط على ماله إذا لم يعلم خفى حاله حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى فهو لا يحتمل ولا يرفع فى البيوت ولا يحضر فى المجالس أى مجالس الطعام ، ولا تشتهيه النفوس إلا ما دام منطويا على مطعمه صونا على لبه ، فإذا أزيل عنه بكسر أو علم منه أنه منطو على فراغ أو سوس أو طعمه فاسد لا يصلح لشىء ولم يبق فيه غرض لأحد وهذا لا خفاء فى صحته ، والغرض بالتمثيل تقريب ما غمض إلى نفس الطالب وتسهيل ما اعتاص على المتعلم والسامع فهمه ، وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل به من كل وجه ، فكان يكون هو ولكن من شرطه أن يكون مطابقا للواحد المراد منه.

(فصل) فإن قلت فما الذى صد هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر والبحث حتى تعلموا، أو عن الاعتقاد حتى تخلصوا من عذاب الله وهم فى الظاهر قادرون على ذلك ؟ وما المانع الخفى الذى منعهم وأبعدهم عنه وهم يعلمون أن ما عليهم كبير مؤنة ولا عظيم نفقة ؟ فاعلم أن هذا السؤال يفتح بابا عظيما ويهز قاعدة كبيرة يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد . ولكن لا بد إذا وقع فى الأسماع ووعته قلوب الطالبين واشتاقت إلى سماع الجواب عنه أن نورد فى ذلك قدر ما يقع به من الكفاية وتقتنع به النفوس بحول الله وقوته . نعم ما سبق فى العلم القديم لا تجرى بخلافه المقادير . من ذلك فهم بإرادة الله عز وجل جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلابية والشيم الذئابية والطباع السبعية وغلبتها عليهم . والملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب . كذلك قال عليه الصلاة والسلام . والقلوب بيوت تولى الله بناءها بيده وأعدها لأن تكون خزائن علمه ومشارق مكنوناته ومهبط ملائكته ومغاشى أنواره ومهاب نفحاته ومجال مكاشفاته ومجارى رحمته وهيأها لتحصيل المعرفة به فمتى كان فيها شىء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ولم ينزل عليها شىء من الخير من قبله . إذ هى الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه وهم الوفود منه بالخيرات والموصولون إليه وعنه بالباقيات الصالحات . ولولا تلك الأخلاق المذمومة التى حلت فيهم وهى التى ذم الكلب لأجلها لما احترمت الملائكة بإذن الله عن حلولها فيها وهى لا تخلو من خير تنزل به ويكون معها فحيثما حلت حل الخير فى ذلك القلب بحلولها وإنما هى لها فحيثما وجدت قلبا خاليا ولو حينا من الدهر وزمنا نزلت عليه ودخلته وثبتت ما عندها من الخير عنده . فإن لم يظهر على الملائكة ما أزعجها عنه من تلك الأخلاق المذمومة بواسطة الشياطين الذين هم فى مقابلة الملائكة ثبتت عنده وسكنت فيه ولم تبرح عنه وعمرته بقدر سعة البيت وانشراحه من الخير . فإن كان البيت كثير الاتساع

أكثرت فيه من متاعها واستعانت بغيرها حتى يمتلئ البيت من متاعها وجهازها وهو الإيمان بالله والصلاح وضروب المعارف النافعة عند الله عز وجل ، فإذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ليسرق من ذلك الخير الذى هو متاع الملك ويثبت فيه خلقا مذموما لا يوجد إلا فى الكلب وهو متاع الشيطان قاتله الله وطرده عن ذلك المحل ، فإن جاء للشيطان مدد من الهوى من قبل النفس ولم يجد الملك نصره وهو عزم اليقين من قبل الروح ، انهزم الملك وأخلى البيت ونهب المتاع وخرب البيت بعد عمارته وأظلم بعد نوره وضاق بعد انشراحه ، وهكذا حال من آمن وكفر ، وأطاع وعصى ؛ وضل واهتدى .

فإن قلت : فميز لى أصناف هذه الأخلاق المذمومة التى صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم بكشف معانى التوحيد ومنعهم من الحلول فيها حتى لم ينالوا شيئا من الخيرات الكائن معها . فاعلم أن الأخلاق التى لا يجتمع معها الملائكة فى قلب واحد كثيرة والتى فى قلوب هؤلاء منها معظمها وهى الطمع فى غير خطير والحرص على فان حقير . وأما الصنف الأول فإنهم رجعوا وخافوا أن تبدو لهم صحة ما يشغلهم عن لذاتهم وينغص عليهم مارغبوا فيه من راحاتهم وتكدر لديهم منال شهواتهم فأبقوا أمرهم على ماهم عليه. وأما الصنف الثانى والثالث فصدهم أيضا خوف وجزع وحرص على ما ألفوه من تبجيل أحدهم أن يزول ومؤانسة أشياعهم أن تتغير وتذهب ومواساة إيلافهم أن تنقطع واستثقالا لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلتزموه وفرارا من شرائطه وما يصحبه من الأعمال والوظائف إذ يمتثلوه والكلب ماذم لصورته وإنما ذم بهذه الأخلاق التى هى الطمع فى الخسائس والجزع من الصبر على مايعده من الفضائل حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلب .

فإن قلت : فكيف آمن من كفر وأطاع من عصى واهتدى من ضل إذا كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصى والضال بما تثبتون من الأخلاق المذمومة التى هى كلاب نابحة وذئاب عادية وسباع ضارية ؟ وأصناف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة وهى لا تدخل موضعا يحل فيه شىء مما ذكرنا وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذى يكون معها ولم تصل إليه فعلى هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الإيمان على هذا المفهوم . فاعلم أن هذا يستدعى أصنافا من علم القلوب ولا سبيل إلى ذلك فى مثل هذا المقام المعلوم والقول والمعنى فى جواب ماسألت عنه : أن للشيطان غفلات وللأخلاق المذمومة عدمات كما أن الملائكة لها عن القلوب غيبات ولتواتر الخير عليها فترات فإذا وجد الملك كما أعلمتك قلبا خاليا ولوزمنا فر ودخل فيه وأراه ماعنده من الخير فإن صادف منه قبولا ولما عرض عليه من الخير تشوقا ونزوعا أورد عليه مايملأ ويستغرق لبه وإن صادف منه صحوا وسمع منه بجنود الشياطين استغاثة بالأخلاق الكلابية استعانة رحل عنه وتركه ولهذا قيل : ماخلا لب عن لمة ملك أو نزغة شيطان .

فإن قلت : فأى بيت فهم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الخطاب ، وأى كلب أذهل بيت القلب كلب الخلق أو بيت اللبن وكلب الحيوان . فاعلم أن الحديث خارج على سبب ، ومعناه وجملته : أن المقصود بالإخبار هو بيت اللبن ، وكلب الحيوان معلوم ولا يبيتك فى ذلك ، ولكن يستقرأ منه ماقلناه ويستنبط من مفهومه مانبهناك عليه ويتخطى منه إلى ماأشرنا لك نحوه ، ولا تنكر فى ذلك إذا دل عليه العلم وجملة الاستنباط ، ولم تمجه القلوب المستضاءة ، ولم تصادم به شيئا من أركان الشريعة ؛ فلا تكن جاحدا ولا تجزع من تشنيع جاهل ولا من نفور مقلد فكثيرا ماورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى مافى معناه ومشابه له من الجهة التى تصلح أن يعديها إليه ، ولولا ذلك لما قال النبى صلى الله عليه وسلم « رب مبلغ أوعى من سامع وحامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

فإن قلت : فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة » ، وعلم السبب الذى جاء هذا الحديث عليه وفيه ، فهل يعدى عن سببه ويترقى منه إلى مثل ماترقى من الحديث الآخر ؟ فهذا كما قيل : الحديث شجون وأتبعنا هذا الباب مايقرب منه ويبعد علينا التخلص عنه ، نعم يترقى منه إلى قريب من ذلك وشبهه ، ويكون

هذا الحديث منها عليه ، وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت آلهة وعبدت من دون الله عزوجل ، وقد نبه الله عز وجل قلوب المؤمنين على عيب فعل من رضى بذلك ، وتقص إدراك من دان به حين قال مخبرا عن إبراهيم عليه السلام حيث قال ﴿ أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون ﴾ فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ماعبد من دون الله سبحانه ، أو ما حكى به ما هو على مثاله ، ويترقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذى هو بيت بناه الله ليكون مهبطا للملائكة ومحلا للذكرى ومعرفة عبادته وحده دون غيره ؛ فإذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقر به الملائكة أيضا . فإن قيل : فظاهر الحديث يقتضى منافرة الملائكة لكل صورة عموما وماذكرته تعليلا ينبغى أن لا يقتضى إلا منافرة ماعبد أو ما نحت على مثاله ؟ قلنا : تشابهت الصور المنحوتة كلها فى المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله وهو مضارعة ذى الأرواح ، وما نحت للعبادة إنما قصد به تشبيه ذى روح ؛ فلما كان هذا المعنى الجامع لها وجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة .

* فإن قيل : فما وجه الترخيص فيما رقم فى ثوب ؟ فذلك لأنها ليست مقصودة فى نفسها ، وإنما المقصود الثوب الذى رقمت فيه .

* فإن قيل : فما بال الثياب رخص فى محاكاتها بالتصوير وذات أنواط فى العرب مشهورة معلومة ؟ فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة فى أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يوما ما فى السنة فاخر ثيابها وحلى نسائها لأجل اجتماعها عندها ورواحها فى ذلك اليوم ؛ ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام ، ولو كان ذلك ما سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط حتى أنكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعلى رضى الله عنه ، ولم يعبدوا ما نحت على شكل النبات ، فلم تعبد من هذه إلا ذات روح فما أبعد عن دركها من حرمه الله تعالى إياها ، فله الحمد وهو أهله .

بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرد

وأما أهل الاعتقاد المجرد عن تحصينه بالعلم وتوثيقه بالأدلة وشده بالبراهين ، فقد انقسموا فى الوجود إلى ثلاثة أصناف :

أحدهم صنف اعتقدوا مضمون ما أقروا به وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب أسروه فى أنفسهم ، ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على ما اعتقدوا ، وذلك لفرط بعدهم وغلظ طباعهم واعتياص طرق ذلك عليهم ، ويقع عليهم اسم الموحدين ، وتحققنا وجود أمثالهم كثيراً على عهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم والسلف الصالحين رضى الله عنهم ، ثم لم يبلغنا أنه اعترض أحد إسلامهم ولا أوجب عليهم الخروج منه والمعروف عنه . ولا كلفوا مع قصور فهمهم وبعدهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة وقراءة ترك البراهين وترتيب الحجاج ، بل تركوا على ما هم عليه ، وهؤلاء عندى معذورون بعدم مقبولون بما توافوا عليه من إقرارهم وعقدهم ، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ لا يخرجون عن مقتضى هذه الآيات بحال ، وسنبدى لك طريقا من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم وسلامة توحيدهم إن شاء الله عز وجل .

والصنف الثانى : اعتقدوا الحق مع ما ظهر منهم من النطق واعتقدت مع ذلك أنواعا من التخاييل قام فى تخيلها أنها أدلة وطأتها براهين وليست كذلك ، وقد وقع فى هذا كثير ممن يشار إليه فضلا عمن دونهم ، فإن وقع إلى هذا الصنف من يزعزع عليهم تلك التخاييل بالقدح ويبطلها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ولا أصغوا لما يأتى به ويترفعوا إلى أن يحاوروه لما يحملهم عليه من سوء الفهم أو رداءة الاعتقاد وعندهم أن جميع تلك التخاييل فى باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال ، فمنهم من يعتقد دليله مذهب شيخه الرفيع القدر المطلع على العلوم ، ومنهم من

يكون دليله خبرا له ، ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أو حديث صحيح ، ولعمرى إنهم ينبغى إذا صادفوا السنة باعتقادهم ولم يقعوا فى شىء من الضلال أن يتركوا على ماهم عليه ولا يحركوا بأمر آخر ، بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم لئلا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة أو ترسخ فى نفوسهم بدعة يعسر انحلالها أو يقعوا فى تكفير مسلم وتضليله ، بل هناك أسباب كثيرة .

واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلمها من أغذية النفوس ؛ فمن رغب فى أكلتها لم يقنع بدونها ، وإذا حصل له ذلك قوى به ، ومن قنع بأيسرها ولم تطمح همته إلى ما هو أعلى من ذلك ضعف ، ولكنه يعيش عيش الطفيف ، وإنما يهلك من لا بلغة له ولا يجدها ، أو يجدها ولكنها تكون مشابة بمن جاء بمضرة بدعة وسموم كفر ، فلا تذهل عما يشار لك إليه ، وإنما المرغوب تنبيهك والله المستعان ، وقلما بين الصنف الثانى والأول كل التفاوت ، من حيث إن أولئك مقلدون فيما يعتقدونه دليلا ، غير أنهم أوثق رباطا من الأولين ، لأن أولئك إن وقع إليهم من شككهم ربما شكوا وانحل رباط عقدهم ، وهؤلاء فى الأغلب لاسبيل إلى انحلال عقودهم إذ لا يرون أنفسهم أنهم مقلدون ، وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون ، فلهذا كانوا أحسن حالا .

والصنف الثالث : أقروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم ، وقدموا النظر أيضا ، ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ومعهم من الذكاء والفطنة والتيقظ ما لو نظروا لعلموا ، ولو استدلوا لتحققوا ، ولو طلبوا لأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ، ولكنهم آثروا الراحة ومالوا إلى الدعة ، واستبعدوا طريق العلم ، واستثقلوا الأعمال الموصلة إليه ، وقنعوا بالقعود فى حضيض الجهل ، فهؤلاء فيهم إشكال عند كثير من الناس فى البديهة ، ويتردد فى حالهم النظر وهل يسمون عصاة أو غير ذلك يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه ، والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين فى العوام على الإطلاق من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن ، فمنهم من لم ير أنهم مؤمنون ، ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم ، ولعلك تقول : إن مذهبهم المشهور أن المحل لا يخلو عن الصفات إلا إلى ضدها ، فمن لم يحكم له بالإيمان حكم عليه بالكفر ، كما أن من لم يحكم له بالحركة حكم عليه بالسكون ، وكذلك الحياة والموت ، والعلم والجهل ، وسائر ما له من الصفات . قلنا : فلئن صح ذلك فى الصفات التى هى أعراض فقد لا يصح فى الأوصاف التى هى أحكام الإيمان والكفر ، والهداية والضلال ، والبدعة والسنة ، ربما كانت ليست من قبيل الأعراض . وإنما ذكرت لك هذا فى معرض الشك فى شعوب مانورد على ذلك ، ومنهم من أوجب لهم الإيمان ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم وعجزهم عن العبادة ووجوب العبادة فى الشرع جار على هذا النحو ، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم ؛ لأن أولئك سلبوا الإيمان عمن لم يصدر اعتقاده عن دليل ، وهؤلاء أوجبوا الإيمان لمن أضافوا إليه المعرفة المشروطة فى صحة الإيمان ، وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة فشذوا عن الجمهور بهذا الاحتمال ، وزادوا على أنفسهم أنهم ألموا بقول من جعل المعارف كلها ضرورية ، ولم يشعروا بذلك حين قالوا : إنما عجزت العامة عن سرد الدليل وتعظم العبارة عنه ، وأنه لا تجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ماقرب من الألفاظ واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد لا اعتقدوا وعددوا من هذه المعارف كثيرا ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك . واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية هكذا يقول إنما افتقر الناس إلى التنبيه ولم يتمرنوا على العبارة على مواضع العلوم ، وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم فى تفهيمها بالزوال إلى ما ألفوه من العبارات وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه وسارعوا إلى الفيئة ، ومثال هذا كمن نسى شيئا كان معه أو إنسانا اصحه أو رآه فنسيه وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعد ذلك فذكر ، فإنه يقال بدا لأنه كان عارفا بما غاب عنه ، ولولا عرفانه به ما وجد عدم الإنكار وسرعة الألفة عنه ، وطائفة من المتكلمين أيضا أوجب لهم الإيمان مع عدم المعرفة المشروطة عند أولئك ، وأى الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ليس من غرضنا فى هذا الموضع ، وإنما غرضنا تبعيد ما أشاعه فى الإحياء أهل الغلول والأغلال فلا يفتح مثل هذا الباب وقد أبدينا من وجه ذلك فى مراقى الزلف مايغنى فيها بإذن الله عز وجل .

فصل فى بيان أصناف أهل الاعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى هو من تتمة ماجرى ، فلتعلم أن مامنهم صنف إلا وله على التقريب ثلاثة أحوال : لايستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضرورى ، فأصق الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان الإيمان على مايكمل عليه فى الغالب ، ولكنه على طريق التفاوت كما سبق ، الحالة الثانية : أن لايعتقدوا إلا بعض الأركان بما فيه خلاف إذا نفر ولم تنصف إليه فى أعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يعتقد وجود الواحد فقط ، أو يعتقد أنه موجود حى لاغير ، وأمثال هذه التقديرات ، ويخلو عن اعتقاد باقى الصفات خلوا كاملا لايخطر بباله ولا يعتقد فيها حقا ولا باطلا ولا صوابا ولا خطأ ، ولكن التقدير الذى يعتقده من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره . والحالة الثالثة أن يعتقد الوجود كما قلنا والوحدانية والحياة ، ويكون فيما يعتقد فى باقى الصفات على مالايوافق الحق ماهو عليه بما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح ، فالذى يدل عليه العلم ويستنبط من ظواهر الشرع أن أرباب الحالة الأولى والله أعلم على سبيل نجاة ومسلك خلاص ووصف إيمان أو إسلام ، وسواء فى ذلك الصنف الأول والثانى من أهل الاعتقاد، ويبقى الصنف الثالث على محتملات النظر كما نبهناك عليه ، وأما أهل الحاله الثانية وهى الاقتصار على الوجود المفرد أو الوجود ووصف آخر معه مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التى للكمال والجلال واركانهما فالمتقدمون من السلف لم تشتهر عنهم فى صورة المسألة مايخرج صاحب هذا العقد عن حكم الإيمان والإسلام ، والمتأخرون مختلفون فكثير خاف أن يخرج من اعتقد وجود الله عزوجل ، وأظهر الإقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم من الإسلام ، ولايبعد أن يكون كثير ممن اسلم من الأجلاف والرعيان وضعفاء النساء والأتباع على هذا بلامزيد عليه لو سئلوا واستكشفوا عن الله عزوجل ، هل له إرادة أو بقاء أو كلام أو ماشاكل ذلك ؟ وهل له صفات معنوية ليست هى هو ولاهى غيره ؟ ربما وجدوا يجهلون هذا ولايعقلون وجه مايخاطبون به ، وكيف يخرج من اعتقد وجود الله ووحدانيته مع الإقرار بالنبوة من حكم الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم قد رفع القتال والقتل واوجب حكم الإيمان أو الإسلام لمن قال لا إله إلا الله واعتقد عليها ، وهذه الكلمات لاتقتضى أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة فى الظاهر وعلى البديهة من غير نظر ، ثم سمعنا عمن قالها فى صدر الإسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيئات الأعمال البدنية والكف عن أذى المسلم ، ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ، ولا هل الله تعالى عالم بعلم أو عالم بنفسه وهو باق ببقاء أو باق بنفسه وأشباه هذه المعارف ، ولايدفع ظهور هذا إلا معاند أو جاهل سيرة السلف وماجرى بينهم ، ويدل على قوة هذا الجانب فى الشرع أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه وأبى أن يذعن لتعلم مازاد على ماعنده لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه والحكم عليه بالخلود فى النار عسر جدا أو خطر عظيم مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، ولعلك تقول قد قال فى مواطن أخرى إلا بحقها ثم تقول اعتقاد باقى الصفات التى بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكماله من حقها ، نعم هى من حقها عند من بلغه أمرها وسمع بها أن يعتقدها ، وأما من خلا من اعتقادها ولم يقوله أن يلقاها ولم يسمع بها ففيه مرمى هذا النظر وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ وفى مثله يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر ، هذا وأنت تسمع عن الله عزوجل يقول فى الآخرة : أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وذكر من المثقال إلى الذرة والخردلة من الإيمان ، إلى أن خرج منها من لم يعمل حسنة قط فما يدريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين ، لأن التقدير وقع فى الإيمان لافى الأعمال .

فإن قلت : فإن من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ولم يقصدها دليل فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها ؟ قلنا : قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ونبهناك على بعد أهله عن وجه الحق فيه وأنهم أرباب تعسف ، ولو استقصى مع كثير منهم القول فى ذلك لبدا له أنه تسبب إلى مايظهر له من تصوره عن معرفة شرطها فى إيمان غيره ، ولآثر من حسه الركون إلى مارأيناه أولى من رأيه وأحق بالصواب ولعدل

عن مذهبه ، ثم بعد ذلك تراهم حين أخبروا عن ساب الإيمان عنهم لم يبقوا اسم الكفر عليهم ثم يمرضوا على الاستتابة إن كانت من مذهبه ، ثم يحكى فيه بالقتل والاسترقاق ؛ فإذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ماقالوه ونقص مامالوا إليه ، فلنرجع إلى مانحن بسبيله ونستعين بالله عز وجل . وأما أرباب الحالة الثالثة ـ وهى اعتقاد البدعة فى الصفات أو بعضها ـ فإن حكمنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا وإسلامهم حققنا أمر هؤلاء فيما اعتقدوه ، إذ لم يقعوا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إيصال العذر ، لأن هؤلاء قد حصل لهم فى العقد ماهو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم وأصيبوا فيما وراء ذلك ، فإن أمكن ردهم فى الدنيا وزجرهم عنه إن أظهروا المنع عن الإقلاع والرجوع بالعقوبة المؤلمة دون قتل كان ذلك ، وإن قالوا بالموت لم نقصرهم فى اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم، والله أعلم بالناجى والهالك من خلقه ، والمطيع والعاصى من عباده ، هكذا ينبغى أن يكون مذهب من نظر فى خلق الله تعالى بعين الرأفة والرحمة ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده فيما غاب عنه علمه وعدم فيه سبيل اليقين وفهم معنى قوله عز وجل ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾

فإن قلت : وأين أنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى القدرية « إنهم مجوس هذه الأمة » وقوله صلى الله عليه وسلم « ستفترق أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة » وقال عن قوم « يخرجون على حين فرقة من الناس يقولون بقول خير البرية ، أو من قول خير البرية يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه مما توجب فى الظاهر تكفيرهم بالإطلاق ، فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء فقد أبقى عليهم دينهم وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم ، وكل فريق منهم فى مقابلة من خالفه فليقع التحاكم عند العالم الأكبر المؤيد بالعصمة سيد البشر إمام المتقين صلى الله عليه وسلم ، فهو عليه الصلاة والسلام حين قال « مجوس هذه الأمة » أضافهم إلى الأمة ، وما حكم بأن لم يقل مجوس على الإطلاق وحين أخبر عن الفرق أنهم فى النار فما أخبر أنهم خالدون فيها ، وحين قال « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » فقد قال متصلا بهذا القول وتمارى فى الفرق ، وماموضع هذا التمارى من المثل الذى ضربه فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمالى أراك تلاحظ جهة وتترك أخرى وتذكر شيئاً وتذهل عن غيره ؟ عليك بالعدل تكن من أهله ، واستعمل التفطن تشاهد العجائب المعجبة وتفهم قول الله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾

(فصل) ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضعيفا وتفرده عن المعرفة قريبا ممن رآه أبقى عليه شبه القشر الثانى من الجوز ، لأن ذلك القشر يؤكل مع ما هو عليه صونا ، وإذا انفرد أمكن أن يكون طعاما المحتاج وبلاغا للجائع ، وبالجملة فهو لمن لاشىء معه خير من فقده وكذلك اعتقاد التوحيد . وإن كان مجردا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشىء من الأدلة ضعيفا ، فهو فى الدنيا والآخرة وعند لقاء الله عز وجل خير من التعطيل والكفر ، ومتى ركب أحد هذا فقد وقع فى أعظم الحرج والمنكر .

بيان أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد المقربين

والكلام فى هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود (أحدهما) أن يتكلم فى الأسباب التى توصل إليه والمسالك التى يعبر عليها نحوه والأحوال التى يتخذها بحصوله كما قدره العز بن العليمى ، واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط المستقيم (والحدّ الثانى) أن يكون الكلام فى عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته ، وكيف يتصور للسالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه وانكشافه له بالمشاهدة (والحدّ الثالث) فى ثمرات ذلك التوحيد ومايلق أهله به ويطلعون عليه بسببه ويكرمون به من أجله ويتحققون من فوائد المزيد من جهته ، أما الحد الأول فالكلام عليه والبيان له والكشف لدقائقه وتذلله للصغير والكبير مأمور به مشدد فى أمره متوعد بالنار على كتمه فبه بعث الأنبياء ومن أجله أرسل

الرسل وبيانه للناس كافة نزلت من عند الله عز وجل على أمناء وحيه الصحف والكتب وليقع التفقه فى القلوب بتحقيقه وتصديقه أيدت الرسل بالمعجزات والأولياء والأنبياء بالكرامات ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وعليه أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وفيه أنزل الله ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ وإياه عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وجميع ذلك محصور فى اثنتين : العلم بالعبرة ، والعمل بالسنة ؛ وهما مبنيان على آيتين : الحرص الشديد والنية الخالصة . والسر فى تحصيلهما اثنان : نظافة الباطن ، وسلامة الجوارح ؛ ويسمى جميع ذلك بعلم المعاملة . وأما الحد الثانى فالكلام فيه أكثر ما يكون على طريقة ضرب الأمثال ، تشبيها بالرمز تارة وبالتصريح أخرى ؛ ولكن على الجملة بما يناسب علوم الظواهر ولكن يشرف بذلك اللبيب الحاذق على بعض المراد ويفهم منه كثيرا من المقصود وينكشف له جل ما يشار إليه ، إذا كان سالما من شرك التعصب بعيداً من هوة الهوى نظيفا من دنس التقليد . (وأما الحد الثالث) فلا سبيل إلى ذكر شيء منه إلا مع أهله بعد علمهم به على سبيل التذكار لا على التعليم وإنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ما وصفناه لأن الحد الأول فيه محض النصح للخلق واستنقاذهم من غمرة الجهل والتنكيب بهم من مهاوى العطب وقودهم إلى معرفة هذا المقام وماوراءه مما هو أعلى منه مما لهم فيه الملك الأكبر وفوز الأبد ، وقد بين لهم غاية البيان وأقيم عليه واضح البرهان وهو يومئذ الطريق وأول سبيل السعادة ، فمن عجز عن ذلك كان على غيره أعجز ، ومن سلكه على استقامة فالغالب عليه الوصول إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ومن وصل شاهد ومن شاهد علم ، وذلك غاية المطلوب ونهاية المرغوب والمحبوب ، ومن قعد حرم الوصول وما بعده ﴿ فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ﴾ ومن غاب لم تنفعه الأخبار ولم يفده كثير من الأحاديث ، وأيضا فإن الإخبار بما وراء الحد الأول والثانى على وجهه لو كشف للخلق كافة وأمكن بما أعد من الكلام وجرى بين الناس من عرف التخاطب كان فيه زيادة محنة وسبب فيه إهلاك أكثرهم ممن ليس من أهل ذلك المقام ، وذلك لغرابة العلم وكثرة غموضه ودقة معناه وعلوه فى منازل الرفعة وبعده بالجملة والتفصيل من جميع ماعهد فى عالم الملك والشهادة وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل مانشئوا عنه ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومعقولات وضروريات ونظريات ، فلما كان لا يدرك شيء من ذلك بقياس ولا يتصور بواسطة لفظ ولا يحمل عليه مثل كما قال عز وجل ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وحكى عن ابن عباس رحمه الله أنه قال : ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء ، وأراد من لم ينكشف له شيء من علمها وحقائقها فى الدنيا ، وأيضاً فلو جاز الإخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورها إلا على خلاف ماهى عليه بمجرد تقليد ويتطرق إليه من أهل الغفلة وذوى القصور جحود وتبعيد ؛ فلهذا أمروا بالكتم إشفاقا على من حجب من العلم ؛ ولهذا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « لا تحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله » وقال صلى الله عليه وسلم « ما حدث أحدكم قوما بحديث لم تصله عقولهم إلا كان عليهم فتنة » وعلى هذا يخرج قول المشايخ : وإفشاء سر الربوبية كفر ، رزقنا الله وإياكم قلوبا واعية الخير إنه ولى كل صالح ؛ وإذا علمت أن الحد الأول قد تقرر علمه فى كتب الرواية والدراية وملئت منه الطروس وكثرت به فى المحافل الدروس ، وهو غير محجوب عن طالب ولا ممنوع عن راغب ، قد أمر الجهال به أن يتعلموه والعلماء أن يبذلوه ويعلموه ، فلا نعيد فيه ههنا قولا ولما كان حكم الحد الثالث الكتم تارة وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال ، لم يكن لنا سبيل إلى تعد إلى محدودات الشرع ، فلنثن العنان إلى الكلام بالذى يليق بهذا الحال والمقام فنقول : أرباب المقام الثالث فى التوحيد وهم المقربون على ثلاثة أصناف ، على الجملة فكلهم نظروا إلى المخلوقات فرأوا علامات الحدوث فيها لائحة ، وعاينوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة وسمعوا جميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة ناصحة ، ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم وشاهدوه بغيب أرواحهم ، ولاحظوا جلاله وجماله بخفى أسرارهم ، وهم مع ذلك فى درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم فى

اليقين وصفاء القلب ، وهؤلاء الأصناف الثلاثه إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته ، وانقسامهم فى تلك المعرفة كانقسام حفاظ تلاوة القرآن مثلا ، فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر أو كثيرا منه دون كاله ، ومن حافظ لجميعه لكنه متلعثم فيه متوقف على الانهمار فى تلاوته غير متوقف فى شىء منه وكلهم ينسب إليه ويعد فى المشهد والمغيب من أهله ، وكذلك أهل هذه المرتبة أيضا منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات أو كثير منها وربما كان فيما يقرأ من الصفحات مايغم عليه ، ومن قارئ لجميعها متفهم لها لكن بنوع تعب ولزوم فكرة ومداومة عبرة . ومن ماهر فى قراءتها مستخرج لرموزها نافذ البصيرة فى رؤية حقيقتها مفتوح السمع تناطقه الأشياء فى فراغه وشغله وبحسب ذلك اختلفت أحوالهم فى الخوف والرجاء والقبض والبسط والفناء ، ولا مزيد على هذا المثال فهو أصلح لذوى الأفهام من شمس النهار وقت الزوال وعلمت لم سمى أهل هذه المرتبة مقربين فذلك لبعدهم عن ظلمات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ، ولا أبعد من الجاهل ولا أقرب من العارف العالم ، والقرب والبعد ههنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز فى لسان الجمهور ، وعلى الحقيقة عند المستعملين لها فى هذا الفن ، أحد الحالتين عماء البصيرة وانطماس القلب والخلو عن معرفة الرب سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا بعدا : مأخوذا من البعد عن محل الراحة والمنزل الواجب وموضع العمارة والأنس والانقطاع فى مهامه القفر وأمكنة الخوف ومظان الانفراد والوحشة . والحالة الثانية : عبارة عن اتقاد الباطن واشتعال القلب وانفساح الصدر بنور اليقين والمعرفة والعقل ، وعمارة البيت بمشاهدة ماغاب عنه أهل الغفلة واللهو ، ولكنه يدل على أنه لم يصل ؛ لعلك تقول ؛ أرى بعض أئمة الكلام شغل عن لحوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم ، ولم يفز قدحهم منه بحظ ولاسهم وأراهم عند الجمهور فى الظاهر وعند أنفسهم أنهم أهل الدلالة على الله تعالى وقادة الخلق إلى مراشدهم ويجاهدون أرباب النحل المردية والملل الضالة المهلكة ، وقد سبق فى الإحياء أنهم مع العوام فى الاعتقاد سواء ، وإنما فارقوهم بإحسانهم حراسة عقودهم .

فاعلم أن ما رأيت فى الإحياء صحيح ولكن بقى فى كشفه أمر لا يخفى على المستبصرين ، ولا يغيب عن الشاذين إذا كانوا منصفين : وهو أن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط لم يفارقوا عقود العوام ، وإنما فارقوهم بالجدل عن الانخرام ، والجدل علم لفظى وأكثره احتيال وهمى وهو عمل النفس وتخليق الفهم وليس بثمرة المشاهدة والكشف ، ولأجل هذا كان فيه السمين والغث ، وشاع فى حال النضال إيراد القطعى وما هو حكمه من غلبة الظن وإبداء التصحيح وإلزام مذهب الخصم ، والمقام المشار إليه بالذكر وشبهه إنما هو علم التوحيد وفهم الأحوال ومعرفته باليقين التام والعلم المضارع للضرورى بأن لا إله إلا الله ، إذ لا فاعل غيره ولا حاكم فى الدارين سواه ومشاهدة القلوب لما حجب من الغيوب ، ومن أين للنازل طى المنازل ، وما لعلم الكلام مثل هذا المقام ، بل هو من خدام الشرع وحراس متبعيه من أهل الاختلاس والقطع ، وله مقام على قدره ويقطع به ، ولكن ليس عن مطالع الأنوار ومدارك الاستبصار ، والمدار فى أوقات الضرورات والاختيار وبين مايراد لوقت حاجته إن دعت ، وخصام صاحب بدعة ومناضلة ذى ضلالة بما ينغص على ذوى اليقين العيش ويشغل الذهن ويكدر النفس ، وما أهله الذين حفظ عنهم ووقع عليه فيما مضى من الزمان إليهم لانقول فى أكثرهم إنهم لايحسنون غيره . ولايختصون بالتوحيد بمقام سواه بما هو أعلى منه ، بل الظن بهم أنهم علماء مثل ما ذكرنا ، فهم نصراء لكنهم لم يبدوا من العلم فى الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس والمصلحة به لتوجه الضرورة أعم وأوكد ، ولما كان نجم فى وقتهم من البدع وظهر من الأهواء وشاع من تشتيت كلمة أهل الحق وتجرؤ العوام مع كل ناعق ، فرأوا الرد عليهم والمنازعة لهم والسعى فى اجتماع الكلمة على السنة بعد افتراقها ، وإهلاك ذوى الكيد فى احتيالهم ، وإخماد نارهم الذين هم أهل الأهواء والفتن ، وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات وكشف أحوال أرباب المقامات ووصف فقه الأرواح والنفوس وتفهم كل ناطق وجامد فإن هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص وهم مكفيون المؤنة ، والعامة أحق بالحفظ وعقائدهم أولى بالحراسة ، واستنقاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد والتصدق على ذى بلغة من العيش ، فكيف

إن كان عن غناء ، وأيضا فإن علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال ، وهو يقع من العلماء العارفين مع أهل الإلحاد والزيغ لقصورهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بعد التبليغ من أهل الفساد والتمادى على الغى وسبيل الفساد ، فكما لا يقال : السيف أبلغ حجة النبى صلى الله عليه وسلم ، كذلك لا يقال : علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء ، وكما لا يقال فى الصدر الأول فقهاء الأمصار ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم فى الغالب إلا علوم أخر كالفقه والحديث والتفسير ، لأن الخلق أحوج إلى علم ما حفظ عنهم وذلك لغلبة الجهل على أكثرهم ، فلولا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجهلت العبارات وانقطع علم الشرع ، ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين بغير طريق علم الكلام والجدل ، يتحلون بالمقامات المذكورة وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ما أخذه عنهم الخاص والعام ، ومثل ذلك حالة الصحابة رضى الله عنهم بعد النبى صلى الله عليه وسلم لما خافوا من دروس الإسلام وأن يضعف ويقل أهله ويرجع البلاد والعامة إلى الكفر كما لو كانوا أول مرة ، فقد مات صاحب المعجزة صلى الله عليه وسلم والمبعوث لدعوة الحق عليه الصلاة والسلام رأوا أن الجهاد والرباط فى ثغر العدو والغزو فى سبيل الله وضرب وجوه الكفرة بالسيف وإدخال الناس فى دين الله أولى بهم من سائر الأعمال وأحق من تدريس العلوم كلها ظاهرا وباطنا ، وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل وهم فى حال ذلك الشغل والنظر إلى حال العموم أوكد من النظر إلى الخصوص ، لأن الخصوص لهم بأنفسهم عناء ولهم بحالهم قيام ، والعموم إن لم يكن مشتغلا بهم وإذا بدا لهم محذرا عن هلكاتهم وسائقا بهم إلى مراشدهم وصلاحهم كان الهلاك إليهم أسرع ، ثم لا يكون من بعد ذلك إن فسد حال العموم للخصوص قدر ، ولا يظهر لهم نور ولا يقدرون على شىء كامل من البر ، فلا خاصة إلا بعامة ، ولقد كانت رعاية النبى صلى الله عليه وسلم بحال الجماهير أكثر ، والخوف عليهم من الزيغ والضلال والهلاك أشد ، واللطف بهم فى تخفيف الوظائف والأخذ بالرفق أبلغ ، وكان أهل القوة وذوى البصائر فى الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات ، وكان هو صلى الله عليه وسلم يحب أن يعمل بالعمل من الطاعة فما يمنعه منه ، أو من المداومة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته حين علم من أكثرهم الضعف ولم يكره لهم ، وفيه زيادة الأجر وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ولكن خاف عليهم أن يقعوا فى تضييع الفرض فيكون عليهم كفل من الوزر ألا ترى كيف نهى الخلق عن قيام الليل كله ، وكان عثمان رضى الله عنه يقومه فلم ينهه ومنع السيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه حتى جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه وقال لعائشة رضى الله عنها : لولا حدثان عهد قومك بالكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم . وقال للأنصار أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم ، ومع ذلك فالذى حفظ عنه صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من بعده وفقهاء الأمصار وأعيان المتكلمين من الإشارات لتلك العلوم كثيرة لا تحصى ، وإنما القليل من حمله اليوم عنهم وتفقه مثلهم فاقصد تجد ، وتصد لاقتباس المعارف تعلم ، وطالع كتب الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم توقن ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾

بيان المرتبة الرابعة وهو توحيد الصديقين

وأما أهل المرتبة الرابعة فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعالى وحده ، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا فى الدارين غيره ولا اطلعوا فى الوجود على سواه ، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فيما خصوا من المعرفة فى هجيراهم ، فكان هجير أبى بكر الصديق رضى الله عنه « لا إله إلا الله » ، وكان هجير عمر رضى الله عنه « الله أكبر » ، وكان هجير عثمان رضى الله عنه « سبحان الله » ، وكان هجير على رضى الله عنه « الحمد لله » ، فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر لم يشهد فى الدارين غير الله سبحانه وتعالى ، فلذا كان الصديق ، وسمى به كما علمت ، وكان يقول « لا إله إلا الله » ، وكان عمر يرى ما دون الله صغيرا مع الله فى جنب عظمته فيقول « الله أكبر » ، وكان عثمان لا يرى فى التنزيه إلا الله تعالى إذ الكل قائم به غير معرى من النقصان والقائم بغيره معلول فكان يقول « سبحان الله » ،

وعلى لايرى نعمة فى الدفع والرفع والعطاء والمنع فى المكروه والمحبوب إلا من الله سبحانه فكان يقول « الحمد لله » وأهل هذه الرتبة على الجملة فى حال خصوصهم فيها صنفان : مريدون ، ومرادون ، فالمريدون فى الغالب لابد لهم من أن يحلوا فى المرتبة الثالثة وهى توحيد المقربين ، ومنها ينتقلون ، وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ويتمكنون فيها : ومن أهل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبدلاء ، ومن أهل المرتبة الثالثة يكون النقباء والنجباء والشهداء والصالحون والله أعلم .

• فإن قلت : أليس الوجود مشتركا بين الحادث والقديم والمألوه والإله ، ثم معلوم أن الإله واحد والحوادث كثيرة ؛ فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئا واحدا ؟ ذلك على طريق قلب الأعيان فتعود الحوادث قديمة ثم تتحدث بالواحد فترجع هى هو ، وفى هذا من الاستحالة والمروق عن مصدر العقل مايغنى عن إطالة القول فيه . وإن كان على طريق التخييل للولى لما حقيقة له ، فكيف يحتج به ؟ أو كيف يعد حالا لولى أو فضيلة لبشر ؟ الجواب عن ذلك : أن الحوادث لم تنقلب إلى القدم ولم تتحد بالفاعل ، ولا اعترى الولى تخييل فتخيل مالاحقيقة له وإنما هو ولى مجتبي وصديق مرتضى ، خصه الله تعالى بمعرفته على سبيل اليقين والكشف التام ، وكشف لقلبه ما لو رآه ببصره عيانا ما ازداد إلا يقينا ، وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به على هذا السبيل أحداً من خلقه فما أطم مصيبتك وما أعظم العزاء فيك حين فتشت الخلق بمعيارك وكلتهم بمكيالك وفضلت نفسك على الجميع ، إذ لاسبب لإنكارك إن صح إلا أنك تخيلت أنه لم يرزق أحد مالم ترزق ، أو يخص من المعرفة مالم تخص ، فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف لقلبه لا يخرج منه ، وما اطلع عليه لايغيب عنه ، وما ذكره من ذلك لا ينساه ولا فى حال نومه وشغله ، وهذا موجود فيمن كثر اهتمامه بشىء وثبت فى قلبه حاله : أنه إذا نام أو اشتغل لم يفقده فى شغله ونومه كما لا يفقده فى يقظته وفراغه ، ولهذا والله أعلم إذا رأى الولى المتمكن فى رتبة الصديقين مخلوقا كان حياً أو جماداً صغيراً أو كبيرا لم يره من حيث هو هو ، إنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة وميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ثم أدام القهر عليه فى الوجود ، ثم لما كانت الصفات المشهودة آثارها فى المخلوقات ليست لغير الموصوف الذى هو الله عز وجل بل له ، الهت الولى عن غيره وصار لم ير سواه ، ومعنى ذلك أنه لايتميز بالذكر فى سر القلب وخير المعرفة ، ولا بالإدراك فى ظاهر الحس دون ما كان موجوداً به وصار عنه فانيا ، فيمد هذا على من أصحبه أن لايحتاج إليها مع هذا الوضوح ، ولا فهم إلا بالله ، ولا شرح إلا منه ، ولا نور إلا من عنده ، وله الحول والقوة وهو العلى العظيم .

(فصل) وأما معنى « إفشاء سر الربوبية كفر » فيخرج على وجهين ، أحدهما : أن يكون المراد به كفرا دون كفر ، ويسمى بذلك تعظيما لما أتى به المفشى وتعظيما لما ارتكبه ، ويعترض هذا بأن يقال : لا يصح أن يسمى هذا كفراً لأنه ضد الكفر ؛ إذ الكفر الذى سمى على معناه ساتر ، وهذا المفشى للسر ناشر ، وأين النشر والإظهار من التغطية ؟ والإعلان من الكتم ؟ واندفاع هذا هين بأن يقال : ليس الكفر الشرعى تابع الاشتقاق ، وإنما هو حكم لمخالفة الأمر وارتكاب النهى ، فمن رد إحسان محسن أوجحد نعمة متفضل ، فيقال عليه كافر لجهتين : إحداهما من جهة الاشتقاق ويكون إذ ذاك اسما ينبئ عن وصف ، والثانية من جهة الشرع ويكون إذ ذاك حكما يوجب عقوبة ، والشرع قد ورد بشكر المنعم ، فافهم ولا تذهب مع الألفاظ ولا يغرنك العبارات ولا تحجبك التسميات ، وتفطن لخداعتها واحترس من استدراجها ، فإذاً من أظهر ما أمر بكتمه كان كمن كتم ما أمر بنشره ، وفى مخالفة الأمر فيهما حكم واحد على هذا الاعتبار ، ويدل على ذلك من جهة الشرع قوله صلى الله عليه وسلم « لاتحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم » وفى ارتكاب النهى عصيان ، ويسمى فى باب القياس على المذكور كفران البدن ، وقسمة أخرى : وذلك أن العلم إن حلل إلى ما علم من أجزائه بالاستقراء ، فرأس الإنسان تشابه سماء العالم من حيث إن كل ما علا فهو سماء ، وحواسه تشابه الكواكب والنجوم من حيث إن الكواكب أجسام مشفة تستمد من نور الشمس فتضىء بها

والحواس أجسام لطيفة مشفة تستمد من الروح فيضىء مسلك المدركات ، وروح الإنسان مشابهة للشمس ، فضياء العالم ونور نباته وحركة ضواربه وحيوانه وحياته فيها تظهر بتلك الشمس ، وكذلك روح الإنسان به حصل فى الظاهر نمو أجزاء بدنه ونبات شعره وحلول حياته وجعلت الشمس وسط العالم وهى تطلع بالنهار وتغيب بالليل ، وجعلت الروح وسط جسم الإنسان وهى تغيب بالنوم وتطلع باليقظة ، ونفس الإنسان تشابه القمر من حيث إن القمر يستمد من الشمس ونفسه تستمد من الروح ، والقمر خالف الشمس والروح خالف النفس ، والقمر آية ممحوة والنفس مثلها ، ومحو القمر فى آن لايكون ضياؤه منه ومحو النفس فى آن ليس عقلها منها ، ويعترى الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف ، ويعترى النفس والروح وسائر الحواس غيب وذهول ، وفى العالم نبات ومياه ورياح وجبال وحيوان ، وفى الإنسان نبات وهو الشعر ، ومياه وهو العرق والدموع والريق والدم ، وفيه جبال وهى العظام ، وحيوان وهى هوام الجسم ، فحصلت المشابهة على كل حال ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ومنها ماهى لناغير معروفة ولا معلومة كان فى استقصاء مقابلة جميعها تطويل ، وفيما ذكرناه مايحصل به لذوى العقول تشبيه وتمثيل .

• فإن قلت : أراك فرقت بين النفس والروح ، وجعلت كل واحد منهما غير الآخر ، وهذا قلما تساعد عليه ، إذ قد كثر الخلاف فى ذلك : فاعلم أنه إنما على الإنسان أن يبنى كلامه على مايعلم لا على مايجهل ، وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنان • فإن قلت : فقد سبق فى الإحياء أنهما شىء واحد وقلت فى هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح فالذى سبق فى الإحياء ورأيت فى هذه الإجابة وهو شىء واحد لايتناقض مع ماقلناه الآن ، وذلك أن لهما معنى يسمى بالروح تارة وبالنفس أخرى ، وبغير ذلك ثم لايبعد أن يكون لهما معنى آخر ينفرد باسم النفس فقط ولايسمى بروح ولا غير ذلك ، فهذا آخر الكلام فى أحد وجهى الإضافة التى فى ضمير صورته والوجه الآخر : وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصيص به ؛ فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حى قادر سميع بصير عالم مريد متكلم فاعل وخلق آدم عليه السلام حيا قادرا عالما سميعا بصيرا مريدا متكلما فاعلا ، وكانت لآدم عليه السلام صورة محسوسة مكنونة مخلوقة مقدرة بالفعل وهى لله تعالى مضافة باللفظ ، وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا فى الأسماء التى هى عبارة تلفظ فقط ، ولايفهم من ذلك نفى الصفات فليس هو مرادنا ، وإنما مرادنا تباين مابين الصورتين بأبعد وجوه الإمكان ، حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا فى الأسماء الملفوظ بها لاغير ، وفرارا أن تثبت صورة لله تعالى ويطلق عليها حالة الوجود ؛ فافهم هذا فإنه من أدق مايقرع صدرك ويلج قلبك ويظهر لعقلك ؛ ولهذا قيل لك : فإن كنت تعتقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى فى الوجود تكن مشبها مطلقا ومعناه نتيقن أنك من المشبهين لا من المنزهين وحكمت على نفسك بالتشبيه معتقدا ولاتنكر ، كما قيل : كن يهوديا صرفا وإلا فلاتلعب بالتوراة : أى تتلبس بدينهم وتريد أن لاتنسب إليهم : أى تقرأ التوراة ولاتعمل بها . وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة منزها مجلا ومقدسا مخلصا : أى ليس تعتقد من الإضافة فى الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء دون المعانى ، فتلك المعانى المسماة لايقع عليها اسم صورة على حال . وقد حفظ عن الشبلى رحمة الله عليه فى معنى ماذكرنا من هذا الوجه قول بليغ مختصر ، حين سئل عن معنى الحديث فقال : خلقه الله على الأسماء والصفات لا على الذات • فإن قلت فكذا قال ابن قتيبة فى كتابه المعروف بتناقض الحديث حين قال : هو صورة لا كالصور ، فلم أخذ عليه فى ذلك ؟ وأقيمت عليه الشناعة به ؟ واطرح قوله ولم يرضه أكثر العلماء وأهل التحقيق ؟ فاعلم أن الذى ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضا عنه وأبلغ فى الإنكار عليه وأبعد الناس عن تسويغ قوله ، وليس هو الذى ألممنا نحن به وأفدناك بحول الله وقوته إياه ، بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا ، وذهلت عن تعقل مرادنا ، ولم تفرق بين قولنا وبين ماقاله ابن قتيبة ، ألم أخبرك أننا أثبتنا الصورة فى التسميات ، وهو أثبتها حالة للذات ؛ فأين من لب الجوز قشور تفرقع ، والذى يغلب على الظن فى ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق التى أشرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود بتأييد الله تعالى بالعبارة

عنها ، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف ، وعلاه الدهش فتوقف بين ظاهر الحديث الذى هو موجب عند ذوى القصور تشبيها وبين التأويل الذى ينفيه ، فأثبت المعنى المرغوب عنه ، وأراد نفى ما خاف من الوقوع فيه ، فلم يتأت له اجتماع ما رام ولا انتظام ما أقترف ، فها هو صورة لا كالصور ، ولكل ساقطة لاقطة ، فتبادر الناس إلى الآخذ عنه

(فصل) ومعنى قاطع الطريق ﴿ فإنك بالواد المقدس طوى ﴾ أى دم على ما أنت عليه من البحث والطلب ، فإنك على هداية ورشد والوادى المقدس عبارة عن مقام الكليم موسى عليه السلام مع الله تعالى فى الوادى ، وإنما تقدس الوادى بما أنزل فيه من الذكر ، وسمع كلام الله تعالى ، واقيم ذكر الوادى مقام ما حصل فيه لحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ؛ وإلا فالمقصود ما حذف لا ما أظهر بالقول ، إذ المواضع لا تأثير لها وإنما هى ظروف .

(فصل) ومعنى ﴿ فاستمع ﴾ أى سر بقلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العز تنادى بما نودى به موسى ﴿ إنى أنا ربك ﴾ أى فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المزيد وحوادث الصدق وثمار المعارف وارتياح سلوك الطريق وإشارات قرب الوصول ، وسر القلب كما يقول أذن الرأس ووسع الآذان ، وما يوحى ، أى ما يرد من الله تعالى بواسطة ملك . أو إلقاء فى روع ، أو مكاشفة بحقيقة ، أو ضرب مثل ، مع العلم بتأويله . ومعنى « لعلك » حرف ترويج ، ومعنى لم تدركك آفة تقطعك عن سماع الوحى من إعجاب بحال أو إضافة دعوى إلى النفس أو قنوع بما وصلت إليه واستبداد به عن غيره . وسرادقات المجد : هى حجب الملكوت ، وما نودى به موسى : هو علم التوحيد التى وسعت العبارة اللطيفة عنه بقوله حين قال له ﴿ يا موسى إنى أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ والمنادى باسمه ازلا وأبدا هو اسم موسى لما سمى السالك الموجود فى كلام الله تعالى فى أزل الآزل قبل أن يخلق موسى ، لا إلى أول وكلام الله تعالى صفة له لا يتغير كما يتغير هو إذ ليست صفاته المعنوية لغيره ، وهو الذى لا يحول ولا يزول ، وقد زل قوم عظم اقتراحهم وهو أنهم حملوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة ، وعياذا بالله من أين يحتمل هذا القول ما حملوه من المذهب ؟ أليسوا وهم يعرفون أن كثيرا ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب إنسانا آخر قلده ولاية كبيرة وفوض إليه عملا عظيما وحباه حباء خطيرا ، وهو ينادى باسمه أو يأمره بما يمتثل من أمره . ثم إن السامع للملك الحاضر معه غير المولى لم يشارك المولى المخلوع عليه والمفوض إليه فى شيء مما ولى وأعطى ، ولم يجب له بسماعه ومشاهدته أكثر من حظوة القربة وشرف الحضور ومنزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة المخاطب بالولاية والمفوض إليه الأمر . ولذلك هذا السالك المذكور إذا وصل فى طريقه ذلك بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذى يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل المعلوم ؛ فلا يمتنع أن يسمع ما يوحى لغيره من غير أن يقصد هو بذلك ، إذ هو محل سماع الوحى على الدوام وموضع الملائكة ، وكفى بها أنها الحضرة الربوبية ، وموسى عليه السلام ما استحق الرسالة والنبوة ، ولا استوجب التكليم وسماع الوحى مقصودا بذلك بحلوله فى هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة فقط . بل هو قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعنى آخر ترقى إلى ذلك المقام اضعافا فجاوز المرتبة الرابعة ، لأن آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء ، وموسى عليه السلام نبى مرسل ، فمقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون فى أطرافه ، لأن هذا المقام الذى هو المرتبة ليست من غايات مقامات الولاية بل هو إلى الثالثة مباديها أقرب منه إلى غايتها ، فان لم يفهم دوجات المقام وخصائص النبوة وأحوال الولايات كيف يتعرض للكلام فيها والطعن على أهلها ، هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف انه مؤاخذ بكلامه ، محاسب بظنه ويقينه ، مكتوب عليه خطراته ، محفوظ عليه لحظاته ، مخلصا منه يقظاته وغفلاته ، فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد .

• فإن قلت : أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ونداء كلامه ، والله تعالى يقول ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ فقد نبه أن تكليم الله تعالى لمن كلمه من الرسل ، إنما هو على سبيل المبالغة فى التفضيل ، وهذا لا يصلح أن يكون لغيره ممن ليس بنبي ولا رسول ؛ وإذا بان السبب وقصد بادر الشك العارض فى مسالك الحقائق • فنقول : ليس فى الآية ما يرد ما قلنا ولا يكسره ، لأنا ما أوجبنا أنه كلمه وقصدا ولا توخاه

بالخطاب عمداً . وإنما قلنا : يجوز أن يسمع مايخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه ، أليس من يسمع كلام إنسان مثلا مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كليمه ؟ وقد حكى أن طائفة من بنى إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذى خاطب به موسى حين كلمه ، ثم إذا ثبت ذلك لم يجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة فى نبوته ورسالته ، على أنا نقول نفس ورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى يمكن الاختلاف فيه ، فيكون النبى المرسل يسمع كلام الله تعالى الذاتى القديم بلا حجاب فى السمع ولا واسطة بينه وبين القلب ، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة مما يلقى فى روعه ومما ينادى فى سمعه أو سره وأشباه ذلك ، ذكر أن قوم موسى عليه السلام حين سمعوا كلام الله سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتا كالشبور - وهو القرآن - فإذا صح ذلك فبتباين المقامات اختلف ورود الخطاب فموسى سمع كلام الله بالحقيقة الذى هو صفة له بلا كيف ولا صورة نظم الحروف ولا أصوات ، والذين كانوا معه أيضا سمعوا صوتا مخلوقا وجعل لهم علامة ودلالة على صحة التكليم ، وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضرورى ، وسمى ذلك الذى سمعوه كلامه ؛ إذ كان دلالة عليه ، كما تسمى التلاوة وهى الحروف المتلو بها القرآن : كلام الله تعالى ؛ إذ هى دلالة عليه .

* فإن قلت : فما يبقى على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذى يستفيد معرفة وحدانيته وفقه أمره ونهيه وفهم مراده وحكمه يلحقه العلم الضرورى فيما أرى بأنه الشىء المرسل إلا بأن يشتغل بإصلاح الخلق دونه ولو كان عوضا منه أخر عنه ومقامه مقامه ؟ * فاعلم أن الذى أوجب عثورك ودوام زللك واعتراضك على العلوم بالجهل وعلى الحقائق بالمخايل أنك بعيد عن غور المطالب ، قعيد فى شرك المعاطب ، قعيد صوب الصوت عتيد صحب السحاب ، إن الذى استحق به الناظر السالك الواصل المرتبة الثالثة سماع نداء الله تعالى معنى ومقام وحال وخاصة أعلى من تلك الأولى وأجل وأكبر وبينهما مابين من استحق المواجهة بالخطاب والقصد به ، وبين من لا يستحق أكثر من سماعه من يخاطب به غيره ، فهذا من الإشارة باختلاف ورود الخطاب إليهما مما يوجب نفورا وتباين مابينهما . فإن فهمت الآن وإلا فقد عنى لاتدر بحبال .

* فإن قيل : ألم يقل الله تعالى ﴿ فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ﴾ وسماع الله تعالى بحجاب أو بغير حجاب وعلم مافى الملكوت ومشاهدة الملائكة وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل الغيوب ؟ فكيف يطلع عليها من ليس برسول ؟ * قلنا فى الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق والمشاهدة الصورية ، وهو أن يكون معناه : إلا من ارتضى من رسول ومن اتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة ، أو عمل بما جاء به النبى ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وهل يبق إلا ماغاب عنه أن ينكشف إليه وقال « إن يكن منكم محدثون فعمر » أو كما قال « المؤمن ينظر بنور الله » وفى القرآن العزيز ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ فعلم ماغاب عن غيره من إمكان بيان ماوعد به ، وأراد أنه قدر عليه ولم يكن نبيا ولا رسولا . وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذى القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية وصدقه فيه حين قال ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقا ﴾ وإن كان وقع الاختلاف فى نبوة ذى القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول ، وهو خلاف المسطور فى الآية وإن رام أحد المدافعة بالاحتيال لما أخبر به ذو القرنين ، وما ظهر على يدى الذى كان عنده علم من الكتاب ، وأراد أن يجوز على عمر التشبه بالحقائق ، فما يصنع فيما جرى للخضر وما أنبأ الله سبحانه وأظهر عليه من العلوم الغيبية وهو بعد أن يكون نبيا فليس برسول على الوفاق من الجميع ، والله تعالى يقول ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ فدل على أن فى الآية حذف مضاف معناه ماتقدم وانظر إلى ماظهر من كلام سعد رضى الله عنه أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما فى البطن وهى من غيب الله وشواهد الشرع كثيرة جدا يعجز المتأول ويلهو المعاند . هذا والقول بتخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهر مما نقل الكافة ، ويحتمل أن يكون المراد فى الآية بالرسول المذكور فيها : ملك الوحى الذى بواسطته تنجلى

العلوم وتنكشف الغيوب ، فتى لم يرسل الله ملكا بإعلام غيب ، أو يخاطب مشافهة ، أو إلقاء معنى فى روع أو ضرب مثل فى يقظة أو منام ، لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ، ويكون تقدير الآية : فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده فى يقظة أو منام ، فإنه يطلع على ذلك أيضا . ويكون فائدة الإخبار بهذا فى الآية الامتنان على من رزقه فى الله تعالى علم شىء من مكنوناته ، وإعلامه أنه لا تصل إليها نفسه ولا مخلوق سواه إلا بالله تعالى حين أرسل إليه الملك بذلك وبعثه الله ، حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ، ويرجع إلى الله تعالى وحده ، ويتحقق أنه لا يرد عليه شىء من علم أو معرفة أو غير ذلك إلا بإرادته ومشيئته ويحتمل وجه آخر : وهو أن يكون معناه والله أعلم : فلا يظهر على غيبة أحدا إلا من ارتضى يريد من سائر خلقه وأصناف عباده ، ويكون معنى « من رسول » أى عن يد رسول من الملائكة .

(فصل) ومعنى : ولا يتخطى رقاب الصديقين « إن قلت : ما الذى أوصله إلى مقامهم أو جاوز به ذلك - وهو فى المرتبة الثالثة حال المقربين ما وصل حيث ظننت - فكيف يجاوزه ، وإنما خاصية من هو فى رتبة الصديقين عدم السؤال لكثرة التحقق بالأحوال ، وخاصية من هو فى رتبة القرب كثرة السؤال طمعا فى بلوغ الآمال ، ومثالهما فيما أشير إليه مثال إنسانين دخلا فى بستان : أحدهما يعرف جميع أنواع نبات البستان ويتحقق أنواع تلك الثمار ويعلم أسماءها ومنافعها ؛ فهو لا يسأل عن شىء مما يراه ولا يحتاج إلى أن يخبر به ، والثانى لا يعرف مما رأى شيئا أو يعرف بعضا ويجهل أكثر مما يعرف ، فهو يسأل ليصل إلى علم الباقى ، وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال عما يبعد عنه حاله ويتخلف عن مقامه إلى ما هو أعلى منه ، وكان غير مراد لذلك إما فى ذلك الوقت أو الأبد ، وتلك العلوم متى كانت لا تنال بالكسب وإنما تنال بالمنح ، فقيل له : لا تتخط رقاب الصديقين بالسؤال ، فذلك مما لا يخطر به وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم ، فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتد به فى حاله وسيرته فعساك ترزق مقامه ، فإن لم يكن فتبقى على حالة القرب وهى تتلو الصديقية ، فهذا معناه .

(فصل) ومعنى انصراف المالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى : إما أنه لما وصل إليه بالسؤال صرف إليه ما لاق به من الأحوال ليحكم ما بقى عليه من الأعمال كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم للذى سأله أن يعلمه غرائب العلم : اذهب فأحكم ما هناك ، وبعد ذلك أعلمك غرائب العلم . وأما صفة انصرافه فإن نهض بالبحث ورجع بالتذكر ، وفوائد المزيد ووجه أن من لم يستطع المقام فى ذلك الموضع بعد وصوله إليه ، فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ومسكنه عالم الملك ولم يفارقه بعد الموت وطول الغيب عنه لا يمكن فى العادة ، ولو أمكن لهلك الجسم وتفرقت الأوصال ، والله تعالى أراد عمارة الدنيا وقد سبق فى علمه ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ومعنى قول أبى سليمان الدارانى : ولو وصلوا ما رجعوا ، ما رجع إلى حالة الانتقاص من وصل إلى حالة الإخلاص . والذى طمع الناظر فى الحصول فيه سؤاله وتماديه إلى حال القرب منه ، إذ لم يصلح لذلك ولم يصف ولم يخلص أعماله .

(فصل) ومعنى بأن ليس فى الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكمل صنعا ، ولو كان وادخره مع القدرة كان ذلك بخلا يناقض الكرم الإلهى ، وإن لم يكن قادرا عليه كان ذلك عجزا يناقض القدرة الإلهية ، فكيف يقضى عليه بالعجز فيما لم يخلقه اختيارا وكان ذلك ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم ، ويقال : ادخار إخراج العالم من العدم إلى الوجود عجز مثل ما قيل فيما ذكرنا . وما الفرق بينهما ؟ وذلك لأن تأخيره بالعالم قبل خلقه عن أن يخرجه من العدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن ، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل ، فإذا فعل فليس فى الإمكان أن يفعل إلا نهاية ما تقتضيه الحكمة التى عرفناها أنها حكمة ، ولم تعرفنا بذلك إلا لنعلم مجارى أفعاله ومصادر أموره ، وأن نتحقق أن كل ما اقتضاه ويقضيه من خلقه بعلمه وإرادته وقدرته أن ذلك على غاية الحكمة ونهاية الإتقان ومبلغ جودة الصنع ، ليجعل كمال ما خلق دليلا قاطعا وبرهانا على كماله فى صفات جلاله الموجبة لإجلاله ، فلو كان ما خلق ناقصا بالإضافة إلى غيره ما قدر على خلقه ، ولو لم يخلق لكان يظهر النقصان المدعى على هذا الوجود متى خلقه

كما يظهر على ماخلقه على غير ذلك ، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ماصنع من النقصان قطعا ، وما يحمل عليه من القدرة على أكمل منه ظنا ، إذ خلق للخلق عقولا وجعل لهم فهوما وعرفهم ماأكن وكشف لهم ما حجب وأجن ، فيكون من حيث عرفهم بكماله دلهم على نقصه ، ومن حيث أعلمهم بقدرته بصرهم بعجزه ، فتعالى الله رب العالمين الملك الحق المبين . وأيضا فلا يعترض هنا ويتزر به إلا من لا يعرف مخلوقاته ولم يصرف الكلام الصحيح فى مشابه ذلك أصلا فى العلم ، أو كان نسخا له ومعنى نقيس عليه غيره ، وأما انكشافه بخبر ممن رزق علم ذلك كان بطلان العلم فى حق المخبر ، إذ أفشاه لغير أهله وأهداه لمن لا يستحقه ، كما روى عن عيسى على نبينا وعليه السلام : لا تعلقوا الدر فى أعناق الخنازير . وإنما أراد قطع العلم عن غير أهله وقد جاء : لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ، ولا تضعوها عند غير أهلها فتظلموها . وأما سر العلم الذى يوجب كشفه بطلان الأحكام ، فإن كان كشفه من الله سبحانه لقلوب ضعيفة ، بطلت الأحكام فى حقها لمن يطلع عليه فى ذلك السر من معرفة مآل الأشياء وعواقب الخلق وكشف أسرار العبادة وما يظن من مقدور ، فمن عرف نفسه مثلا أنه من أهل الجنة لم يصل ولم يصم ولم يتعب نفسه فى خير ، وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار كل انهاكه فلا يحتاج إلى تعب زائد ولا تصيبه مكابدة ، فلو عرف كل واحد عاقبته ومآله بطلت الأحكام الجارية عليه . وإن كان كشفها من مخبر استروح الضعيف إلى مايسمع من ذلك فيتعطل وينخرم حاله وينحل قيده ، وبعد هذا فلا يحمل كلام سهل إلا على مايقدر لا على مايوجد ، ولذلك جعله مقرونا بحرف «لو» الدال على امتناع الشىء لامتناع غيره ، كما يقال : لو كان الإنسان جناحان لطار ، ولو كان للسماء درج لصعد عليها ، ولو كان البشر ملكا لفقد الشهوات ، فعلى هذا يخرج كلام سهل فى ظاهر العلم

(فصل) وأما خطاب العقلاء للجادات فغير مستنكر ؛ فقديما ندب الناس الديار وسألوا الأطلال واستخبروا الآثار . وقد جاء فى أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير . وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم « اسكن أحد ، فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان » وقال بعضهم : اسأل الأرض تخبرك عمن شق أنهارها وأجرى بحارها وفتق أهواءها ورتق أحواءها وأرسى جبالها ، إن لم تجبك أجابتك اعتبارا ، وإنما الذى يتوقف على الأذهان ويتحير فى قوله السامعون وتتعجب منه العقول : هو كيفية كلام الجادات والحيوانات الصامتات ؛ ففى هذا وقع الإنكار واضطرب النظار ، وكذب فى تصحيح وجوده ذو السمع من الاعتبار ، ولكن لتعلم أن تلقى الكلام للعقلاء ممن لم يعقل عنه فى المشهود يكون على جهات : من ذلك سماع الكلام الذاتى كما تتلقى من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ ، وذلك أكثر مايكون للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم فى بعض الأوقات ، كحنين الجذع للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان حجر يسلم عليه فى طريقه قبل مبعثه . ومنها تلقى الكلام فى حس السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ، ويعترى هذا سائر الحواس ، كمثل مايسمع النائم فى منامه من مثال شخص من غير مثال ، والمثال المرئى للنائم ليس له وجود فى سمعه . وأما مايجده غير النائم فى اليقظة فمنها خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحجر فى زمن عيسى ينادى المسلم : يامسلم ، خلفى يهودى فاقتله وإن لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطقا ويذهب عنه معنى الحجرية أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه ممن يستر عن الأبصار فى العادة من الملائكة والجن أو يكون كلام يخلقه الله عز وجل فى أذن السامع ليفيده العلم باختفاء اليهودى حتى يقتله ، وكما يقال فى العرض الأكبر يوم القيامة إذا نودى فيه باسم كل واحد على الخصوص وفى الخلائق مثل اسم المنادى به كثير . وقد قالت العلماء : إنه لا يسمع النداء فى ذلك الجمع إلا من نودى فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق للمنادى فى حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه فى اسمه ولا يكون نداء من خارج ، والأمثلة كثيرة فى الشرع ، وفيما سمعت غنية ومقنع . ومنها تلقى الكلام فى العقل وهو المستفاد بالمعرفة ، المسموع بالقلب ، المفهوم بالتقدير على اللفظ ، المسمى بلسان الحال كما قال قيس :

وأجهشت للتوباذ حين رأيته وكبر للرحمن حين رآنى فقلت له أين الذين عهدتهم
حواليك فى عيش وخفض زمان فقال مضوا واستودعونى بلادهم ومن ذا الذى يبقى على الحدثان

وفى أمثال العوام : قال الحائط للوتد : لم تشقنى ؟ فقال الوتد للحائط : سل من يدقنى فلو كانت العبارة تتأتى منها ما عبرت إلا بما قد استدير لها . وعلى هذا المعنى حمل كثير من العلماء قوله تعالى إخبارا عن السماء والأرض حين قالتا : ﴿ أتينا طائعين ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله صلى الله عليه وسلم « كأنى أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام عليه عباءتان قطوانيتان يلبي وتجيبه الجبال ، والله يقول : لبيك يا يونس » فقوله « كأنى » يدل على أنه تخيل حالة سبقت لم يكن لها فى الحال وجود ذاتى ، لأنّ يونس بن متى عليه السلام قدمات وتلك الحالة منه سلفت وفى هذا الحديث إخبار عن الوجود الخيالى فى البصر ، والوجود الخيالى فى السمع ، ومنها تلقى الكلام بالشبه : وهو أن يسمع السامع كلاما أو صوتا من شخص حاضر فيلقى عليه شبه غيره مما غاب عنه ، كقوله عليه السلام فى صوت أبى موسى الأشعرى إذ سمعه يترنم بالقرآن « لقد أعطى مزمارا من مزامير آل داود » ومزامير آل داود قد عدمت وذهبت . وإنما شبه صوته بها وكما إذا سمع المريد صوت مزمار أو عود لجأة على غير قصد يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها بما لجأ صوته من ذلك ، فهذه مراتب الوجود فأنت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها ولم يعترك غلط فى بعضها ببعض ، ولا اشتبهت عليك ، وسمعت عمن نظر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر فقال له : ما نال وجهك وقد كان أبيض أشقر مونقا والآن قد ظهر فيه السواد ، فلم سودت وجهك ؟ فقال : سل الحبر ، فإنه كان مجموعا فى المحبرة التى هى مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا ، فقال : صدقت . ثم أنت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات أعمل الفكر وحدد النظر وحل الكلام [illegible] أجزائه التى ينتظم منها جملة ما بلغت ؛ فسأل عن معنى الناظر ، ومعنى المشكاة ، ومعنى نور الله سبحانه ، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب ؟ وبأى لسان خاطب الكاغد ، وكيف مخاطبة الكاغد وهو ليس من أهل النطق ؟ وفيما صدق الناطق الكاغد ؟ ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد ؟ فيبدو لك ههنا من الناظر هو ناظر القلب فيما أورده عليه الحس ، والمشكاة استعارة من مشكاة الزجاجة التى أعمرت بسراج النار ، إلى خبر المعرفة الملقب بسر القلب شبيها بها ، لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى أشعلها بنوره ، ونوره المذكور ههنا عبارة عن صفاء الباطن واشتعال السر بطلوع نيران كواكب المعارف الذاهبة باذن الله تعالى بظلم جهالات القلوب ، ووجه إضافته إلى الله تعالى على سبيل الإشارة بالذكر لأجل التخصيص بالشرف ، والكاغد والحبر كناية عن أنفسهما لا عن غيرهما ، وجعلهما مبدأ طريقه وأول سلوكه إذ هما فى عالم الملك والشهادة الذى هو محل جولة الناظر فى حال نظره .

وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب ، فلأجل أنه كان أميا لا يقرأ الكتاب الصناعى ، وإنما يروم معرفة قراءة الخط الإلهى الذى هو أبين وأدل على الفهم منه . وأما مخاطبة الناظر الكاغد وهو : جماد فسبق الكلام على مثله ، ومراجعة الكاغد له فعلى قدر حال الناظر إن كان مرادا ، فيلقى الكلام فى الحس بما ينبئه عن المطلوب من الحق ، وهو من باب الإلقاء فى الروع فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة ، وإن كان مريدا فيتلقاه بلسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة والعقل ، وتصديق الناظر للكاغد فى عذره وإحالته على الحبر لم يكن لمجرد قوله ، بل بشهادة أولى الرضا والعدل وهو البحث والتجربة لم تكن وشهادة النفس ، وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها سئل عن أجزاء عالم الملك . وأما ماسمعته فى حد عالم الجبروت فذلك من القدرة المحدثة إلى العقل والعلم الموجودين فى الإنسان المستقرة فى القوة الوهمية المدركة جميع مالا يستدعى وجوده جسما ، ولكن قد يعرض له أنه فى جسم ، كما تدرك السخلة عداوة الذئب وعطف أمها فتتبع العطف وتنفر من العداوة . وأما ماسمعته فى حد عالم الملكوت وذلك من العلم الإلهى إلى ماوراء ذلك مما هو داخل فيه ومعدود منه ، فسر القلب الذى يأخذ به عن الملائكة ويسمع به ما بعد مكانه ورق معناه وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصوره ، فأما أى شىء حقائق هذه المذكورات وما كنه كل واحد منها على نحو معرفتك لأجزاء عالم الملك والشهادة ، فذلك علم لا ينتفع

بسماعه مع عدم المشاهدة ، والله قد عرفك بأسمائها ؛ فإن كنت مؤمنا فصدق بوجودها على الجملة لعلمك أنك لاتخبر بتسميات ليس لها مسميات إلى أن يلحقك الله بأولى المشاهدة وتحصل خالص الكرامات . ومن كفر فإن الله غنى حميد

(فصل) والفرق بين العلم المحسوس فى عالم الملك وبين العلم الإلهى فى عالم الملكوت : أن العلم قد اعتقدته جسما بطىء الحركة بالفعل ، سريع الانتقال بالهلاك مخلفا عن مثله فى الظاهر ، مجعولا تحت قهر سلطان الآدمى الضعيف الجاهل فى أكثر أوقاته ، متصرف بين أحوال متنافية كالعلم والجهل والعدل والظلم والشك والصدق والإفك ؛ فالعلم الإلهى عبارة عن خلق الله فى عالم الملكوت ، مختص بخلاف خصائص الجواهر الحسية الكائنة فى عالم الملك ، يرى من أوصاف ماسمى به القلم المحسوس كليا مصرفا بتميز الخالق بحكم إرادته على ماسبق به علمه فى أزل الآزل ، وإنما سمى بهذا الاسم لأجل شبهه بعمل ماسمى به ، غير أنه لايكتب إلا حقائق الحق ، والفرق بين يمين الآدمى ويمين الله عز وجل أن يمين الآدمى كما علمت مركبة من عصب استعصى بقاؤها ، وعضل تعضل أدواؤها ، وعظام يعظم بلاؤها ولحم ممتد وجلد غير جلد موصولة ، كشلها فى الضعف والانفعال ملقبة باليد وهى عاجزة على كل حال ، ويمين الله تعالى هى عند بعض أهل التأويل عبارة عن قدرته ، وعند بعضهم صفة لله تعالى غير قدرته وليست بجارحة ولا جسم ، وعند آخرين . أنها عبارة عن خلق لله هى واسطة بين القلم الإلهى الناقش العلوم المحدثة وغيرها ، وبين قدرته التى هى صفة له صرف بها اليمين الكاتبة بالقلم المذكور بالخط الإلهى المثبت على صفحات المخلوقات الذى ليس بعربى ولا عجمى ، يقرؤه الأميون إذا شرحت صدورهم ، وتستعجم على القارئين إذا كانوا عبيد شهواتهم ، ولم يشارك يمين الآدمى إلا فى بعض الأسماء لأجل الشبه اللطيف الذى بينهما بالفعل ، وتقريبا إلى كل ناقص الفهم ، عساه يعقل ما أنزل على رسل الله تعالى من الذكر .

(فصل) وحد عالم الملك ؛ ماظهر للحواس ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض وصحة التعبير . وحد عالم الملكوت ماأوجده سبحانه بالأمر الأزلى بلا تدريج ويبقى على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه . وحد عالم الجبروت هو مابين العالمين مما يشبه أن يكون فى الظاهر من عالم الملك فجيز بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت .

(فصل) ومعنى أن الله خلق آدم على صورته : فذلك على ماجاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وللعلماء فيه وجهان ؛ فمنهم من يرى للحديث سببا : وهو أن رجلا ضرب غلامه فرآه النبى صلى الله عليه وسلم ، فنهاه وقال : إن الله تعالى خلق آدم على صورته ، وتأولوا عود الضمير على المضروب ، وعلى هذا لايكون للحديث مدخل فى هذا الموضع لم يرده مورد آخر فى غير هذا الموطن ، ويكون الإيمان به إلى غير هذا المعنى المذكور فى السبب الحادث وإثباته فى غير موطن ذلك السبب المنقول مما يعز ويعسر ، فليبق المسبب على حاله ، ولينظر فى وجه الحديث غير هذا مما يحتمل ، ويحسن الاحتجاج به فى هذا الموطن ، والوجه الآخر : أن يكون الضمير الذى فى «صورته» عائدا إلى الله سبحانه ، ويكون معنى الحديث : أن الله خلق آدم على صورة هى إلى الله سبحانه ، وهذا العبد المضروب على صورة آدم ؛ فإذاً هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى ، ثم ينحصر بيان معنى الحديث ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة وعلى أى جهة يحمل فى الاعتقاد العمى على الله سبحانه ، ففيها وجهان : أحدهما أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والناقة واليمين على أحد الأوجه ، والوجه الآخر : أن تكون إضافة تخصيص به تعالى ، فمن حملها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بجملته ، وآدم مخلوق على مضاهاة صورة العالم الأكبر ، لكنه مختصر صغير ، فإن العالم إذا فصلت أجزاؤه بالعلم ، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثله ، وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر ، وإذا شابهت أجزاء جملة أجزاء جملة فالجملتان بلا شك متشابهتان ، فالذى نظر فى تحليل صورة العالم الأكبر فقسمه على أنحاء من القسمة وقسم آدم عليه السلام كذلك ، فوجد كل نحوين منهما شبيهين فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين : أحد القسمين ظاهر محسوس كعالم الملك ، والثانى : باطن معقول كعالم الملكوت ، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس كالعظم واللحم والدم وسائر أنواع الجواهر المحسوسة ، وإلى

باطن كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشباه ذلك ، وقسم آخر : وذلك أن العالم قد انقسم بالعوالم إلى عالم الملك وهو الظاهر للحواس ، وإلى عالم الملكوت وهو الباطن فى العقول ، وإلى عالم الجبروت وهو المتوسط الذى أخذ بطرف من كل عالم منهما ، والإنسان كذلك انقسم إلى ما شابه هذه القسمة ؛ فالمشابه لعالم الملك : الأجزاء المحسوسة وقد علمتها ، والمشابهة لعالم الملكوت فمثل الروح والعقل والقدرة والإرادة وأشباه ذلك ، والمشابه لعالم الجبروت فكالإدراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة بأجزائه . والوجه الثانى : أن يكون معناه كفر السامع لا للمخبر ، بخلاف الوجه الأول ، ويكون هذا مطابقا لحديث النبى صلى الله عليه وسلم « لا تحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله » فمن حدث أحداً بما لم يصله عقله ربما سارع إلى التكذيب وهو الأكثر ، ومن كذب بقدرة الله تعالى وبما أوجدتها فقد كفر ولو لم يقصد الكفر ؛ فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ما قصدت الكفر ولا تظنه بأنفسها وهى كفار بلا ريب ؛ وهذا وجه واضح قريب ، ولا تلتفت إلى ما مال إليه بعض من لا يعرف وجوه التأويل ولا يعقل كلام أولى الحكمة والراسخين فى العلم حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذى هو نقيض الإيمان والإسلام بتعلق مخبره وتلحق قائله ، وهذ لا يخرج إلا على مذاهب أهل الأهواء الذين يكفرون بالمعاصى ، وأهل السنن لا يرضون بذلك . وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر وعبد الله بالقول الذى ينزه به والعمل الذى يقصد به المتعبد لوجهه الذى يستزيد به إيمانا ومعرفة له سبحانه ، ثم يكرمه الله تعالى على ذلك بفوائد المزيد ويخيله ما شرف من المنح ويريه أعلام الرضا ، ثم يكفره أحد بغير شرع ولا قياس عليه ، والإيمان لا يخرج عنه إلا بنبذه واطراحه وتركه واعتقاد ما لا يتم الإيمان معه ولا يحصل بمقارنته ، وليس فى إفشاء سر الولى ما يحصل به تناقض الإيمان ، اللهم إلا أن يريد بإفشائه وقوع الكفر من السامع له فهذا عات متمرد وليس بولى ، ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله ، فهو لا محالة كافر . وعلى هذا يخرج قوله تعالى ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ ثم إنه من سب أحدا منهم على معنى ما يجد له من العداوة والبغضاء ، قيل له أخطأت وأثمت من غير تكفير ، وأنه أيما فعل ذلك وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر بالإجماع .

﴿ سؤال ﴾ فإن قيل . فما معنى قول سهل رحمه الله تعالى ونسب إليه : للإلهية سر لو انكشف لبطلت النبوات ، وللنبوات سر لو انكشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو انكشف بطلت الأحكام . وجاء فى الإحياء على أثر هذا القول ، وقائل هذا القول إن لم يرد به إبطال النبوة فى حق الضعفاء فما قالوا ليس بحق ، فإن الصحيح لا يتناقض والكامل من لا يطفئ نور معرفته ونور ورعه ، وهذا وإن لم يكن من الأسئلة المرسومة فهو متعلق منها بما فرع من الكلام فيها آنفا وناظر إليه ، إذ ما أدى إفشاؤه إلى إبطال النبوة والأحكام والعلم كفر ،

فالجواب ؛ أن الذى قاله رحمه الله وإن كان مستعجما فى الظاهر فهو قريب المسلك ، باد للمتأمل الذى يعرف مصادر أغراضهم ومسالك أقوالهم الإلهية . ومن وصل إليه اليقين الذى لولاه لم يكن نبيا لا يخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار الشمس التى هى غائبة عنها بأن كانت القلوب ضعيفة طرأ عليها من الدهش والاصطلام والحيرة والتيه ما يبهر العقول ويفقد الحس ويقطع عن الدنيا وما فيها وذلك لضعفه . ومن انتهى إلى هذه الحالة فتبطل النبوة فى حقه أن يعرفها أو يعقل ما جاء من قبلها ، إذ قد شغله عنها ما هو أعظم لديه منها ، وربما كان سبب موته لعجزه عن حمل ما يطرأ عليه ، كما حكى أن شابا من سالكى طريق الآخرة عرض عليه أبو يزيد ولم يره من قبل ، فلما رآه انكشف له ذلك وكان فى مقام الضعفاء من المريدين فلم يطق حمله فمات به ، وإما أن يكون انكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه ، فتبطل النبوة فى حق المخبر حين نهى أن لا يفشى فأفشى أو أمر أن لا يتحدث فلم يفعل ، فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبى صلى الله عليه وسلم فيها ، فلهذا قيل فى ذلك : بطلت النبوة فى حقه .

فإن قيل : فلم لا تكفروه على هذا الوجه إذا بطلت النبوة فى حقه بإخباره ؟ قلنا : ما بطلت فى حقه جميعا ، وإنما بطل فى حقه منها ما خالف الأمر الثابت من قبلها ، ويعد هذا من الكلام على تغليظ حق الإفشاء وقد سبق

الكلام عليه فى معنى : إفشاء سر الربوبية كفر . وأما سر النبوة الذى أوجب العلم لمن رزقها أو رزق معرفتها على الجملة ، إذ النبوة لا يعرفها بالحقيقة إلا نبى ، فإن انكشف ذلك لقلب أحد بطل العلم فى حقه بارتفاع المحنة له بالأمر المتوجه عليه بطلبه والبحث عنه والتفكر فيه ، فيكون كالنبى إذا سئل عن شىء لو وقعت له واقعة لم يحتج إلى النظر فيها ولا إلى البحث عنها ، بل ينتظر ما عود من كشف الحقائق بإخبار ملك أو ضرب مثل يفهم عنه أو اطلاع على اللوح المحفوظ أو إلقاء فى روع فيعود مخترعاته ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها ، ولا عرف خواصها ولا تنزه فى عجائبها ولا لاحظ الملكوت ببصر قلبه ، ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره ولبه ، ولا فهم أن الجنة أعلى النعيم وأن النار أقصى العذاب الأليم وأن النظر إليه منتهى الكرامات ، وأن رضاه وسخطه غاية الدرجات والدركات ، وأن منح المعارف والعلوم أسنى الهبات ، ويرى أن العالم بأسره أخرجه من العدم الذى هو نفى محض ، إلى الوجود الذى هو إثبات صحيح وقدره منازل وجعله الميقات ، فمن حى وميت ، ومتحرك وساكن ، وعالم وجاهل وشقى وسعيد ، وقريب وبعيد ، وصغير وكبير ، وجليل وحقير ، وغنى وفقير ، ومأمور وأمير ، ومؤمن وكافر ، وجاحد وشاكر ، وذكر وأنثى ، وأرض وسماء ، ودنيا وأخرى ، وغير ذلك مما لا يحصى ، والكل قائم به موجود بقدرته ، وباق بعلمه ومنته إلى أجله ، ومصرف بمشيئته ، وذلك على بالغ حكمته ، فما أكمل جهل من لا يجد به إلا قدماه ، ولا من يصرفه إلا استبداده ولا ملكه إلا ملكه ، فيعود المحدث قديما والمربوب ربا والمملوك مالكا ، فيعود الخلق من خلق الله كهو ، تعالى الله عن جهل الجاهلين وتخييل المعتوهين وزيغ الزائغين .

(فصل) وأما حكم هذه العلوم المكتوبة فى الطلب وسلوك هذه المقامات ورفق هذه الدرجات واستفهام هذه المخاطبات ، أهى من قبيل الواجبات والمندوبات أو المباحات ، فاعلم أن المسئول عنه على ضربين ، أحدهما : ما هو فى حكم المبادى والثانى فى حكم الغايات ، فأما الذى هو فى حكم المبادى فطلبه فرض على كل أحد بقدر بذل المجهود وإفراغ الوسع وجميع ما يقدر عليه من العبادة ، وذلك ما تضمنه أصول علم المعاملة ، مثل إخلاص التوحيد والصدق فى العمل وعدم الإجحاف بالخوف والرجاء والتزين بالصبر والشكر ، لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الأمر والنهى واجبة . قال الله تعالى ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وقد سبق التنبيه عليه .

أما الذى هو حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالإثبات والتوكل بالتجريد وحقيقة علم معانى التوحيد وسبر معانى التقرير وأوصاف أهل أبيات اليقين ، فهو درجات ومقامات ومنازل ومراتب ومنح يخص الله تعالى بها من شاء من عباده من غير أن ينال بطلب ولا بحث ولا تعليم ، ولو كان ذلك لما قيل للناظر السالك حين أراد الارتقاء إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال ارجع لا تتخطر رقاب الصديقين ، لكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته وولايته ، وهى مراتب الصدق فى العلم وبركات الإخلاص فى العمل ، فمن لم يرث من علمه وعمله المفترض عليه فطلبه والعمل به شتان من هذه المعانى ، فليس فى شىء من الحقيقة وإن كان حقا ، غير أن حاله معلول . إما مفتون بدنياه أو محجوب بهواه ، وربك على كل شىء قدير .

(فصل) وأما لأى شىء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات ، وبالرموز دون التصريحات ، وبالمتشابه من الألفاظ دون المحكمات ، وإن كان قد سبق هذا من الشارع فيما له أن يمتحن به من كاف ويتلو من بعيد ولكن للعلم رجال مخصوصون ، فما بال من لم يجعل شارعا ولم يبعث لغير أن يسلك ذلك .

والجواب عنه أن العالم هو وارث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإنما ورث العلم ليتجمل بعمله ويحل فيه كمحله والنبى صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ﴿ إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ﴾ وحكم الوارث فيما ورث حكم الموروث فيما ورث عنه فما عرف فيه الحكم من فعل الموروث عنه امتثله وما لم يصل إليه فيه شىء كان له اجتهاده فإن أخطأ كان له أجر وإن أصاب كان له أجران ثم إن الوارث رأى النبى صلى الله عليه وسلم يصرح بعلوم المعاملات وأشار بما وراءها بما لا يفهمه إلا أرباب التخصيص كما قال الله عز وجل ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ فلم

يكن للوارث تعد عن حكم الموروث ، كما حكى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إنى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أحدهما هو الذى بثثته فيكم ، وأما الثانى فلو بثثته لحز تم السكين على هذا البلعوم وأشار إلى حلقه ، وبعد كل شيء : فى القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه النجاة ، وفى اتباعه الفوز بحب الله ويد الله مع الجماعة ، وفوق كل ذى علم عليم وقد أفدناك من طرائف ماعندنا وأهدينا إليك من غرائب مالدينا ؛ وإلى الله يرد العلم بما دق وجل وكثر وقل وعظم وصغر وظهر واستتر ، وإنما ينطق الإنسان بما أنطقه الله تعالى وهو مستعمل بما استعمله فيه ، إذ كل ميسر لما خلق له ؛ فاستنزل ما عند ربك وخالقك من خير ، واستجلب ماتؤمله منه من هداية وبر بقراءة السبع المثانى والقرآن العظيم التى أمرت بقراءتها فى كل صلاة وكذا عليك أن تعيدها فى كل ركعة ، وأخبرك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أن ليس فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان مثلها وفى هذا تنبيه بل تصريح بأن يكثر منها بما ضمنت من الفوائد وخصت به من الذخائر والعوائد ، بما لو سطر لكان فيه أوقار الجمال ، فافهم وانتبه واعقل ما خلقت له ، واعرف ما أعد لك ، والله تعالى سبحانه حسيب من أراده ، وهادى من جاهد فى سبيله ، وكاف من توكل عليه ، وهو الغنى الكريم .

انتهى الجواب عما سألت عنه وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام ، ونسأل الله تعالى المباعدة بين حيلات قلوب البشر ، وأن يصرف عنا حجب الكدورات والأهواء ومراتب الغين ، فبيده مجارى المقدورات وهو الله من ظهر وغبر وإليه يرجع من آمن وكفر ، ومجازى الخلائق بنعيم أو سقر ، والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر وكافى الضرر ، وعلى آله السادات الغرر ، وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين .

تم كتاب الإملاء فى مشكلات الإحياء

كتاب عوارف المعارف



الحمد لله العظيم شأنه القوى سلطانه ، الظاهر إحسانه الباهر حجته وبرهانه ، المحتجب بالجلال والمنفرد بالكمال ، والمتردى بالعظمة فى الآباد والآزال ، لا يصوره وهم وخيال ، ولا يحصره حد ومثال ، ذى العز الدائم السرمدى ، والملك القائم الديمومى ، والقدرة الممتنع إدراك كنهها ، والسطوة المستوعر طريق استيفاء وصفها ، نطقت الكائنات بأنه الصانع المبدع ، ولاح من صفات ذرات الوجود بأنه الخالق المخترع ، وسم عقل الإنسان بالعجز والنقصان ، وألزم فصيحات الألسن وصف الحصر فى حلبة البيان ، وأحرقت سبحات وجهه الكريم أجنحة طائر الفهم ، وسدت تعززا وجلالا مسالك الوهم ، وأطرق طامح البصيرة تعظيما وإجلالا ، ولم يجد من فرط الهيبة فى فضاء الجبروت مجالا ، فعاد البصر كليلا والعقل عليلا ، ولم ينتهج إلى كنه الكبرياء سبيلا ؛ فسبحان من عزت معرفته لولا تعريفه ، وتعذر على العقول تحديده وتكييفه ؛ ثم ألبس قلوب الصفوة من عباده ملابس العرفان ، وخصهم من بين عباده بخصائص الإحسان ؛ فصارت ضمائرهم من مواهب الأنس مملوءة ، ومرائى قلوبهم بنور القدس مجلوة ؛ فتهيأت لقبول الأمداد القدسية ، واستعدت لورود الأنوار العلوية ، واتخذت من الأنفاس العطرية بالأذكار جلاسا ، وأقامت على الظاهر والباطن من التقوى حراسا ، وأشعلت فى ظلم البشرية من اليقين نبراسا ، واستحقرت فوائد الدنيا ولذاتها ، وأنكرت مصايد الهوى وتبعاتها ، وامتطت غوارب الرغبوت والرهبوت ، واستفرشت بعلو همتها بساط الملكوت وامتدت إلى المعالى أعناقها ، وطمحت إلى اللامع العلوى أحداقها ، واتخذت من الملإ الأعلى مسامرا ومحاورا ، ومن النور الأعز الأقصى مزاورا ومجاورا ، أجساد أرضية بقلوب سماوية ، وأشباح فرشية بأرواح عرشية ، نفوسهم فى منازل الخدمة سيارة ، وأرواحهم فى فضاء القرب طيارة ، مذاهبهم فى العبودية مشهورة ، وأعلامهم فى أقطار الأرض منشورة ، يقول الجاهل بهم : فقدوا ، ومافقدوا ، ولكن سمت أحوالهم فلم يدركوا ، وعلا مقامهم فلم يملكوا ، كائنين بالجثمان بائنين بقلوبهم عن أوطان الحدثان ، لأرواحهم حول العرش تطواف ، ولقلوبهم من خزائن البر إسعاف ، يتنعمون بالخدمة فى الدياجر ، ويتلذذون من وهيج الطلب بظمأ الهواجر ، تسلوا بالصلوات عن الشهوات . وتعوضوا بحلاوة التلاوة عن اللذات ، يلوح من صفحات وجوههم بشر الوجدان ، وينم على مكنون سرائرهم نضارة العرفان ، لا يزال فى كل عصر منهم علماء بالحق ؛ داعون للخلق ، منحوا بحسن المتابعة رتبة الدعوة ، وجعلوا للمتقين قدوة ؛ فلا يزال تظهر فى الخلق آثارهم ، وتزهر فى الآفاق أنوارهم ، من اقتدى بهم اهتدى ، ومن أنكرهم ضل واعتدى ، فلله الحمد على ما هيأ للعباد من بركة خواص حضرته من أهل الوداد ، والصلاة على نبيه ورسوله محمد وآله وأصحابه الأكرمين الأمجاد .

ثم إن إيثارى لهدى هؤلاء القوم ومحبتى لهم ، علما بشرف حالهم وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة المتحقق بهما من الله الكريم الفضل والمنة ، حدانى أن أذهب عن هذه العصابة ، بهذه الصبابة ، وأؤلف أبوابا فى الحقائق

والآداب معربة عن وجه الصواب فيما اعتمدوه، مشعرة بشهادة صريح العلم لهم فيما اعتقدوه، حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم، وتستر بزيهم المتسترون وفسدت أعمالهم، وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول سلفهم سوء ظن، وكاد لا يسلم من وقيعة فيهم وطعن، ظنا منه أن حاصلهم راجع إلى مجرد رسم، وتخصصهم عائد إلى مطلق اسم.

وبما حضرنى فيه من النية : أن أكثر سواد القوم بالاعتزاء إلى طريقهم والإشارة إلى أحوالهم ؛ وقد ورد « من كثر سواد قوم فهو منهم » وأرجو من الله الكريم صحة النية وتخليصها من شوائب النفس، وكل ما فتح الله تعالى على فيه منح من الله الكريم وعوارف، وأجل المنح عوارف المعارف.

والكتاب يشتمل على نيف وستين بابا والله المعين (الباب الأول) فى منشأ علوم الصوفية (الباب الثانى) فى تخصيص الصوفية بحسن الاستماع. (الباب الثالث) فى بيان فضيلة علم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها (الباب الرابع) فى شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم فيها (الباب الخامس) فى ذكر ماهية التصوف (الباب السادس) فى ذكر تسميتهم بهذا الاسم. (الباب السابع) فى ذكر المتصوّف والمتشبه (الباب الثامن) فى ذكر الملامتى وشرح حاله (الباب التاسع) فى ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم (الباب العاشر) فى شرح رتبة المشيخة (الباب الحادى عشر) فى شرح حال الخادم ومن يتشبه به (الباب الثانى عشر) فى شرح خرقة المشايخ (الباب الثالث عشر) فى فضيلة سكان الربط (الباب الرابع عشر) فى مشابهة أهل الربط بأهل الصفة (الباب الخامس عشر) فى خصائص أهل الربط فيما يتعاهدونه بينهم (الباب السادس عشر) فى اختلاف أحوال المشايخ بالسفر والمقام (الباب السابع عشر) فيما يحتاج المسافر إليه من الفرائض والنوافل والفضائل (الباب الثامن عشر) فى القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه (الباب التاسع عشر) فى حال الصوفى المتسبب (الباب العشرون) فى حال من يأكل من الفتوح (الباب الحادى والعشرون) فى شرح حال المتجرد من الصوفية والمتأهل (الباب الثانى والعشرون) فى القول والسماع قبولا وإيثارا (الباب الثالث والعشرون) فى القول فى السماع ردا وإنكارا (الباب الرابع والعشرون) فى القول فى السماع ترفعا واستغناء (الباب الخامس والعشرون) فى السماع تأدبا واعتناء (الباب السادس والعشرون) فى خاصية الأربعينية التى يتعاهدها الصوفية (الباب السابع والعشرون) فى ذكر فتوح الأربعينية (الباب الثامن والعشرون) فى كيفية الدخول فى الأربعينية (الباب التاسع والعشرون) فى ذكر أخلاق الصوفية وشرح الخلق (الباب الثلاثون) فى ذكر تفاصيل الأخلاق (الباب الحادى والثلاثون) فى الأدب ومكانه من التصوف (الباب الثانى والثلاثون) فى آداب الحضرة لأهل القرب (الباب الثالث والثلاثون) فى آداب الطهارة ومقدماتها (الباب الرابع والثلاثون) فى آداب الوضوء وأسراره (الباب الخامس والثلاثون) فى آداب أهل الخصوص والصوفية فيه (الباب السادس والثلاثون) فى فضيلة الصلاة وكبر شأنها (الباب السابع والثلاثون) فى وصف صلاة أهل القرب (الباب الثامن والثلاثون) فى ذكر آداب الصلاة وأسرارها (الباب التاسع والثلاثون) فى فضل الصوم وحسن أثره (الباب الأربعون) فى أحوال الصوفية فى الصوم والإفطار (الباب الحادى والأربعون) فى آداب الصوم ومهامه. (الباب الثانى والأربعون) فى ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة. (الباب الثالث والأربعون) فى آداب الأكل. (الباب الرابع والأربعون) فى ذكر آدابهم فى اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه. (الباب الخامس والأربعون) فى ذكر فضل قيام الليل. (الباب السادس والأربعون) فى الأسباب المعينة على قيام الليل. (الباب السابع والأربعون) فى آداب الانتباه من النوم والعمل بالليل. (الباب الثامن والأربعون) فى تقسيم قيام الليل (الباب التاسع والأربعون) فى استقبال النهار والأدب فيه (الباب الخمسون) فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات (الباب الحادى والخمسون) فى آداب المريد مع الشيخ (الباب الثانى والخمسون) فيما يعتمده الشيخ مع الأصحاب والتلامذة. (الباب الثالث والخمسون) فى حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر. (الباب الرابع والخمسون) فى أداء حقوق الصحبة والأخوة فى الله تعالى. (الباب الخامس والخمسون) فى آداب

الصحبة والأخوة (الباب السادس والخمسون) في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك . (الباب السابع والخمسون) في معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها . (الباب الثامن والخمسون) في شرح الحال والمقام والفرق بينهما (الباب التاسع والخمسون) في الإشارة إلى المقامات على الاختصار والإيجاز . (الباب الستون) في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب . (الباب الحادي والستون) في ذكر الأحوال وشرحها (الباب الثاني والستون) في شرح كلمات من اصطلاح الصوفية مشيرة إلى الأحوال (الباب الثالث والستون) في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها

فهذه الأبواب نحرر بعون الله تعالى مشتملة على بعض علوم الصوفية وأحوالهم ، ومقاماتهم وآدابهم ، وأخلاقهم وغرائب مواجيدهم ، وحقائق معرفتهم وتوحيدهم ، ودقيق إشاراتهم ولطيف اصطلاحاتهم ، فعلومهم كلها إنباء عن وجدان ، واعتزاء إلى عرفان ، وذوق تحقق بصدق الحال . ولم يف باستيفاء كنهه صريح المقال ؛ لأنها مواهب ربانية ، ومنائح حقانية ، استنزلها صفاء السرائر ، وخلوص الضمائر ، فاستمعست بكنهها على الإشارة ، وطفحت على العبارة ، وتهادتها الأرواح بدلالة التشام والائتلاف ، وكرعت حقائقها من بحر الألطاف ، وقد اندرس كثير من دقيق علومهم كما انطمس كثير من حقائق رسومهم . وقد قال الجنيد رحمه الله : علمنا هذا قد طوى بساطه منذ كذا سنة ، ونحن نتكلم في حواشيه بعد هذا القول منه في وقته مع قرب العهد بعلماء السلف وصالحي التابعين ، فكيف بنا مع بعد العهد وقلة العلماء الزاهدين ، والعارفين بحقائق علوم الدين ، والله المأمول أن يقابل جهد المقل بحسن القبول ، والحمد لله رب العالمين

الباب الأول : في ذكر منشأ علوم الصوفية

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهروردي إملاء من لفظه في شوال سنة ستين وخمسمائة . وقال : أنبأنا الشريف نور الهدى أبو طالب الحسين بن محمد الزينبي . قال : أخبرتنا كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية المجاورة بمكة حرسها الله تعالى . قالت : أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي الكشميهني . قال أنبأنا أبو عبد الله محمد ابن يوسف الفربري قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري . قال حدثنا أبو كريب . قال : حدثنا أبو أسامة عن بريد ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال : ياقومي ، إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ؛ فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق » . معنى اجتاحهم : استأصلهم ، ومن ذلك الجائحة التي تفسد الثمار ، وقال صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها طائفة أخاذات أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا . وكانت منها طائفة أخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

قال الشيخ : أعد الله تعالى لقبول ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصفى القلوب وأزكى النفوس ، فظهر تفاوت الصفاء واختلاف التزكية في تفاوت الفائدة والنفع ؛ فمن القلوب ما هو بمثابة الأرض الطيبة التي أنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وهذا مثل من انتفع بالعلم في نفسه واهتدى ، ونفعه عليه وهداه إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن القلوب ما هو بمثابة الأخاذات - أي الغدران : جمع أخاذة ، وهو المصنع والغدير الذي يجتمع فيه الماء - فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ زكت وقلوبهم صفت ، فاختصت بمزيد الفائدة فصاروا أخاذات ، قال مسروق صحبت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالأخاذات ؛ لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم .

أخبرنا الشيخ الإمام رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة ، قال أنبأنا أبو سعيد محمد الخليلى وقال أنبأنا القاضى أبو سعيد محمد الفرخزاذى ، قال أنبأنا أبو اسحق أحمد بن محمد الثعالبى ، قال أنبأنا ابن فنجويه ، قال حدثنا ابن حبان ، قال حدثنا إسحق بن محمد ، قال حدثنا أبى ، قال حدثنا إبراهيم بن عيسى ، قال حدثنا على بن على ، قال حدثنا أبو حمزة الثمالى ، قال حدثنى عبدالله بن الحسن ، قال : حين نزلت هذه الآية ﴿وتعيها أذن واعية﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك ياعلى . قال على : فما نسيت شيئا بعد ، وما كان لى أن أنسى قال أبو بكر الواسطى : آذان وعت عن الله تعالى أسراره

وقال أيضا : واعية فى معادنها ليس فيها غير ما شهدته شىء ، فهى الخالية عما سواه فما اضطراب الطبائع إلا ضرب من الجهل ؛ فقلوب الصوفية واعية ؛ لأنهم زهدوا فى الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى ، فبالتقوى زكت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم ؛ فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد : تفتحت مسام بواطنهم ، وسمعت آذان قلوبهم ، وأعانهم على ذلك زهدهم فى الدنيا ، فعلماء التفسير وأئمة الحديث وفقهاء الإسلام أحاطوا علما بالكتاب والسنة واستنبطوا منهما الأحكام ، وردوا الحوادث المتجددة إلى أصول من النصوص ، وحمى الله بهم الدين ، وعرف علماء التفسير وجه التفسير وعلم التأويل ، ومذاهب العرب فى اللغة وغرائب النحو والتصريف وأصول القصص ، واختلاف وجوه القراءة وصنفوا فى ذلك الكتب ، فاتسع بطريقتهم علوم القرآن على الأمة ، وأئمة الحديث ميزوا بين الصحاح والحسان ، وتفردوا بمعرفة الرواة وأسامى الرجال ، وحكموا بالجرح والتعديل ليتبين الصحيح من السقيم ويتميز المعوج من المستقيم ، فيتحفظ بطريقهم طريق الرواية والسند حفظا للسنة وانتدب الفقهاء لاستنباط الأحكام والتفريع فى المسائل ، ومعرفة التعليل ورد الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع ، واستيعاب الحوادث بحكم النصوص وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه وعلم الخلاف ، وتفرع من علم الخلاف علم الجدل ، وأحوج علم أصول الفقه إلى شىء من علم أصول الدين ، وكان من علمهم علم الفرائض ، ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة ، إلى غير ذلك ، فتمهدت الشريعة وتأيدت ، واستقام الدين الحنيفى وتفرع ، وتأصل الهدى النبوى المصطفوى فأنبتت أراضى قلوب العلماء الكلأ والعشب بما قبلت من مياه الحياة من الهدى والعلم قال الله تعالى ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : الماء العلم ، والأودية القلوب . قال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه : خلق الله تعالى درة صافية فلاحظها بعين الجلال ، فذابت حياء منه فسالت ، فقال ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليها وقال ابن عطاء ﴿أنزل من السماء ماء﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد ، وذلك إذا سال السيل فى الأودية لا يبقى فى الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها كذلك إذا سال النور الذى قسمه الله تعالى للعبد فى نفسه لا تبقى فيه غفلة ولا ظلمة ﴿أنزل من السماء ماء﴾ يعنى قسمة النور ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ يعنى فى القلوب الأنوار على ما قسم الله تعالى لها فى الأزل ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾ فتصير القلوب منورة لا تبقى فيها جفوة ﴿وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض﴾ تذهب البواطل وتبقى الحقائق . وقال بعضهم ﴿أنزل من السماء ماء﴾ أنواع الكرامات ، فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه ، فسالت أودية قلوب علماء التفسير والحديث والفقه بقدرها ، وسالت أودية قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين فى الدنيا المتمسكين بحقائق التقوى بقدرها ، فمن كان فى باطنه لوث محبة الدنيا من فضول المال والجاه وطلب المناصب والرفعة سال وادى قلبه بقدره ، فأخذ من العلم طرفا صالحا ولم يحظ بحقائق العلوم ومن زهد فى الدنيا اتسع وادى قلبه فسالت فيه مياه العلوم واجتمعت وصارت أخاذات .

قيل للحسن البصرى : هكذا قال الفقهاء ، فقال : وهل رأيت فقيها قط ، إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، فالصوفية أخذوا حظا من علم الدراسة فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم ، فلما عملوا بما علموا أفادهم العمل علم الوراثة ؛ فهم مع سائر العلماء فى علومهم وتميزوا عنهم بعلوم زائدة هى علوم الوراثة ؛ وعلم الوراثة هو الفقه فى الدين قال الله تعالى ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ فصار الإنذار مستفادا من

الفقه . والإنذار : إحياء المنذر بماء العلم ؛ والإحياء بالعلم رتبة الفقيه فى الدين ؛ فصار الفقه فى الدين من أكمل المراتب وأعلاها ، وهو العالم الزاهد فى الدنيا المتق الذى يبلغ رتبة الإنذار بعلمه ؛ فورد العلم والهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا ، ورد عليه الهدى والعلم من الله تعالى فارتوى بذلك ظاهرا وباطنا ، فظهر من ارتوائه ظاهره الدين، والدين : هو الانقياد والخضوع ، مشتق من الدون ؛ فكل شىء اتضع فهو دون ؛ فالدين : أن يضع الإنسان نفسه لربه . قال الله تعالى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ فبالتفرق فى الدين يستولى الذبول على الجوارح وتذهب عنها نضارة العلم؛ والنضارة فى الظاهر بتزيين الجوارح بالانقياد فى النفس والمال ، مستفاد من ارتواء القلب ، والقلب فى ارتوائه بالعلم بمثابة البحر فصار قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والهدى بحرا مواجا . ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس ، فظهر على نفسه الشريفة نضارة العلم وريه ، فتبدلت نعوت النفس وأخلاقها . ثم وصل إلى الجوارح جدول فصارت ريانة ناضرة ، فلما استتم نضارة وامتلأ ريا بعثه الله تعالى إلى الخلق ؛ فأقبل على الأمة بقلب مواج بمياه العلوم ، واستقبل جداول الفهوم ، وجرى من بحره فى كل جدول قسط ونصيب ، وذلك القسط الواصل إلى الفهوم هو الفقه فى الدين . روى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما عبد الله عز وجل بشىء أفضل من فقه فى الدين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد . ولكل شىء عماد ، وعماد هذا الدين الفقه » .

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب إملاء ، قال حدثنا أبو طالب الزينى ، قال أخبرتنا كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم ، قال أخبرنا الفربرى ، قال أخبرنا البخارى ، قال حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن عبد الحميد بن عبدالرحمن ، قال: سمعت معاوية خطيباً يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى » قال الشيخ : إذا وصل العلم إلى القلب انفتح بصر القلب فأبصر الحق والباطل وتبين له الرشد من الغى ، ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأعرابى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ قال الأعرابى : حسبى حسبى ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فقه الرجل » . وروى عبدالله بن عباس : أفضل العبادة الفقه فى الدين . والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب فقال ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ فلما فقهوا علموا ولما علموا عملوا ، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفوا اهتدوا ، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة وأكثر انقياد المعالم الدين ، وأوفر حظا من نور اليقين ، فالعلم جملة موهوبة من الله للقلوب ، والمعرفة تميز تلك الجملة ، والهدى وجدان القلوب ذلك ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لما قال « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم » أخبر أنه وجد القلب النبوى العلم وكان هاديا مهديا ، وعلمه صلوات الله عليه منها وراثة معجونة فيه من ادم أبى البشر صلى الله عليه وسلم حيث علم الأسماء كلها ، والأسماء سمة الأشياء ؛ فكرمه الله تعالى بالعلم . وقال تعالى ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فآدم لما ركب فيه من العلم والحكمة صار ذا الفهم والفطنة والمعرفة والرأفة واللطف والحب والبغض والفرج والغم والرضا والغضب والكياسة ، ثم اقتضاه استعمال كل ذلك وجعل لقلبه بصيرة واهتداء إلى الله تعالى بالنور الذى وهب له ، فالنبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى الأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة ، وقيل : لما خاطب الله السموات والأرض بقوله ﴿ ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ نطق من الأرض وأجاب موضع الكعبة ، ومن السماء ما يحاذيها . وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنها : أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرة الأرض بمكة ، فقال بعض العلماء · هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض ذرة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن موضع الكعبة دحيت الأرض ، فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأصل فى التكوين ، والكائنات تبع له . وإلى هذا إشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » وفى رواية « بين الروح والجسد » وقيل لذلك سمى أميا ، لأن مكة أم القرى وذرته أم الخليقة ، وتربة الشخص مدفنه ، فكان يقتضى أن يكون مدفنه بمكة حيث كانت تربته منها ، ولكن قيل : إن الماء لما

تموج رمى الزبد إلى النواحى ، فوقعت جوهرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يحاذى تربته بالمدينة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكيا مدنيا حنينه إلى مكة وتربته بالمدينة ، والإشارة فيما ذكرناه من ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو ما قال الله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وورد فى الحديث « إن الله تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة الذر » ، استخرج الذر من مسام شعر آدم ، فخرج الذر كخروج العرق ، وقيل : كان المسح من بعض الملائكة فأضاف الفعل إلى المسبب . وقيل معنى القول بأنه مسح أى أحصى الأرض بالمساحة ، وكان ذلك ببطن نعمان واد بجنب عرفة بين مكة والطائف ، فلما خاطب الذر أجابوا ببلى كتب العهد فى رق أبيض وأشهد عليه الملائكة وألقم الحجر الأسود ؛ فكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى المجيبة من الأرض ، والعلم والهدى فيه معجونان ، فبعث بالعلم والهدى موروثا له وموهوبا . وقيل : لما بعث الله جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فأبت ، حتى بعث الله عزرائيل فقبض قبضة من الأرض ، وكان إبليس قد وطئ الأرض بقدميه فصار بعض الأرض بين قدميه وبعض الأرض بين موضع أقدامه ، فخلقت النفس مما مس قدم إبليس فصارت مأوى الشر وبعضها لم يصل اليه قدم إبليس ، فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء ، وكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يمسها قدم إبليس ، فلم يصبه حظ الجهل ، بل صار منزوع الجهل موفراً حظه من العلم ، فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم ، وانتقل من قلبه إلى القلوب ، ومن نفسه إلى النفوس ، فوقعت المناسبة فى أصل طهارة الطينة ، ووقع التأليف بالتعارف الأول ؟ فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة كان أوفر حظا من قبول ما جاء به ، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة فأخذت من العلم حظا وافرا وصارت بواطنهم أخاذات ، فعلموا وعلموا « كالأخاذ الذى يسقى منه ويزرع منه » ، وجمعوا بين فائدة علم الدراسة وعلم الوراثة بإحكام أساس التقوى ، ولما تزكت النفوس انجلت مرايا قلوبهم بما صقلها من التقوى ، فانجلى فيها صور الأشياء على هيئتها وماهيتها ، فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها ، وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها ، فلما زهدوا فى الدنيا انصبت إلى بواطنهم أقسام العلوم انصبابا ، وانضاف إلى علم الدراسة علم الوراثة .

واعلم أن كل حال شريف نعزوه إلى الصوفية فى هذا الكتاب هو حال المقرب ، والصوفى هو المقرب ، وليس فى القرآن اسم الصوفى ، واسم الصوفى ترك ووضع للمقرب على ما سنشرح ذلك فى بابه . ولا يعرف فى طرفى بلاد الإسلام شرقا وغربا هذا الاسم لأهل القرب ، وإنما يعرف للمترسمين ، وكم من الرجال المقربين فى بلاد المغرب وبلاد تركستان وما وراء النهر ولا يسمون صوفية ، لأنهم لا يتزيون بزى الصوفية ، ولا مشاحة فى الألفاظ فيعلم أنا نعنى بالصوفية المقربين ، فمشايخ الصوفية الذين أسماؤهم فى الطبقات وغير ذلك من الكتب كلهم كانوا فى طريق المقربين وعلومهم علوم أحوال المقربين ، ومن تطلع إلى مقام المقربين من جملة الأبرار فهو متصوف ما لم يتحقق بحالهم ، فإذا تحقق بحالهم صار صوفيا ، ومن عداهما ممن تميز بزى ونسب إليهم فهو متشبه ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ .

الباب الثانى : فى تخصيص الصوفية بحسن الاستماع

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى إملاء ، قال أخبرنا أبو منصور المقرى : قال أخبرنا الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب : قال أخبرنا أبو عمرو الهاشمى قال أخبرنا أبو على اللؤلؤى قال أخبرنا أبو داود السجستانى ، قال حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى عن شعبة ، قال حدثنى عمر بن سليمان من ولد عمر ابن الخطاب ، عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نضر الله امرءاً سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه وليس بفقيه » أساس كل خير حسن الاستماع ، قال الله تعالى ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ﴾ يقول بعضهم : علامة الخير فى السماع أن يسمع العبد بفناء أوصافه ونعوته ، ويسمعه بحق من حق . وقال بعضهم : لو علمهم أهلا للسماع لفتح آذانهم للاستماع ، فمن تملكته الوساوس وغلب على باطنه

حديث النفس لايقدر على حسن الاستماع ؛ فالصوفية وأهل القرب لما علموا أن كلام الله تعالى ورسائله إلى عباده ومخاطباته إياهم رأوا كل آية من كلامه تعالى بحرا من أبحر العلم بما تتضمن من ظاهر العلم وباطنه وجليه وخفيه ، وبابا من أبواب الجنة باعتبار ماتنبه أو تدعو إليه من العمل .

ورأوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم - الذى لا ينطق به عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى - من عند الله تعالى يتعين الاستماع إليه ؛ فكان من أهم ماعندهم الاستعداد للاستماع ، ورأوا أن حسن الاستماع قرع باب الملكوت واستنزال بركة الرغبوت والرهبوت ورأوا أن الوسواس أدخنة ثائرة من نار النفس الأمارة بالسوء ، وقتام يترا كم من نفث الشيطان ، وأن الحظوظ العاجلة والأقسام الدنيوية التى هى مناط الهوى ومثار الردى بمثابة الحطب الذى تزداد النار به تأججا ويزداد القلب به تحرجا ، فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها ، فلما انقطعت عن نار النفس أحطابها ، وفترت نيرانها وقل دخانها ، شهدت بواطنهم وقلوبهم مصادر العلوم ، فهيئوا مواردها بصفاء الفهوم ، فلما شهدوا سمعوا . قال الله تعالى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ قال الشبلى رحمه الله : موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لايغفل عنه طرفة عين ، قال يحيى بن معاذ الرازى : القلب قلبان ، قلب قد احتشى بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه مايصنع من شغل قلبه بالدنيا ، وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه مايصنع لذهاب قلبه فى الآخرة فانظر كم بين بركة تلك الأفهام الثابتة وشؤم هذه الأشغال الفانية التى أقعدتك عن الطاعة ؟! قال بعضهم : لمن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراض . قال الحسين بن منصور : لمن كان له قلب لايخطر فيه إلا شهود الرب ، وأنشد :

أنعى إليك قلوبا طالما هطلت   سحائب الوحى فيها أبحر الحكم

وقال ابن عطاء : قلب لاحظ الحق بعين التعظيم ، فذاب له وانقطع إليه عما سواه . قال الواسطى : أى لذكرى لقوم مخصوصين لا لسائر الناس ، لمن كان له قلب : أى فى الأزل وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ﴾ وقال أيضا : المشاهدة تذهل ، والحجبة تفهم ، لأن الله تعالى إذا تجلى لشىء خضع له وخشع ، وهذا الذى قاله الواسطى صحيح فى حق أقوام ، وهذه الآية تحكم بخلاف هذه الأقوام آخرين وهم أرباب التمكين يجمع لهم بين المشاهدة والفهم فموضع الفهم محل المحادثة والمكالمة ، وهو سمع القلب ، وموضع المشاهدة بصر القلب ، وللسمع حكمة وفائدة ، وللبصر حكمة وفائدة ، فمن هو فى سكر الحال يغيب سمعه فى بصره ، ومن هو فى حال الصحو والتمكين لايغيب سمعه فى بصره لتملكه ناصية الحال ويفهم بالوعاء الوجودى المستعد لفهم المقال ، لأن الفهم مورد الإلهام ، والسماع والإلهام يستدعيان وعاء وجوديا وهذا الوجود موهوب منشأ إنشاء ثانيا للمتمكن فى مقام الصحو وهو غير الوجود الذى يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة لمن جاز على ممر الفناء إلى مقار البقاء .

وقال ابن سمعون ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ يعرف آداب الخدمة وآداب القلب ، وهى ثلاثة أشياء ، فالقلب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة ، فمن وقف على شهوته وجد ثلث الأدب ، ومن افتقر إلى مالم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد فقد وجد ثلثى الأدب ، والثالث : امتلاء القلب ، فالذى بدأ بالفضل عند الوفاء تفضلا فقد وجد كل الأدب .

قال محمد بن على الباقر : موت القلب من شهوات النفس ، فكلما رفض شهوات نال من الحياة بقسطها ، فالسماع للأحياء لا للأموات . قال الله تعالى ﴿ إنك لاتسمع الموتى ﴾ .

قال سهل بن عبدالله القلب رقيق تؤثر فيه الخطرات المذمومة ، وأثر القليل عليه كثير . قال الله تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ فالقلب عمال لايفتر ، والنفس يقظانة لاترقد ، فإن كان العبد مستمعا إلى الله تعالى وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس ، فكل شىء سد باب الاستماع فمن حركة النفس ، وفى حركتها يطرق الشيطان . وقد ورد « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات » .

وقال الحسين : بصائر المبصرين، ومعارف العارفين، ونور العلماء الربانيين، وطرق السابقين الناجين، والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو ألقى السمع .

وقال ابن عطاء : هو القلب الذى يلاحظ الحق ويشاهده ولا يغيب عنه خطرة ولافترة ، فيسمع به وبه يسمع منه، ويشهد به بل يشهده ، فإذا لاحظ القلب الحق بعين الجلال فزع وارتعد ، وإذا طالعه بعين الجمال هدأ واستقر .

وقال بعضهم : لمن كان له قلب بصير يقوى على التجريد مع الله تعالى والتفرد به حتى يخرج من الدنيا والخلق والنفس ، فلا يشتغل بغيره ولا يركن إلى سواه ، فقلب الصوفى مجرد عن الأكوان ألقى سمعه وشهد بصره ، فسمع المسموعات وأبصر المبصرات وشاهد المشهودات ، لتخلصه إلى الله تعالى واجتماعه بين يدى الله والأشياء كلها عند الله وهو عنده، فسمع وشاهد فأبصر وسمع جملها ولم يسمع ويشاهد تفاصيلها ، لأن الجمل تدرك لسعة عين الشهود ، والتفاصيل لا تدرك لضيق وعاء الوجود ، والله تعالى هو العالم بالجمل والتفاصيل .

وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس فى الاستماع وقال : إن الباذر خرج ببذره فملأ منه كفه فوقع منه شىء على ظهر الطريق ، فلم يلبث أن انحط عليه الطير فاختطفه ، ووقع منه شىء على الصفوان ــ وهو الحجر الأملس ــ عليه تراب يسير وندى قليل فنبت ، حتى إذا وصلت عروقه ، إلى الصفا لم تجد مساغاً تنفذ فيه ، فيبس ووقع منه شىء فى أرض طيبة فيها شوك نابت فنبت ، فلما ارتفع خنقه الشوك فأفسده واختلط به ، ووقع منه شىء على أرض طيبة ليست على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا فيها شوك فنبت ونما وصلح ، فمثل الباذر مثل الحكيم ، ومثل البذر كمثل صواب الكلام ، ومثل ماوقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه فما يلبث الشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه ، ومثل الذى وقع على الصفوان مثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه ثم تفضى الكلمة إلى قلب ليس فيه عزم على العمل فينفسخ من قلبه ، ومثل الذى وقع فى أرض طيبة فيها شوك مثل الرجل يسمع الكلام وهو ينوى أن يعمل به فإذا اعترضت له الشهوات قيدته عن النهوض بالعمل فيترك مانوى عمله لغلبة الشهوة كالزرع يختنق بالشوك .

ومثل الذى وقع فى أرض طيبة مثل المستمع الذى ينوى عمله فيفهمه ويعمل به ويجانب هواه ، وهذا الذى جانب الهوى وانتهج سبيل الهدى هو الصوفى ، لأن للهوى حلاوة ، والنفس إذا تشربت حلاوة الهوى فهى تركن إليه وتستلذه ، واستلذاذ الهوى هو الذى يختنق النبت كالشوك ، وقلب الصوفى نازله حلاوة الحب الصافى ، والحب الصافى تعلق الروح بالحضرة الإلهية ، ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب تستتبع القلب والنفس ، وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة الهوى لأن حلاوة الهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار لكونها لاترتقى عن حد النفس ، وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء لأنها متأصلة فى الروح فرعها عند الله تعالى وعروقها ضاربة فى أرض النفس ، فإذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشربها بالروح والقلب والنفس ويفديها بكليته ويقول :

أشم منك نسيماً لست أعرفه ۞ أظن لمياء جرت فيك أردانا

فتعمه الكلمة وتشمله وتصير كل شعرة منه سمعاً وكل ذرة منه بصراً ، فيسمع الكل بالكل ، ويبصر الكل بالكل ويقول :

إن تأملتكم فكلى عيون ۞ أو تذكرتكم فكلى قلوب

قال الله تعالى ﴿ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ .

قال بعضهم : اللب والعقل مائة جزء : تسعة وتسعون فى النبى صلى الله عليه وسلم ، وجزء فى سائر المؤمنين، والجزء الذى فى سائر المؤمنين أحد وعشرون سهماً ، فسهم يتساوى المؤمنون كلهم فيه وهو : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وعشرون جزءاً يتفاضلون فيها على مقادير حقائق إيمانهم . قيل فى هذه الآية إظهار فضيلة رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، أى : الأحسن مايأتى به ، لأنه لما وقعت له صحبة التمكين ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون ظهرت عليه الأنوار فى الأحوال كلها ، وكان معه أحسن الخطاب ، وله السبق فى جميع المقامات ، ألا تراه صلى الله عليه وسلم يقول « نحن الآخرون السابقون » يعنى الآخرون وجودا السابقون فى الخطاب الأول فى الفضل فى محل القدس . وقال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ قال الجنيد : تنسموا روح مادعاكم إليه ، فأسرعوا إلى محو العلائق المشغلة ، وهجموا بالنفوس على معانقة الحذر ، وتجرعوا مرارة المكابدة ، وصدقوا الله فى المعاملة ، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه ، وهانت عليهم المصائب ، وعرفوا قدر مايطلبون ، وسجنوا هممهم عن التلفت إلى مذكور سوى وليهم ، فحيوا حياة الأبد بالحى الذى لم يزل ولايزال .

وقال الواسطى رحمه الله تعالى : حياتها تصفيتها عن كل معلول لفظا وفعلا .

وقال بعضهم : استجيبوا لله بسرائركم ، وللرسول بظواهركم ، فحياة النفوس بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياة القلوب بمشاهدة العيوب ، وهو الحياء من الله تعالى برؤية التقصير .

وقال ابن عطاء : فى هذه الآية الاستجابة على أربعة أوجه (أولها) إجابة التوحيد . (والثانى) إجابة التحقيق . (والثالث) إجابة التسليم . (والرابع) إجابة التقريب ، فالاستجابة على قدر السماع ، ، السماع من حيث الفهم ، والفهم على قدر المعرفة بقدر الكلام ، والمعرفة بالكلام على قدر المعرفة والعلم بالمتكلم ، ووجوه الفهم لاتنحصر ، لأن وجوه الكلام لاتنحصر . قال الله تعالى ﴿ قل لوكان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ فلله تعالى فى كل كلمة من القرآن كلماته التى ينفد البحر دون نفادها ، فكل الكلام كلمة نظراً إلى ذات التوحيد ، وكل كلمة كلمات نظراً لسعة العلم الأزلى .

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى ، قال : أنبأ الرئيس أبو على بن نبهان قال : أخبرنا الحسن بن شاذان قال : أخبرنا دعلج بن أحمد قال أخبرنا أبو الحسن بن عبد العزيز البغوى قال أخبرنا أبو عبيد بن القاسم بن سلام قال حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن الحسن يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » قال فقلت يا أبا سعيد ، ما المطلع ؟ قال : يطلع قوم يعملون به . قال أبو عبيد : أحسب أن قول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله بن مسعود ، قال أبو عبيد : حدثنى حجاج عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة عن عبدالله بن مسعود قال : مامن حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم ، أولها قوم سيعملون بها ، فالمطلع : المصعد يصعد عليه من معرفة علمه ، فيكون المطلع : الفهم بفتح الله تعالى عن كل قلب بما يرزق من النور . واختلف الناس فى معنى الظهر والبطن . قال قوم : الظهر لفظ القرآن ، والبطن تأويله . وقيل الظهر : صورة القصة بما أخبر الله تعالى عن غضبه على قوم وعقابه إياهم ، فظاهر ذلك إخبار عنهم وباطنه عظة وتنبيه لمن يقرأ ويسمع من الأمة . وقيل ظاهره : تنزيله الذى يجب الإيمان به وباطنه وجوب العمل به . وقيل ظهره : تلاوته كما أنزل قال تعالى ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ وبطنه التدبر والتفكر فيه ، قال الله تعالى ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكروا أولو الألباب ﴾ وقيل قوله : لكل حرف حد ، أى فى التلاوة لايجاوز المصحف الذى هو الإمام ، وفى التفسير لايجاوز المسموع المنقول ، وفرق بين التفسير والتأويل ؛ فالتفسير علم نزول الآية وشأنها وقصتها والأسباب الذى نزلت فيها ، وهذا محظور على الناس كافة القول فيه إلا بالسماع والأثر ؛ وأما التأويل : فصرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذى يراه يوافق الكتاب والسنة ؛ فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ماذكرناه من صفاء الفهم ورتبة المعرفة ومنصب القرب من الله تعالى . قال أبو الدرداء : لايفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة ، فما أعجب قول عبدالله بن مسعود . مامن آية إلا ولها قوم سيعملون بها ، وهذا الكلام محرض لكل طالب صاحب همة أن يصبو موارد الكلام ويفهم دقيق معانيه وغامض أسراره من قلبه ، فللصوفى بكمال الزهد فى الدنيا وتجريد القلب عما سوى الله تعالى مطلع من كل آية ، وله بكل مرة فى التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد ، وله بكل

فهم عمل جديد ، ففهمهم يدعو إلى العمل ، وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر فى معانى الخطاب ، فمن الفهم علم ، ومن العلم عمل ، والعلم والعمل يتناوبان فيه ، وهذا العمل آنفا إنما هو عمل القلوب ، وعمل القلوب غير عمل القالب ، وأعمال القلوب للطمها وصداقتها مشاكلة للعلوم ، لأنها نيات وطويات وتعلقات روحية وتأديات قلبية ومسارات سرية ، وكلما أتوا بعمل من هذه الأعمال رفع لهم علم من العلم ، وطلعوا على مطلع من فهم الآية جديد ، ويخالج سرى أن يكون المطلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر فى الآية ، ولكن المطلع أن يطلع عند كل آية على شهود المتكلم بها ؛ لأنها مستودع وصف من أوصافه ونعت من نعوته ، فتتجدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها ، ويصير له مراه منبئة عن عظيم الجلال .

ولقد نقل عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : لقد تجلى الله تعالى لعباده فى كلامه ولكن لايبصرون ، فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه ؛ فالحد : حد الكلام ، والمطلع : الترقى عن الكلام إلى شهود المتكلم .

وقد نقل عن جعفر الصادق أيضاً أنه خر مغشيا عليه وهو فى الصلاة ، فسئل عن ذلك فقال : مازلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها ؛ فالصوفى لما لاح له نور ناصية التوحيد ، وألقى سمعه عند سماع الوعد والوعيد ، وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى صار بين يدى الله حاضرا شهيدا ، يرى لسانه أو لسان غيره فى التلاوة ، كشجرة موسى عليه السلام حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بإنى أنا الله ؛ فإذا كان سماعه من الله تعالى واستماعه إلى الله ، صار سمعه بصره وبصره سمعه وعلمه عمله وعمله علمه ، وعاد آخره أوله وأوله آخره . ومعنى ذلك : أن الله تعالى خاطب الذر بقوله ﴿ ألست بربكم ﴾ فسمعت النداء على غاية الصفاء ، ثم لم تزل الذرات تتقلب فى الأصلاب وتنتقل إلى الأرحام . قال الله تعالى ﴿ الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين ﴾ يعنى تقلب ذرتك فى أصلاب أهل السجود من آبائك الأنبياء ، فمازالت تنتقل فى الذرات حتى برزت بين أجسادها ، فاحتجبت بالحكمة عن القدرة ، وبعالم الشهادة عن عالم الغيب وتراكم ظلمتها بالتقلب فى الأطوار ؛ فإذا أراد الله تعالى بالعبد حسن الاجتماع بأن يصيره صوفيا صافيا لايزال يرقيه فى رتب التزكية والتحلية حتى يخلص من مضيق عالم الحكمة إلى قضاء القدرة ، ويزال عن بصيرته النافذة سجف الحكمة فيصير سماعه ﴿ ألست بربكم ﴾ كشفا وعيانا ، وتوحيده وعرفانه تبيانا وبرهانا ، وتندرج له ظلم الأطوار فى لوامع الأنوار

قال بعضهم : أنا أذكر خطاب ﴿ ألست بربكم ﴾ إشارة منه إلى هذا الحال ، فإذا تحقق الصوفى بهذا الوصف صار وقته سرمداً وشهوده مؤبدا وسماعه متواليا متجددا ، يسمع كلام الله تعالى وكلام رسوله حق السماع .

قال سفيان بن عيينة . أول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر .

وقال بعضهم : تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام .

وقيل : من حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضى حديثه ، وقلة التلفت إلى الجوانب ، والإقبال بالوجه ، والنظر إلى المتكلم ، والوعى . قال الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ وقال ﴿ لاتحرك به لسانك لتعجل به ﴾ هذا تعليم من الله تعالى لرسوله عليه السلام حسن الاستماع . قيل : معناه لاتمله على الصحابة حتى تتدبر معانيه حتى تكون أنت أول من يخلص بغرائبه وعجائبه . وقيل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل وأوحى إليه لايفتر من قراءة القرآن مخافة الانفلات والنسيان ، فنهاه الله تعالى عن ذلك ، أى لاتعجل بقراءته قبل أن يفرغ جبرائيل من إلقائه إليك ، وقد تكون مطالعة العلوم وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى السماع ، ويحتاج المطالع للعلوم والأخبار وسير أهل الصلاح وحكاياتهم وأنواع الحكم والأمثال التى فيها نجاة من عذاب الآخرة : أن يكون فى ذلك كله متأدبا بآداب حسن الاستماع بالزهادة والتقوى حتى يأخذ من كل ما سمعه أحسنه ، فيكون آخذا بالمطالعة من كل شىء أحسنه . ومن الأدب فى المطالعة : أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئاً من الحديث والعلم ، يعلم أنه قد تكون مطالعة ذلك بداعية النفس وقلة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل ، فتستروح بالمطالعة كما تتروح بمجالسة الناس ومكالمتهم ؛ فليتفقد المتفطن نفسه فى ذلك ، ولا يستحلى مطالعة الكتب إلى حد يأخذ

ذلك من وقته ويراعى الإفراط فيه ، فإذا أراد مطالعة كتاب أوشيء من العلم لايبادر إليه إلا بعد التثبت والإنابة والرجوع إلى الله تعالى وطلب التأييد من رحمة الله تعالى فيه ، فإنه قد يرزق بالمطالعة مايكون من مزيد حاله ، ولو قدم الاستخارة لذلك كان حسنا ، فإن الله تعالى يفتح عليه باب الفهم والتفهيم موهبة من الله زيادة على مايتبين من صورة العلم فللعلم صورة ظاهرة وسر باطن وهو الفهم والله تعالى نبه على شرف الفهم بقوله ﴿ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ أشار إلى الفهم بمزيد اختصاص وتمييز عن الحكم والعلم . وقال الله تعالى ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ فإذا كان المسمع هو الله تعالى ، يسمع تارة بواسطة اللسان وتارة بما يرزق بمطالعه الكتب من التبيان ، فصار مايفتح الله تعالى بمطالعة الكتب على معنى مايرزق من المسموع ببركة حسن الاستماع ، لتفقد العبد حاله فى ذلك ويتعلم علمه وأدبه ، فإنه باب كبير من أبواب الخير ، وعمل صالح من أعمال المشايخ والصوفية والعلماء الزاهدين المتبتلين لاستفتاح أبواب الرحمة والمزيد من كل شيء ينفع سلوك الآخرة .

الباب الثالث : فى بيان فضيلة علوم الصوفية ، والإشارة إلى أنموذج منها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله ، قال أنبأنا أبو عبدالرحمن الصوفى ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن محمد قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسى ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندى ، قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، قال حدثنا نعيم بن حماد ، قال حدثنا بقية عن الأحوص بن حكيم عن أبيه قال سأل رجل النبى عليه السلام عن الشر فقال « لاتسألونى عن الشر وسلونى عن الخير يقولها ثلاثا ، ثم قال ؟ إن شر الشر شرار العلماء ، وإن خير الخير خيار العلماء ، أدلاء الأمة ، وعمد الدين ، وسرج ظلمات الجهالات الجلية ، ونقباء ديوان الإسلام ، ومعادن حكم الكتاب والسنة ، وأمناء الله تعالى فى خلقه ، وأطباء العباد ، وجهابذة الملة الحنيفية ، وحملة عظيم الأمانة ، فهم أحق الخلق بحقائق التقوى ، وأحوج العباد إلى الزهد فى الدنيا ، لأنهم يحتاجون إليها لنفسهم ولغيرهم ، ففسادهم فساد ، وصلاحهم صلاح متعد .

قال سفيان بن عيينة : أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم . وأعلم الناس من عمل بما يعلم . وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى ، وهذا قول صحيح يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم ، فلايغرك تشدقه واستطالته وحذاقته وقوته فى المناظرة والمجادلة ، فإنه جاهل وليس بعالم ، إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم ، فإن العلم فى سبيل الإسلام لايضيع أهله ويرجى عود العالم ببركة العلم ، والعلم فريضة وفضيلة ، فالفريضة : مالابد للإنسان من معرفته لتقوم بواجب حق الدين . والفضيلة مازاد على قدر حاجته مما يكسبه فضيله فى النفس موافقة للكتاب والسنة ، وكل علم لايوافق الكتاب والسنة وما هو مستفاد منهما أو معين على فهمهما أو مستند إليهما كائنا ما كان ، فهو رذيلة وليس بفضيلة ، يزداد الإنسان به هوانا ورذيلة فى الدنيا والآخرة ، فالعلم الذى هو فريضة لايسع الإنسان جهله على ما حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم المستملى قال أخبرنا الشيخ العالم أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن القشيرى قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصفهانى قال أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابى قال حدثنا جعفر بن عامر العسكرى قال حدثنا الحسن بن عطية قال حدثنا أبو عاتكة عن أنس بن مالك قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالصين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم » . واختلف العلماء فى العلم الذى هو فريضة . قال بعضهم : هو طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفوس ومايفسد الأعمال ، لأن الإخلاص مأمور به كما أن العمل مأمور به . قال الله ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين ﴾ فالإخلاص مأمور به ، وخدع النفس وغرورها ودسائسها وشهواتها الخفية تخرب مبانى الإخلاص المأمور به ، فصار علم ذلك فرضا حيث كان الإخلاص فرضا ، ومالايصل العبد إلى الفرض إلا به صار فرضا : وقال بعضهم : معرفة الخواطر وتفصيلها فريضة ، لأن الخواطر هى أصل الفعل ومبدؤه ومنشؤه وبذلك يعلم الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، فلا يصح الفعل إلا بصحتها ، فصار

علم ذلك فرضا حتى يصح الفعل من العبد لله . وقال بعضهم : هوطلب علم الوقت . وقال سهل بن عبدالله : هوطلب علم الحال يعنى حكم حاله الذى بينه وبين الله تعالى فى دنياه وآخرته . وقيل : هو طلب علم الباطن وهو مايزداد به العبد يقينا ، وهذا العلم هو الذى يكتسب بالصحبة ومجالسة الصالحين من العلماء الموقنين والزهاد المقربين الذين جعلهم الله تعالى من جنوده يسوق الطالبين إليهم ويقويهم بطريقهم ويرشدهم بهم ، فهم وراث علم النبى عليه السلام ومنهم من يتعلم علم اليقين وقال بعضهم : هو علم البيع والشراء والنكاح والطلاق ، إذا أراد الدخول فى شىء من ذلك يجب عليه طلب علمه . وقال بعضهم : هو أن يكون العبد يريد عملا يجهل ما لله عليه فى ذلك ، فلا يجوز أن يعمل برأيه ، إذ هوجاهل فيما له وعليه فى ذلك ، فيراجع عالما يسأله عنه ليجيبه على بصيرة ولا يعمل برأيه ، وهذا علم يجب طلبه حيث جهل . وقال بعضهم : طلب علم التوحيد فرض ، فمن قائل يقول : إن طريقه النظر والاستدلال ، ومن قائل يقول : إن طريقه النقل . وقال بعضهم : إذا كان العبد على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والانقياد فى الإسلام ولا يحيك فى صدره شىء فهو سالم ، فإن حاك فى صدره شىء أو توسوس بشىء يقدح فى العقيدة أو ابتلى بشبهة لا تؤمن غائلتها أن تجره إلى بدعة أو ضلالة ، فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه ويراجع أهل العلم ومن يفهمه طريق الصواب . وقال الشيخ أبوطالب المكى رحمه الله : هو علم الفرائض الخمس التى بنى عليها الإسلام ، لأنها افترضت على المسلمين . وإذا كان عملها فرضا صار علم العمل بها فرضا ، وذكر أن علم التوحيد داخل فى ذلك ، لأن أولها الشهادتان والإخلاص داخل فى ذلك ، لأن ذلك من ضرورة الإسلام ، وعلم الإخلاص داخل فى صحة الإسلام ، وحيث أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فريضة على كل مسلم يقتضى أن لا يسع مسلما جهله ، وكل ما تقدم من الأقاويل أكثرها ما يسع المسلم جهله ؛ لأنه قد لا يعلم علم الخواطر وعلم الحال وعلم الحلال بجميع وجوهه وعلم اليقين المستفاد من علماء الآخرة كما ترى ، وأكثر المسلمين على الجهل بهذه الأشياء ، ولو كانت هذه الأشياء فرضت عليهم لعجز عنها أكثر الخلق إلا ما شاء الله ، وميلى فى هذه الأقاويل إلى قول الشيخ أبى طالب أكثر ، وإلى قول من قال : يجب عليه علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول فيه . وهذا لعمرى فرض على المسلم علمه وهذا الذى قاله الشيخ أبو طالب عندى فى ذلك حد جامع لطلب العلم المفترض والله أعلم .

فأقول : العلم الذى طلبه فريضة على كل مسلم علم الأمر والنهى ، والمأمور : مايثاب على فعله ويعاقب على تركه ، والمنهى : مايعاقب على فعله ويثاب على تركه ، والمأمورات والمنهيات منها ماهو مستمر لازم للعبد بحكم الإسلام ، ومنها مايتوجه الأمر فيه والنهى عنه عند وجود الحادثة ، فما هو لازم مستمر لزومه متوجه بحكم الإسلام علمه به واجب من ضرورة الإسلام ، ومايتجدد بالحوادث ويتوجه الأمر والنهى فيه فعلمه عند تجدده فرض لا يسع مسلما على الإطلاق أن يجهله ، وهذا الحد أعم من الوجوه التى سبقت والله أعلم . ثم إن المشايخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين فى الدنيا شمروا عن ساق الجد فى طلب العلم المفترض حتى عرفوه وأقاموا الأمر والنهى وخرجوا من عهدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى . فلما استقاموا فى ذلك متابعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ فتح الله عليهم أبواب العلوم التى سبق ذكرها . قال بعضهم : من يطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أيد من المشاهدات القوية والأنوار البينة والآثار الصادقة بالتثبيت ببرهان عظيم كما قال تعالى ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ ثم حفظ فى وقت المشاهدة ومشافهة الخطاب وهو المزين بمقام القرب والمخاطب على بساط الأنس محمد صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك خوطب بقوله ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ ولولا هذه المقامات ما أطاق الاستقامة التى أمر بها . قيل لأبى حفص : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الاستقامة ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول « استقيموا ولن تحصوا » وقال جعفر الصادق فى قوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أى افتقر إلى الله بصحة العزم . ورأى بعض الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، قال « قلت يارسول الله روى عنك أنك قلت شيبتنى سورة هود وأخواتها فقال : نعم ، قال فقلت له : ما الذى شيبك منها قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ فقال « لا ، ولكن قوله

﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ ، فكما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد مقدمات المشاهدات خوطب بهذا الخطاب وطولب بحقائق الاستقامة فكذلك علماء الآخرة الزاهدون ومشايخ الصوفية المقربون منحهم الله تعالى من ذلك بقسط ونصيب ثم ألهمهم طلب النهوض بواجب حق الاستقامة ورأوا الاستقامة أفضل مطلوب وأشرف مأمور .

قال أبو علي الجوزجاني : كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة ، وهذا الذي ذكره أصل كبير في الباب وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب . وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا بسير الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك ويحبون أن يرزقوا شيئا من ذلك ، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهما لنفسه في صحة عمله حيث لم يكشف بشيء من ذلك ، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر فيه فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد يفتح على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك بابا ، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقينا فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا ، والخروج من دواعي الهوى ؛ وقد يكون بعض عبادة يكاشف بصرف اليقين ويرفع عن قلبه الحجاب ، ومن كوشف بصرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوارق العادات لأن المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين ؛ فلو كوشف هذا المرزوق صرف اليقين بشيء من ذلك ما ازداد يقينا فلا تقتضي الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع لاستغنائه ، وتقتضي الحكمة كشف ذلك للآخر لموضع حاجته فكان هذا الثاني يكون أتم استعدادا وأهلية من الأول حيث رزق حاصل ذلك وهو صرف اليقين بغير واسطة من رؤية قدرة فإن فيه آفة وهو العجب فأغنى عن رؤية شيء من ذلك . فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل الكرامة . ثم إذا وقع في طريقه شيء من ذلك حاز وحسن ، وإن لم يقع فلا يبالي ولا ينقص بذلك ، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة فليعلم هذا لأنه أصل كبير للطالبين . فالعلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية والمقربون حيث أكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة رزقوا سائر العلوم التي أشار إليها المتقدمون كما ذكرنا وزعموا أنها فرض . فمن ذلك علم الحال وعلم القيام وعلم الخواطر . وسنشرح علم الخواطر وتفصيلها في باب إن شاء الله تعالى . وعلم اليقين وعلم الإخلاص وعلم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها ، وعلم النفس ومعرفتها من أعز علوم القوم . وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس ، وعلم معرفة أقسام الدنيا ووجود دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وشرها ، وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف على الضرورة ـ قولا وفعلا ولبسا وخلعا وأكلا ونوما ـ ومعرفة حقائق التوبة ، وعلم خفي الذنوب ومعرفة سيئات هي حسنات الأبرار ومطالبة النفس بترك ما لا يعني ، ومطالبة الباطن بحصر خواطر المعصية ثم بحصر خواطر الفضول ، ثم علم المراقبة ، وعلم ما يقدح في المراقبة ، وعلم المحاسبة والرعاية ، وعلم حقائق التوكل وذنوب المتوكل في توكله وما يقدح في التوكل وما لا يقدح ، والفرق بين التوكل الواجب بحكم الإيمان وبين التوكل الخاص المختص بأهل العرفان ، وعلم الرضا وذنوب مقام الرضا ، وعلم الزهد وتحديده بما يلزم من ضرورته ، وما لا يقدح في حقيقته ومعرفة الزهد في الزهد ومعرفة زهد ثالث بعد الزهد في الزهد ، وعلم الإنابة والالتجاء ومعرفة أوقات الدعاء ومعرفة وقت السكوت عن الدعاء ، وعلم المحبة والفرق بين المحبة العامة المفسرة بامتثال الأمر والمحبة الخالصة ؛ وقد أنكر طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة المحبة الخالصة كما أنكروا الرضا وقالوا : ليس إلا الصبر . وانقسام المحبة الخاصة إلى محبة الذات وإلى محبة الصفات والفرق بين محبة القلب ومحبة الروح ومحبة العقل ومحبة النفس ، والفرق بين مقام المحب والمحبوب ، والمريد والمراد ، ثم علوم المشاهدات كعلم الهيبة والأنس والقبض والبسط ، والفرق بين القبض والهم والبسط والنشاط ، وعلم الفناء والبقاء وتفاوت أحوال الفناء والاستتار والتجلي والجمع والفرق واللوامع والطوالع والبوادي والصحو والسكر إلى غير ذلك ـ لو اتسع الوقت ذكرناها وشرحناها في مجلدات ، ولكن العمر قصير ، والوقت عزيز ، ولولا سهم الغفلة لضاق الوقت عن هذا القدر أيضا ، وهذا المختصر المؤلف يحتوي من علوم القوم على طرف صالح نرجو من الله الكريم أن ينفع به ويجعله

حجة لنا لا حجة علينا ـ وهذه كلها علوم من ورائها علوم عمل بمقتضاها وظفر بها علماء الآخرة الزاهدون ، وحرم ذلك علماء الدنيا الراغبون وهى علوم ذوقية لا يكاد النظر يصل إليها بذوق ووجدان ، كالعلم بكيفية حلاوة السكر لا يحصل بالوصف فمن ذاقه عرفه . وينبئك عن شرف علم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لا يتعذر تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلال بحقائق التقوى ؛ وربما كان محبة الدنيا عونا على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس لجبلت النفوس على محبة الجاه والرفعة حتى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمل الكلف وسهر الليل والصبر على الغربة والأسفار وتعذر الملاذ والشهوات . وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى ، ولا تدرس إلا فى مدرسة التقوى قال الله تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ جعل العلم ميراث التقوى وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك ، فعلم فضل علماء الآخرة حيث لم يكشف النقاب إلا لأولى الألباب ، وأولو الألباب حقيقة هم الزاهدون فى الدنيا .

قال بعض الفقهاء : إذا أوصى رجل بماله لأعقل الناس يصرف الزهاد لأنهم أعقل الخلق . قال سهل بن عبدالله التسترى : للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا . حدثنا الشيخ الصالح أبو الفتوح محمد ابن عبد الباقى قال : أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال : أخبرنا الحافظ أبو نعيم الاصفهانى قال : حدثنا محمد بن أحمد ابن محمد قال حدثنا العباس بن أحمد الشاشى قال حدثنا أبو عقيل الوصـــافى قال اخبرنا عبدالله الخواص وكان من أصحاب حاتم قال دخلت مع أبى عبد الرحمن حاتم الأصم الرى ومعه ثلثمائة وعشرون رجلا يريدون الحج وعليهم الصوف والزرمانقات ليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلنا الرى على رجل من التجار متنسك يحب المتقشفين فاضافنا تلك الليلة ، فلما كان من الغد قال لحاتم يا أبا عبد الرحمن ألك حاجة ؟ فإنى أريد أن أعود فقيها لنا هو عليل فقال حاتم إن كان لكم فقيه عليل فعيادة الفقيه لها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة فأنا أيضا أجىء معك ـ وكان العليل محمد بن مقاتل قاضى الرى ـ فقال سر بنا يا أبا عبد الرحمن فجاءوا إلى الباب ، فإذا باب مشرف حسن فبقى حاتم متفكراً يقول باب عالم على هذا الحال ، ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار قوراء وإذا بزة ومنعة وستور وجمع ، فبقى حاتم متفكرا ، ثم دخلوا إلى المجلس الذى هو فيه فإذا بفرش وطيئة وإذا هو راقد عليها وعند رأسه غلام وبيده مذبة فقعد الرازى يسائله وحاتم قائم ؛ فأومأ إليه ابن مقاتل أن أقعد فقال ، لا أقعد ، فقال له ابن مقاتل . لعل لك حاجة ؟ قال : نعم ، قال وماهى ؟ قال مسألة أسألك عنها قال : سلنى قال : فقم فاستو جالسا حتى أسألكها ، فأمر غلمانه فأسندوه ، فقال له حاتم علمك هذا من أين جئت به ؟ قال الثقات حدثونى به ، قال عمن ؟ قال عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ورسول الله من أين جاء به ؟ قال عن جبرائيل ؟ قال حاتم ففيما أداه جبرائيل عن الله وأداه رسول الله إلى أصحابه وأداه أصحابه إلى الثقات وأداه الثقات إليك هل سمعت فى العلم من فى داره أمير أو منعته أكثر كانت له المنزلة عند الله أكثر ؟ قال لا ، قال فكيف سمعت ؟ قال من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته ، كان له عند الله المنزلة أكثر ، قال حاتم فأنت بمن اقتديت بالنبى وأصحابه والصالحين أم بفرعون ونمروذ أول من بنى بالجص والآجر ؟ ياعلماء السوء مثلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا الراغب فيها فيقول العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شرا منه ، وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا . فبلغ أهل الرى ماجرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له يا أبا عبد الرحمن ، بقزوين عالم أكبر شأنا من هذا . وأشاروا به إلى الطنافسى ـ قال فسار إليه متعمدا فدخل عليه فقال رحمك الله أنا رجل أعجمى أحب أن تعلمنى أول مبتدإ دينى ومفتاح صلاتى كيف أتوضأ للصلاة ؟ قال نعم وكرامة يا غلام هات إناء فيه ماء ؛ فأتى بإناء فيه ماء فقعد الطنافسى فتوضأ ثلاثا ثلاثا ، ثم قال هكذا فتوضأ . فقعد فتوضأ حاتم ثلاثا ثلاثا حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعا فقال له الطنافسى ياهذا أسرفت ، فقال له حاتم فيماذا ؟ قال غسلت ذراعيك أربعا ، قال حاتم ياسبحان الله أنا فى كف ماء أسرفت وأنت فى هذا الجمع كله لم تسرف ، فعلم الطنافسى أنه أراده بذلك ولم يرد منه

التعلم ، فدخل البيت ولم يخرج إلى الناس أربعين يوما ، وكتب تجار الرى وقزوين ماجرى بينه وبين ابن مقاتل والطنافسى ؛ فلما دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا له : ياأبا عبد الرحمن أنت رجل لكن اعجمى ليس يكلمك أحد إلا وقطعته ، قال : معى ثلاث خصال بهن أظهر على خصمى ، قالوا : أى شىء هى ؟ قال : أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، واحفظ نفسى أن لاأجهل عليه ، فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فجاء إليه وقال : سبحان الله ماأعقله ؟ فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، ما السلامه من الدنيا ؟ قال حاتم : يا أباعبد الله ، لاتسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال . قال : أىشىء هى ياأباعبد الرحمن ؟ قال تغفر للقوم جهلهم، وتمنع جهلك عنهم ، وتبذل لهم شيئك ، وتكون من شيئهم آيسا ؛ فإذا كان هذا سلمت ، ثم سار إلى المدينة .

قال الله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ذكر بكلمة «إنما» فينتفى العلم عمن لايخشى الله ، كما إذا قال إنما يدخل الدار بغدادى ، ينتفى دخول غير البغدادى الدار : فلاح لعلماء الآخرة أن الطريق مسدود إلى أنصبة المعارف ومقامات القرب إلا بالزهد والتقوى . قال أبو يزيد رحمه الله لأصحابه : بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول لاإله إلا الله ماقدرت عليه . قيل : ولم ذلك ؟ قال : ذكرت كلمة قلتها فى صباى ، فجاءتنى وحشة تلك الكلمة فمنعتنى عن ذلك ، وأعجب بمن يذكر الله تعالى وهو متصف بشىء من صفاته ؛ فبصفاء التقوى وكمال الزهادة يصير العبد راسخا فى العلم ، قال الواسطى . الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب فى سر السر فعرفهم ماعرفهم ، وغاصوا فى بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فانكشف لهم من مدخور الخزائن ماتحت كل حرف من الكلام من الفهم وعجائب الخطاب فنطقوا بالحكم . وقال بعضهم : الراسخ من أطلع على محل المراد من الخطاب . وقال الخراز : هم الذين كملوا فى جميع العلوم وعرفوها ، واطلعوا على همم الخلائق كلهم أجمعين ، وهذا القول من أبى سعيد لايعنى به أن الراسخ فى العلم ينبغى أن يقف على جزئيات العلوم ويكمل فيها ، فإن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان من الراسخين فى العلم ووقف فى معنى قوله تعالى ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ وقال : ماالأب ؟ ثم قال : إن هذا إلا تكلف . ونقل أن هذا الوقوف فى معنى الأب كان من أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، وإنما عنى بذلك أبو سعيد مايفسر أول كلامه بآخره ، وهو قوله : اطلعوا على همم الخلائق كلهم : لأن المتقى حق التقوى والزاهد حق الزهادة فى الدنيا صفا باطنه وانجلت مرآة قلبه ووقعت له محاذاة بشىء من اللوح المحفوظ ، فأدرك بصفاء الباطن أمهات العلوم وأصولها ، فيعلم منتهى أقدام العلماء فى علومهم ، وفائدة كل علم ، والعلوم الجزئية متجزئة فى النفوس بالتعليم والممارسة فلا يغنيه علمه الكلى أن يراجع فى الجزئى أهله الذين هم أوعيته ، فنفوس هؤلاء امتلأت من الجزئى واشتغلت به ، وانقطعت بالجزئى عن الكلى ؛ ونفوس العلماء الزاهدين بعد الأخذ بما لابد لهم منه فى أصل الدين وأساسه من الشرع أقبلوا على الله وانقطعوا إليه وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب منه ، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنوارا تهيأت بها قلوبهم لإدراك العلوم ؛ فأرواحهم ارتقت عن حد إدراك العلوم بعكوفها على العالم الأزلى ، وتجردت عن وجود يصلح أن يكون وعاء للعلم ، وقلوبهم بنسبة وجهها الذى يلى النفوس صارت أوعية وجودية تناسب وجود العلم بالنسبة الوجودية ، فتألفت العلوم وتألفتها العلوم بمناسبة انفصال العلوم باتصالها باللوح المحفوظ ، والمعنى بالانفصال انتقاشها فى اللوح لاغير ، وانفصال القلوب عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس ؛ فصار بين المنفصلين نسبة اشتراك موجب للتألف ، فحصلت العلوم لذلك وصار الربانى راسخا فى العلم .

أوحى الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة (يابنى إسرائيل ، لاتقولوا العلم فى السماء من ينزل به ، ولافى تخوم الأرض من يصعد به ، ولامن وراء البحار من يعبر فيأتى به . العلم مجعول فى قلوبكم تأدبوا بين يدى بآداب الروحانيين وتخلقوا إلى بأخلاق الصديقين ، أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم أو يغمركم . فالتأدب بآداب الروحانيين حصر النفوس عن تقاضى جبلاتها ، وقمعها بصريح العلم فى كل قول وفعل ، ولايصح ذلك إلا لمن علم وقرب وتطرق إلى الحضور بين يدى الله تعالى ، فيحتفظ بالحق للحق .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب عبد القاهر السهروردى إجازة ، قال : أخبرنا أبو منصور بن خيرون إجازة ، قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال أخبرنا عبدالله بن المبارك قال أخبرنا الأوزاعى عن حسان بن عطية ، بلغنى أن شداد بن أوس رضى الله عنه نزل منزلا فقال : ائتونا بالسفرة نعبث بها ، فأنكر منه ذلك، فقال: ماتكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها ثم أزمها غير هذه فلا تحفظوها على فمثل هذا يكون التأدب بآداب الروحانيين .

مكتوب فى الإنجيل : لا تطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم وقد ورد فى خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم » . قلنا : يارسول الله ، كيف يسوفنا بالعلم ؟ قال « يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم ، فلا يزال العبد فى العلم قائلا وللعمل مسوفا حتى يموت وما عمل » . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم الخشية . وقال الحسن : إن الله تعالى لايعبأ بذى علم ورواية ، إنما يعبأ بذى فهم ودراية ، فعلوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة ، ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص السائغ للشاربين . ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه ، فلو لم يكن لبن لم يكن زبد ، ولكن الزبد هو الدهنية المطلوبة من اللبن ، والمائية فى اللبن جسم قام به روح الدهنية ، والمائية بها القوام . قال الله تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى ﴾ وقال تعالى ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ﴾ أى كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإسلام ، فالإحياء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول ، وللإسلام علوم وهى علوم مبانى الإسلام ، والإسلام بعد الإيمان نظر إلى مجرد التصديق . ولكن للإيمان فروع بعد التحقق بالإسلام ، وهى مراتب كعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، فقد تقال للتوحيد والمعرفة والمشاهدة . وللإيمان فى كل فرع من فروع من فروعه علوم ، فعلوم الإسلام علوم اللسان ، وعلوم الإيمان علوم القلوب، ثم علوم القلوب لها وصف خاص ، ووصف عام ، فالوصف العام علم اليقين وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال ويشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة ، وله وصف خاص يختص به علماء الآخرة وهى السكينة التى أنزلت فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، فعلى هذا جميع الرتب يشملها اسم الإيمان بوصفه الخاص ولا يشملها بوصفه العام ، فبالنظر إلى الوصف الخاص اليقين ومراتبه من الإيمان ، وإلى وصفه العام اليقين زيادة على الإيمان ، والمشاهدة وصف خاص فى اليقين ، وهو عين اليقين ، وفى عين اليقين وصف خاص وهو حق اليقين ، لحق اليقين إذن فوق المشاهدة ، وحق اليقين موطنه ومستقره فى الآخرة ، وفى الدنيا منه لمح يسير لأهله ، وهو من أعز ما يوجد من أقسام العلم بالله ، لأنه وجدان ، فصار علم الصوفية وزهاد العلماء نسبته إلى علم علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال كنسبة ما ذكرناه من علم الوراثة والدراسة ، علمهم بمثابة اللبن لأنه اليقين والإيمان الذى هو الأساس ، وعلم الصوفية بالله تعالى من أنصبة المشاهدة ، وعين اليقين وحق اليقين كالزبد المستخرج من اللبن ، ففضيلة الإيمان بفضيلة العلم ، ورزانة الأعمال على قدر الحظ من العلم وقد ورد فى الخبر « فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى » ، والإشارة فى هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق ، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين ، وقد يكون العبد عالما بالله تعالى ذا يقين كامل وليس عنده علم من فروض الكفايات ، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة ، وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم روى أن عبدالله بن عمر كان إذا سئل عن شىء يقول : سلوا سعيد بن المسيب . وكان عبدالله ابن عباس يقول : سلوا جابر بن عبدالله لو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم . وكان أنس بن مالك يقول : سلوا مولانا الحسن ، فإنه قد حفظ ونسينا ، فكانوا يردون الناس إليهم فى علم الفتوى والأحكام ، ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة ، وذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين ، صادفتهم طراوة الوحى المنزل وغمرهم غزير العلم المجمل والمفصل ، فتلقى منهم طائفة مجملة ومفصلة ، وطائفة مفصلة دون مجملة ، والمجمل أصل العلم ، ومفصله المكتسب بطهارة القلوب وقوة الغريزة وكمال الاستعداد ، وهو خاص بالخواص .

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ وقال تعالى ﴿قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ فلهذه السبيل سابلة ، ولهذه الدعوات قلوب قابلة، فمنها نفوس مستعصية جامدة باقية على خشونة طبيعتها وجبلتها ، فلينها بنار الإنذار والموعظة والحذار ، ومنها نفوس زكية من تربة طيبة موافقة للقلوب قريبة منها ، فمن كانت نفسه ظاهرة على قلبه دعاه بالموعظة ، ومن كان قلبه ظاهراً على نفسه دعاه بالحكمة ، فالدعوة بالموعظة أجاب بها الأبرار ، وهى الدعوة بذكر الجنة والنار ، والدعوة بالحكمة أجاب بها المقرون وهى الدعوة بتلويح منح القرب وصفو المعرفة وإشارة التوحيد ، فلما وجدوا التلويحات الحقانية والتعريفات الربانية ، أجابوا بأرواحهم وقلوبهم ونفوسهم فصارت متابعة الأقوال إجابتهم نفسا ، ومتابعة الأعمال إجابتهم قلبا ؛ والتحقق بالأحوال إجابتهم روحا فإجابة الصوفية بالكل وإجابة غيرهم بالبعض . قال عمر رضى الله عنه : رحم الله تعالى صهيبا لو لم يخف الله لم يعصه . يعنى لو كتب له كتاب الأمان من النار حمله صرف المعرفة بعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية . أداء لما عرف من حق العظمة . فإجابة الصوفية إلى الدعوة إجابة المحب للمحبوب على اللذاذة وذهاب العسر ، وإجابة غيرهم على المكابدة والمجاهدة ، وهذه الإجابة يظهر مع الساعات أثرها فى القيام بحقائق الاستقامة والعبودية .

قال الله تعالى ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾ قال بعضهم أعطى للدارين ولم ير هما شيئا واتقى اللغو والسيئات وصدق بالحسنى أقام على طلب الزلفى ، والآية قيل نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . ويلوح فى الآية وجه آخر ﴿أعطى﴾ بالمواظبة على الأعمال ﴿واتقى﴾ الوساوس والهواجس ، ﴿وصدق بالحسنى﴾ لازم الباطن بتصفية موارد الشهود عن مزاحمة لوث الوجود ﴿فسنيسره لليسرى﴾ نفتح عليه باب السهولة فى العمل والعيش والأنس ؛ ﴿وأما من بخل﴾ بالأعمال ﴿واستغنى﴾ امتلأ بالأحوال ﴿وكذب بالحسنى﴾ لم يكن فى الملكوت بنفوذ بصيرته بالجوال ﴿فسنيسره للعسرى﴾ نسد عليه باب اليسر فى الأعمال . قال بعضهم : إذا أراد الله بعبد سوءاً سد عليه باب العمل وفتح عليه باب الكسل ، فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهراً وباطنا ، كان حظهم من العلم أوفر ونصيبهم من المعرفة أكمل ، فكانت أعمالهم أزكى وأفضل .

جاء رجل إلى معاذ قال : أخبرنى عن رجلين أحدهما يجتهد فى العبادة كثير العمل قليل الذنوب إلا أنه ضعيف اليقين يعتوره الشك . قال معاذ ليحبطن شكه عمله ، قال : فأخبرنى عن رجل قليل العمل إلا أنه قوى اليقين وهو فى ذلك كثير الذنوب ، فسكت معاذ ، فقال الرجل : والله لئن أحبط شك الأول أعمال بره ، ليحطن يقين هذا ذنوبه كلها . قال : فأخذ معاذ بيده وقال : ما رأيت الذى هو أفقه من هذا .

وفى وصية لقمان لابنه : يابنى ، لا يستطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتى يقصر يقينه ، فكان اليقين أفضل العلم لأنه أدعى إلى العمل ، وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى العبودية ، وما كان أدعى إلى العبودية كان أدعى إلى القيام بحق الربوبية . وكمال الحظ من اليقين والعلم بالله للصوفية والعلماء الزاهدين ، فبان بذلك فضلهم وفضل علمهم .

ثم إنى أصور مسألة يستبين بها المعتبر فضل العالم الزاهد العارف بصفات نفسه على غيره : عالم دخل مجلسا وقعد وميز لنفسه مجلسا يجلس فيه كما فى نفسه من اعتقاده فى نفسه لمحله وعلمه ، فدخل داخل من أبناء جنسه وقعد فوقه ، فانعصر العالم وأظلمت عليه الدنيا ولو أمكنه لبطش بالداخل ، فهذا عارض عرض له ومرض اعتراه ، وهو لا يفطن أن هذه علة غامضة ومرض يحتاج إلى المداواة ، ولا يتفكر فى منشأ هذا المرض ، ولو علم أن هذه نفس ثارت وظهرت بجهلها ، وجهلها لوجود كبرها ، وكبرها برؤية نفسها خيراً من غيرها ، فعلم الإنسان أنه أكبر من غيره كبر ، وإظهاره ذلك إلى الفعل تكبر ، لحيث انعصر صار فعلا به تكبر . فالزاهد لا يميز نفسه بشىء دون المسلمين ، ولا يرى نفسه فى مقام تمييز يميزها بمجلس ، فالصوفى العالم مخصوص بميز . ولو قدر له أن يبتلى بمثل هذه الواقعة وينعصر من تقدم غيره عليه وترفعه يرى النفس وظهورها ، ويرى أن هذا داء وأنه إن استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس وانعصارها صار ذلك ذنب حاله ،

فيرفع، في الحال داءه إلى الله تعالى ، ويشكو إليه ظهور نفسه ويحسن الإنابة ، ويقطع دابر ظهور النفس ويرفع القلب إلى الله تعالى مستغيثاً من النفس ، فيشغله اشتغاله برؤية داء النفس فى طلب دوائها من الفكر فيمن قعد فوقه ، وربما أقبل على من قعد فوقه بمزيد التواضع والانكسار ، تكفيراً للذنب الموجود ، وتداويا لدائه الحاصل. فتبين بهذا الفرق بين الرجلين .

فإذا اعتبر المعتبر وتفقد حال نفسه فى هذا المقام يرى نفسه كنفوس عوام الخلق وطالبي المناصب الدنيوية ، فأى فرق بينه وبين غيره ممن لا علم له .

ولو أكثرنا تصوير المسائل لنبرهن على فضيلة الزاهدين ونقصان الراغبين ، لأورث الملال ، وهذه من أوائل علوم الصوفية ؛ فما ظنك بنفائس علومهم وشرائف أحوالهم ، والله الموفق للصواب .

الباب الرابع : فى شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن على ، قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبى القاسم الهروى قال أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقى قال أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، قال حدثنا مسلمة بن حاتم الأنصارى ، قال : حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى عن أبيه عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضى الله عنه : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يابنى إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل ، ثم قال « يابنى وذلك من سنتى ومن أحيا سنتى فقد أحيانى ومن أحيانى كان معى فى الجنة » وهذا أتم شرف وأكمل فضل أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم فى حق من أحيا سنته ، فالصوفية هم الذين أحيوا هذه السنة ، وطهارة الصدور من الغل والغش عماد أمرهم ، وبذلك ظهر جوهرهم وبان فضلهم ؛ وإنما قدروا على إحياء هذه السنة ونهضوا بواجب حقها لزهدهم فى الدنيا وتركها لأربابها وطلابها ؛ لأن مثار الغل والغش محبة الدنيا ومحبة الرفعة والمنزلة عند الناس ، والصوفية زهدوا فى ذلك كله ، كما قال بعضهم : طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل ، فلما سقط عن قلوبهم محبة الدنيا وحب الرفعة أصبحوا وأمسوا وليس فى قلوبهم غش لأحد ، فقول القائل : كنست بأرواحهم المزابل ، إشارة منه إلى غاية التواضع ، وأن لا يرى نفسه تتميز عن أحد من المسلمين ، لحقارته عند نفسه ، وعند هذا ينسد باب الغش والغل ، وجرت هذه الحكاية فقال بعض الفقراء من أصحابنا : وقع لى أن معنى كنست بأرواحهم المزابل : أن الاشارة بالمزابل إلى النفوس ، لأنها مأوى كل رجس ونجس كالمزبلة ، وكنسها : بنور الروح الواصل إليها ، لأن الصوفية أرواحهم فى محال القرب ونورها يسرى إلى النفوس ، وبوصول نور الروح إلى النفس تطهر النفس ويذهب عنها المذموم من الغل والغش والحقد والحسد ، فكأنها تكنس بنور الروح ، وهذا المعنى صحيح وإن لم يرد القائل بقوله ذلك .

قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ قال أبو حفص : كيف يبقى الغل فى قلوب ائتلفت بالله واتفقت على محبته ، واجتمعت على مودته وأنست بذكره ، إن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع ، بل كحلت بنور التوفيق فصارت إخوانا ، فالحق حجابهم عن القيام بإحياء سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، قولا وفعلا وحالا صفات نفوسهم ، فإذا تبدلت نعوت النفس ارتفع الحجاب وصحت المتابعة ووقعت الموافقة فى كل شىء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجبت المحبة من الله تعالى عند ذلك . قال الله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ جعل متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم آية محبة العبد ربه ، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه ، فأوفر الناس حظا من متابعة الرسول أوفرهم حظا من محبة الله تعالى ، والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة ، لأنهم اتبعوا أقواله فقاموا

بما أمرهم ووقفوا عما نهاهم . قال الله تعالى ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ﴾ ، ثم اتبعوه فى أعمالهم من الجد والاجتهاد فى العبادة والتهجد والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك ، ورزقوا ببركة المتابعة فى الأقوال والأفعال التخلق بأخلاقه : من الحياء والحلم والصفح والعفو والرأفة والشفقة والمداراة والنصيحة والتواضع ، ورزقوا قسطا من أحواله من الخشية والسكينة والهيبة والتعظيم والرضا والصبر والزهد والتوكل ؛ فاستوفوا جميع أقسام المتابعات وأحيوا سنته بأقصى الغايات . قيل لعبدالواحد بن زيد : من الصوفية عندك ؟ قال القائمون بعقولهم على فهم السنة ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفيه . وهذا وصف تام وصفهم به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الافتقار إلى مولاه حتى يقول « لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين ، ا كلأنى كلاءة الوليد » ، ومن أشرف ماظفر به الصوفى من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوصف :وهو دوام الافتقار ودوام الالتجاء ، ولا يتحقق بهذا الوصف من صدق الافتقار إلا عبد كوشف باطنه بصفاء المعرفة ، وأشرق صدره بنور اليقين ، وخلص قلبه إلى بساط القرب ، وخلا سره بلذاذة المسامرة ، فيقيت نفسه بين هذه الأشياء كلها أسيرة مأمورة ، ومع ذلك كله يراها مأوى كل شر ، وهى بمثابة النار لو بقيت منها شرارة أحرقت عالما ، وهى وشيكة الرجوع سريعة الانفلات والانقلاب ؛ فالله تعالى بكمال لطفه عرفها إلى الصوفى وكشفها له على شىء من معنى ما كشفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهو دائم الاستغاثة إلى مولاه من شرها ، وكأنها جعلت سوطا للعبد تسوقه لمعرفته بشرها مع اللحظات ، إلى جناب الالتجاء ، وصدق الافتقار والدعاء ، فلايخلو الصوفى عن مطالعتها أدنى ساعة ، كما لايخلو عن ربه أدنى ساعة ، وربط معرفة الله تعالى فيما ورد « من عرف نفسه فقد عرف ربه » كربط معرفة الليل بمعرفة النهار ومن الذى يقوم بإحياء هذه السنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الصوفى العالم بالله الزاهد فى الدنيا المستمسك من التقوى بأوثق العرى ؛ ومن الذى يهتدى إلى فائدة هذه الحال غير الصوفى ، فدوام افتقاره إلى ربه تمسك بجناب الحق ولياذ به ، وفى هذا اللياذ استغراق الروح واستتباع القلب إلى محل الدعاء ، وفى انجذاب القلب إلى محل الدعاء بلسان الحال والكون فيه : نبو النفس عن مستقرها من الأقسام العاجلة ونزولها إليها فى مدارج العلم محفوفة بحراسة الله تعالى ورعايته ، والنفس المدبرة بهذا التدبير من حسن تدبير الله تعالى مأمونة من الغل والغش والحقد والحسد وسائر المذمومات ، فهذا حال الصوفى . ويجمع جمل حال الصوفية شيئان : هما وصف الصوفية ، إليهما الإشارة بقوله تعالى ﴿ الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ فقوم من الصوفية خصوا بالاجتباء الصرف ، وقوم منهم خصوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة ، بالاجتباء المحض غير معلل بكسب العبد ، وهذا حال المحبوب المراد يبادئه الحق بمنحه ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشوفه اجتهاده ، وفى هذا أخذ بطائفة من الصوفية رفعت الحجب عن قلوبهم وبادرهم سطوع نور اليقين فأثار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال ، فأقبلوا على الأعمال باللذاذة والعيش فيها قرة أعينهم ، فسهل الكشف عليهم الاجتهاد ، كما سهل على سحرة فرعون لذاذة النازل بهم من صفو العرفان : تحمل وعيد فرعون فقالوا ﴿ لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات ﴾ قال جعفر الصادق رضى الله عنه وجدوا أرواح العناية القديمة بهم فالتجأوا إلى السجود شكرا وقالوا ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ .

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة ، قال أخبرنا عبدالرحمن السلمى ، قال : سمعت منصورا يقول : سمعت أبا موسى الزقاقى يقول : سمعت أبا سعيد الخراز يقول : أهل الخالصة الذين هم المرادون اجتباهم مولاهم وأكل لهم النعمة وهيأ لهم الكرامة ، فأسقط عنهم حركات الطلب ، فصارت حركاتهم فى العمل والخدمة على الألفة والذكر والتنعم بمناجاته والانفراد بقربه ، وبهذا الإسناد إلى أبى عبد الرحمن السلمى قال : سمعت على بن سعيد يقول : سمعت أحمد بن الحسن الحمصى يقول : سمعت فاطمة المعروفة بجويرية تلميذة أبى سعيد تقول : سمعت الخراز يقول : المراد : محمول فى حركاته معان على حركاته وسعيه فى الخدمة ، مكنى مصون عن الشواهد والنواظر ، وهذا الذى قاله الشيخ أبو سعيد هو الذى اشتبه حقيقته على طائفة من الصوفية ولم يقولوا بالإكثار من النوافل ، وقد

رأوا جماعة من المشايخ قللت نوافلهم فظنوا أن ذلك حال مستمر على الإطلاق ، ولم يعلموا أن الذين تركوا النوافل واقتصروا على الفرائض كانت بداياتهم بدايات المريدين ؛ فلما وصلوا إلى روح الحال وأدركتهم الكشوف بعد الاجتهاد امتلأوا بالحال فطرحوا نوافل الأعمال ؛ فأما المرادون فتبقى عليهم الأعمال والنوافل وفيها قرة أعينهم ، وهذا أتم وأكمل من الأول ؛ فهذا الذى أوضحناه أحد طريق الصوفية ، فأما الطريق الآخر طريق المريدين وهم الذين شرطوا لهم الإنابة ، فقال الله تعالى ﴿ ويهدى إليه من ينيب ﴾ فطولبوا بالاجتهاد أولا قبل الكشوف .

قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ يدرجهم الله تعالى فى مدارج الكسب بأنواع الرياضات والمجاهدات وسهر الدياجر وظمأ الهواجر ، وتتأجج فيهم نيران الطلب ، وتتحجب دونهم لوامع الأدب ، يتقلبون فى رمضاء الإرادة ، وينخلعون عن كل مألوف وعادة ، وهى الإنابة التى شرطها الحق سبحانه وتعالى لهم وجعل الهداية مقرونة بها ، وهذه الهداية آنفا هداية خاصة لأنها هداية إليه ، غير الهداية العامة التى هى الهدى إلى أمره ونهيه بمقتضى المعرفة الأولى ، وهذا حال السالك المحب المريد ، فكانت الإنابة غير الهداية العامة فأثمرت هداية خاصة ، واهتدوا إليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات ، تخلصوا من مضيق العسر إلى فضاء اليسر ، وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى روح الأحوال فسبق اجتهادهم كشوفهم ، والمرادون سبق كشوفهم اجتهادهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى قال أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى ، قال حدثنا محمد بن الحسين بن موسى قال : سمعت محمد بن عبدالله الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت الجنيد رحمة الله عليه يقول : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

وقال محمد بن خفيف : الإرادة سمو القلب لطلب المراد وحقيقة الإرادة استدامة الجد وترك الراحة .

وقال أبو عثمان : المريد الذى مات قلبه عن كل شىء دون الله تعالى ، فيريد الله وحده ويريد قربه ويشتاق إليه ، حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه لشدة شوقه إلى ربه . وقال أيضاً : عقوبة قلب المريدين أن يحجبوا عن حقيقة المعاملات والمقامات إلى أضدادها ؛ فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية ودونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقق بالتصوف : (أحدهما) مجذوب أبقى على جذبته ما رد إلى الاجتهاد بعد الكشف ، (والثانى) مجتهد متعبد ما خلص إلى الكشف بعد الاجتهاد والصوفية فى طريقهما باب مزيدهم وصحة طريقهم بحسن المتابعة . ومن ظن أن يبلغ غرضا أو يظفر بمراد لا من طريق المتابعة فهو مخدوع مغرور .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف قال أخبرنا أبو عبدالرحمن قال سمعت نصر بن أبى نصر يقول : سمعت قسيما غلام الزقاق يقول : سمعت أباسعيد السكرى يقول : سمعت أباسعيد الخراز يقول : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل ، وكان يقول الجنيد رحمه الله . علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة .

حكى أن أبا يزيد البسطامى رحمه الله قال ذات يوم لبعض أصحابه : قم بنا حتى تنظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية ـ وكان الرجل فى ناحيته مقصودا ومشهورا بالزهد والعبادة ـ فمضينا إليه ؛ فلما خرج من بيته يقصد المسجد رمى بزاقة نحو القبلة ، فقال أبو يزيد : انصرفوا ، فانصرف ولم يسلم عليه وقال : هذا رجل ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأمونا على مايدعيه من مقامات الأولياء والصالحين .

وسئل خادم الشبلى رحمه الله : ماذا رأيت منه عند موته ؟ فقال : لما أمسك لسانه وعرق جبينه أشار إلى أن وضئنى للصلاة ، فوضأته فنسيت تخليل لحيته ، فقبض على يدى وأدخل أصابعى فى لحيته يخللها .

وقال سهل بن عبد الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل : هذا حال الصوفية وطريقهم ، وكل من

يدعى حالا على غير هذا الوجه فدع مفتون كذاب .

الباب الخامس : فى ماهية التصوف

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل فى كتابه قال : أخبرنا أبوبكر أحمد بن على بن خلف الشيرازى إجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال أخبرنا إبراهيم بن أحمد بن محمد بن رجاء ، قال حدثنا عبد الله بن أحمد البغدادى ، قال حدثنا عثمان بن سعيد قال حدثنا عمر بن أسد عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شىء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبر ، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة » فالفقر كأنّ فى ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه .

قال رويم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار .

وقال الجنيد ـ وقد سئل عن التصوف فقال ـ : أن تكون مع الله بلا علاقة .

وقال معروف الكرخى : التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف .

وسئل الشبلى عن حقيقة الفقر فقال : ألا يستغنى بشىء دون الحق .

وقال أبو الحسين النورى : نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال بعضهم : إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذر أن يدخل عليه الغنى فيفسد فقره ، كما أن الغنى يحترز من الفقر حذر أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه .

وبالإسناد الذى سبق إلى أبى عبد الرحمن قال : سمعت أبا عبد الرحمن الرازى يقول : سمعت مظفرا القرميسينى يقول : الفقير الذى لا يكون له إلى الله حاجة . قال : وسمعته يقول : سألت أبا بكر المصرى عن الفقير فقال : الذى لا يملك ولا يملك . قوله « لا يكون له حاجة » معناه أنه مشغول بوظائف عبوديته تام الثقة بربه ، عالم بحسن كلاءته به لا يحوجه إلى رفع الحاجة لعلمه بعلم الله بحاله ، فيرى السؤال فى البين زيادة ، وأقوال المشايخ تتنوع معانيها ؛ لأنهم أشاروا فيها إلى أحوال فى أوقات دون أوقات ، وتحتاج فى تفضيل بعضها عن البعض إلى الضوابط ، فقد تذكر أشياء فى معنى التصوف ذكر مثلها فى معنى الفقر وتذكر أشياء فى معنى الفقر ذكر مثلها فى معنى التصوف ، وحيث وقع الاشتباه فلا بد من بيان فاصل ؛ فقد تشتبه الإشارات فى الفقر بمعانى الزهد تارة وبمعانى التصوف تارة ، ولا يتبين للمسترشد بعضها من البعض ؛ فنقول : التصوف غير الفقير ، والزهد غير الفقر ، والتصوف غير الزهد ؛ فالتصوف اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد مع مزيد أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وإن كان زاهدا وفقيرا .

قال أبو حفص : التصوف كله آداب ، لكل وقت أدب ، ولكل حالة أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول . وقال أيضا : حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن ؛ لأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » .

أخبرنا الشيخ رضى الدين أحمد بن إسمعيل إجازة قال أخبرنا الشيخ أبو المظفر عبد المنعم ، قال أخبرنى والدى أبو القاسم القشيرى ، قال سمعت محمد بن أحمد بن يحيى الصوفى يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سئل أبو محمد الجريرى عن التصوف فقال . الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج عن كل خلق دنى ؛ فإذا عرف هذا المعنى فى التصوف من حصول الأخلاق وتبديلها واعتبر حقيقته ، يعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر . وقيل : نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف ، وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر ، يقولون : قال الله تعالى ﴿ للفقراء الذين

أحصروا فى سبيل الله ﴾ هذا وصف الصوفية ، والله تعالى سماهم فقراء ، وسأوضح معنى يفترق الحال به بين التصوف والفقر ، نقول : الفقير فى فقره متمسك به متحقق بفضله يؤثره على الغنى ، متطلع إلى ما تحقق من العوض عند الله حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم : وهو خمسمائة عام » فكلما لاحظ العوض الباقى أمسك عن الحاصل الفانى وعانق الفقر والقلة وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض وهذا عين الاعتلال فى طريق الصوفية ، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك لأجلها . والصوفى يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة بل للأحوال الموجودة فإنه ابن وقته . وأيضا ترك الفقير الحظ العاجل واغتنامه الفقر اختيار منه وإرادة ، والاختيار والإرادة علة فى حال الصوفى ، لأنّ الصوفى صار قائما فى الأشياء بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلة فى صورة فقر ولا فى صورة غنى ، وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيه ويدخله عليه ويعلم الإذن من الله تعالى فى الدخول فى الشىء ، وقد يدخل فى صورة سعة مباينة للفقر بإذن من الله تعالى ، ويرى الفضيلة حينئذ فى السعة لمكان الإذن من الله فيه ، ولا يفسح فى السعة والدخول فيها للصادقين إلا بعد إحكامهم علم الإذن ، وفى هذا مزلة للأقدام وباب دعوى للمدعين ، وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه راكب المحال ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ﴾ فإذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف ، وعلم أن الفقر أساس التصوف وبه قوامه على معنى أن الوصول إلى رتب التصوف طريقه الفقر لا على معنى أنه يلزم من وجود التصوف وجود الفقر .

قال الجنيد رحمة الله عليه : التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به ، وهذا المعنى هو الذى ذكرناه من كونه قائما فى الأشياء بالله لا بنفسه ، والفقير والزاهد مكونان فى الأشياء بنفسهما واقفان مع إرادتهما يجتهدان مبلغ علمهما ، والصوفى منهم لنفسه مستقل لعلمه ، غير راكن إلى معلومه ، قائم بمراد ربه لا بمراد نفسه .

قال ذى النون المصرى رحمة الله عليه : الصوفى من لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب . وقال أيضا : الصوفية آثروا الله تعالى على كل شىء فآثرهم الله على كل شىء ، فكان من إيثارهم أن آثروا علم الله على علم نفوسهم ، وإرادة الله على إرادة نفوسهم.

قيل لبعضهم : من أصحب من الطوائف ؟ قال : الصوفية ، فإن للقبيح عندهم وجوها من المعاذير ، وليس للكبير من العمل عندهم وقع ، يرفعونك به فتعجبك نفسك ، وهذا علم لا يوجد عند الفقير والزاهد ، لأن الزاهد يستعظم الترك ويستقبح الأخذ وهكذا الفقير ، وذلك لضيق وعائهم ووقوفهم على حد علمهم .

وقال بعضهم : الصوفى من إذا استقبله حالان حسنان أو خلقان حسنان يكون مع الأحسن ، والفقير والزاهد لا يميزان كل التمييز بين الخلقين الحسنين ، بل يختاران من الأخلاق أيضا ما هو أدعى إلى الترك والخروج عن شواغل الدنيا ، حاكمان فى ذلك بعلمهما ، والصوفى : هو المستبين الأحسن من عند الله بصدق التجائه وحسن إنابته وحظ قربه ولطيف ولوجه وخروجه إلى الله تعالى ، لعلمه بربه وحظه من محادثته ومكالمته .

قال رويم : التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .

وقال عمرو بن عثمان المكى : التصوف أن يكون العبد فى كل وقت مشغولا بما هو أولى فى الوقت .

قال بعضهم : التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى : وقيل : التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع . وقيل التصوف ترك التكلف وبذل الروح .

قال سهل بن عبد الله : الصوفى من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر .

وسئل بعضهم عن التصوف فقال ، تصفية القلب عن موافقة البرية . ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، واتباع الرسول فى الشريعة .

قال ذو النون المصرى : رأيت ببعض سواحل الشام امرأة ، فقلت : من أين أقبلت ؟ قالت : من عند أقوام تتجافى

جنوبهم عن المضاجع . فقلت : وأين تريدين ؟ قالت: إلى رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فقلت : صفيهم لى ، فأنشأت :

قوم همومهم بالله قد علقت * فما لهم همم تسمو إلى أحد
فطلب القوم مولاهم وسيدهم * يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف * من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس ثيــــاب فائق أنق * ولا لروح سرور حل فى بلد
إلا مســـــارعة فى إثر منزلة * قد قارب الخطو فيها باعد الأبد
فهم رهائن غدران وأودية * وفى الشوامخ تلقاهم مع العدد

وقال الجنيد : الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح . وقال أيضا : هو كالأرض يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شىء ، وكالقطر يسقى كل شىء .

وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف تزيد على ألف قول ، ويطول نقلها ، ونذكر ضابطا يجمع جمل معانيها ، فإن الألفاظ وإن اختلفت متقاربة المعانى . فنقول : الصوفى هو الذى يكون دائم التصفية لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس ، ويعينه على كل هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه ، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر ، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه ، فبدوام تصفيته جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقته وكدره ، فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه . قال الله تعالى ﴿كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾ وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف ، قال بعضهم التصوف كله اضطراب ، فإذا وقع السكون فلا تصوف ، والسر فيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية يعنى أن روح الصوفى متطلعة منجذبة إلى مواطن القرب ، والنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب على عقبها ، ولا بد للصوفى من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس ، ومن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى الصوفى جميع المتفرق فى الإشارات .

الباب السادس : فى ذكر تسميتهم بهذا الاسم

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر ، وقال أخبرنى والدى ، قال أخبرنا أبو على الشافعى بمكة حرسها الله تعالى ، قال أخبرنا أحمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا أبو عبد الله المخزومى ، قال حدثنا سفيان عن مسلم عن أنس بن مالك ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف ، فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة ، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام » .

وقيل : إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ، ويأكل من الشجر ، ويبيت حيث أمسى .

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : لقد ادركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف ، ووصفهم أبو هريرة وفضالة ابن عبيد فقالا : كانوا يخرون من الجوع حتى يحسبهم الأعراب مجانين ، وكان لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كان يعرق فى ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث . وقال بعضهم : إنه ليؤذينى ريح هؤلاء ، أما يؤذيك ريحهم ؟ يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا ، وقناعتهم بسد الجوعة وستر العورة ، واستغراقهم فى أمر الآخرة ، فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحاتها ، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم ، وانصراف همهم إلى أمر الآخرة ، وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق ، لأنه يقال ، تصوف ، إذا لبس الصوف ، كما يقال ، تقمص ، إذا لبس القميص .

ولما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم فى الأحوال وارتقائهم من عال إلى أعلى منه ، لايقيدهم وصف ولا يحبسهم نعت ، وأبواب المزيد عليهم مفتوحة ، وبواطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم ، فلما تعذر تقيدهم بحال تقيدهم لتنوع وجدانهم وتجنس مزيدهم ، نسبوا إلى ظاهر اللبسة . وكان ذلك أبين فى الإشارة إليهم ، وأدعى إلى حصر وصفهم ؛ لأن لبس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلفهم ؛ وأيضاً لأن حالهم حال المقربين كما سبق ذكره . ولما كان الاعتزاء إلى القرب ـ وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب يعز كشفه والإشارة إليه ـ وقعت الإشارة إلى زيهم سترا للحالم وغيرة على عزيز مقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتداوله الألسنة ، فكان هذا أقرب إلى الأدب ، والأدب فى الظاهر والباطن والقول والفعل عماد أهل الصوفية ، وفيه معنى آخر : وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تفيء عن تقللهم من الدنيا وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم ، حتى إن المبتدئ المريد الذى يؤثر طريقهم ويحب الدخول فى أمرهم يوطن نفسه على التقشف والتقلل ، ويعلم أن المأكول أيضا من جنس الملبوس فيدخل فى طريقهم على بصيرة ، وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدئ ، والإشارة إلى شىء من حالهم فى تسميتهم بهذا أنفع وأولى ، وأيضا غير هذا المعنى مما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى وإذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى ، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم ، وأيضاً لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ، ونسبتهم من أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن ، والحكم بالظاهر أوفق وأولى ؛ فالقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع ، ويقرب أن يقال : لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والانكسار والتخفى والتوارى ، كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التى لا يرغب فيها ولا يلتفت إليها ؛ فيقال : صوفى ، نسبة إلى الصوفة ، كما يقال : كوفى ، نسبة إلى الكوفة ، وهذا ماذكره بعض أهل العلم ، والمعنى المقصود به قريب ويلائم الاشتقاق ، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقشفين والعباد .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه ، قال أخبرنا عبد الرزاق بن عبد الكريم ، قال أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد ، قال حدثنا أبو على بن إسماعيل بن محمد ، قال حدثنا الحسن بن عرفة ، قال حدثنا خلف بن خليفة عن حميد بن الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكمة صوف ونعلاه من جلد حمار غير مذكى .

وقيل : سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه . وقيل : كان هذا الاسم فى الأصل صفوى ، فاستثقل ذلك وجعل صوفيا . وقيل سموا صوفية نسبة إلى الصفة التى كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ﴾ الآية ، وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوى ولكنه صحيح من حيث المعنى ؛ لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك لكونهم مجتمعين متآلفين متصاحبين لله وفى الله ، كأصحاب الصفة ، وكانوا نحوا من أربعمائة رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر ، جمعوا أنفسهم فى المسجد كاجتماع الصوفية قديما وحديثا فى الزوايا والربط ، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة ، كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار ، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواسيهم ويحث الناس على مواساتهم ويجلس معهم ويأكل معهم ، وفيهم نزل قوله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ وقوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ ونزل فى ابن أم مكتوم قوله تعالى ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ وكان من أهل الصفة ، فعوتب النبى صلى الله عليه وسلم لأجله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صافحهم لا ينزع يده من أيديهم ، وكان يفرقهم على أهل الجدة والسعة يبعث مع كل واحد ثلاثة ومع الآخر أربعة ، وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون فى ثوب واحد ، منهم من لا يبلغ ركبتيه ، فإذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته . وقال بعض أهل الصفة : جئنا جماعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلنا يارسول الله ، أحرق بطوننا التمر فسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد المنبر ثم قال : ما بال أقوام يقولون أحرق بطوننا التمر ، أما علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة وقد واسونا به وواسيناكم مما واسونا به ، والذى نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخان للخبز، وليس لهم إلا الأسودان الماء والتمر .

أخبرنا الشيخ أبو الفتوح محمد بن عبد الباقى فى كتابه ، قال أخبرنا الشيخ أبو بكر ابن زكريا الطريثيثى قال أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، قال حدثنا محمد بن محمد بن سعيد الأنماطى ، قال حدثنا الحسن بن يحيى بن سلام ، قال حدثنا محمد بن على الترمذى ، قال حدثنى سعيد بن حاتم البلخى ، قال حدثنا سهل بن أسلم عن خلاد بن محمد عن أبى عبد الرحمن السكرى عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أهل الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال « أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقى منكم على النعت الذى أنتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه فإنه من رفقائى يوم القيامة » .

وقيل : كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى والمدن ، ويسمونهم فى خراسان شكفتية ؛ لأن « شكفت » اسم الغار ، ينسبونهم إلى المأوى والمستقر وأهل الشام يسمونهم جوعية ، والله تعالى ذكر فى القرآن طوائف الخير والصلاح فسمى قوما أبرارا وآخرين مقربين، ومنهم الصابرون والصادقون ، والذاكرون، والمحبون ، واسم الصوفى مشتمل على جميع المتفرق فى هذه الأسماء المذكورة ، وهذا الاسم لم يكن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل كان فى زمن التابعين . ونقل عن الحسن البصرى رحمة الله عليه أنه قال رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذ وقال معى أربع دوانيق يكفينى مامعى ويشيد هذا ماروى عن سفيان أنه قال لولا أبو هاشم الصوفى ماعرفت دقيق الرياء . وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديما وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية ؛ لأن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمون الرجل صحابيا لشرف صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة ، وبعد انقراض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ منهم العلم سمى تابعيا ، ثم لما تقادم زمان الرسالة ، وبعد عهد النبوة وانقطع الوحى السماوى ، وتوارى النور المصطفوى ، واختلفت الآراء وتنوعت الأنحاء ، وتفرد كل ذى رأى برأيه وكدر شرب العلوم شوب الأهوية ، وتزعزعت أبنية المتقين ، واضطربت عزائم الزاهدين ، وغلبت الجهالات وكثف حجابها ، وكثرت العادات وتملكت أربابها ، وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها ـ تفرد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية وصدق فى العزيمة وقوة فى الدين ، وزهدوا فى الدنيا ومحبتها ، واغتنموا العزلة والوحدة ، واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى ، أسوة بأهل الصفة ، تاركين للأسباب ، متبتلين إلى رب الأرباب؛ فأثمر لهم صالح الأعمال سنى الأحوال ، وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم ، وصار لهم بعد اللسان لسان ، وبعد العرفان عرفان، وبعد الإيمان إيمان ، كما قال حارثة أصبحت مؤمنا حقا ، حيث كوشف برتبة فى الإيمان غير مايتعاهدها ، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها وإشارات يتعاهدونها، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها وتعرب عن أحوال يجدونها ، فأخذ ذلك الخلف عن السلف ، حتى صار ذلك رسما مستمرا وخبرا مستقرا فى كل عصر وزمان؛ فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به وسموا به؛ فالاسم سمتهم ، والعلم بالله صفتهم ، والعبادة حليتهم ، والتقوى شعارهم ، وحقائق الحقيقة أسرارهم ، نزاع القبائل وأصحاب الفضائل ، سكان قباب الغيرة وقطان ديار الحيرة ، لهم مع الساعات من إمداد فضل الله مزيد ، ولهيب شوقهم يتأجج ويقول هل من مزيد . اللهم احشرنا فى زمرتهم وارزقنا حالاتهم . والله أعلم .

الباب السابع : فى ذكر المتصوف والمتشبه به

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى إجازة ، قال اخبرنا الشيخ أبو منصور بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة ، قال أخبرنا محمد بن العباس بن زكريا ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد الأصفهانى ، قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا المعتمر بن سليمان ، قال أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبى عليه الصلاة والسلام فقال : يارسول الله متى قيام الساعة ؟ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ، فلما قضى الصلاة قال وأين السائل عن الساعة ؟ ، فقال الرجل : أنا يا رسول الله ، قال ، وما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام – أو قال ماأعددت لها كبير عمل – إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام والمرء مع من أحب أو أنت مع من أحببت ، قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الاسلام فرحهم بهذا ، فالمتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبته إياهم ، وهو مع تقصيره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبته ، وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذى رويناه فى المعنى : روى عبادة بن الصامت عن أبى ذر الغفارى قال : قلت يارسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم ؟ قال : أنت ياأباذر مع من أحببت ، قال : قلت فإنى أحب الله ورسوله ، قال ، فإنك مع من أحببت ، قال : فأعادها أبو ذر ، فأعادها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . فحبة المتشبه إياهم لاتكون إلا لتنبه روحه لما تنبهت له أرواح الصوفية ؛ لأن محبة أمر الله ومايقرب منه ومن يقرب منه ، تكون بجاذب الروح ، غير أن المتشبه تعوق بظلمة النفس ، والصوفى تخلص من ذلك ، والمتصوف متطلع إلى حال الصوفى ، وهو مشارك بقاء شىء من صفات نفسه عليه للمتشبه ، وطريق الصوفية أوله إيمان ثم علم ثم ذوق ؛ فالمتشبه صاحب إيمان . والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير . قال الجنيد رحمة الله عليه : الإيمان بطريقنا هذا ولاية ، ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة وآثار مستغربة عند أكثر الخلق ؛ لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم وإشاراتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه ، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة . وقد أنكر قوم من أهل الملة كرامات الأولياء ، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة ، ولهم علوم من هذاالقبيل فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بمزيد عنايته ، فالمتشبه صاحب إيمان والمتصوف صاحب علم ، لأنه بعدالإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم وصار له من ذلك مواجيد يستدل بها على سائرها ، والصوفى صاحب ذوق ، فالمتصوف الصادق نصيب من حال الصوفى ، وللمتشبه نصيب من حال المتصوف ، وهكذا سنة الله تعالى جارية أن كل صاحب حال له ذوق فيه لابد أن يكشف له علم بحال أعلى مما هو فيه ، فيكون فى الحال الأول صاحب ذوق ، وفى الحال الذى كوشف به صاحب علم ، وبحال فوق ذلك صاحب إيمان ، حتى لايزال طريق الطلب مسلوكا ، فيكون فى حال الذوق صاحب قدم ، وفى حال العلم صاحب نظر ، وفى حال فوق ذلك صاحب إيمان . قال الله تعالى ﴿ إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون ﴾ وصف الأبرار ووصف شرابهم ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون ﴾ فكان لشراب الأبرار مزج من شراب المقربين ، وللمقربين ذلك صرفا ؛ فللصوفى شراب صرف ، وللمتصوف من ذلك مزج فى شرابه ، وللمتشبه مزج من شراب المتصوف ؛ فالصوفى سبق إلى مقار الروح من بساط القرب ، والمتصوف بالنسبة إلى الصوفى كالمتزهد بالنسبة إلى الزاهد ، لأنه تفعل وتعمل وتسبب إشارة إلى ما بقى عليه من وصفه ، فهو مجتهد فى طريقه سائر إلى ربه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيروا ، سبق المفردون ، قيل : من المفردون يارسول الله ؟ قال : المستهترون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا ، فالصوفى فى مقام المفردين ، والمتصوف فى مقام السائرين واصل فى سيره مقار القلب من ذكر الله عز وجل ومراقبته بقلبه وتلذذه بنظره إلى نظر الله إليه ؛ فالصوفى فى مقار الروح صاحب مشاهدة ، والمتصوف فى مقار القلب

صاحب مراقبة ، والمتشبه فى مقاومة النفس صاحب مجاهدة وصاحب محاسبة ؛ فتلوين الصوفى بوجود قلبه ، وتلوين المتصوف بوجود نفسه ، والمتشبه لا تلوين له لأن التلوين لأرباب الأحوال ، والمتشبه مجتهد سالك لم يصل بعد إلى الأحوال ، والكل تجمعهم دائرة الاصطفاء . قال الله تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ قال بعضهم : الظالم الزاهد ، والمقتصد العارف ، والسابق المحب .

وقال بعضهم : الظالم الذى يجزع من البلاء ، والمقتصد الذى يصبر عند البلاء ، والسابق الذى يتلذذ بالبلاء . وقال بعضهم : الظالم يعبد على الغفلة والعادة ، والمقتصد يعبد على الرغبة والرهبة ، والسابق يعبد على الهيبة والمنة . وقال بعضهم : الظالم يذكر الله بلسانه ، والمقتصد بقلبه ، والسابق لا ينسى ربه . وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى رحمه الله : الظالم : صاحب الأقوال ، والمقتصد : صاحب الأفعال ، والسابق : صاحب الأحوال . وكل هذه الأقوال قريبة التناسب من حال الصوفى والمتصوف والمتشبه ، وكلهم من أهل الفلاح والنجاح ، تجمعهم دائرة الاصطفاء ، وتؤلف بينهم نسبة التخصص بالمنح والعطاء .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أبو الخير أحمد بن اسمعيل القزوينى إجازة ، قال : أخبرنا أبو سعد محمد بن أبى العباس ، قال أخبرنا القاضى محمد بن سعيد ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، قال أخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه ، قال حدثنا أحمد بن محمد بن رزمة ، قال حدثنا يوسف بن عاصم الرازى ، قال حدثنا أبو أيوب سليمان بن داود قال حدثنا حصين بن نمير عن ابن أبى ليلى عن أخيه عن أسامة بن زيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى قوله تعالى ﴿ فنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ « كلهم فى الجنة » .

قال ابن عطاء : الظالم : الذى يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذى يحب الله من أجل العقبى ، والسابق : هو الذى أسقط مراده بمراد الله فيه ، وهذا هو حال الصوفى ؛ فالمتشبه تعرض لشىء من أمر القوم ، ويوجب له ذلك القرب منهم ، والقرب منهم مقدمة كل خير .

سمعت شيخنا يقول : جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالى ونحن بأصبهان يريد منه الخرقة ، فقال له الشيخ اذهب إلى فلان يشير إلى حتى يكلمك فى معنى الخرقة ، ثم احضر حتى ألبسك الخرقة ، قال فجاء إلى فذكرت له حقوق الخرقة وما يجب من رعاية حقها وآداب من يلبسها ومن يؤهل للبسها ، فاستعظم الرجل حقوق الخرقة وجبن أن يلبسها ، فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولى له ، فاستحضرنى وعاتبنى على قولى له ذلك وقال بعثته إليك حتى تكلمه بما يزيد رغبته فى الخرقة ، فكلمته بما فترت عزيمته ! ثم الذى ذكرته كله صحيح ، وهو الذى يجب من حقوق الخرقة ، ولكن إذا ألزمنا المبتدى بذلك نفر وعجز عن القيام به . فنحن نلبسه الخرقة حتى يتشبه بالقوم ويتزيى بزيهم فيقربه ذلك من مجالسهم ومحافلهم ، وببركة مخالطته معهم ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم يحب أن يسلك مسالكهم ويصل بذلك إلى شىء من أحوالهم .

ويوافق هذا القول من الشيخ أحمد الغزالى ما أخبرنا شيخنا رحمه الله قال أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف قال أخبرنا الشيخ عبد الرحمن السلمى قال سمعت الحسين بن يحيى يقول سمعت جعفراً يقول سمعت أبا القاسم الجنيد يقول إذا لقيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق ، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه ، وبرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينتفع المبتدى الطالب ، وكل من كان منهم أكمل حالا وأوفر علما كان أكثر رفقا بالمبتدى الطالب

حكى عن بعضهم أنه صحبه طالب فكان يأخذ نفسه بكثرة المعاملات والمجاهدات ولم يقصد بذلك إلا نظر المبتدى إليه والتأدب بأدبه والاقتداء به فى عمله وهذا هو الرفق الذى مادخل فى شىء إلا زانه ، فالمتشبه الحقيقى له إيمان بطريق القوم وعمل بمقتضاه وسلوك واجتهاد ، على ما ذكرناه أنه صاحب مجاهدة ومحاسبة ، ثم يصير متصوفا صاحب مراقبة ثم يصير صوفيا صاحب مشاهدة ، فأما من لم يتطلع إلى حال التصوف والصوفى بالتشبه ولا يقصد أوائل

مقاصدهم بل هو مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة والمشاركة فى الزى والصورة دون السيرة والصفة ، فليس بمتشبه بالصوفية ، لأنه غير محاك لهم بالدخول فى بداياتهم ، فإذن هو متشبه بالمتشبه يعتزى إلى القوم بمجرد لبسه ومع ذلك هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، وقد ورد « من تشبه بقوم فهو منهم » أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى ، قال أخبرنا عبدالله بن جعفر ، قال حدثنا عمر بن أحمد بن أبى عاصم ، قال حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعى ، قال حدثنا على بن أحمد ، قال حدثنا على بن على المقدسى ، قال حدثنا محمد بن عبدالله بن عامر ، قال حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، قال حدثنا فضيل بن عياض عن سليمان الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس يطوفون فى الطرق ويتتبعون مجالس الذكر ، فإذا رأوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجاتكم ، فيحفون بأجنحتهم إلى عنان السماء ، فيقول الله وهو أعلم مايقول عبادى ؟ قالوا يحمدونك ويسبحونك ويمجدونك ، فيقول وهل رأونى ؟ فيقولون لا ، فيقول كيف لو رأونى ؟ قالوا لو رأوك كانوا أشد تسبيحا وتحميدا وتمجيدا ، فيقول ماسألونى ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ قالوا : لو رأوها كانوا أشد لها طلبا وعليها أكثر حرصا ، قالوا : ويتعوذون من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول كيف لو رأوها ؟ قالوا : كانوا أشد منها تعوذا وأشد فرارا ، فيقول أشهدكم أنى قد غفرت لهم ، فيقول الملك فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة ، فيقول تبارك وتعالى هم الجلساء لا يشقى جليسهم » فلا يشقى جليس الصوفية والمتشبه بهم والمحب لهم

الباب الثانى : فى ذكر الملامتى وشرح حاله

وقال بعضهم الملامتى هو الذى لا يظهر خيرا ، ولا يضمر شرا ، وشرح هذا هو أن الملامتى تشربت عروقه طعم الإخلاص ، وتحقق بالصدق ، فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل المقدسى إجازة قال أخبرنا أبوبكر على بن خلف الشيرازى إجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال سمعت على بن إبراهيم وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أبا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت أحمد بن على الجهمى عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت الحسن عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت حذيفة عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ماهو ؟ قال « سألت جبرائيل عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت رب العزة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : هو سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى » .

فالملامتية لهم مزيد اختصاص بالتمسك بالإخلاص ، يرون كتم الأحوال والأعمال ، ويتلذذون بكتمها ، حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصى من ظهور معصيته ، فالملامتى عظم وقع الإخلاص وموضعه وتمسك به معتدا به ، والصوفى غاب فى إخلاصه عن إخلاصه . قال أبو يعقوب السوسى متى شهدوا فى إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص . وقال ذوالنون ثلاث من علامات الإخلاص . استواء الذم والمدح من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال ، وترك اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة قال : أخبرنا أبو عبدالرحمن قال : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : الإخلاص مالا يكون للنفس فيه حظ بحال ، وهذا إخلاص العوام ، وإخلاص الخواص مايجرى عليهم لابهم ، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد ، فذلك إخلاص الخواص ، وهذا الذى فصله الشيخ أبو عثمان المغربى يفرق بين الصوفى والملامتى ، لأن الملامتى أخرج الخلق عن عمله وحاله ، ولكن أثبت

نفسه فهو مخلص ، والصوفى أخرج نفسه عن عمله وحاله كما أخرج غيره فهو مخلص ، وشتان ما بين المخلص الخالص والمخلص

قال أبو بكر الزقاق : نقصان كل مخلص فى إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مخلصا لا مخلصا . قال أبو سعيد الخراز : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين . ومعنى قوله أن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص ، والعارف منزه عن الرياء الذى يبطل العمل ، ولكن لعله يظهر شيئا من حاله وعمله بعلم كامل عنده فيه لجذب مريد أو معاناة خلق من أخلاق النفس فى إظهار الحال والعمل ، وللعارفين فى ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم ، فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء وليس برياء ، وإنما هو صريح العلم لله بالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه .

قال رويم : الإخلاص أن لا يرضى صاحبه عليه عوضا فى الدارين ، ولا حظا من الملكين .

وقال بعضهم : صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق ، والملامتى يرى الخلق فيخفى عمله وحاله وكل ما ذكرناه من قبيل وصف إخلاص الصوفى ، ولهذا قال الزقاق . لابد لكل مخلص من رؤية إخلاصه ، وهو نقصان عن كمال الإخلاص ، والإخلاص هو الذى يتولى الله حفظ صاحبه حتى يأتى به على التمام .

قال جعفر الخلدى : سألت أبا القاسم الجنيد رحمه الله ، قلت : أبين الاخلاص والصدق فرق ؟ قال : نعم ، الصدق أصل وهو الأول ، والإخلاص فرع وهو تابع ، وقال بينهما فرق لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول فى العمل ثم قال إنما هو إخلاص ، ومخالصة الاخلاص ، وخالصة كائنة فى المخالصة ، فعلى هذا الإخلاص حال الملامتى ، ومخالصة الإخلاص حال الصوفى ، والخالصة الكائنة من المخالصة ثمرة مخالصة الإخلاص وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه ، بل غيبيه عن رؤية قيامه وهو الاستغراق فى العين عن الآثار والتخلص عن لوث الاستتار وهو فقد حال الصوفى . والملامتى مقيم فى أوطان إخلاصه غير متطلع إلى حقيقة خلاصه ، وهذا فرق واضح بين الملامتى والصوفى ولم يزل فى خراسان منهم طائفة ولهم مشايخ يهدون أساسهم ويعرفونهم شروط حالهم . وقد رأينا فى العراق من يسلك هذا المسلك ولكن لم يشتهر بهذا الاسم ، وقلما يتداول ألسنة أهل العراق هذا الاسم .

حكى أن بعض الملامتية استدعى إلى سماع فامتنع ، فقيل له فى ذلك فقال لأنى إن حضرت يظهر على وجد ، ولا أوثر أنه يعلم أحد حالى .

وقيل إن أحمد بن أبى الحوارى قال لأبى سليمان الدارانى إنى إذا كنت فى الخلوة أجد لمعاملتى لذة لا أجدها بين الناس ، فقال له إنك إذاً لضعيف ، فالملامتى وإن كان متمسكا بعروة الإخلاص مستفرشا بساط الصدق ، ولكن بقى عليه بقية رؤية الخلق ، وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق ، والصوفى صفا من هذه البقية فى طرفى العمل والترك للخلق وعزلهم بالكلية ، ورآهم بعين الفناء والزوال ، ولاح له ناصية التوحيد ، وعاين سر قوله ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾ كما قال بعضهم فى بعض غلباته ليس فى الدارين غير الله ، وقد يكون إخفاء الملامتى الحال على وجهين أحد الوجهين لتحقيق الإخلاص والصدق ، والوجه الآخر وهو الأتم لستر الحال عن غيره بنوع غيرة ، فإن من خلا بمحبوبه يكره اطلاع الغير عليه ، بل يبلغ فى صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمحبوبه ، وهذا وإن علا ففى طريق الصوفى علة ونقص ، فعلى هذا يتقدم الملامتى على المتصوف ويتأخر عن الصوفى .

وقيل إن من أصول الملامتية أن الذكر على أربعة أقسام ذكر باللسان ، وذكر بالقلب ، وذكر بالسر ، وذكر بالروح . فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر المشاهدة . وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الهيبة . وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الآلاء والنعماء . وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر وذلك ذكر العادة ، ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة ، فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه ، وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه ، وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه ، وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه ، أو طلب ثوابه ، أو ظن أنه يصل إلى شىء من المقامات

وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك ، وسر هذا الأصل الذى بنو عليه أن ذكر الروح ذكر الذات ، وذكر السر ذكر الصفات بزعمهم ، وذكر القلب من الآلاء والنعماء ذكر أثر الصفات ، وذكر النفس متعرض للعلات ؛ فمعنى قولهم «اطلاع السر على الروح» يشيرون إلى التحقق بالفناء عند ذكر الذات وذكر الهيبة فى ذلك الوقت ذكر الصفات مشعر بنصيب الهيبة ، وهو وجود الهيبة ، ووجود الهيبة يستدعى وجودا وبقية ، وذلك يناقض حال الفناء ، وهكذا ذكر السر وجود هيبة وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب ، وذكر القلب الذى هو ذكر الآلاء والنعماء مشعر ببعد ما ، لأنه اشتغال بذكر النعمة وذهول عن المنعم . والاشتغال برؤية العطاء عن رؤية المعطى ضرب من بعد المنزلة واطلاع النفس ، نظرا إلى الأعواض اعتدادا بوجود العمل ، وذلك عين الاعتدال حقيقة ، وهذه أقسام هذه الطائفة ، وبعضها أعلم من بعض ، والله أعلم .

الباب التاسع : فى ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم

فمن أولئك قوم يسمون نفوسهم قلندرية تارة وملامتية أخرى ؛ وقد ذكرنا حال الملامتى ، وأنه حال شريف ومقام عزيز ، وتمسك بالسنن والآثار ، وتحقق بالإخلاص والصدق ، وليس مما يزعم المفتونون بشىء .

فأما القلندرية فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات ، وطرحوا التقييد بآداب المجالسات والمخالطات ، وساحوا فى ميادين طيبة قلوبهم ؛ فقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شىء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحا برخصة الشرع ، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبوا حقائق العزيمة ، ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار ، وترك الجمع والاستكثار ، ولا يترسمون برسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين ، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب ، والفرق بين الملامتى والقلندرى : أن الملامتى يعمل فى كتم العبادات والقلندرى يعمل ، فى تخريب العادات ، والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه ، ولكن يخفى الأعمال والأحوال ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه وحركاته وأموره وسترا للحال لئلا يفطن له ، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب المزيد باذل مجهوده فى كل ما يتقرب به العبيد . والقلندرى لا يتقيد بهيئة ولا يبالى بما يعرف من حاله وما لا يعرف ، ولا يتعطف إلا على طيبة القلوب وهو رأس ماله ، والصوفى يضع الأشياء مواضعها ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامه ويقيم أمر الحق مقامهم ، ويستر ما ينبغى أن يستر ويظهر ما ينبغى أن يظهر ، ويأتى بالأمور فى موضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص ، فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية ولبسوا لبسة الصوفية لينتسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشىء ، بل هم فى غرور وغلط ، يتسترون بلبسة الصوفية توقيتا تارة ودعوى أخرى ، وينتهجون مناهج أهل الإباحة ، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى ، ويقولون : هذا هو الظفر بالمراد ، والارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام المنحصرين فى مضيق الاقتداء تقليدا ، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد ، فكل حقيقة ردتها الشريعة فهى زندقة ، وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حق العبودية ، والحقيقة هى حقيقة العبودية ، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية وصار مطالبا بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك ، لأنه يخلع عن عنقه ربقة التكليف ويخامر باطنه الزيغ والتحريف .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه المقدسى قال أخبرنا أبو محمد الخطيب ، حدثنا أبو بكر بن محمد بن عمر ، قال حدثنا أبو بكر بن أبى داود ، قال حدثنا أحمد بن صالح ، قال حدثنا عنبسة قال حدثنا يونس بن يزيد ، قال قال محمد يعنى الزهرى ، أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن عبدالله بن عتبة بن مسعود حدثه قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه ، وليس إلينا من سريرته شىء ؛ الله تعالى يحاسبه فى

سريرته : ومن أظهر لنا سوى ذلك لم نأمنه وإن قال سريرتى حسنة وعنه أيضا رضى الله عنه قال : من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن ؛ فإذا رأينا متهاونا بحدود الشرع مهملا للصلوات المفروضات لا يعتد بحلاوة التلاوة والصوم والصلاة ويدخل فى المداخل المكروهة المحرمة ، نرده ولا نقبله ولا نقبل دعواه أن له سريرة صالحة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة عن عمر بن أحمد عن أبى خلف عن السلمى ؛ قال : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة ، فقال الرجل: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى : فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهذه عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ؛ وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه يرجعون فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة ؛ إلا أن يحال بى دونها ؛ وإنها لآكد فى معرفتى وأقوى لحالى . ومن جمله أولئك قوم يقولون بالحلول ويزعمون أن الله تعالى يحل فيهم ويحل فى أجسام يصطفيها ، ويسبق لأفهامهم معنى من قول النصارى فى اللاهوت والناسوت . ومنهم من يستبيح النظر إلى المستحسنات إشارة إلى هذا الوهم ، ويتخايل له أن من قال كلمات فى بعض غلباته كان مضمرا لشىء مما زعموه ، مثل قول الحلاج : أنا الحق ، ومايحكى عن أبى يزيد من قوله : سبحانى ، حاشا أن نعتقد فى أبى يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى ، وهكذا ينبغى أن يعتقد فى قول الحلاج ذلك ، ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مضمرا لشىء من الحلول رددناه كما نردهم ، وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشريعة بيضاء نقية يستقيم بها كل معوج ، وقد دلتنا عقولنا على ما يجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز ، والله تعالى منزه أن يحل به شىء أو يحل بشىء ، حتى لعل بعض المفتونين يكون عنده ذكاء وفطنة غريزية : ويكون قد سمع كلمات تعلقت بباطنه فيتألف له فى فكره كلمات ينسبها إلى الله تعالى وأنها مكالمة الله إياه ، مثل أن يقول : قال لى وقلت له ، وهذا رجل إما جاهل بنفسه وحديثها جاهل بربه وبكيفية المكالمة والمحادثة : وإما عالم ببطلان مايقول ، يحمله هواه على الدعوى بذلك ليوهم أنه ظفر بشىء ، وكل هذا ضلال ، ويكون سبب تجرئه على هذا ماسمع من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة ، وتمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى وكمال الزهد فى الدنيا ، فلما صفت أسرارهم تشكلت فى سرائرهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة ، فنزلت بهم تلك المخاطبات عند استغراق السرائر ، ولا يكون ذلك كلاما يسمعونه بل كحديث فى النفس يجدونه برؤية موافقا للكتاب والسنة ، مفهوما عند أهله . موافقا للعلم ، ويكون ذلك مناجاة لسرائرهم ، ومناجاة سرائرهم إياهم ، فيثبتون لنفوسهم مقام العبودية ولمولاهم الربوبية ، فيضيفون ما يجدونه إلى نفوسهم وإلى مولاهم ، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله إنما هو علم حادث أحدثه الله فى بواطنهم ، فطريق الأصحاء فى ذلك الفرار إلى الله تعالى من كل ما تحدث نفوسهم به ، حتى إذا برئت ساحتهم من الهوى ألهموا فى بواطنهم شيئا ينسبونه إلى الله تعالى نسبة الحادث إلى المحدث لا نسبة الكلام إلى المتكلم ، لينصانوا عن الزيغ والتحريف ، ومن أولئك قوم يزعمون أنهم يغرقون فى بحار التوحيد ولا يثبتون ؟ ويسقطون لنفوسهم حركة وفعلا يزعمون أنهم مجبورون على الأشياء وأن لا فعل لهم مع فعل الله ، ويسترسلون فى المعاصى وكل ما تدعو النفس إليه ، ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة والاغترار بالله والخروج من الملة وترك الحدود والأحكام والحلال والحرام .

وقد سئل سهل عن رجل يقول : أنا كالباب لا أتحرك إلا إذا حركت ، قال : هذا لا يقوله إلا أحد رجلين : إما صديق أو زنديق ، لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود العبودية ، والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله وإسقاطا للائمة عن نفسه وانخلاعا عن الدين ورسمه ، فأما من كان معتقدا للحلال والحرام والحدود والأحكام ، معترفا بالمعصية إذا صدرت منه معتقدا وجوب التوبة منها فهو

سليم صحيح ، وإن كان تحت القصور بما يركن إليه من البطالة ويتروح بهوى النفس إلى الأسفار والتردد فى البلاد ، متوصلا إلى تناول اللذائذ والشهوات ، غير متمسك بشيخ يؤدبه ويهذبه ويبصره بعيب ماهو فيه ، والله الموفق .

الباب العاشر : فى شرح رتبة المشيخة

ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم ، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده ، ويحببون عباد الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة » وهذا الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى ، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة ، ويحبب عباد الله إلى الله ، ورتبة المشيخة من أعلى الرتب فى طريق الصوفية ونيابة النبوة فى الدعاء إلى الله . فأما وجه كون الشيخ يحبب الله إلى عباده ، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى ؛ قال الله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ ووجه كونه يحبب عباد الله تعالى إليه : أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب ؛ وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ؛ ولاح فيه جمال التوحيد ؛ وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ورؤية الكمال الأزلى ؛ فأحب العبد ربه لامحالة ؛ وذلك ميراث التزكية . قال الله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى ، وأيضا مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها ؛ ولاحت الآخرة ونفائسها بكنهها وغايتها ، فتنكشف للبصيرة حقيقة الدارين وحاصل المنزلين ؛ فيحب العبد الباقى ويزهد فى الفانى ، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ويهدى به الطالبين .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو الفضل عبد الواحد بن على بهمذان ، قال أخبرنا أبو بكر محمد ابن على بن أحمد الطوسى ، قال حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، قال حدثنا أبو عتبة ، قال حدثنا بقية ، قال حدثنا صفوان بن عمرو ، قال حدثنى الأزهر بن عبد الله ، قال قد سمعت عبد الله بن بشر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان يقال إذا اجتمع عشرون رجلا أو أكثر ، فإن لم يكن فيهم من يهاب الله عز وجل ، فقد خطر الأمر ، فعلى المشايخ وقار الله وبهم يتأدب المريدون ظاهرا وباطنا ، قال الله تعالى ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فالمشايخ لما اهتدوا أهلوا للاقتداء بهم وجعلوا أئمة المتقين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه : « إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت همته ولذته فى ذكرى ، فإذا جعلت همته ولذته فى ذكرى عشقنى وعشقته ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال حقا ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابا ذكرتهم فيها فصرفته بهم عنهم » ، والسر فى وصول السالك إلى رتبة المشيخة أن السالك مأمور بسياسة النفس مبتلى بصفاتها ، لايزال يسلك بصدق المعاملة حتى تطمئن نفسه وبطمأنينتها ينتزع عنها البرودة واليبوسة التى استصحبتها من أصل خلقتها وبها تستعصى على الطاعة والانقياد للعبودية ، فإذا زالت اليبوسة عنها ولانت بحرارة الروح الواصلة إليها - وهذا اللين هو الذى ذكره الله تعالى فى قوله ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ تعالى - تجيب إلى العبادة وتلين للطاعة عند ذلك ؛ وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس ذو وجهين : أحد وجهيه إلى النفس والوجه الآخر إلى الروح ، يستمد من الروح بوجهه الذى يليه ، ويمد النفس بوجهه الذى يليها حتى تطمئن النفس ، فإذا اطمأنت نفس السالك وفرغ من سياستها انتهى سلوكه وتمكن من سياسة النفس ، وانقادت نفسه وفاءت إلى أمر الله ، ثم القلب يشرئب إلى السياسة لما فيه من التوجه إلى النفس ، فتقوم نفوس المريدين والطالبين والصادقين عنده مقام نفسه ، لوجود الجنسية فى عين النفسية من وجه ، ولوجود التآلف بين الشيخ والمريد عن وجه التألف الإلهى . قال الله تعالى ﴿ لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ فيسوس نفوس المريدين كما كان يسوس نفسه من قبل ، ويكون فى الشيخ حينئذ معنى التخلق بأخلاق الله تعالى من معنى قول الله تعالى :

« ألا طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وإنى إلى لقائهم لأشد شوقا » وبما هيأ الله تعالى من حسن التأليف بين الصاحب والمصحوب يصير المريد جزء الشيخ ، كما أن الولد فى الولادة الطبيعية ، وتصير هذه الولادة آنفا ولادة معنوية ، كما ورد عن عيسى صلوات الله عليه « ان يلج ملكوت السماء من لم يولد مرتين » .

فبالولادة الأولى يصير له ارتباط بعالم الملك ، وبهذه الولادة يصير له ارتباط بالملكوت قال الله تعالى ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ وصرف اليقين على الكمال يحصل فى هذه الولادة ، وبهذه الولادة يستحق ميراث الأنبياء ؛ ومن لم يصله ميراث الأنبياء ما ولد وإن كان على كمال من الفطنة والذكاء ، لأن الفطنة والذكاء نتيجة العقل ، والعقل إذا كان يابسا من نور الشرع لا يدخل الملكوت ولا يزال مترددا فى الملك ، ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضية لأنه تصرف فى الملك ولم يرتق إلى الملكوت ، والملك : ظاهر الكون ، والملكوت : باطن الكون ، والعقل : لسان الروح ، والبصيرة التى منها تنبعث أشعة الهداية : قلب الروح ، واللسان : ترجمان القلب ، وكل ماينطق به الترجمان معلوم عند من يترجم عنه ، وليس كل ما عند من يترجم عنه يبرز إلى الترجمان ؛ فلهذا المعنى حرم الواقفون مع مجرد العقول المعرية عن نور الهداية ـ الذى هو موهبة الله تعالى عند الأنبياء وأتباعهم ـ الصواب ، وأسبل دونهم الحجاب لوقوفهم مع الترجمان وحرمانهم غاية التبيان ، وكما أن فى الولادة الطبيعية ذرات الأولاد فى صلب الأب مودعة ، تنقل إلى أصلاب الأولاد بعدد كل ولد ذرة وهى الذرات التى خاطبها الله تعالى يوم الميثاق بـ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ حيث مسح ظهر آدم وهو ملقى ببطن نعمان بين مكة والطائف ، فسالت الذرات من مسام جسده كما يسيل العرق بعدد كل ولد من ولد آدم ذرة ، ثم لما خوطبت وأجابت ردت إلى ظهر آدم ، فمن الآباء من تنفذ الذرات فى صلبه ، ومنهم من لم يودع فى صلبه شىء فينقطع نسله ، وهكذا المشايخ : فمنهم من تكثر أولاده ويأخذون منه العلوم والأحوال ويودعونها غيرهم كما وصلت إليهم من النبى صلى الله عليه وسلم بواسطة الصحبة ، ومنهم من تقل أولاده ، ومنهم من ينقطع نسله ؛ وهذا النسل هو الذى رد الله على الكفار حيث قالوا : محمد أبتر لا نسل له ، قال الله تعالى ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ وإلا فنسل رسول الله صلى الله عليه وسلم باق إلى أن تقوم الساعة ، وبالنسبة المعنوية يصل ميراث العلم إلى أهل العلم .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن الماليني قال : أخبرنا أبو الحسن الداودى ، قال أخبرنا أبو محمد الحموى ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندى قال أخبرنا أبو محمد الدارمى قال أخبرنا نصر بن على ، قال حدثنا عبد الله بن داود عن عاصم عن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس قال كنت جالسا مع أبى الدرداء فى مسجد دمشق ، فأتاه رجل فقال : ياأبا الدرداء إنى أتيتك من المدينة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لحديث بلغنى عنك أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فما جاء بك تجارة ؟ قال : لا ، قال : ولا جاء بك غيره ؟ قال : لا ، قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سلك طريقا يلتمس به علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما أورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظه أو بحظ وافر » فأول ما أودعت الحكمة والعلم عند آدم أبى البشر عليه السلام ، ثم انتقل منه كما انتقل منه النسيان والعصيان وما تدعو إليه النفس والشيطان ، كما ورد « إن الله تعالى أمر جبرائيل حتى أخذ قبضة من أجزاء الأرض » ، والله تعالى نظر إلى الأجزاء الأرضية التى كونها من الجوهرة التى خلقها أولا فصار من مواقع نظر الله إليها فيها خاصية السماع من الله تعالى والجواب ، حيث خاطب السموات والأرضين بقوله ﴿ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ فحملت أجزاء الأرض بهذا الخطاب خاصية ، ثم انتزعت هذه الخاصية منها بأخذ أجزائها لتركيب صورة آدم فركب جسد آدم من أجزاء أرضية محتوية على هذه الخاصية فمن حيث نسبة أجزاء الأرض تركب فيه الهوى ، حتى مد يده إلى شجرة الفناء

وهى شجرة الحنطة فى أكثر الاقاويل ، فتطرق لقالبه الفناء وبإكرام الله إياه بنفخ الروح الذى أخبرعنه بقوله ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾ قال : العلم الحكمة ، فبالتسوية صار ذا نفس منفوسة وبنفخ الروح صار ذا روح روحانى ، وشرح هذا يطول ، فصارقلبه معدن الحكمة ، وقالبه معدن الهوى ، فانتقل منه العلم والهوى وصار ميراثه فى ولده ، فصار من طريق الولادة أبا بواسطة الطبائع التى هى محتد الهوى ، ومن طريق الولادة المعنوية أبا بواسطة العلم ، فالولادة الظاهرة تطرق إليها الفناء ، والولادة المعنوية محمية من الفناء ، لأنها وجدت من شجرة ، وهى شجرة العلم لا شجرة الحنطة التى سماها إبليس شجرة الخلد ، فإبليس يرى الشىء بضده فتبين أن الشيخ هو الأب معنى ، وكثيرا كان شيخنا شيخ الإسلام أبوالنجيب السهروردى رحمه الله يقول : ولدى من سلك طريقى واهتدى بهديى ، فالشيخ الذى يكتسب بطريقة الأحوال قد يكون مأخوذا فى ابتدائه فى طريق المحبين ، وقد يكون مأخوذا فى طريق المحبوبين ، وذلك أن أمر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أقسام : سالك مجرد ، ومجذوب مجرد ، وسالك متدارك بالجذبة ، ومجذوب متدارك بالسلوك . فالسالك المجرد لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه ، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى فى مقام المعاملة والرياضة ، ولا يرتقى إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة ، والمجذوب المجرد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين ، ويرفع عن قلبه شيئا من الحجاب ، ولا يؤخذ فى طريق المعاملة . والمعاملة أثر تام سوف نشرحه فى موضعه إن شاء الله تعالى ، وهذا أيضا لا يؤهل للمشيخة ويقف عند حظه من الله مروحا بحاله ، غير مأخوذ فى طريق أعماله ماعدا الفريضة . والسالك الذى تدورك بالجذبة هو الذى كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط ، ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال ، فوجد العسل بعد العلقم ، وتروح بنسمات الفضل ، وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة ، وأونس بنفحات القرب ، وفتح له باب من المشاهدة فوجد دواءه وفاض وعاؤه ، وصدرت منه كلمات الحكمة ومالت إليه القلوب ، وتوالى عليه فتوح الغيب وصار ظاهره مسددا وباطنه مشاهداً ، وصلح للجلوة وصار له فى جلوته خلوة ، فيغلب ولا يغلب ، ويفترس ، ولا يفترس ، يؤهل مثل هذا للمشيخة ، لأنه أخذ فى طريق المحبين ، ومنح حالا من أحوال المقربين ، بعد ما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين ، ويكون له أتباع ينتقل منه إليهم علوم ، ويظهر بطريقه بركة ، ولكن قد يكون محبوسا فى حاله محكما حاله فيه لا يطلق من وثاق الحال ، ولا يبلغ كمال النوال ، يقف عند حظه وهو حظ وافر سنى ؛ والذين أوتوا العلم درجات ، ولكن المقام الأكمل فى المشيخة القسم الرابع ـ وهو المجذوب المتدارك بالسلوك يبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين ، ويرفع عن قلبه الحجب ، ويستنير بأنوار المشاهدة ، وينشرح وينفسح قلبه ويتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود ، ويرتوى من بحر الحال ، ويتخلص من الأغلال والأعلال ، ويقول معلنا : لا أعبد ربا لم أره ، ثم يفيض من باطنه على ظاهره ، وتجرى عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء ، بل بلذاذة وهناء ، ويصير قالبه بصفة قلبه ؛ لامتلاء قلبه بحب ربه ، ويلين جلده كما لان قلبه ، وعلامة لين جلده إجابة قالبه للعمل كإجابة قلبه ، فيزيده الله تعالى إرادة خاصة ، ويرزقه محبة خاصة المحبوبين المرادين : ينقطع فيواصل ، ويعرض عنه فيراسل ، يذهب عنه جمود النفس ؛ ويصطلى بحرارة الروح ، وتنكمش عن قلبه عروق النفس . قال الله تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ أخبر أن الجلود تلين كما أن القلوب تلين ؛ ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد . وقد ورد فى الخبر : أن إبليس سأل السبيل إلى القلب ؛ فقيل له : يحرم عليك ولكن السبيل لك فى مجارى العروق المشتبكة بالنفس إلى حد القلب ، فإذا دخلت العروق عرقت فيها من ضيق مجاريها ، وامتزج عرقك بماء الرحمة المترشح من جانب القلب فى مجرى واحد ، ويصل بذلك سلطانك إلى القلب ، ومن جعلته نبيا أو وليا قلعت تلك العروق من باطن قلبه فيصير القلب سليما ، فإذا دخلت العروق لم تصل إلى المشتبكة بالقلب فلا يصل إلى القلب سلطانك ؛ فالمحبوب المراد الذى أهل للمشيخة سلم قلبه وانشرح صدره ولان جلده ، فصار قلبه بطبع الروح ونفسه بطبع القلب ، ولانت النفس بعد أن كانت أمارة

بالسومستعصية ولان الجلد للين النفس ورد إلى صورة الأعمال بعدو جدان الحال ، ولا يزال روحه ينجذب إلى الحضرة الإلهية فيستتبع الروح القلب وتستتبع القلب النفس ويستتبع النفس القالب ؛ فامتزجت الأعمال القلبية والقالبية ؛ وانخرق الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر ، والقدرة إلى الحكمة والحكمة إلى القدرة ، والدنيا إلى الآخرة والآخرة إلى الدنيا ؛ ويصح له أن يقول : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، فعند ذلك يطلق من وثاق الحال ويكون مسيطراً على الحال لا الحال مسيطرا عليه ، ويصير حرا من كل وجه ، والشيخ الأول الذى أخذ فى طريق المحبين حر من رق النفس ، ولكن ربما كان باقيا فى رق القلب ؛ وهذا الشيخ فى طريق المحبوبين حر من رق القلب كما هو حر من رق النفس ، وذلك أن النفس حجاب ظلمانى أرضى أعتق منه الأول ، والقلب حجاب نورانى سماوى أعتق منه الآخر ، فصار لربه لا لقلبه ، ولموقته لا لوقته ، فعبد الله حقا وآمن به صدقا ، ويسجد لله سواده وخياله ، ويؤمن به فؤاده ، ويقر لسانه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض سجوده ، ولا يتخلف عن العبودية منه شعرة ، وتصير عبادته مشاكلة لعبادة الملائكة ﴿ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ .

فالقوالب هى الظلال الساجدة ، ظلال الأرواح المقربة فى عالم الشهادة : الأصل كثيف والظل لطيف ، وفى عالم الغيب : الأصل لطيف والظل كثيف ، فيسجد لطيف العبد وكثيفه ، وليس هذا لمن أخذ فى طريق المحبين لأنه يستتبع صور الأعمال ويتملى بما أنيل من وجدان الحال ، وذلك قصور فى العلم وقلة فى الحظ ، ولو كثر العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال كارتباط الروح بالجسد ، ورأى أن لا غنى عن الأعمال كما لا غنى فى عالم الشهادة عن القوالب ، فمادامت القوالب باقية فالعمل باق ، ومن صح فى المقام الذى وصفناه هو الشيخ المطلق والعارف المحقق والمحبوب المعتق ؛ نظره دواء وكلامه شفاء ، بالله ينطق وبالله يسكت ، كما ورد « ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا ، بى ينطق وبى يبصر » الحديث ؛ فالشيخ يعطى بالله ويمنع بالله ؛ فلا رغبة له فى عطاء ومنع لعينه ، بل هو مع مراد الحق والحق يعرفه مراده ؛ فيكون فى الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه ، فإن علم أن الله تعالى يريد منه الدخول فى صورة محمودة دخل فيها لمراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة ، بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة عباد الله تعالى .

الباب الحادى عشر : فى شرح حال الخادم ومن يتشبه به

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام وقال : ياداود إذا رأيت لى طالبا فكن له خادما ، الخادم يدخل فى الخدمة راغبا فى الثواب وفيما أعد الله تعالى للعباد ، ويتصدى لإيصال الراحة ويفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى عن مهام معاشهم ويفعل مايفعله لله تعالى بنية صالحة ، فالشيخ واقف مع مراد الله تعالى ، والخادم واقف مع نيته ، فالخادم يفعل الشىء لله تعالى ، والشيخ يفعل الشىء بالله فالشيخ فى مقام المقربين ، والخادم فى مقام الأبرار ، فيختار الخادم لبذل والإيثار والارتفاق من الأغيار للأغيار ، ووظيفة وقته تصديه لخدمة عباد الله ، وفيه يعرف الفضل ويرجحه على نوافله وأعماله ، وقد يقيم من لا يعرف الخادم من الشيخ الخادم مقام الشيخ ، وربما جهل الخادم أيضا حال نفسه فيحسب نفسه شيخا لقلة العلم واندراس علوم القوم فى هذا الزمان ، وقناعة كثير من الفقراء من المشايخ باللقمة دون العلم والحال ، فكل من كان أكثر إطعاما هو عندهم أحق بالمشيخة ولا يعلمون أنه خادم وليس بشيخ ، والخادم فى مقام حسن وحظ صالح من الله تعالى . وقد ورد مايدل على فضل الخادم فيما أخبرنا الشيخ أبوزرعة بن الحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسى عن أبيه ، قال أخبرنا أبو الفضل محمد بن عبدالله المقرى ، قال حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوى ، قال حدثنا أبو حامد الحافظ ، قال حدثنا العباس بن محمد الدورى وأبو الأزهر ، قالا حدثنا أبو داود ، قال حدثنا سفيان عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بطعام وهو بمر الظهران فقال لأبى بكر وعمر . كلا ، فقالا : إنا صائمان ، فقال : ارحلا لصاحبيكما اعملا لصاحبيكما

ادنوا فكلا يعنى أنكما ضعفتما بالصوم عن الخدمة فاحتجتما إلى من يخدمكما فكلا واخدما أنفسكما ، فالخادم يحرص على حيازة الفضل ، فيتوصل بالكسب تارة ، وبالاسترقاق والدرورة تارة أخرى ، وباستجلاب الوقف إلى نفسه تارة ، لعلمه أنه قيم بذلك ، صالح لإيصاله إلى الموقوف عليهم ، ولا يبالى أن يدخل فى كل مدخل لا يذمه الشرع لحيازة الفضل بالخدمة ، ويرى الشيخ بنفوذ البصيرة وقوة العلم أن الإنفاق يحتاج إلى علم تام ومعاناة تخليص النية عن شوائب النفس والشهوة الخفية ؛ ولو خلصت عليه نيته مارغب فى ذلك ، لوجود مراده فيه ، وحاله ترك المراد وإقامة مراد الحق .

أخبرنا أبو زرعة إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى قال سمعت محمد بن الحسين بن الخشاب يقول : سمعت محمد بن جعفر يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى يقول : أعرف طريقا مختصرا قصدا إلى الجنة ؛ فقلت له : ماهو ؛ قال : لاتسأل من أحد شيئا ولاتأخذ من أحد شيئا ولا يكن معك شىء تعطى منه أحدا شيئا . والخادم يرى أن من طريق الجنة الخدمة والبذل والإيثار فيقدم الخدمة على النوافل ويرى فضلها ، وللخدمة فضل على النافلة التى يأتى بها العبد طالبا بها الثواب ، غير النافلة التى يتوخى بها صحة حاله مع الله تعالى لوجود نقد قبل وعد .

ومما يدل على فضل الخدمة على النافلة ماأخبرنا أبو زرعة قال أخبرنى والدى الحافظ المقدسى ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد السمسار بأصفهان ، قال أخبرنا إبراهيم بن عبدالله بن خرشيد ، قال حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملى قال حدثنا أبو السائب ، قال حدثنا أبو معاوية ، قال حدثنا عاصم عن مورق عن أنس قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنا الصائم ومنا المفطر ، فنزلنا منزلا فى يوم حار شديد الحر ؛ فمنا من يتقى الشمس بيده ، وأكثرنا ظلا صاحب الكساء يستظل به ، فنام الصائمون ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذهب المفطرون اليوم بالأجر » . وهذا حديث يدل على فضل الخدمة على النافلة ، والخادم له مقام عزيز يرغب فيه ؛ فأما من لم يعرف تخليص النية من شوائب النفس ويتشبه بالخادم ويتصدى لخدمة الفقراء ويدخل فى مداخل الخدام بحسن الإرادة بطلب التأسى بالخدام ، فتكون خدمته مشوبة ، منها ما يصيب فيها لموضع إيمانه وحسن إرادته فى خدمة القوم ، ومنها مالا يصيب فيها لما فيه من مزج الهوى فيضع الشىء فى غير موضعه ، وقد يخدم بهواه فى بعض تصاريفه ، ويخدم من لا يستحق الخدمة فى بعض أوقاته ، ويحب المحمدة والثناء من الخلق مع مايحب من الثواب ورضا الله تعالى ، وربما خدم للثناء ، وربما امتنع من الخدمة لوجود هوى يخامره فى حق من يلقاه بمكروه ، ولا يراعى واجب الخدمة فى طرفى الرضا والغضب لانحراف مزاج قلبه بوجود الهوى ، والخادم لا يتبع الهوى فى الخدمة وفى الرضا والغضب ، ولا يأخذه فى الله لومة لائم ويضع الشىء موضعه ؛ فإذاً الشخص الذى وصفناه آنفا متخادم وليس بخادم ! ولا يميز بين الخادم والمتخادم إلا من له علم بصحة النيات وتخليصها من شوائب الهوى ، والمتخادم النجيب يبلغ ثواب الخادم فى كثير من تصاريفه ولا يبلغ من رتبته لتخلفه عن حاله بوجود مزج هواه ؛ وأما من أقيم لخدمة الفقراء بتسليم وقف إليه أو توفير رفق عليه وهو يخدم لمنال يصيبه أو حظ عاجل يدركه ، فهو فى الخدمة لنفسه لا لغيره ؛ فلو انقطع رفقه ماخدم ، وربما استخدم من يخدم ؛ فهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه ، ويحتاج إليه فى المحافل يتكثر به ويقيم به جاه نفسه بكثرة الأتباع والأشياع ، فهو خادم هواه وطالب دنياه ، يحرص نهاره وليله فى تحصيل مايقيم به جاهه ويرضى نفسه وأهله وولده ، فيتسع فى الدنيا ويتزيا بغير زى الخدام والفقراء وتنتشر نفسه بطلب الحظوظ ، ويستولى عليه حب الرياسة ، وكلما كثر رفقه كثرت مواد هواه واستطال على الفقراء ، ويحوج الفقراء إلى التملق المفرط له تطلبا لرضاه وتوقيا لضيمه وميله عليهم بقطع ما ينوبهم من الوقف فهذا أحسن حاله أن يسمى مستخدما ، فليس بخادم ولا متخادم ، ومع ذلك كله ربما نال بركتهم باختياره خدمتهم على خدمة غيرهم وبانتمائه إليهم وقد أوردنا الخبر المسند الذى فى سياقه « هم القوم لايشقى بهم جليسهم » والله الموفق والمعين .

الباب الثانى عشر : فى شرح خدمة المشايخ الصوفية

لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد ، وتحكيم من المريد للشيخ فى نفسه ، والتحكيم سائغ فى الشرع لمصالح دنيوية فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق فى طلبه يتقصد شيخا بحسن ظن وعقيدة يحكمه فى نفسه لمصالح دينه يرشده ويهديه ويعرفه طريق المواجيد ويبصره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل العدو ، فيسلم نفسه إليه ويستسلم لرأيه واستصوابه فى جميع تصاريفه ، فيلبسه الخرقة إظهارا للتصرف فيه ؛ فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم ودخوله فى حكم الشيخ دخوله فى حكم الله وحكم رسوله وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرنى والدى الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد البزار ، قال أخبرنا أحمد بن محمد أخى ميمى ، قال حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد قال حدثنا عمرو بن على بن حفظة ، قال سمعت عبد الوهاب الثقفى يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : حدثنى عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال أخبرنى أبى عن أبيه قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لاتنازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق حيث كنا ولانخاف فى الله لومة لائم . فى الخرقة معنى المبايعة، والخرقة عتبة الدخول فى الصحبة ، والمقصود الكلى هو الصحبة ؛ وبالصحبة يرجى للمريد كل خير .

وروى عن أبى يزيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وحكى الأستاذ أبو القاسم القشيرى عن شيخه أبى على الدقاق أنه قال : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر ، وهو كما قال : ويجوز أنها تثمر كالأشجار التى فى الأودية والجبال ، ولكن لا يكون لفاكهتها طعم فاكهة البساتين . والغرس إذا نقل من موضع إلى موضع آخر يكون أحسن حالا وأكثر ثمرة لدخول التصرف فيه ؛ وقد اعتبر الشرع وجود التعليم فى الكلب المعلم ، وأكل مايقتله بخلاف غير المعلم .

وسمعت كثيرا من المشايخ يقولون : من لم ير مفلحا لا يفلح ، ولنا فى رسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقوا العلوم والآداب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى عن بعض الصحابة: علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شىء حتى الخراءة ، فالمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه ، يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلقن باطن المريد ويكون مقال الشيخ مستودع نفائس الحال ، وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال ، ولا يكون هذا إلا لمريد حصر نفسه مع الشيخ وانسلخ من إرادة نفسه وفنى فى الشيخ بترك اختيار نفسه ، فبالتآلف الإلهى يصير بين الصاحب والمصحوب امتزاج وارتباط بالنسبة الروحية والطهارة الفطرية، ثم لا يزال المريد مع الشيخ كذلك متأدبا بترك الاختيار ، حتى يرتقى من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى ، ويفهم من الله كما كان يفهم من الشيخ ، ومبدأ هذا الخير كله الصحبة والملازمة للشيوخ ، والخرقة مقدمة ذلك ، ووجه لبس الخرقة من السنة ما أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ أبى الفضل المقدسى ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف الأديب النيسابورى ، قال أخبرنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ ، قال أخبرنا محمد بن إسحق ، قال أخبرنا أبو مسلم إبراهيم بن عبدالله المصرى ، قال حدثنا أبو الوليد ، قال حدثنا إسحق بن سعيد ، قال حدثنا أبى ، قال حدثتنى أم خالد بنت خالدة قالت: أتى النبى عليه السلام بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة ، فقال : من ترون أكسو هذه ؟ فسكت القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتونى بأم خالد ، قالت : فأتى بى فألبسنيها بيده فقال : أبلى وأخلق ، يقولها مرتين ، وجعل ينظر إلى علم فى الخميصة أصفر وأحمر ويقول : يا أم خالد هذا سناه - والسناه هو الحسن بلسان الحبشة - ولا خفاء أن لبس الخرقة على الهيئة التى تعتمدها الشيوخ فى هذا الزمان لم يكن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الهيئة

والاجتماع لهما والاعتداد بهما من استحسان الشيوخ ، وأصله من الحديث مارويناه ، والشاهد لذلك أيضا التحكيم الذى ذكرناه ، وأى اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم أتم وآكد من الاقتداء به فى دعاء الخلق إلى الحق . وقد ذكر الله تعالى فى كلامه القديم تحكيم الأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحكيم المريد شيخه إحياء سنة ذلك التحكيم قال الله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ وسبب نزول هذه الآية : أن الزبير بن العوام رضى الله عنه اختصم هو وآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة ـ والشراج مسيل الماء ـ كانا يسقيان به النخل ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام للزبير : اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك ، فغضب الرجل وقال : قضى رسول الله لابن عمته . فأنزل الله تعالى هذه الآية يعلم فيها الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشرط عليهم فى الآية التسليم وهو الانقياد ظاهراً ونفى الحرج وهو الانقياد باطنا ، وهذا شرط المريد مع الشيخ بعد التحكيم ، فلبس الخرقة يزيل اتهام الشيخ عن باطنه فى جميع تصاريفه ويحذر الاعتراض على الشيوخ فإنه السم القاتل للمريدين ، وقل أن يكون المريد يعترض على الشيخ بباطنه فيفلح ، ويذكر المريد فى كل ما أشكل عليه من تصاريف الشيخ قصة موسى مع الخضر عليه السلام كيف كان يصدر من الخضر تصاريف ينكرها موسى ، ثم لما كشف له عن معناها بان لموسى وجه الصواب فى ذلك ، فهكذا ينبغى للمريد أن يعلم أن كل تصرف أشكل عليه صحته من الشيخ عند الشيخ فيه بيان وبرهان للصحة ، ويد الشيخ فى لبس الخرقة تنوب عن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسليم المريد له تسليم لله ورسوله . قال الله تعالى ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة ويعرفه حقوق الخرقة ، فالشيخ للمريد صورة يستشف المريد من وراء هذه الصورة المطالبات الإلهية والمراضى النبوية ، ويعتقد المريد أن الشيخ باب فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه ، منه يدخل ، وإليه يرجع ، وينزل بالشيخ سوانحه ومهامه الدينية والدنيوية ويعتقد أن الشيخ ينزل بالله الكريم ماينزل المريد به ، ويرجع فى ذلك إلى الله للمريد كما يرجع المريد إليه ، وللشيخ باب مفتوح من المكالمة والمحادثة فى النوم واليقظة فلا يتصرف الشيخ فى المريد بهواه فهو أمانة الله عنده ، ويستغيث إلى الله بحوائج المريد كما يستغيث بحوائج نفسه ومهام دينه ودنياه . قال الله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ﴾ فإرسال الرسول يختص بالأنبياء والوحى كذلك ، والكلام من وراء حجاب بالإلهام والهواتف والمنام وغير ذلك للشيوخ والراسخين فى العلم .

واعلم أن للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام ، وقد سبق شرح الولادة المعنوية ، فأوان الارتضاع أوان لزوم الصحبة والشيخ يعلم وقت ذلك ، فلا ينبغى للمريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه . قال الله تعالى تأديبا للأمة ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ وأى أمر جامع أعظم من أمر الدين ، فلا يأذن الشيخ للمريد فى المفارقة إلا بعد علمه بأن آن له أوان الفطام ، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه ، واستقلاله بنفسه أن يفتح له باب الفهم من الله تعالى ، فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والمهام بالله والفهم من الله تعالى بتعريفاته وتنبيهاته سبحانه وتعالى لعبده السائل المحتاج فقد بلغ أوان فطامه ، ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله من الاعلال فى الطريق بالرجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى ماينال المفطوم لغير أوانه فى الولادة الطبيعية ، وهذا التلازم بصحبة المشايخ للمريد الحقيق ، والمريد الحقيق يلبس خرقة الإرادة .

واعلم أن الخرقة خرقتان : خرقة الإرادة ، وخرقة التبرك : والأصل الذى قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة وخرقة التبرك تشبه بخرقة الإرادة ، فخرقة الإرادة للمريد الحقيق ، وخرقة التبرك للمتشبه ، ومن تشبه بقوم فهو منهم وسر الخرقة أن الطالب الصادق إذا دخل فى صحبة الشيخ وسلم نفسه وصار كالولد الصغير مع الوالد يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الافتقار وحسن الاستقامة ، ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن ، فقد

يكون المريد يلبس الخشن كثياب المتقشفين المتزهدين وله فى تلك الهيئة من الملبوس هوى كامن فى نفسه ليرى بعين الزهادة ، فأشد ماعليه لبس الناعم وللنفس هوى واختيار فى هيئة مخصوصة من الملبوس فى قصر الكم والذيل وطوله وخشونته ونعومته على قدر حسبانها وهواها ، فيلبس الشيخ مثل هذا الراكن لتلك الهيئة ثوبا يكسر بذلك على نفسه هواها وغرضها ، وقد يكون على المريد ملبوس ناعم أوهيئة فى الملبوس تشرئب النفس إلى تلك الهيئة بالعادة ، فيلبسه الشيخ مايخرج النفس من عادتها وهواها ، فتصرف الشيخ فى الملبوس كتصرفه فى المطعوم ، وكتصرفه فى صوم المريد وإفطاره ، وكتصرفه فى أمر دينه ، إلى مايرى له من المصلحة من دوام الذكر ودوام التنفل فى الصلاة ودوام التلاوة ودوام الخدمة ، وكتصرفه فيه برده إلى الكسب أو الفتوح أوغير ذلك ، فللشيخ إشراف على البواطن وتنوع الاستعدادات ، فيأمر كل مريد من أمر معاشه ومعاده بما يصلح له ، ولتنوع الاستعدادات تنوعت مراتب الدعوة . قال الله تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ فالحكمة رتبة فى الدعوة ، والموعظة كذلك ، والمجادلة كذلك ، فمن يدعى بالحكمة لايدعى بالموعظة ولا تصلح دعوته إلا بالحكمة ، فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار ، ومن هو على وضع المقربين ، ومن يصلح لدوام الذكر ومن يصلح لدوام الصلاة ، ومن له هوى فى التخشن أو فى التنعم ، فيخلع المريد من عادته ويخرجه من مضيق هوى نفسه ، ويطعمه باختياره ، ويلبسه باختياره ثوبا يصلح له وهيئة تصلح له ، ويداوى بالخرقة المخصوصة والهيئة المخصوصة داء هواه ، ويتوخى بذلك تقريبه إلى رضا مولاه ، فالمريد الصادق الملتهب باطنه بنار الإرادة فى بدء أمره وحدة إرادته ، كالملسوع الحريص على من يرقيه ويداويه ، فإذا صادف شيخا أنبعث من باطن الشيخ صدق العناية به لاطلاعه عليه وينبعث من باطن المريد صدق المحبة بتألف القلوب وتشام الأرواح وظهور سر السابقة فيهما باجتماعهما لله وفى الله وبالله ، فيكون القميص الذى يلبس المريد خرقة تبشر المريد بحسن عناية الشيخ به فيعمل عند المريد عمل قميص يوسف عند يعقوب عليهما السلام .

وقد نقل أن إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقى فى النار جرد من ثيابه وقذف فى النار عريانا ، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه ، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام فلما مات ورثه إسحق ، فلما مات ورثه يعقوب ، فجعل يعقوب عليه السلام ذلك القميص فى تعويذ ، وجعله فى عنق يوسف فكان لايفارقه ، ولما ألقى فى البئر عريانا جاءه جبريل وكان عليه التعويذ فأخرج القميص منه وألبسه إياه .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسمعيل القزوينى إجازة ، قال أخبرنا أبو سعد محمد بن أبى العباس ، قال أخبرنا القاضى محمد بن سعيد ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد ، قال أخبرنى ابن فنجويه الحسين بن محمد ، قال حدثنا مخلد بن جعفر قال حدثنا الحسن بن علويه ، قال حدثنا إسمعيل بن عيسى ، قال حدثنا إسحق بن بشر عن ابن السدى عن أبيه عن مجاهد قال : كان يوسف عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن لايعلم أن قميصه لايرد على يعقوب بصره ، ولكن ذاك كان قميص إبراهيم ، وذكرماذكرناه ، قال : فأمره جبرائيل أن أرسل بقميصك فإن فيه ريح الجنة لايقع على مبتلى أو سقيم إلا صح وعوفى ، فتكون الخرقة عند المريد الصادق متحملة إليه عرف الجنة ، لما عنده من الاعتداد بالصحبة لله ، ويرى لبس الخرقة من عناية الله به وفضل من الله ، فأما خرقة التبرك فيطلبها من مقصوده التبرك بزى القوم ومثل هذا لايطالب بشرائط الصحبة بل يوصى بلزوم حدود الشرع ومخالطة هذه الطائفة لتعود عليه بركتهم ويتأدب بآدابهم ، فسوف يرقيه ذلك إلى الأهلية لخرقة الإرادة فعلى هذا خرقة التبرك مبذولة لكل طالب وخرقة الإرادة ممنوعة إلا من الصادق الراغب ، ولبس الأزرق من استحسان الشيوخ فى الخرقة فإن رأى شيخ أن يلبس مريدا غير الأزرق فليس لأحد أن يعترض عليه لأن المشايخ آراؤهم فيما يفعلون بحكم الوقت وكان شيخنا يقول : كان الفقير يلبس قصير الأكمام ليكون أعون على الخدمة . ويجوز للشيخ أن يلبس المريد خرقا فى دفعات على قدر مايتلمح من المصلحة للمريد فى ذلك على ما أسلفناه من تداوى هواه فى الملبوس والملون فيختار الأزرق

لأنه أرفق للفقير لكونه يحمل الوسخ ولا يحوج إلى زيادة الغسل لهذا المعنى فحسب ، وما عدا هذا من الوجوه التى يذكرها بعض المتصوفة فى ذلك كلام إقناعى من كلام المتصنعين ليس من الدين والحقيقة بشيء .

سمعت الشيخ سديد الدين أبا الفخر الهمدانى رحمه الله قال : كنت ببغداد عند أبى بكر الشروطى ، فخرج إلينا فقير من زاويته عليه ثوب وسخ ، فقال له بعض الفقراء : لم لا تغسل ثوبك ؟ فقال : ياأخى ماأتفرغ . فقال الشيخ أبو الفخر : لاأزال أتذكر حلاوه قول الفقير : ماأتفرغ ؛ لأنه كان صادقا فى ذلك ، فأجد لذة لقوله وبركة بتذكارى ذلك ؛ فاختاروا الملون لهذا المعنى ؛ لأنهم من رعاية وقتهم فى شغل شاغل . وإلا فأى ثوب ألبس الشيخ المريد من أبيض وغير ذلك فللشيخ ولاية ذلك بحسن مقصده ووفور علمه وقد رأينا من المشايخ من لا يلبس الخرقة ، ويسلك بأقوام من غير لبس الخرقة ، ويؤخذ منه العلوم والآداب ، وقد كان طبقة من السلف الصالحين لا يعرفون الخرقة ولا يلبسونها المريدين ، فمن يلبسها فله مقصد صحيح وأصل من السنة وشاهد من الشرع ، ومن لا يلبسها فله رأيه وله فى ذلك مقصد صحيح ، وكل تصاريف المشايخ محمولة على السداد والصواب ولا تخلو عن نية صالحة فيه ، والله تعالى ينفع بهم وبآثارهم إن شاء الله تعالى .

الباب الثالث عشر : فى فضيلة سكان الرباط

قال الله تعالى ﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ قيل : إن هذه البيوت هى المساجد ، وقيل : بيوت المدينة . وقيل : بيوت النبى عليه الصلاة والسلام . وقيل لما نزلت هذه الآية قام أبو بكر رضى الله عنه وقال : يارسول الله ، هذه البيوت منها بيت على وفاطمة ؟ قال : نعم أفضلها .

وقال الحسن : بقاع الأرض كلها جعلت مسجداً لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فعلى هذا الاعتبار بالرجال الذاكرين لا بصور البقاع ، وأى بقعة حوت رجالا بهذا الوصف هى البيوت التى أذن الله أن ترفع .

روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال « ما من صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادى بعضها بعضا ، هل مر بك اليوم أحد صلى عليك أو ذكر الله عليك ؟ فمن قائلة نعم ، ومن قائلة لا ، فإذا قالت نعم علمت أن لها عليها بذلك فضلا ، ومامن عبد ذكر الله تعالى على بقعة من الأرض أوصلى لله عليها إلا شهدت له بذلك عند ربه وبكت عليه يوم يموت » وقيل فى قوله تعالى ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ تنبيه على فضيلة أهل الله تعالى من أهل طاعته : لأن الأرض تبكى عليهم ولا تبكى على من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى ، فسكان الرباط هم الرجال ، لأنهم ربطوا نفوسهم على طاعة الله تعالى وانقطعوا إلى الله ، فأقام الله لهم الدنيا خادمة .

وروى عمران بن الحصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من انقطع إلى الله كفاه مؤنته ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها » وأصل الرباط : ما يربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم : رباط ؟ فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه ، والمقيم فى الرباط على طاعة الله يدفع به وبدعائه البلاء عن العباد والبلاد ، أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسمعيل القزوينى إجازة قال : أخبرنا أبو سعيد محمد ابن أبى العباس الخليلى قال : أخبرنا القاضى محمد بن سعيد الفرخزاذى قال : أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد قال : أخبرنا الحسين بن محمد قال : حدثنا أبو بكر بن خرجة قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثنى أبو حميد الحمصى قال : حدثنا يحيى بن سعيد القطار [1] قال حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه البلاء » .

---

(١) قوله « القطار » هكذا بنسخة ؛ وفى أخرى « العطار » ولعله « القطان » بالنون ، وليحرر .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لولا عباد لله ركع وصبية رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا ثم يرض رضا » .

وروى جابر بن عبدالله قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ، ولا يزالون في حفظ الله مادام فيهم » .

وروى داود بن صالح قال : قال لي أبو سلمة بن عبدالرحمن : ياابن أخي ، هل تدرى فى أى شىء نزلت هذه الآية ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ ؟ قلت : لا ، قال : ياابن أخي ، لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو يربط فيه الخيل ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة ، فالرباط لجهاد النفس والمقيم في الرباط مرابط مجاهد نفسه . قال الله تعالى ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ قال عبدالله بن المبارك : هو مجاهدة النفس والهوى وذلك حق الجهاد ، وهو الجهاد الأكبر ، على ماروى فى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من بعض غزواته : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » . وقيل : إن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو فكتب إليه : ياأخي كل الثغور مجتمعة لى فى بيت واحد والباب على مردود ، فكتب إليه أخوه : لو كان الناس كلهم لزموا مالزمته اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار ، فلابد من الغزو والجهاد ، فكتب إليه : ياأخي ، لو لزم الناس ماأنا عليه وقالوا فى زواياهم على سجاداتهم : الله أكبر ، انهدم سور قسطنطينية . وقال بعض الحكماء : ارتفاع الأصوات فى بيوت العبادات بحسن النيات وصفاء الطويات يحل ماعقدته الأفلاك الدائرات ؛ فاجتماع أهل الروابط أصح على الوجه الموضوع له الربط ، ولو تحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات وتوقى مايفسد الأعمال واعتماد مايصحح الأحوال عادت البركة على البلاد والعباد .

وقال سرى السقطى فى قوله تعالى ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة ، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ، ورابطوا أهواء النفس اللوامة ، واتقوا مايعقب لكم الندامة ، لعلكم تفلحون غدا على بساط الكرامة . وقيل : اصبروا على بلائى ، وصابروا على نعمائى ، ورابطوا فى دار أعدائى واتقوا محبة من سوائى ، لعلكم تفلحون غدا بلقائى . وهذه شرائط ساكن الرباط قطع المعاملة مع الخلق ، وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات ، وعانق ليله ونهاره العبادة متعوضا بها عن كل عادة ، شغله حفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات ، ليكون بذلك مرابطا مجاهدا .

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى ، قال أخبرنا ابن نبهان محمد الكاتب ، قال أخبرنا الحسن بن شاذان ، قال أخبرنا دعلج ، قال أخبرنا البغوى عن أبي عبيد القاسم بن سلام ، قال حدثنا صفوان عن الحارث عن سعيد بن المسيب عن على ابن أبي طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إسباغ الوضوء فى المكاره ، وإعمال الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، يغسل الخطايا غسلا » . وفى رواية « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يارسول الله ؛ قال « إسباغ الوضوء فى المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط » .

الباب الرابع عشر : فى مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة

قال الله تعالى ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ هذا وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل لهم : ماذا كنتم تصنعون حتى أثنى الله عليكم بهذا الثناء ؟ قالوا كنا نتبع الماء الحجر ، وهذا وأشباه هذا من الآداب وظيفة الربط بلازمونه ويتعاهدونه والرباط بيتهم ومضربهم ، ولكل قوم دار والرباط دارهم ، وقد شابهوا أهل الصفة فى ذلك على ماأخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أخبرنا أحمد بن محمد البزازى ، قال أخبرنا عيسى بن على الوزير ، قال حدثنا عبدالله البغوى ،

قال حدثنا وهبان بن بقية ، قال حدثنا خالد بن عبد الله عن داود بن أبي هند عن أبي الحارث حرب بن أبي الأسود عن طلحة رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة ، وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، فإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة وكنت فيمن نزل الصفة، فالقوم في الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة ، ووضع الربط لهذا المعنى أن يكون سكانها بوصف ماقال الله تعالى ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ والمقابلة باستواء السر والعلانية . ومن أضمر لأخيه غلا فليس بمقابله وإن كان وجهه إليه ؛ فأهل الصفة هكذا كانوا ؛ لأن مثار الغل والحقد وجود الدنيا ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، فأهل الصفة رفضوا الدنيا وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع فزالت الأحقاد والغل عن بواطنهم ، وهكذا أهل الربط متقابلون بظواهرهم وبواطنهم ، مجتمعون على الألفة والمودة يجتمعون للكلام ويجتمعون للطعام ويتعرفون بركة الاجتماع .

روى وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أنهم قالوا : يارسول الله إنا نأكل ولا نشبع ! قال : « لعلكم تفترقون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا الله تعالى يبارك لكم فيه » وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق » فقيل : فعلى أي شيء كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر .

فالعباد والزهاد طلبوا الانفراد لدخول الآفات عليهم بالاجتماع ، وكون نفوسهم تشتاق للأهوية والخوض فيما لا يعني فرأوا السلامة في الوحدة ، والصوفية لقوة علمهم وصحة حالهم نزع عنهم ذلك فرأوا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة ، فسجادة كل واحد زاويته ، وهو كل واحد همه ، ولعل الواحد منهم لا يتخطى همه سجادته ، ولهم في اتخاذ السجادة وجه من السنة : روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيرا من الليف يصلي عليه من الليل . وروت ميمونة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسط له الخمرة في المسجد حتى يصلي عليها . والرباط يحتوي على شبان وشيوخ وأصحاب خدمة وأرباب خلوة ، فالمشايخ بالزوايا أليق نظرا إلى ماتدعو إليه النفس من النوم والراحة والاستبداد بالحركات والسكنات ، فللنفس شوق إلى التفرد والاسترسال في وجوه الرفق والشاب يضيق عليه مجال النفس بالقعود في بيت الجماعة والانكشاف لنظر الأغيار لتكثر العيون عليه فيتقيد ويتأدب ، ولايكون هذا إلا إذا كان جمع الرباط في بيت الجماعة مهتمين بحفظ الأوقات وضبط الأنفاس وحراسة الحواس كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ كان عندهم من هم الآخرة مايشغلهم عن اشتغال البعض بالبعض وهكذا ينبغي لأهل الصدق والصوفية أن يكون اجتماعهم غير مضر بوقتهم ، فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو والغلط فالأولى أن يلزم الشاب الطالب الوحدة والعزلة ويؤثر الشيخ الشاب بزاويته وموضع خلوته ليحبس الشاب نفسه عن دواعي الهوى والخوض فيما لا يعني ، ويكون الشيخ في بيت الجماعة لقوة حاله وصبره على مداراة الناس وتخلصه من تبعات المخالطة وحضور وقاره بين الجمع فينضبط به الغير ولا يتكدر هو . وأما الخدمة فشأن من دخل الرباط مبتدئا لم يذق طعم العلم ولم يتنبه لنفائس الأحوال : أن يؤمر بالخدمة لتكون عبادته خدمة ، ويجذب بحسن الخدمة قلوب أهل الله إليه فتشمله بركة ذلك ويعين الإخوان المشتغلين بالعبادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمنون إخوة يطلب بعضهم إلى بعض الحوائج فيقضي بعضهم إلى بعض الحوائج يقضي الله لهم حاجاتهم يوم القيامة » فيحتفظ بالخدمة عن البطالة التي تميت القلب ، والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح ، وهي طريق من طرق المواجيد تكسبهم الأوصاف الجميلة والأحوال الحسنة ، ولا يرون استخدام من ليس من جنسهم ولا متطلعا إلى الاهتداء بهديهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال أخبرنا أبو الفضل حميد بن أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا علي بن عبد العزيز ، قال حدثنا أبو عبيد ، قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن شريك عن أبي هلال الطائي عن وثيق بن الرومي قال : كنت مملوكا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان يقول لي : أسلم

فإنك إن أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين ، فإنه لاينبغي أن أستعين على أمانتهم بمن ليس منهم ، قال فأبيت ، فقال عمر ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ فلما حضرته الوفاة أعتقني فقال : اذهب حيث شئت . فالقوم يكرهون خدمة الأغيار ويأبون مخالطتهم أيضاً ؛ فإن من لايصحب طريقهم ربما استحضر بالنظر إليهم أكثر ما يتقنع ، فإنهم بشر وتبدو منهم أمور بمقتضى طبع البشر ، وينكرها الغير لقلة علمه بمقاصدهم ، فيكون إباؤهم بموضع الشفقة على الخلق لامن طريق التعزز والترفع على أحد من المسلمين ، والشاب الطالب إذا خدم أهل الله المشغولين بطاعته يشاركهم في الثواب ، وحيث لم يؤهل لأحوالهم السنية يخدم من أهل لها ، فخدمته لأهل القرب علامة حب الله تعالى .

أخبرنا : الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد بن أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا أبو بكر بن خلاد ، قال حدثنا الحارث بن أبي أسامة ، قال حدثنا معاوية بن عمرو ، قال حدثنا أبو إسحق عن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك قال حين دنا من المدينة « إن بالمدينة أقواما ماسرتم من مسير ولاقطعتم واديا إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم في المدينة ؟ ! قال « نعم ، حبسهم العذر » فالقائم بخدمة القوم لعوقه عن بلوغ درجتهم بعذر القصور وعدم الأهلية ، لحام حول الحمى باذلا مجهوده في الخدمة يتعلل بالأثر حيث منع النظر ، فجزاه الله على ذلك أحسن الجزاء وأناله من جزيل العطاء ، وهكذا كان أهل الصفة يتعاونون على البر والتقوى ويجتمعون على المصالح الدينية ومواساة الإخوان بالمال والبدن .

الباب الخامس عشر : في خصائص أهل الربط والصوفية فيما يتعاهدونه ويختصون به

اعلم أن تأسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادية المهدية ، ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف ، وهم على هدى من ربهم قال الله تعالى ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ ومايرى من التقصير في حق البعض من أهل زماننا والتخلف عن طريق سلفهم لايقدح في أصل أمرهم وصحة طريقهم ، وهذا القدر الباقي من الأثر واجتماع المتصوفة في الربط وماهيأ الله تعالى لهم من الرفق : بركة جمعية بواطن المشايخ الماضين ، وأثر من آثار منح الحق في حقهم ، وصورة الاجتماع في الربط الآن على طاعة الله والتراسم بظاهر الآداب : عكس نور الجمعية من بواطن الماضين وسلوك الخلف في مناهج السلف ، فهم في الربط بجسد واحد بقلوب متفقة وعزائم متحدة ، ولايوجد هذا في غيرهم من الطوائف . قال الله تعالى في وصف المؤمنين ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ وبعكس ذلك وصف الأعداء فقال ﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ﴾ وروى النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنما المؤمنون كجسد رجل واحد إذا اشتكى عضو من أعضائه اشتكى جسده أجمع ، وإذا اشتكى مؤمن اشتكى المؤمنون » .

فالصوفية وظيفتهم اللازمة من حفظ اجتماع البواطن ، وإزالة التفرقة بإزالة شعث البواطن ، لأنهم بنسبة الأرواح اجتمعوا ، وبرابطة التأليف الإلهي اتفقوا ، وبمشاهدة القلوب تواطئوا ، ولتهذيب النفوس وتصفية القلوب في الرباط رابطوا ، فلابد لهم من التألف والتودد والنصح : روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المؤمن يألف ويؤلف ولاخير فيمن لايألف ولايؤلف » .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل المقدسي عن أبيه ، قال حدثنا أبو القاسم الفضل بن أبي حرب ، قال أخبرنا أحمد بن الحسين الحيري ، قال أخبرنا أبو سهل بن زياد القطان ، قال حدثنا الحسين بن مكرم ، قال حدثنا يزيد ابن هرون الواسطي ، قال حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف » فهم باجتماعهم تجتمع بواطنهم وتتقيد نفوسهم ، لأن بعضهم عين على البعض ، على ماورد « المؤمن مرآة المؤمن » فأي وقت ظهر من أحدهم أثر التفرقة نافروه ؛ لأن التفرقة تظهر بظهور النفس ، وظهور النفس من تضييع حكم الوقت ، فأي وقت ظهرت نفس الفقير علموا منه خروجه عن دائرة الجمعية وحكموا عليه بتضييع حكم الوقت وإهمال السياسة وحسن الرعاية . فيقابل بالمنافرة إلى دائرة الجمعية

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبدالقاهر السهروردى إجازة ، قال أخبرنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن محمد بن الحسين السلمى ، قال : سمعت محمد بن عبدالله يقول . سمعت رويما يقول : لايزال الصوفية بخير ماتنافروا ؛ فإذا اصطلحوا هلكوا ، وهذه إشارة من رويم إلى حسن تفقد بعضهم أحوال بعض إشفاقا من ظهور النفوس ، يقول : إذا اصطلحوا ورفعوا المنافرة من بينهم يخاف أن تخامر البواطن المساهلة والمراءاة ومسامحة البعض البعض فى إهمال دقيق آدابهم ، وبذلك تظهر النفوس وتستولى .

وكان كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى . وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو عبدالله محمد بن عبدالعزيز الهروى ، قال أخبرنا عبدالرحمن بن أبى شريح قال أخبرنا أبو القاسم البغوى ، قال حدثنا مصعب بن عبدالله الزبيرى ، قال حدثنى إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب : أن محمد نعمان أخبر بأن عمر قال فى مجلس فيه المهاجرون والأنصار : أرأيتم لو ترخصت فى بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين قال : فسكتنا . قال : فقال ذلك مرتين أو ثلاثا : أرأيتم لو ترخصت فى بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين ؟ قال بشر بن سعد : لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح ؛ فقال عمر : أنتم إذن أنتم .

وإذا ظهرت نفس الصوفى بغضب وخصومة مع بعض الإخوان فشرط أخيه أن يقابل نفسه بالقلب ؛ فإن النفس إذا قوبلت بالقلب انحسمت مادة الشر ، وإذا قوبلت النفس بالنفس ثارت الفتنة وذهبت العصمة . قال الله تعالى ﴿ ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾

ثم الشيخ أو الخادم إذا شكا إليه فقير من أخيه فله أن يعاتب أيهما شاء ، فيقول للمتعدى : لم تعديت ؟ وللمتعدى عليه : ما الذى أذنبت حتى تعدى عليك وسلط عليك ؟ وهلا قابلت نفسه بالقلب رفقا بأخيك ، وإعطاء الفتوة والصحبة حقها ! فكل منها جان وخارج عن دائرة الجمعية فيرد إلى الدائرة بالنقار ، فيعود إلى الاستغفار ولا يسلك طريق الاصرار .

روت عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا ، فيكون الاستغفار ظاهرا مع الإخوان ، وباطنا مع الله تعالى ، ويرون الله فى استغفارهم ؛ فلهذا المعنى يقفون فى صف النعال على أقدامهم تواضعا وانكسارا .

وسمعت شيخنا يقول للفقير إذا جرى بينه وبين بعض إخوانه وحشة : قم واستغفر ؛ فيقول الفقير : ما أرى باطنى صافيا ، ولا أوثر القيام للاستغفار ظاهرا من غير صفاء الباطن ؛ فيقول : أنت قم فبركة سعيك وقيامك ترزق الصفاء ، فكان يجد ذلك ويرى أثره عند الفقير وتروق القلوب وترتفع الوحشة .

وهذا من خاصية هذه الطائفة لايبيتون والبواطن منطوية على وحشة ، ولا يجتمعون للطعام والبواطن تضمر وحشة ، ولا يرون الاجتماع ظاهرا فى شىء من أمورهم إلا بعد الاجتماع بالبواطن وذهاب التفرقة والشعث ، فإذا قام الفقير للاستغفار لايجوز رد استغفاره بحال .

روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم » .

وللصوفية فى تقبيل يد الشيخ بعد الاستغفار أصل من السنة : روى عبد الله بن عمر قال : كنت فى سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فتبتنا فيها ! ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : « من القوم ؟ قلنا : نحن الفرارون . قال : لا ، بل أنتم العكارون ، أنا فئة المسلمين ، يقال : عكر الرجل ، إذا تولى ثم كر راجعا . والعكار العطاف

والرجاء ، قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح قبل يد عمر عند قدومه . وروى عن أبى مرثد الغنوى أنه قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت إليه وقبلت يده . فهذا رخصة فى جواز تقبيل اليد، ولكن أدب الصوفى أنه متى رأى نفسه تتعزز بذلك أو تظهر بوصفها أن يمتنع من ذلك ، فإن سلم من ذلك فلا بأس بتقبيل اليد ومعانقتهم للإخوان عقيب الاستغفار ، لرجوعهم إلى الألفة بعد الوحشة ، وقدومهم من سفر الهجرة بالتفرقة إلى أوطان الجمعية ، فبظهور النفس تفرقوا وبعدوا ، وبغيبة النفس والاستغفار قدموا ورجعوا : ومن استغفر إلى أخيه ولم يقبله فقد أخطأ ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وعيد: روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « من اعتذر إليه أخوه معذرة فلم يقبلها كان عليه مثل خطيئة صاحب المكوس » وروى جابر أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تنصل إليه فلم يقبل لم يرد على الحوض » .

ومن السنة أن يقدم للإخوان شيئا من الاستغفار ، روى أن كعب بن مالك قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إن من توبتى أن أنخلع من مالى كله وأهجر دار قومى التى فيها أتيت الذنب . فقال له النبى عليه الصلاة والسلام « يجزيك من ذلك الثلث » فصارت سنة الصوفية المطالبة بالغرامة بعد الاستغفار والمنافرة ، وكل قصدهم رعاية التألف حتى تكون بواطنهم على الاجتماع كما أن ظواهرهم على الاجتماع ، وهذا أمر تفردوا به من بين طوائف الإسلام .

ثم شرط الفقير الصادق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل من وقفه أو مما يطلب لسكانه بالدروزة : أن يكون عنده من الشغل بالله ما لا يسعه الكسب ، وإلا ــ إذا كان البطالة والخوض فيما لا يعنى عنده مجال ولا يقوم بشروط أهل الإرادة من الجد والاجتهاد ــ فلا ينبغى له أن يأكل من مال الرباط بل يكتسب ويأكل من كسبه ؛ لأن طعام الرباط لأقوام كل شغلهم بالله ، فخدمتهم الدنيا لشغلهم بخدمة مولاهم ؛ إلا أن يكون تحت سياسة شيخ عالم بالطريق ينتفع بصحبته ويهتدى بهديه ، فيرى الشيخ أن يطعمه من مال الرباط ، فلا يكون تصرف الشيخ إلا بصحة بصيرة . ومن جملة ما يكون للشيخ فى ذلك من النية : أن يشغله بخدمة الفقراء ؛ فيكون ما يأكله فى مقابلة خدمته .

روى عن أبى عمرو الزجاجى قال : أقمت عند الجنيد مدة ، فما رآنى قط إلا وأنا مشتغل بنوع من العبادة ، فما كلمنى حتى كان يوم من الأيام خلا الموضع من الجماعة ؛ فقمت ونزعت ثيابى وكنست الموضع ونظفته ورششته وغسلت موضع الطهارة ، فرجع الشيخ ورأى على أثر الغبار ، فدعا لى ورحب بى وقال : أحسنت عليك بها ثلاث مرات .

ولا يزال مشايخ الصوفية يندبون الشباب إلى الخدمة حفظا لهم عن البطالة ، وكل واحد يكون له حظ من المعاملة، وحظ من الخدمة .

روى أبو محذورة قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا الأذان ، والسقاية لبنى هاشم ، والحجابة لبنى عبد الدار . وبهذا يقتدى مشايخ الصوفيه فى تفريق الخدم على الفقراء ، ولا يعذرون ترك نوع من الخدمة إلا لكامل الشغل بوقته ، ولا نعنى بكامل الشغل شغل الجوارح ، ولكن نعنى به دوام الرعاية والمحاسبة ، والشغل بالقلب والقالب وقتا وبالقلب دون القالب وقتا ، وتفقد الزيادة من النقصان ؛ فإن قيام الفقير بحقوق الوقت شغل تام ، وبذلك يؤدى شكر نعمة الفراغ ونعمة الكفاية . وفى البطالة كفران نعمة الفراغ والكفاية .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر إجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد بن منصور ، قال أخبرنا أحمد بن خلف ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين ، قال سمعت أبا الفضل بن حمدون يقول : سمعت على بن عبد الحميد الغضائرى يقول : سمعت السرى يقول : من لا يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم . وقد يعذر الشيخ العاجز عن الكسب فى تناول طعام الرباط ولا يعذر الشاب . هذا فى شرط طريق القوم على الإطلاق ، فأما من حيث فتوى الشرع : فإن كان شرط الواقف على المتصوفة وعلى من تزيا بزى المتصوفة وليس خرقتهم فيجوز أكل ذلك لهم على الإطلاق فتوى ، وفى ذلك القناعة بالرخصة دون العزيمة التى هى شغل أهل الإرادة . وإن كان شرط الوقف على من يسلك طريق الصوفية عملا ، وحالا فلا يجوز أكله لأهل البطالات والراكنين إلى تضييع الأوقات ، وطرق أهل الإرادة عند

مشايخ الصوفية مشهورة .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا أبو العباس أحمد ابن محمد بن يوسف ، قال حدثنا جعفر الفريابى ، قال حدثنا محمد بن الحسين البلخى بسمرقند ، قال حدثنا عبد الله ابن المبارك ، قال حدثنا سعيد بن أبى أيوب الخزاعى . قال حدثنا عبدالله بن الوليد عن أبى سليمان الليثى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « مثل المؤمن كمثل الفرس فى آخيته يجول ويرجع الى آخيته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع الإيمان ؛ فأطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين » ،

الباب السادس عشر : فى ذكر اختلاف أحوال مشايخهم فى السفر والمقام

اختلف أحوال مشايخ الصوفية ؛ فمنهم من سافر فى بدايته وأقام فى نهايته ؛ ومنهم من أقام فى بدايته وسافر فى نهايته ؛ ومنهم من أقام ولم يسافر ؛ ومنهم من استدام السفر ولم يؤثر الإقامة .

ونشرح حال كل واحد منهم ومقصده فيما رام : فأما الذى سافر فى بدايته وأقام فى نهايته فقصده السفر لمعان ، منها : تعلم شىء من العلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالصين » وقال بعضهم : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن فى كلمة تدل على هدى ما كان سفره ضائعا ، ونقل أن جابر بن عبد الله رحل من المدينة إلى مصر فى شهر لحديث بلغه أن أنسا يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ السائحون ﴾ أنهم طلاب العلم .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا وكيع ، قال حدثنا أبو داود عن سفيان عن أبى هرون ، قال : كنا نأتى أبا سعيد فيقول : مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن النبى عليه السلام قال « إن الناس لكم تبع وإن الرجال يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ؛ فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا » وقال عليه السلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وروت عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تعالى أوحى إلى إنه من سلك مسلكا فى طلب العلم سهلت له طريقا إلى الجنة » . ومن جملة مقاصدهم فى البداية لقاء المشايخ والإخوان الصادقين ؛ فللمريد بلقاء كل صادق مزيد ، وقد ينفعه لحظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال وقد قيل : من لاينفعك لحظه لاينفعك لفظه . وهذا القول فيه وجهان : (أحدهما) أن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فعله أكثر ما يكلمهم بلسان قوله ؛ فإذا نظر الصادق إلى تصاريفه فى مورده ومصدره وخلوته وجلوته وكلامه وسكوته ينتفع بالنظر إليه ؛ فهو نفع اللحظ . ومن لايكون حاله وأفعاله هكذا فلفظه أيضا لاينفع لأنه يتكلم بهواه ، ونورانية القول على قدر نورانية القلب ، ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها . (والوجه الثانى) أن نظر العلماء الراسخين فى العلم والرجال البالغين ترياق نافع ، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستكشف بنور بصيرته حسن استعداد الصادق واستئهاله لمواهب الله تعالى الخاصة : فيقع فى قلبه محبة الصادق من المريدين وينظر إليه نظر محبة عن بصيرة ، وهم من جنود الله تعالى فيكسبون بنظرهم أحوالا سنية ويهبون آثاراً مرضية ، وماذا ينكر المنكر من قدرة الله ؟ إن الله سبحانه وتعالى كما جعل فى بعض الأفاعى من الخاصية أنه إذا نظر إلى إنسان يهلكه بنظره ، جعل فى نظر بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه حالا وحياة وقد كان شيخنا رحمه الله يطوف فى مسجد الخيف بمنى ويتصفح وجوه الناس ، فقيل له فى ذلك فقال : لله عباد إذا نظروا إلى شخص أكسبوه سعادة ، فأنا أتطلب ذلك .

ومن جملة المقاصد فى السفر ابتداء قطع المألوفات ، والانسلاخ من ركون النفس إلى معهود ومعلوم ، والتحامل على النفس بتجرع مرارة فرقة الألاف والخلان والأهل والأوطان ، فمن صبر على تلك المألوفات محتسبا عند الله أجرا

فقد حاز فضلا عظيما . أخبرنا أبو زرعة بن أبي الفضل الحافظ المقدسي عن أبيه قال أخبرنا القاضي أبو منصور محمد ابن أحمد الفقيه الأصفهاني ، قال أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن خرشيد قوله ، قال حدثنا أبو بكر عبدالله ابن محمد بن زياد النيسابوري ، قال حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب ، قال حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبدالرحمن عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : مات رجل بالمدينة ممن ولد بها ، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ، ليته مات بغير مولده ، قالوا : ولم ذلك يارسول الله ؟ قال : ، إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره من الجنة ، .

ومن جملة المقاصد في السفر استكشاف دقائق النفوس واستخراج رعوناتها ودعاويها ، لأنها لاتكاد تتبين حقائق ذلك بغير السفر . وسمي السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق ، وإذا وقف على دائه يتشمر لدوائه ، وقد يكون أثر السفر في نفس المبتدئ كأثر النوافل من الصلاة والصوم والتهجد وغير ذلك ، وذلك أن المتنفل سائح سائر إلى الله تعالى من أوطان الغفلات إلى محل القربات ، والمسافر يقطع المسافات ويتقلب في المفاوز والفلوات بحسن النية لله تعالى ، سائر إلى الله تعالى بمراغمة الهوى ومهاجرة ملاذ الدنيا .

أخبرنا شيخنا إجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد ، قال أخبرنا أحمد بن محمد بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبدالرحمن السلمي قال سمعت عبدالواحد بن بكر يقول : سمعت علي بن عبدالرحيم يقول : سمعت النوري يقول ؛ التصوف ترك كل حظ النفس . فإذا سافر المبتدي تاركا حظ النفس تطمئن النفس وتلين كما تلين بدوام النافلة ، ويكون لها بالسفر دباغ يذهب عنها الخشونة واليبوسة الجبلية والعفونة الطبيعية ، كالجلد يعود من هيئة الجلود إلى هيئة الثياب ، فتعود النفس من طبيعة الطغيان إلى طبيعة الإيمان .

ومن جملة المقاصد في السفر : رؤية الآثار والعبر ، وتسريح النظر في مسارح الفكر ، ومطالعة أجزاء الأرض والجبال ومواطئ أقدام الرجال ، واستماع التسبيح من ذوات الجمادات ، والفهم من لسان حال القطع المتجاورات ، فقد تتجدد اليقظة بتجدد مستودع العبر والآيات ، وتتوفر بمطالعة المشاهد والمواقف الشواهد والدلالات . قال الله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وقد كان السري يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء ودخل آذار وأورقت الأشجار طاب الانتشار .

ومن جملة المقاصد بالسفر : إيثار الخمول واطراح حظ القبول ، فصدق الصادق ينم على أحسن الحال ، ويرزق من الخلق حسن الإقبال ، وقلما يكون صادق متمسك بعروة الإخلاص ذو قلب عامر إلا ويرزق إقبال الخلق ، حتى سمعت بعض المشايخ يحكي عن بعضهم أنه قال : أريد إقبال الخلق علي لا أني أبلغ نفسي حظها من الهوى ، فإني لاأبالي أقبلوا أو أدبروا ، ولكن لكون إقبال الخلق علامة تدل على صحة الحال ، فإذا ابتلي المريد بذلك لا يأمن نفسه أن تدخل عليه بطريق الركون إلى الخلق ، وربما يفتح عليه باب من الرفق وتدخل النفس عليه من طريق السير والدخول في الأسباب المحمودة ، وتريه فيه وجه المصلحة والفضيلة في خدمة عباد الله وبذل الموجود ، ولا تزال النفس به والشيطان حتى يجراه إلى السكون إلى الأسباب واستحلاء قبول الخلق ، وربما قويا عليه بجراه إلى التصنع والتعمل ويتسع الخرق على الراقع .

وسمعت أن بعض الصالحين قال لمريد له ، أنت الآن وصلت إلى مقام لا يدخل عليك الشيطان من طريق الشر ، ولكن يدخل عليك من طريق الخير ، وهذا مزلة عظيمة للأقدام ، فالله تعالى يدرك الصادق إذا ابتلي بشيء من ذلك ويزعجه بالعناية السابقة والمعونة اللاحقة إلى السفر ، فيفارق المعارف والموضع الذي فتح عليه هذا الباب فيه ويتجرد لله تعالى بالخروج إلى السفر ، وهذا من أحسن المقاصد في الأسفار للصادقين ، فهذه جمل المقاصد المطلوبة للمشايخ في بداياتهم ماعدا الحج والغزو وزيارة بيت المقدس . وقد نقل أن عمر خرج من المدينة قاصدا إلى بيت المقدس وصلى فيه الصلوات الخمس ثم اسرع راجعا إلى المدينة من الغد . ثم إذا من الله على الصادق بإحكام أمور بدايته ، قلبه في

الأسفار ، ومنحه الحظ من الاعتبار ، وأخذ نصيبه من العلم قدر حاجته ، واستفاد من مجاورة الصالحين ، وانتقش في قلبه فوائد النظر إلى حال المتقين ، وتعطر باطنه باستنشاق عرف معارف المقربين ، وتحصن بحماية نظر أهل الله وخاصته وسبر أحوال النفس ، وأسفر السفر عن دفائن أخلاقها وشهواتها الخفية ، وسقط عن باطنه نظر الخلق ، وصار يغلب ولا يغلب ، كما قال الله تعالى إخبارا عن موسى ﴿ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ﴾ فعند ذلك يرده الحق إلى مقامه ، ويمده بجزيل إنعامه ، ويجعله إماما للمتقين به يقتدى ، وعلما للمؤمنين به يهتدى .

وأما الذي أقام في بدايته وسافر في نهايته : يكون ذلك شخصا يسر الله له في بداية أمره صحبة صحيحة وقيض له شيخا عالما يسلك به الطريق ، ويدرجه إلى منازل التحقيق ، فيلازم موضع إرادته ويلتزم بصحبة من يرده عن عادته وقد كان الشبلي يقول للحصري في ابتداء أمره : إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله لحرام عليك أن تحضرني ، فمن رزق مثل هذه الصحبة يحرم عليه السفر ، فالصحبة خير له من كل سفر وفضيلة يقصدها .

أخبرنا رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسمعيل القزويني إجازة قال : أخبرنا أبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم ابن هوازن القشيري عن والده الأستاذ أبي القاسم قال : سمعت محمد بن عبد الله الصوفي يقول : سمعت عياش بن أبي الصخر يقول : سمعت أبا بكر الزقاق يقول : لا يكون المريد مريدا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا عشرين سنة فمن رزق صحبة من يندبه إلى مثل هذه الأحوال السنية والعزائم القوية يحرم عليه المفارقة واختيار السفر ، ثم إذا أحكم أمره في الابتداء بلزوم الصحبة وحسن الاقتداء . وارتوى من الأحوال ، وبلغ مبلغ الرجال ، وانبجس من قلبه عيون ماء الحياة ، وصارت نفسه مكسبة للسعادات يستنشق نفس الرحمن من صدور الصادقين من الإخوان في أقطار الأرض وشاسع البلدان ، يشرئب إلى التلاق وينبعث إلى الطواف في الآفاق ، يسيره الله تعالى في البلاد لفائدة العباد ، ويستخرج بمغناطيس حاله خبء أهل الصدق والمتطلعين إلى من يخبر عن الحق ، ويبذر في أراضي القلوب بذر الفلاح ، ويكثر ببركة نفسه وصحبته أهل الصلاح . وهذا مثل هذه الأمة الهادية في الإنجيل ﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾ تعود بركة البعض إلى البعض ، ويكون طريق الوراثة معمورا ، وعلم الإفادة منشورا .

أخبرنا شيخنا قال أخبرنا الإمام عبد الجبار البيهقي في كتابه ، قال أخبرنا أبو بكر البيهقي ، قال أخبرنا أبو على الروذباري قال حدثنا أبو بكر بن واسته ، قال حدثنا أبو داود قال أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثنا إسماعيل بن جعفر ، قال أخبرني العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » فأما من أقام ولم يسافر يكون ذلك شخصا رباه الحق سبحانه وتعالى وتولاه وفتح عليه أبواب الخير وجذبه بعنايته . وقد ورد جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين . ثم لما علم منه الصدق ورأى حاجته إلى من ينتفع به ساق إليه بعض الصديقين . حتى أيده بلطفه ولفظه ، وتداركه بلحظه ، ولقحه بقوة حاله ، وكفاه يسير الصحبة لكمال الأهلية في الصاحب والمصحوب ، وإجراء سنة الله تعالى في إعطاء الأسباب حقها الإقامة ، رسم الحكمة يحوج إلى يسير الصحبة ، فيتنبه بالقليل للكثير ، ويغنيه اليسير من الصحبة عن اللحظ الكثير ، ويكتفي بوافر حظ الاستبصار عن الأسفار ، ويتعوض بأشعة الأنوار عن مطالعة الغير والآثار ، كما قال بعضهم : الناس يقولون افتحوا أعينكم وأبصروا ، وأنا أقول : غمضوا أعينكم وأبصروا . وسمعت بعض الصالحين يقول لله عباد طور سيناهم ركبهم تكون رءوسهم على ركبهم وهم في محال القرب ، فمن نبع له معين الحياة في ظلمة خلوته فماذا يصنع بدخول الظلمات ؟ ومن اندرجت له أطباق السموات في طي شهوده ، ماذا يصنع بتقلب طرفه في السموات ؟ ومن جمعت أحداق بصيرته متفرقات الكائنات ، ماذا يستفيد من طي الفلوات ؟ ومن خلص بخاصية فطرته إلى مجمع الأرواح ، ماذا تفيده زيارة الأشباح ؟

قيل أرسل ذو النون المصري إلى أبي يزيد رجلا وقال قل له إلى متى هذا النوم والراحة وقد سارت القافلة ؟

فقال الرسول : قل لأخى : الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح فى المنزل قبل القافلة ، فقال ذو النون: هنيئاً له ، هذا كلام لا تبلغه أحوالنا .

وكان بشر يقول : يامعشر القراء سيحوا تطيبوا ، فإن الماء إذا كثر مكثه فى موضع تغير ، وقيل قال بعضهم عند هذا الكلام صر بحراً حتى لا تتغير ، فإذا أدام المريد سير الباطن بقطع مسافة النفس الأمارة بالسوء، حتى قطع منازل آفاتها وبدل أخلاقها المذمومة بالمحمودة ، وعانق الإقبال على الله تعالى بالصدق والإخلاص، اجتمع له المتفرقات، واستفاد فى حضره أكثر من سفره ، لكون السفر لايخلو من متاعب وكلف ومشوشات وطوارق ونوازل يتجدد الضعف عن سياستها بالعلم للضعفاء ، ولايقدر على تسليط العلم على متجددات السفر وطوارقه إلا الأقوياء . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للذى زكى عنده رجلا هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال لا ، قال ما أراك تعرفه ! فإذا حفظ الله عبده فى بداية أمره من تشويش السفر ، ومتعه بجمع الهم وحسن الإقبال فى الحضر وساق إليه من الرجال من اكتسب به صلاح الحال ، فقد أحسن إليه .

قيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ هو الرجل المنقطع إلى الله يشكل عليه شىء من أمر الدين فيبعث الله إليه من يحل إشكاله . فإذا ثبت قدمه على شروط البداية رزق وهو فى المقام من غير سفر ثمرات النهاية ، فيستقر فى الحضر انتهاء ، وأقيم فى هذا المقام جمع من الصالحين . وأما الذى أدام السفر فرأى صلاح قلبه وصحة حاله فى ذلك . يقول بعضهم اجتهد أن تكون كل ليلة ضيف مسجد ، ولاتموت إلا بين منزلين وكان من هذه الطبقة إبراهيم الخواص ما كان يقيم فى بلد أكثر من أربعين يوما ، وكان يرى إن أقام أكثر من أربعين يوما يفسد عليه توكله ، فكان علم الناس ومعرفتهم إياه سببا ومعلوما .

وحكى عنه أنه قال مكثت فى البادية أحد عشر يوما لم آكل وتطلعت نفسى أن آكل من حشيش البر ، فرأيت الخضر مقبلا نحوى فهربت منه ، ثم التفت فإذا هو رجع عنى ، فقيل لم هربت منه ؟ قال تشوفت نفسى أن يغيثنى ، فهؤلاء الفرارون بدينهم . أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبى الفضل المقدسى عن أبيه قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على قال أخبرنا أبو عبدالله بن يوسف بن نامويه قال حدثنا أبو محمد الزهرى القاضى قال حدثنا محمد بن عبدالله بن أسباط قال حدثنا أبو نعيم قال حدثنا محمود ـ يعنى ابن مسلم ـ عن عثمان بن عبدالله بن أوس عن سليمان بن هرمز عن عبدالله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أحب شىء إلى الله الغرباء ، قيل ومن الغرباء ؟ قال الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى ابن مريم يوم القيامة » وهذه كلها أحوال اختلفت واتبع أربابها الصحة وحسن النية مع الله . وحسن النية يقتضى الصدق ، والصدق لعينه محمود كيف تقلبت الأحوال ، فمن سافر ينبغى أن يتفقد حاله ، ويصحح نيته ، ولايقدر على تخليص النية من شوائب النفس إلا كثير العلم تام التقوى ، وافر الحظ من الزهد فى الدنيا. ومن انطوى على هوى كامن ولم يستقص فى الزهد لا يقدر على تصحيح النية . فقد يدعوه إلى السفر نشاط جبلى نفسانى وهو يظن أن ذلك داعية الحق ولايميز بين داعية الحق وداعية النفس ويحتاج الشخص فى علم صحة النية إلى العلم بمعرفة الخواطر، وشرح الخواطر وعلمها يحتاج إلى باب مفرد لنفسه ، ونومئ الآن إلى ذلك بما يدركه من نازله شىء من ذلك ، فأكثر الفقراء من علم ذلك ومعرفته على بعد .

اعلم أن ما ذكرناه من نشاط النفس واقع للفقير فى كثير من الأمور ، فقد يجد الفقير الروح بالخروج إلى بعض الصحارى والبساتين ، ويكون ذلك الروح مضرا به فى ثانى الحال وإن كان يتراءى له طيبة القلب فى الوقت وسبب طيبة قلبه فى الوقت أن النفس تنفسح وتتسع ببلوغ غرضها وتيسير هواها بالخروج إلى الصحراء والتنزه ، وإذا اتسعت بعدت عن القلب وتنحت عنه متشوفة إلى متعلق هواها ، فيتروح القلب لا بالصحراء بل ببعد النفس منه ، كشخص تباعد عنه قرين يستثقله . ثم إذا عاد الفقير إلى زاويته واستفتح ديوان معاملته وميز دستور حاله ، يجد النفس مفارقة القلب بمزيد ثقل موجب لتبرمهما ، وكلما ازداد ثقلها تكدر القلب . وسبب زيادة ثقلها استرسالها فى

تبادل هواها ، فيصير الخروج إلى الصحراء عين الداء ، ويظن الفقير أنه ترويح ودواء ، فلو صبر على الوحدة والخلوة ازدادت النفس ذوبانا ، وخفت ولطفت وصارت قرينا صالحا للقلب لايستثقلها ، وعلى هذا يقاس الترَوح بالأسفار، فللنفس وثبات إلى توهم الترَوحات ، فمن فطن لهذه الدقيقة لايغتر بالتروحات المستعارة التي لاتحمد عاقبتها ولا تؤمن غائلتها ، ويتثبت عند ظهور خاطر السفر ، ولا يكترث بالخاطر بل يطرحه بعدم الالتفات مسيئا ظنه بالنفس وتسويلاتها . ومن هذا القبيل - والله أعلم - قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشمس تطلع من بين قرنى الشيطان » فيكون للنفس عند طلوع الشمس وثبات تستند تلك الوثبات والنهضات من النفس إلى المزاج والطبائع ، ويطول شرح ذلك ويعمق . ومن ذلك القبيل خفة مرض المريض غدوة ، بخلاف العشيات فيتشكل اهتزاز النفس بنهضات القلب ، ويدخل على الفقير من هذا القبيل آفات كثيرة : يدخل في مداخل باهتزاز نفسه ظنا منه أن ذلك حكم نهوض قلبه ، وربما يتراءى له أنه بالله يصول وبالله يقول وبالله يتحرك ، فقد ابتلى بنهضة النفس ووثوبها . ولا يقع هذا الاشتباه إلا لأرباب القلوب وأرباب الأحوال ، وغير أرباب القلب والحال عن هذا بمعزل ، وهذه مزلة قدم مختصة بالخواص دون العوام ، فاعلم ذلك فإنه عزيز علمه . وأقل مراتب الفقراء في مبادى الحركة للسفر لتصحيح وجه الحركة أن يقدموا صلاة الاستخارة ، وصلاة الاستخارة لا تهمل وإن تبين للفقير صحة خاطره وتبين له وجه المصلحة في السفر ببيان أوضح من الخاطر ، فللقوم مراتب في التبيان من العلم بصحة الخاطر وبما فوق ذلك ، فمع ذلك كله لا تهمل صلاة الاستخارة اتباعا للسنة ، ففي ذلك البركة ، وهو من تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماحدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إملاء قال : أخبرنا أبو القاسم بن عبد الرحمن في كتابه ، أن أبا سعيد الكنجرودي أخبرهم قال أخبرنا أبو عمرو بن حمدان ، قال حدثنا أحمد بن الحسين الصوفى ، قال حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، قال حدثنا عبد الرحمن بن أبى الموالى عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن قال : « إذا هم أحدكم بالأمر - أو أراد الأمر - فليصل ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه بعينه - خير لى فى دينى ومعاشى ومعادى وعاقبة أمرى - أو قال عاجل أمرى وآجله - فاقدره لى ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلمه شرا لى - مثل ذلك - فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان » .

الباب السابع عشر : فيما يحتاج إليه الصوفى فى سفره من الفرائض والفضائل

فأما من الفقه - وإن كان هذا يذكر فى كتب الفقه وهذا الكتاب غير موضوع لذلك ، ولكن نقول على سبيل الإيجاز تيمنا بذكر الأحكام الشرعية التى هى الأساس الذى يبنى عليه - لابد للصوفى المسافر من علم التيمم والمسح على الخفين والقصر والجمع فى الصلاة ، أما التيمم فجائز المريض والمسافر فى الجنابة والحدث عند عدم الماء أو الخوف من استعماله تلفا فى النفس أو المال أو زيادة فى المرض على القول الصحيح من المذهب ، أو عند حاجته إلى الماء الموجود لعطشه أو عطش دابته أو رفيقه ، ففى هذه الأحوال كلها يصلى بالتيمم ولا إعادة عليه . والخائف من البرود يصلى بالتيمم ويعيد الصلاة على الأصح . ولا يجوز التيمم إلا بشرط الطلب للماء فى مواضع الطلب . ومواضع الطلب مواضع تردد المسافر فى منزله للاحتطاب والاحتشاش ، ويكون الطلب بعد دخول الوقت ، والسفر القصير فى ذلك كالطويل . وإن صلى بالتيمم مع تيقن الماء فى آخر الوقت جاز على الأصح . ولا يعيد مهما صلى بالتيمم وإن كان الوقت باقيا . ومهما توهم وجود الماء بطل تيممه ، كما إذا طلع ركب أو غير ذلك . وإن رأى الماء فى أثناء الصلاة لا تبطل صلاته ولا تلزمه الإعادة ، ويستحب له الخروج منها واستئنافها بالوضوء على الأصح . ولا يتيمم للفرض قبل دخول الوقت ويتيمم لكل فريضة . ويصلى مهما شاء من نوافل بتيمم واحد . ولا يجوز أداء الفرض بتيمم

النافلة. ومن لم يجد ماء ولا ترابا يصلي عند وجود أحدهما. ولكن إذا كان محدثا لا يمس المصحف. وإن كان جنبا لا يقرأ القرآن في الصلاة بل يذكر الله تعالى عوض القراءة. ولا يتيمم إلا بتراب طاهر غير مخالط للرمل والحصى، ويجوز بالغبار على ظهر الحيوان والثوب. ويسمى الله تعالى عند التيمم، وينوي استباحة الصلاة قبل ضرب اليد على التراب، ويضم أصابعه لضربة الوجه ويمسح جميع الوجه، فلو بقي شيء من محل الفرض غير ممسوح لا يصح التيمم. ويضرب ضربة لليدين مبسوط الأصابع، ويعم بالتراب محل الفرض، وإن لم يقدر إلا بضربتين فصاعدا كيف أمكنه لابد أن يعم التراب محل الفرض. ويمسح إذا فرغ إحدى الراحتين بالأخرى حتى تصيرا ممسوحتين، ويمر اليد على ما نزل من اللحية من غير إيصال التراب إلى المنابت.

وأما المسح: فيمسح على الخف ثلاثة أيام ولياليهن في السفر. والمقيم يوما وليلة وابتداء المدة من حين الحدث بعد لبس الخف، لا من حين لبس الخف. ولا حاجة إلى النية عند لبس الخف، بل يحتاج إلى كمال الطهارة، حتى لو لبس أحد الخفين قبل غسل الرجل الأخرى لا يصح أن يمسح على الخف. ويشترط في الخف إمكان متابعة المشي عليه وستر محل الفرض، ويكفي مسح يسير من أعلى الخف، والأولى مسح أعلاه وأسفله من غير تكرار، ومتى ارتفع حكم المسح - بانقضاء المدة أو ظهور شيء من محل الفرض وإن كان عليه لفافة وهو على الطهارة - يغسل القدمين دون استئناف الوضوء على الأصح. والماسح في السفر إذا أقام يمسح كالمقيم، وهكذا المقيم إذا سافر يمسح كالمسافر. واللبد إذا ركب جوربا ونعل يجوز المسح عليه، ويجوز على المشرج إذا ستر محل الفرض، ولا يجوز على المنسوج وجهه الذي يستر بعض القدم به والباقي باللفافة:

فأما القصر والجمع فيجمع بين الظهر والعصر في وقت إحداهما. ويتيمم لكل واحدة ولا يفصل بينهما بكلام وغيره. وهكذا الجمع بين المغرب والعشاء. ولا قصر في المغرب والصبح بل يصليها كهيئتها من غير قصر وجمع والسنن الرواتب يصليها بالجمع بين السنتين قبل الفريضتين للظهر والعصر وبعد الفراغ من الفريضتين يصلي ما يصلي بعد الفريضة من الظهر ركعتين أو أربعا، وبعد الفراغ من المغرب والعشاء يؤدي السنن الراتبة لهما ويوتر بعدهما. ولا يجوز أداء الفرض على الدابة بحال إلا عند التحام القتال للغازي. ويجوز ذلك في السنن الرواتب والنوافل، وتكفيه الصلاة على ظهر الدابة، وفي الركوع والسجود الإيماء، ويكون إيماء السجود أخفض من الركوع، إلا أن يكون قادرا على التمكن مثل أن يكون في محاورة وغير ذلك، ويقوم توجهه إلى الطريق مقام استقبال القبلة، ولا يوجهها إلى غير الطريق إلا للقبلة حتى لو حرف دابته عن الصوب المتوجه إليه لا إلى نحو القبلة بطلت صلاته. والماشي يتنفل في السفر ويقنعه استقبال القبلة عند الإحرام، ولا يجزئه في الإحرام إلا الاستقبال، ويقنعه الإيماء للركوع والسجود، وراكب الدابة لا يحتاج إلى استقبال القبلة للإحرام أيضا. وإذا أصبح المسافر مقيما ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم في الصوم، وهكذا إن أصبح مسافرا ثم أقام، والصوم في السفر أفضل من الفطر، وفي الصلاة القصر أفضل من الإتمام، فهذا القدر كاف للصوفي أن يعلمه من حكم الشرع في مهام سفره.

فأما المندوب والمستحب فينبغي أن يطلب لنفسه رفيقا في الطريق يعينه على أمر الدين، وقد قيل: الرفيق ثم الطريق، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسافر الرجل وحده، إلا أن يكون صوفيا عالما بآفة نفسه يختار الوحدة على بصيرة من أمره فلا بأس بالوحدة، وإذا كانوا جماعة ينبغي أن يكون فيهم متقدم أمير. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا أحدكم» والذي يسميه الصوفية «بيشر» وهو الأمير وينبغي أن يكون الأمير أزهد الجماعة في الدنيا، وأوفرهم حظا من التقوى، وأتمهم مروءة وسخاوة، وأكثرهم شفقة. روى عبدالله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه». نقل عن عبد الله المروزي: أن أبا علي الرباطي صحبه فقال: على أن أكون أنا الأمير أو أنت؟ فقال: بل أنت؛ فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي علي على ظهره، وأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه يغطيه بكسائه من

المطر ، وكلما قال لاتقل يقول ألست الأمير وعليك الانقياد والطاعة . فأما إن كان الأمير يصحب الفقراء لمحبة الاستتباع وطلب الرياسة والتعزز ليتسلط على الخدام فى الربط ويبلغ نفسه هواها ؛ فهذا طريق أرباب الهوى الجهال المباينين لطريق الصوفية ، وهو سبيل من يريد جمع الدنيا ، فليتخذ لنفسه رفقاء مائلين إلى الدنيا يجتمعون لتحصيل أغراض النفس والدخول على أبناء الدنيا والظلمة للتوصل إلى تحصيل مآرب النفس ، ولا يخلو اجتماعهم هذا عن الخوض فى الغيبة والدخول فى المداخل المكروهة والقل فى الربط والاستمتاع والنزهة ، وكلما كثر المعلوم فى الرباط أطالوا المقام وإن تعذرت أسباب الدين ، وكلما قل المعلوم رحلوا وإن تيسرت أسباب الدين ، وليس هذا طريق الصوفية .

ومن المستحب أن يودع إخوانه إذا أراد السفر ، ويدعو لهم بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم : صحبت عبد الله بن عمر من مكة إلى المدينة ، فلما أردت مفارقته شيعنى وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال لقمان لابنه : يابنى إن الله تعالى إذا استودع شيئا حفظه ، وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » . وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أراد أحدكم سفرا فليودع إخوانه ، فإن الله تعالى جاعل له فى دعائهم البركة » . وروى عنه عليه السلام أيضا أنه كان إذا ودع رجلا قال : « زودك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ووجهك للخير حيثما توجهت » ، وينبغى أن يعتقد إخوانه إذا دعا لهم واستودعهم الله أن الله يستجيب دعاءه : فقد روى أن عمر رضى الله عنه كان يعطى الناس عطاياهم ، إذ جاء رجل معه ابن له فقال له عمر : مارأيت أحدا أشبه بأحد من هذا بك ؟ فقال الرجل : أحدثك عنه ياأمير المؤمنين ، إنى أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت : تخرج وتدعنى على هذه الحالة ؟ فقلت : أستودع الله مافى بطنك ، فخرجت ثم قدمت فإذا هى قد ماتت ، فجلسنا نتحدث فإذا نار تلوح على قبرها ، فقلت للقوم : ما هذه النار ؟ فقالوا : هذه من قبر فلانة نراها كل ليلة ، فقلت : والله إنها كانت صوامة قوامة ، فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا وإذا سراج وإذا هذا الغلام يدب ، فقيل : إن هذا وديعتك ولو كنت استودعتنا أمه لوجدتها ، فقال عمر : لهو أشبه بك من الغراب بالغراب ، وينبغى أن يودع كل منزل يرحل عنه بركعتين ويقول : اللهم زودنى التقوى واغفر لى ذنوبى ووجهنى للخير أينما توجهت ، وروى أنس بن مالك قال : كان رسول الله عليه الصلاة والسلام لاينزل منزلا إلا ودعه بركعتين ، فينبغى أن يودع كل منزل ورباط يرحل عنه بركعتين ، وإذا ركب الدابة فليقل : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، بسم الله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور . والسنة أن يرحل من المنازل بكرة ويبتدئ بيوم الخميس . روى كعب بن مالك قال : قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى السفر إلا يوم الخميس ، وكان إذا أراد أن يبعث سرية بعثها أول النهار ويستحب كلما أشرف على منزل أن يقول : اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين ، ورب البحار وما جرين : أسألك خير هذا المنزل وخير أهله ، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر أهله . وإذا نزل فليصل ركعتين ، ومما ينبغى للمسافر أن يصحبه آلة الطهارة قيل : كان إبراهيم الخواص لايفارقه أربعة أشياء فى الحضر والسفر : الركوة ، والحبل ، والإبرة وخيوطها ، والمقراض . وروت عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرآة ، والمكحلة ، والمدرى ، والسواك ، والمشط . وفى رواية . المقراض ، والصوفية لاتفارقهم العصى ، وهى أيضاً من السنة .

روى معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن أتخذ منبراً فقد اتخذه إبراهيم ، وإن أتخذ العصا فقد اتخذها إبراهيم وموسى ، وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء ، كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عصا يتوكأ عليها ويأمر بالتوكؤ على العصا ؛ وأخذ الركوة أيضا من السنة . وروى جابر عن عبد الله قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ من ركوة إذ جهش الناس نحوه أى أسرعوا نحوه ، والأصل فيه البكاء ، كالصبى يتلازم بالأم ويسرع إليها عند البكاء ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« مالكم ؟ قالوا : يارسول الله مانجد ماء نشرب ولانتوضأ به إلا مابين يديك ؛ فوضع يده فى الركوة ، فنظرت وهو يفور من بين أصابعه مثل العيون ؟ قال : فتوضأ القوم منه . قلت : كم كنتم ؟ قال : لوكنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة فى غزوة الحديبية .

ومن سنة الصوفية شد الوسط وهو من السنة : روى أبو سعيد قال : حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة وقال « اربطوا على أوساطكم بأزركم » فربطنا ومشينا خلفه الهرولة .

ومن ظاهر آداب الصوفية عند خروجهم من الربط أن يصلى ركعتين فى أول النهار يوم السفر بكرة كما ذكرنا ، يودع البقعة بالركعتين ، ويقدم الخف وينفضه ، ويشمر الكم اليمنى ثم اليسرى ، ثم يأخذ الميانيد الذى يشد به وسطه ويأخذ خريطة المداس وينفضها ، ويأتى الموضع الذى يريد أن يلبس الخف فيفرش السجادة طاقين ويحك نعل أحد المداسين بالآخر ، ويأخذ المداس باليسار والخريطة باليمين ، ويضع المداس فى الخريطة أعقابه إلى أسفل ويشد رأس الخريطة ، ويدخل المداس بيده اليسرى من كمه الأيسر ويضمه خلف ظهره ، ثم يقعد على السجادة ويقدم الخف بيساره وينفضه ، ويبتدى باليمنى فيلبس ، ولايدع شيئا من الران أو المنطقة يقع على الأرض ، ثم يغسل يديه ويجعل وجهه إلى الموضع الذى يخرج منه ويودع الحاضرين ، فإن أخذ بعض الإخوان راويته إلى خارج الرباط لا يمنعه ، وهكذا العصا والإبريق ، ويودع من شيعه ، ثم يشد الراوية يرفع يده اليمنى ويخرج اليسرى من تحت إبطه الأيمن ويشد الراوية على الجانب الأيسر ، ويكون كتفه الأيمن خاليا وعقدة الراوية عن الجانب الأيمن ؛ فإذا وصل فى طريقه إلى موضع شريف أو استقبله جمع من الإخوان أو شيخ من الطائفة يحل الراوية ويحطها ويستقبلهم ويسلم عليهم ، ثم إذا جاوزوه يشد الراوية ، وإذا دنا من منزل ـ رباطا كان أو غيره ـ يحل الراوية ويحملها تحت إبطه الأيسر ، وهكذا العصا والإبريق يمسكه بيساره ، وهذه الرسوم استحسنها فقراء خراسان والجبل ، ولايتعهدها أكثر فقراء العراق والشام والمغرب ، ويجرى بين الفقراء مشاحنة فى رعايتها ؛ فمن لايتعهدها يقول : هذه رسوم لاتلزم ، والالتزام بها وقوف مع الصور وغفلة عن الحقائق . ومن يتعهدها يقول : هذه آداب وضعها المتقدمون ، وإذا رأوا من يخل بها أو بشىء منها ينظرون إليه نظر الازدراء والحقارة ويقال : هذا ليس بصوفى ، وكلا الطائفتين فى الإنكار يتعدون الواجب . والصحيح فى ذلك أن من يتعاهدها لا ينكر عليه ، فليس بمنكر فى الشرع وهو أدب حسن . ومن لم يلتزم بذلك فلاينكر عليه فليس بواجب فى الشرع ولا مندوب إليه . وكثير من فقراء خراسان والجبل يبالغ فى رعاية هذه الرسوم إلى حد يخرج إلى الإفراط ، وكثيراً مايخل بها فقراء العراق والشام والمغاربة إلى حد يخرج إلى التفريط . والأليق أن ماينكره الشرع ينكر ومالاينكره لاينكر ، ويحمل لتصاريف الإخوان أعذارا مالم يكن فيها منكر أو إخلال بمندوب إليه ، والله الموفق .

الباب الثامن عشر : فى القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه

ينبغى للفقير إذا رجع من السفر أن يستعيذ بالله تعالى من آفات المقام كما يستعيذ به من وعثاء السفر . ومن الدعاء المأثور : « اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد » ، وإذا أشرف على بلد يريد المقام بها ، يشير بالسلام على من بها من الأحياء والأموات ويقرأ من القرآن ما تيسر ويجعله هدية للأحياء والأموات ويكبر ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قفل من غزو أو حج يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ويقول « لاإله إلاالله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، آيبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ويقول إذا رأى البلد : اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا ، ولو اغتسل كان حسنا اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث اغتسل لدخول مكة ، وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من طلب الأحزاب ونزل المدينة نزع لأمته واغتسل » واستحم ، وإلا فليجدد الوضوء ويتنظف ويتطيب ويستعد للقاء الإخوان بذلك ؛ وينوى التبرك

بمن هنالك من الأحياء والأموات ويزورهم .

روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « خرج رجل يزور أخا له فى الله فأرصد الله بمدرجته ملكا وقال : أين تريد ؟ قال : أزور فلانا ، قال لقرابة ؟ قال : لا ، قال : النعمة له عندك تشكرها ؟ قال : لا ، قال فيم تزوره ؟ قال إنى أحبه فى الله ، قال : فإنى رسول الله إليك بأنه يحبك بحبك إياه » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا دعا الرجل أخاه أوزاره فى الله قال الله له : طبت وطاب ممشاك ، ويتبوأ من الجنة منزلا » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة » فيحصل للفقير فائدة الأحياء والأموات بذلك . فإذا دخل البلد يبتدئ بمسجد من المساجد يصلى فيه ركعتين ، فإن قصد الجامع كان أكمل وأفضل . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم دخل المسجد أولا وصلى ركعتين ثم دخل البيت والرباط للفقير بمنزلة البيت ، ثم يقصد الرباط فقصده الرباط من السنة ، على ما رويناه عن طلحة رضى الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، وإن كان لم يكن له بها عريف نزل الصفة ، فكنت ممن أنزل الصفة . فإذا دخل الرباط يمضى إلى الموضع الذى يريد نزع الخف فيه ، فيحل وسطه وهو قائم ، ثم يخرج الخريطة بيساره من كمه اليسار ويحل رأس الخريطة باليمين ويخرج المداس باليسار ، ثم يضع المداس على الأرض ويأخذ الميانيد ويلقيها فى وسط الخريطة ، ثم ينزع خفه اليسار ، فإن كان على الوضوء يغسل قدميه بعد نزع الخف من تراب الطريق والعرق ، وإذا قدم على السجادة يطوى السجادة من جانب اليسار ، ويمسح قدميه بما انطوى ثم يستقبل القبلة ويصلى ركعتين ، ثم يسلم ويحفظ القدم أن يطأ بها موضع السجود من السجادة ، وهذه الرسوم الظاهرة التى استحسنها بعض الصوفية لا تنكر على من يتقيد بها لأنه من استحسان الشيوخ ، ونيتهم الظاهرة فى ذلك : تقييد المريد فى كل شىء بهيئة مخصوصة ، ليكون أبدا متفقدا لحركاته غير قادم على حركة بغير قصد وعزيمة وأدب ، ومن أخل من الفقراء بشىء من ذلك لا ينكر عليه مالم يخل بواجب أو مندوب ؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقيدوا بكثير من رسوم المتصوفة ، وكون الشبان يطالبون الوارد عليهم بهذه الرسوم من غير نظر لهم إلى النية فى الأشياء غلط ، فلعل الفقير يدخل الرباط غير مشمر أكمامه ، وقد كان فى السفر لم يشمر الأكمام فينبغى أن لا يتعاطى ذلك لنظر الخلق حيث لم يخل بمندوب إليه شرعا ، وكون الآخر يشمر الأكمام يقيس ذلك على شد الوسط وشد الوسط من السنة كما ذكرنا من شد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوساطهم فى سفرهم بين المدينة ومكة ، فتشمير الأكمام فى معناه من الخفة والارتفاق به فى المشى ، فمن كان مشدود الوسط مشمرا يدخل الرباط كذلك ، ومن لم يكن فى السفر مشدود الوسط أو كان راكبا لم يشد وسطه ، فمن الصدق أن يدخل كذلك ، ولا يتعمد شد الوسط وتشمير الأكمام لنظر الخلق فإنه تكلف ونظر إلى الخلق ، ومبنى التصوف على الصدق وسقوط نظر الخلق ، ومما ينكر على المتصوفة أنهم إذا دخلوا الرباط لا يبتدئون بالسلام ويقول المنكر : هذا خلاف المندوب ، ولا ينبغى للمنكر أن يبادر إلى الإنكار دون أن يعلم مقاصدهم فيما اعتمدوه وتركهم السلام يحتمل وجوها ، أحدها : أن السلام اسم من أسماء الله تعالى وقد روى عبد الله بن عمر قال : مر رجل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبول ، فسلم عليه فلم يرد عليه حتى كاد الرجل أن يتوارى ، فضرب يده على الحائط ومسح بها وجهه ، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ، ثم رد على الرجل السلام وقال : « إنه لم يمنعنى أن أرد عليك السلام إلا أنى لم أكن على طهر » وروى أنه لم يرد عليه حتى توضأ ثم اعتذر إليه وقال « إنى كرهت أن أذكر الله تعالى إلا على طهر » وقد يكون جمع من الفقراء مصطحبين فى السفر وقد يتفق لأحدهم حدث ، فلو سلم المتوضئ وأمسك المحدث طهر حاله ، فيترك السلام حتى يتوضأ من يتوضأ ويغسل قدمه من يغسل سترا للحال على من أحدث ، حتى يكون سلامهم على الطهارة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد يكون بعض المقيمين أيضا على غير طهارة فيستعد لجواب السلام أيضا بالطهارة ؛ لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، وهذا من أحسن ما يذكر

من الوجوه فى ذلك . ومنها أنه إذا قدم يعانقه الإخوان وقد يكون معه من آثار السفر والطريق مايكره فيستعد بالوضوء والنظافة ثم يسلم و يعانقهم ومنها أن جميع الرباط أرباب مراقبة وأحوال ؛ فلو هجم عليهم بالسلام قد ينزعج منه مراقب ويتشوش محافظ ، والسلام يتقدمه استئناس بدخوله واشتغاله بغسل القدم والوضوء وصلاة ركعتين ، فيتأهب الجمع له كما يتأهب لهم بعد مسابقة الاستئناس . وقال الله تعالى ﴿حتى تستأنسوا﴾ واستئناس كل قوم على ما يليق بحالهم ، ومنها أنه لم يدخل على غير بيته ولا هو بغريب منهم ، بل هم إخوانه والألفة بالنسبة المعنوية الجامعة لهم فى طريق واحد ، والمنزل منزله والموضع موضعه ، فيرى البركة فى استفتاح المنزل بمعاملة الله قبل معاملة الخلق ، وكما يمهد عذرهم فى ترك السلام ينبغى لهم أن لاينكروا على من يدخل ويبتدئ بالسلام ، فكما أن من ترك السلام له نية فالذى ابتدأ به له أيضاً نية .

وللقوم آداب ورد بها الشرع ، ومنها آداب استحسنها شيوخهم ، فما ورد به الشرع : ماذكرنا من شد الوسط والعصا والركوة والابتداء باليمين فى لبس الخف وفى نزعه باليسار : روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا انتعلتم فابدءوا باليمين ، وإذا خلعتم فابدءوا باليسار أو اخلعهما جميعا أو انعلهما جميعا » روى جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخلع اليسرى قبل اليمنى ويلبس اليمنى قبل اليسرى .

وبسط السجادة وردت به السنة وقد ذكرناه . وكون أحدهم لايقعد على سجادة الآخر مشروع ومسنون وقد ورد فى حديث طويل « لايؤم الرجل الرجل فى سلطانه ولا فى أهله ولايجلس على تكرمته إلا بإذنه » .

وإذا سلم على الإخوان يعانقهم ويعانقونه ، فقد روى جابر بن عبدالله قال : « لما قدم جعفر من أرض الحبشة عانقه النبى صلى الله عليه وسلم » وإن قبلهم فلا بأس بذلك روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم جعفر قبل بين عينيه وقال : « ما أنا بفتح خيبر أسر منى بقدوم جعفر » ويصافح إخوانه فقد قال عليه السلام « قبلة المسلم أخاه المصافحة » وروى أنس بن مالك قال : قيل يارسول الله ، الرجل يلقى صديقه وأخاه ينحنى له ؟ قال : لا . قيل يلزمه ويقبله ؟ قال لا . قيل فيصافحه ؟ قال نعم .

يستحب للفقراء المقيمين فى الرباط أن يتلقوا الفقراء بالترحيب روى عكرمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جئته « مرحبا بالراكب المهاجر » مرتين . وإن قاموا إليه فلا بأس وهو مسنون روى عنه عليه السلام أنه قام لجعفر يوم قدومه .

ويستحب للخادم أن يقدم له الطعام روى لقيط بن صبرة قال وفدنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نصادفه فى منزله وصادفنا عائشة رضى الله عنها ، فأمرت لنا بالحريرة فصنعت لنا ، وأتينا بقناع فيه تمر - والقناع الطبق - فأكلنا ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أصبتم شيئا ؟ » قلنا نعم يارسول الله .

ويستحب للقادم أن يقدم للفقراء شيئا لحق القدوم ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة نحر جزورا وكراهيتهم لقدوم القادم بعد العصر وجهه من السنة منع النبى صلى الله عليه وسلم عن طروق الليل .

والصوفية بعد العصر يستعدون لاستقبال الليل بالطهارة والانكباب على الأذكار والاستغفار روى جابر بن عبدالله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قدم أحدكم من سفر فلا يطرقن أهله ليلا » وروى كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لايقدم من السفر إلا نهاراً فى الضحى ؛ فيستحبون القدوم فى أول النهار ، فإن فات من أول النهار فقد يتفق تعويق من ضعف بعضهم فى المشى أو غير ذلك ، فيعذر الفقير ببقية النهار إلى العصر لاحتمال التعويق ، فإذا صار العصر ينسب إلى تقصيره فى الاهتمام بالسنة وقدوم أول النهار فإنهم يكرهون الدخول بعد العصر والله أعلم ، فإذا صار العصر يؤخر القدوم إلى الغد ليكون عاملا بالسنة للقدوم ضحوة ، وأيضا فيه معنى آخر وهو أن الصلاة بعد العصر مكروهة .

ومن الأدب أن يصلى القادم ركعتين ؛ فلذلك يكرهون القدوم بعد صلاة العصر ، وقد يكون من الفقراء القادمين

من يكون قليل الدراية بدخول الرباط وينا له دهشة : فمن السنة التقرب إليه والتودد وطلاقة الوجه حتى ينبسط وتذهب عنه الدهشة ، ففي ذلك فضل كثير

روى أبو رفاعة قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقلت : يارسول الله ، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدرى ما دينه ؟ قال : فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم وترك خطبته ، ثم أتى بكرسى قوائمه من حديد فقعد رسول الله ثم جعل يعلمنى مما علمه الله ، ثم أتى خطبته وأتم آخرها . فأحسن أخلاق الفقراء الرفق بالمسلمين، واحتمال المكروه من المسموع والمرئى ، وقد يدخل فقير بعض الربط ويخل بشىء من مراسم المتصوفة فينهر ويخرج ، وهذا خطأ كبير ؛ فقد يكون خلق من الصالحين والأولياء لايعرفون هذا الترسم الظاهر ويقصدون الرباط بنية صالحة ، فإذا استقبلوا بالمكروه يخشى أن تتشوش بواطنهم من الأذى ويدخل على المنكر عليه ضرر فى دينه ودنياه ؛ فليحذر ذلك وينظر إلى أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم وما كان يعتمده مع الخلق من المداراة والرفق . وقد صح : أن أعرابيا دخل المسجد وبال ، فأمر النبى عليه السلام حتى أتى بذنوب فصب على ذلك . لم ينهر الأعرابى ، بل رفق به وعرفه الواجب بالرفق واللين . والفظاظة والتغليظ والتسلط على المسلمين بالقول والفعل من النفوس الخبيثة وهو ضد حال المتصوفة، ومن دخل الرباط ممن لا يصلح للمقام به رأسا يصرف من الموضع على ألطف وجه بعد أن يقدم له طعام ويحسن له الكلام ، فهذا الذى يليق بسكان الرباط ، ومايعتمده الفقراء من تغميز القادم لخلق حسن ومعاملة صالحة وردت به السنة ، روى عمر رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلام له حبشى يغمز ظهره فقلت : يارسول الله ماشأنك ؟ فقال : « إن الناقة اقتحمت بى » ، فقد يحسن الرضا بذلك ممن يغمز فى وقت تعبه وقدومه من السفر ؛ فأما من يتخذ ذلك عادة ويحب التغميز ويستجلب به النوم ويساكنه حتى لايفوته فلا يليق بحال الفقراء ـ وإن كان فى الشرع جائز ـ وكان بعض الفقراء إذا استرسل فى الغمز واستلذه واستدعاه يحتلم ؛ فيرى ذلك الاحتلام عقوبة استرساله فى التغميز ، ولأرباب العزائم أمور لايسعهم فيها الركون إلى الرخص .

ومن آداب المقيم إذا استقر وقعد بعد قدومه أن لايبتدئ بالكلام دون أن يسئل ، ويستحب أن يمكث ثلاثة أيام لايقصد زيارة أو مشهدا أو غير ذلك مما هو مقصوده من المدينة حتى يذهب عنه وعثاء السفر ويعود باطنه إلى هيئته ، فقد يكون بالسفر وعوارضه تغير باطنه وتكدر حتى تجتمع فى الثلاثة أيام همته وينصلح باطنه ويستعد للقاء المشايخ والزيارات بتنوير الباطن ؛ فإن باطنه إذا كان منوراً يستز فى حظه من الخير من كل شيخ وأخ يزوره ، وقد كنت أسمع شيخنا يوصى الأصحاب ويقول : لاتكلموا أهل هذا الطريق إلا فى أصفى أوقاتكم ، وهذا فيه فائدة كبيرة ، فإن نور الكلام على قدر نور القلب ، ونور السمع على قدر نور القلب، فإذا دخل على شيخ أو أخ وزاره ينبغى أن يستأذنه إذا أراد الانصراف ؛ فقد روى عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا زار أحدكم أخاه فجلس عنده فلا يقومن حتى يستأذنه » ، وإن نوى أن يقيم أياما وفى وقته سعة ولنفسه إلى البطالة وترك العمل تشوف أن يطلب خدمة يقوم بها ، وإن كان دائم العمل لربه فيكفى بالعبادة شغلا لأن الخدمة لأهل العبادة تقوم مقام العبادة ، ولا يخرج من الرباط إلا بإذن المقدم فيه ، ولا يفعل شيئا دون أن يأخذ رأيه فيه .

فهذه جمل أعمال يعتمدها الصوفية وأرباب الربط ، والله تعالى بفضله يزيدهم توفيقا وتأديبا :

الباب التاسع عشر : فى حال الصوفى المتسبب

اختلف أحوال الصوفية فى الوقوف مع الأسباب والإعراض عن الأسباب ؛ فمنهم من كان على الفتوح لا يركن إلى معلوم ولا يتسبب بكسب ولا سؤال ؛ ومنهم من كان يكتسب ومنهم من كان يسأل فى وقت فاقته ، ولهم فى كل ذلك أدب وحد يراعونه ولا يتعدونه ، وإذا كان الفقير يسوس نفسه بالعلم يأتيه الفهم من الله تعالى فى الذى يدخل فيه من سبب أو ترك سبب ، فلا ينبغى للفقير أن يسأل مهما أمكن ؛ فقد حث النبى عليه الصلاة والسلام على ترك السؤال بالترغيب

والترهيب ، فأما الترغيب فما روى ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يضمن لى واحدة أتكفل له بالجنة » . قال ثوبان : قلت أنا قال « لاتسأل الناس شيئا » فكان ثوبان تسقط علاقة سوطه فلا يأمر أحدا يناوله وينزل هو ويأخذها . وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم « لأن يأخذ أحدكم حبلا فيحتطب على ظهره فيأكل ويتصدق خير له من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه ، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى » . أخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل الحافظ المقدسى قال : أخبرنى والدى قال أخبرنا أبو محمد الصيرفى ببغداد قال أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا على بن الجعد قال حدثنا شعبة عن أبى حمزة قال سمعت هلال بن حصين قال « أتيت المدينة فنزلت دار أبى سعيد فضمنى وإيا، المجلس فحدث أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام فأصبح وقد عصب على بطنه حجرا من الجوع ، فقالت لى امرأتى : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أتاه فلان فأعطاه وأتاه فلان فأعطاه قال . فأتيته وقلت ألتمس شيئا فذهبت أطلب فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ويقول « من يستعف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ، ومن سألنا شيئا فوجدناه أعطيناه وواسيناه ، ومن استعف عنه واستغنى فهو أحب إلينا ممن سألنا » قال فرجعت وما سألته فرزقنى الله تعالى حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منه .

وأما من حيث الترهيب والتحذير : فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله ، وليس فى وجهه مزعة لحم » وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذى ترده الأكلة والأكلتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لايسأل الناس ولا يفطن بمكانه فيعطى » هذا هو حال الفقير الصادق ، والمتصوف المحقق لايسأل الناس شيئا ، ومنهم من يلزم الأدب حتى يؤديه إلى حال يستحيى من الله تعالى أن يسأله شيئا من أمر الدنيا إذا همت النفس بالسؤال ترده الهيبة ويرى الإقدام على السؤال جراءة فيعطيه الله تعالى عند ذلك من غير سؤال ؛ كما نقل عن إبراهيم الخليل عليه السلام : أنه جاء جبريل وهو فى الهواء ، قبل أن يصل إلى النار فقال هل لك من حاجة ؟ فقال أما إليك فلا ، فقال له فسل ربك ، فقال حسبى من سؤالى علمه بحالى . وقد يضعف عن مثل هذا فيسأل الله عبودية ولا يرى سؤال المخلوقين ، فيسوق الله تعالى إليه القسم من غير سؤال مخلوق .

بلغنا عن بعض الصالحين أنه كان يقول إذا وجد الفقير نفسه مطالبة بشىء لاتخلو تلك المطالبة إما أن تكون لرزق يريد الله أن يسوقه إليه ، فتنبه النفس له ، فقد تتطلع نفوس بعض الفقراء إلى ماسوف يحدث وكأنها تخبر بما يكون ، وإما أن يكون ذلك عقوبة لذنب وجد منه ، فإذا وجد الفقير ذلك ، وألحت النفس بالمطالبة فليقم ويسبغ الوضوء ويصل ركعتين ويقول يارب إن كانت هذه المطالبة عقوبة ذنب فأستغفرك وأتوب إليك ، وإن كانت لرزق قدرته لى فعجل وصوله إلى ، فإن الله تعالى يسوقه إليه إن كان رزقه وإلا فتذهب المطالبة عن باطنه ، فشأن الفقير أن ينزل حوائجه بالحق ، فإما أن يرزقه الشىء أو الصبر أو يذهب ذلك عن قلبه ، فلله سبحانه وتعالى أبواب من طريق الحكمة وأبواب من طريق القدرة ، فإن فتح بابا من طريق الحكمة وإلا فيفتح بابا من طريق القدرة ويأتيه الشىء بخرق العادة ، كما كان يأتى مريم عليها السلام ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ﴾

حكى عن بعض الفقراء قال جعت ذات يوم وكان حالى أن لاأسأل ، فدخلت بعض المحال ببغداد مجتازا متعرضا لعل الله تعالى يفتح لى على يد بعض عباده شيئا فلم يقدر ، فنمت جائعا فأتى آت فى منامى فقال لى إذهب إلى موضع كذا ـ وعين الموضع ـ فثم خرقة زرقاء فيها قطيعات أخرجها فى مصالحك ، فمن تجرد عن المخلوقين وتفرد بالله فقد تفرد بغنى قادر لايعجزه شىء يفتح عليه من أبواب الحكمة والقدرة كيف شاء ، وأولى من سأل نفسه يسألها الصبر الجميل فإن الصادق تجيبه نفسه .

وحكى شيخنا رحمه الله تعالى أن ولده جاء إليه ذات يوم وقال له : أريد حبة ، قال : فقلت له : ماتفعل بالحبة ؟ فذكر شهوة يشتريها بالحبة ، ثم قال : عن إذنك أذهب وأستقرض الحبة ، قال : قلت نعم استقرضها من نفسك فهي أولى من أقرض . وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال :

إذا شئت أن تستقرض المال منفقا * على شهوات النفس فى زمن العسر

فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها * عليك وإرفاقا إلى زمن اليسر

فإن فعلت كنت الغنى وإن أبت * فكل منوع بعدها واسع العذر

فإذا استنفد الفقير الجهد من نفسه وأشرف على الضعف وتحققت الضرورة وسأل مولاه ولم يقدر له بشيء ووقته يضيق عن الكسب من شغله بحاله ، فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل ؛ فقد كان الصالحون يفعلون ذلك عند فاقتهم .

نقل عن أبى سعيد الخراز أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول ؛ ثم شيء لله .

ونقل عن أبى جعفر الحداد وكان أستاذا للجنيد أنه كان يخرج بين العشاءين ويسأل من باب أو بابين ، ويكون ذلك معلومه على قدر الحاجة بعد يوم أو يومين .

ونقل عن إبراهيم بن أدهم أنه كان معتكفا بجامع البصرة مدة وكان يفطر فى كل ثلاث ليال ليلة ، وليلة إفطاره يطلب من الأبواب .

ونقل عن سفيان الثورى أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل فى الطريق وقال : كنت أذكر لهم حديثا فى الضيافة فيقدم لى الطعام فأتناول حاجتى وأترك مابقى ، وقد ورد « من جاع ولم يسأل فمات دخل النار » ومن عنده علم وله مع الله حال لا يبالى بمثل هذا بل يسأل بالعلم ويمسك عن السؤال بالعلم .

وحكى بعض مشايخنا عن شخص كان مصرا على المعاصى ، ثم انتبه وتاب وحسنت توبته وصارله حال مع الله تعالى قال : عزمت أن أحج مع القافلة ونويت أن لا أسأل أحدا شيئا وأكتفى بعلم الله بحالى ، قال : فبقيت أياما فى الطريق ، ففتح الله على بالماء والزاد فى وقت الحاجة ، ثم وقف الأمر ولم يفتح الله على بشيء ، فجعت وعطشت حتى لم يبق لى طاقة ، فضعفت عن المشى وبقيت أتأخر عن القافلة قليلا قليلا حتى مرت القافلة ، فقلت فى نفسى : هذا الآن منى إلقاء النفس إلى التهلكة ، وقد منع الله من ذلك ، وهذه مسألة الاضطرار أسأل ، فلما هممت بالسؤال انبعث من باطنى إنكار لهذه الحال وقلت : عزيمة عقدتها مع الله لا أنقضها وهان على الموت دون نقض عزيمتى ، فقصدت شجرة وقعدت فى ظلها وطرحت رأسى استطراحا للموت وذهبت القافلة ، فبينا أنا كذلك إذ جاءنى شاب متقلد بسيف وحركنى ، فقمت وفى يده إداوة فيها ماء فقال لى : اشرب ؛ فشربت ثم قدم لى طعاما وقال : كل ، فأكلت ، ثم قال لى : أتريد القافلة ؛ فقلت : من لى بالقافلة وقد عبرت ! فقال لى : قم ، وأخذ بيدى ومشى معى خطوات ثم قال لى اجلس فالقافلة إليك تجىء ، فجلست ساعة فإذا أنا بالقافلة ورائى متوجهة إلى . هذا شأن من يعامل مولاه بالصدق .

وذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله : أن بعض الصوفية أول قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحل ماأكل المؤمن من كسب يده » بأنه المسألة عند الفاقة ، وأنكر الشيخ أبو طالب هذا التأويل من هذا الصوفى ، وذكر أن جعفر الخلدى كان يحكى هذا التأويل عن شيخ من شيوخ الصوفية ، ووقع لى والله أعلم أن الشيخ الصوفى لم يرد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب منه ، وإنما أراد بكسب اليد رفعها إلى الله تعالى عند الحاجة ، فهو من أحل مايأكله إذا أجاب الله سؤاله وساق إليه رزقه . وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿ رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : قال ذلك وإن خضرة البقل تتراءى فى بطنه من الهزال ، وقال محمد الباقر رحمه الله قالها وإنه محتاج إلى شق تمرة ، وروى عن مطرف أنه قال أما والله لو كان عند نبى الله شيء ما اتبع المرأة ولكن حمله على ذلك الجهد ، وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى عن النصراباذى أنه قال فى قول ﴿ إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ لم يسأل الكليم الخلق وإنما كان سؤاله من الحق ، ولم يسأل

غذاء النفس إنما أراد سكون القلب .

وقال أبو سعيد الخراز : الخلق مترددون بين مالهم وبين ما إليهم ، من نظر إلى ماله تكلم بلسان الفقر ، ومن شاهد ما إليه تكلم بلسان الخيلاء والفخر ، ألا ترى حال الكليم عليه السلام لما شاهد خواص ماخاطبه به الحق كيف قال : أرنى أنظر إليك ؟ ولما نظر إلى نفسه كيف أظهر الفقر وقال : إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ؟ وقال ابن عطاء نظر من العبودية إلى الربوبية فخشع وخضع ، وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من الأنوار ، افتقار العبد إلى مولاه فى جميع أحواله ، لاافتقار سؤال وطلب . وقال الحسين فقير لما خصصتنى من علم اليقين أن ترقينى إلى عين اليقين وحقه ، ووقع والله أعلم فى قوله ﴿ لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ أن الإنزال مشعر ببعد رتبته عن حقيقة القرب فيكون الإنزال عين الفقر فما قنع بالمنزل وأراد قرب المنزل ، ومن صح فقره ففقره فى أمر آخرته كفقره فى أمر دنياه ، ورجوعه إليه فى الدارين وإياه يسأل حوائج المنزلين ، وتتساوى عنده الحاجتان فماله مع غير الله شغل فى الدارين .

الباب العشرون : فى ذكر من يأكل من الفتوح

إذا كمل شغل الصوفى بالله وكمل زهده لكمال تقواه بحكم الوقت عليه يترك التسبب وينكشف له صريح التوحيد وصحة الكفالة من الله الكريم ، فيزول عن باطنه الاهتمام بالأقسام ويكون مقدمة هذا أن يفتح الله له بابا من التعريف بطريق المقابلة على كل فعل يصدر منه حتى لو جرى عليه يسير من ذنب بحسب حاله أو الذنب مطلقا بما هو منهى عنه فى الشرع يجد غب ذلك فى وقته أو يومه ، كان يقول بعضهم إنى لأعرف ذنبى فى سوء خلق غلامى ، وقيل إن بعض الصوفية قرض الفار خفه فلما رآه تألم وقال .

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ٭ بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إشارة منه إلى أن الداخل عليه مقابلة له على شىء استوجب به ذلك ، فلا تزال به المقابلات متضمنة التعريفات الإلهية حتى يتحصن بصدق المحاسبة وصفاء المراقبة عن تضييع حقوق العبودية ومخالعة حكم الوقت ، ويتجرد له حكم فعل الله وتنمحى عنده أفعال غير الله فيرى المعطى والمانع هو الله سبحانه ذوقا وحالا لاعلما وإيمانا ، ثم يتداركه الحق تعالى بالمعونة ويوقفه على صريح التوحيد وتجريد فعل الله تعالى ، كما حكى عن بعضهم أنه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قنبرة عمياء عرجاء ضعيفة فوقف متعجبا منها متفكرا فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والمشى والرؤية ، فبينما هو كذلك إذ انشقت الأرض وخرجت سكرجتان فى إحداهما سمسم نقى وفى الأخرى ماء صافى فأكلت من السمسم وشربت من الماء ثم انشقت الأرض وغابت السكرجتان ، قال فلما رأيت ذلك سقط عن قلبى الاهتمام بالرزق فإذا أوقف الحق عبده فى هذا المقام يزيل عن باطنه الاهتمام بالأقسام ويرى الدخول فى التسبب والتكسب بالسؤال وغيره رتبة العوام ويصير مسلوب الاختيار غير متطلع إلى الأغيار ناظرا إلى فعل الله تعالى منتظرا لأمر الله فتساق إليه الأقسام ويفتح عليه باب الإنعام ، ويكون بدوام ملاحظته لفعل الله وترصده مايحدث من أمر الله تعالى مكاشفا له تجليات من الله تعالى بطريق الأفعال ، والتجلى بطريق الأفعال رتبة من القرب ومنه يترقى إلى التجلى بطريق الصفات ، ومن ذلك يترقى إلى تجلى الذات والإشارة فى هذه التجليات إلى رتب فى اليقين ومقامات فى التوحيد شىء فوق شىء وشىء أصفى من شىء ، فالتجلى بطريق الأفعال يحدث صفو الرضا والتسليم ، والتجلى بطريق الصفات يكسب الهيبة والأنس ، والتجلى بالذات يكسب الفناء والبقاء ، وقد يسمى ترك الاختيار والوقوف مع فعل الله فناء يعنون به فناء الإرادة ، والهوى والإرادة ألطف اقسام الهوى ، وهذا الفناء هو الفناء الظاهر ، فأما الفناء الباطن وهو محو آثار الوجود عند لمعان نور الشهود يكون فى تجلى الذات وهو أكمل أقسام اليقين فى الدنيا ، فأما تجلى حكم الذات فلا يكون إلا فى الآخرة وهو المقام الذى حظى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ومنع عنه موسى

بل ترانى ، فليعلم أن قولنا فى التجلى إشارة إلى رتب الحظ من اليقين ورؤية البصيرة فإذا وصل العبد إلى مبادى أقسام التجلى وهو مطالعة الفعل الإلهى مجردا عن فعل سواه يكون تناوله الأقسام من الفتوح . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من وجه إليه شيء من هذا الرزق من غير مسئلة ولا إشراف فليأخذه وليوسع به فى رزقه فإن كان عنده غنى فليدفعه إلى من هو أحوج منه » وفى هذا دلالة ظاهرة على أن العبد يجوز أن يأخذ زيادة على حاجته بنية صرفه إلى غيره ، وكيف لا يأخذ وهو يرى فعل الله تعالى ؟ ثم إذا أخذ فمنهم من يخرجه إلى المحتاج ومنهم من يقف فى الاخراج أيضا حتى يرد عليه من الله علم خاص ليكون أخذه بالحق وإخراجه بالحق .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر قال : أخبرنا والدى الحافظ أبو الفضل المقدسى قال : أخبرنا أبو إسحق بن سعيد الحبال قال : أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن سعيد قال : أخبرنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن عمرو قال : أخبرنا يونس ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب قال : حدثنا عمرو بن الحارث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد عن حويطب ابن عبد العزى عن عبيد الله السعدى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينى العطاء فأقول له أعطه يارسول الله من هو أفقر منى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذه فتموله أو تصدق به وماجاءك من هذا المال وأنت غير متشرف ولا سائل فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك » قال سالم : فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا ولا يرد شيئا أعطيه . درج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصحاب بأوامره إلى رؤية فعل الله تعالى والخروج من تدبير النفس إلى حسن تدبير الله تعالى .

سئل سهل بن عبد الله التسترى عن علم الحال قال : هو ترك التدبير ولو كان هذا فى واحد لكان من أوتاد الأرض وروى زيد بن خالد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله فإنما هو شيء من رزق الله تعالى ساقه الله إليه » .

وهذا العبد الواقف مع الله تعالى فى قبول ماساقالحق آمن مايخشى عليه ، إنما يخشى على من يرد ، لأن من رد لا يأمن من دخول النفس عليه أن يرى بعين الزهد ، فنى أخذه إسقاط نظر الخلق تحققا بالصدق والإخلاص ، وفى إخراجه إلى الغير إثبات حقيقته ، فلا يزال فى كلا الحالين زاهدا رأى الغير بعين الرغبة لقلة العلم بحاله ، وفى هذا المقام يتحقق الزهد فى الزهد ، ومن أهل الفتوح من يعلم دخول الفتوح عليه ، ومنهم من لا يعلم دخول الفتوح عليه ، فمنهم من لا يتناول من الفتوح إلا إذا تقدمه علم بتعريف من الله إياه ، ومنهم من يأخذ غير متطلع إلى تقدم العلم حيث تجرد له الفعل ، ومن لا ينتظر تقدمة العلم فوق من ينتظر تقدمة العلم لتمام صحبته مع الله وانسلاخه من إرادته وعلم حاله فى ترك الاختيار ومنهم من يدخل الفتوح عليه لا بتقدمة العلم ولا رؤية تجرد الفعل من الله ، ولكن يرزق شربا من المحبة بطريق رؤية النعمة ، وقد يتكدر شربه هذا بتغير معهود النعمة ، وهذا حال ضعيف بالإضافة إلى الحالين الأولين لأنه علة فى المحبة وولجة فى الصدق عند الصديقين . وقد ينتظر صاحب الفتوح العلم فى الإخراج أيضا كما ينتظر فى الأخذ لأن النفس تظهر فى الإخراج كما تظهر فى الأخذ . وأتم من هذا من يكون فى إخراجه مختارا وفى أخذه مختارا بعد تحققه بصحة التصرف فإن انتظار العلم إنما كان لموضع اتهام النفس وهو بقية هوى موجود فإذا زال الاتهام بوجود صريح العلم بأخذ غير محتاج إلى علم متجدد ويخرج كذلك ، وهذه حال من تحقق بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه « فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ، فبى يسمع وبى يبصر ، وبى ينطق » الحديث فلما صح تعرفه صح تصرفه ، وهذا أعز فى الأحوال من الكبريت الأحمر . وكان شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله يحكى عن الشيخ حماد الدباس أنه كان يقول : أنا لا آكل إلا من طعام الفضل فكان يرى الشخص فى المنام أن يحمل إليه شيئا وقد كان يعين للرائى فى المنام أن احمل إلى حماد كذا وكذا . وقيل إنه بقى زمانا يرى هو فى واقعته أو منامه إنك أحلت على فلان بكذا وكذا . وحكى عنه أنه كان يقول : كل جسم تربى بطعام الفضل لا يتسلط عليه البلاء . ويعنى بطعام الفضل ما شهد له بصحة الحال من فتوح الحق ومن كانت هذه حالته فهو غنى بالله .

قال الواسطى : الافتقار إلى الله أعلى درجة المريد والاستغناء بالله أعلى درجة الصديقين . وقال أبو سعيد الخراز : العارف تدبيره فنى فى تدبير الحق فالواقف مع الفتوح واقف مع الله ناظر إلى الله ، وأحسن ما حكى فى هذا : أن بعضهم رأى النورى يمد يده ويسأل الناس ؛ قال : فاستعظمت ذلك منه واستقبحته له فأتيت الجنيد وأخبرته فقال لى لا يعظم هذا عليك فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم سؤلهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضره وقول الجنيد ليعطيهم كقول بعضهم اليد العليا يد الآخذ لأنه يعطى الثواب ، قال : ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال احملها إليه فقلت فى نفسى إنما يزن ليعرف مقدارها فكيف خلط المجهول بالموزون وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرة إلى النورى فقال : هات الميزان فوزن مائة درهم وقال : ردها وقل له أنا لا أقبل منك شيئا وأخذ مازاد على المائة قال : فزاد تعجبى فسألته عن ذلك ، فقال : الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا للثواب وطرح عليها قبضة بلا وزن لله فأخذت ما كان لله ورددت ما جعله لنفسه ، قال : فرددتها على الجنيد فبكى وقال : أخذ ماله ورد مالنا ، ومن لطائف ما سمعت من أصحاب شيخنا أنه قال ذات يوم لأصحابه : نحن محتاجون إلى شىء من المعلوم فارجعوا إلى خلواتكم واسألوا الله تعالى وما يفتح الله تعالى لكم ائتونى به ففعلوا ثم جاءه من بينهم شخص يعرف باسمعيل البطائحى ومعه كاغد عليه ثلاثون دائرة وقال هذا الذى فتح الله لى فى واقعتى فأخذ الشيخ الكاغد فلم يكن إلا ساعة فإذا بشخص دخل ومعه ذهب فقدمه بين يدى الشيخ ففتح القرطاس وإذا هو ثلاثون صحيحة فترك كل صحيح على دائرة وقال : هذا فتوح الشيخ إسماعيل أو كلاما هذا معناه . وسمعت الشيخ عبد القادر رحمه الله بعث إلى شخص وقال : لفلان طعام وذهب ائتنى من ذلك بكذا ذهبا وكذا طعاما ، فقال الرجل : كيف أتصرف فى وديعة عندى ولو استفتيتك ما أفتيتنى بالتصرف ؟ فألزمه الشيخ بذلك فأحسن الظن بالشيخ وجاء إليه بالذى طلب ، فلما وقع التصرف منه جاءه مكتوب من صاحب الوديعة وهو غائب فى بعض نواحى العراق أن احمل إلى الشيخ عبد القادر كذا وكذا وهو القدر الذى عينه الشيخ عبد القادر ، فعاتبه الشيخ بعد ذلك على توقفه وقال ظننت بالفقراء أن إشاراتهم تكون على غير صحة وعلم فالعبد إذا صح مع الله تعالى وأفنى هواه متطلبا رضا الله تعالى يرفع الله عن باطنه هموم الدنيا ويجعل الغنى فى قلبه ويفتح عليه أبواب الرفق ، وكل الهموم المتسلطة على بعض الفقراء لكون قلوبهم ما استكملت الشغل بالله والاهتمام برعاية حقائق العبودية ، فعلى قدر ما خلت من الهم بالله ابتليت بهم الدنيا ولو امتلأت من هم الله ما عذبت بهموم الدنيا وقنعت وارتقت ، روى أن عوف بن عبد الله المسعودى كان له ثلثمائة وستون صديقا وكان يكون عند كل واحد يوما ، وآخر كان له ثلاثون صديقا يكون عند كل واحد يوما ، وآخر كان له سبعة إخوان يكون كل يوم من الأسبوع عند واحد ؛ فكان إخوانهم معلومهم والمعلوم إذا أقامه الحق للناظر إلى الله الكامل توحيده يكون نعمة هنيئة . جاء رجل إلى الشيخ أبى السعود رحمه الله ــ وكان من أرباب الأحوال السنية والواقفين فى الأشياء مع فعل الله تعالى متمكنا من حاله تاركا لاختياره ؛ ولعله سبق كثيرا من المتقدمين فى تحقيق ترك الاختيار ، رأينا منه وشاهدنا أحوالا صحيحة عن قوة وتمكين ــ فقال له الرجل أريد أن أعين لك شيئا كل يوم من الخبز أحمله إليك ولكنى قلت الصوفية يقولون المعلوم شؤم قال الشيخ نحن ما نقول المعلوم شؤم فإن الحق يصنى لنا وفعله نرى فكل ما يقسم لنا نراه مباركا ولا نراه شؤما . أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنبأنا أبو بكر بن أحمد بن خلف الشيرازى إجازة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت أبا بكر بن شاذان قال سمعت أبا بكر الكتانى قال كنت أنا وعمرو المكى وعياش بن المهدى نصطحب ثلاثين سنة نصلى الغداة على طهر العصر ، وكنا قعودا بمكة على التجريد ما لنا على الأرض ما يساوى فلسا ؛ وربما كان يصحبنا الجوع يوما ويومين وثلاثة وأربعة وخمسة ولا نسأل أحدا فإن ظهر لنا شىء وعرفنا وجهه من غير سؤال ولا تعريض قبلناه وأكلناه وإلا طوينا ؛ فإذا اشتد بنا الأمر وخفنا على أنفسنا النقصان فى الفرائض قصدنا أبا سعيد الخراز فيتخذ لنا ألوانا من الطعام ولا نقصد غيره ولا ننبسط إلا إليه لما نعرف من تقواه

وورعه ، وقيل لأبي يزيد : ما نراك تشتغل بكسب فمن أين معاشك ؟ فقال : مولاي يرزق الكلب والخنزير تراه لا يرزق أبا يزيد ؟ قال السلمي : سمعت أبا عبد الله الرازي يقول سمعت مظفراً القرميسيني يقول: الفقير الذي لا يكون له إلى الله حاجة ، وقيل لبعضهم ما الفقر ؟ قال : وقوف الحاجة على القلب ومحوها من كل أحد سوى الرب .

وقال بعضهم : أخذ الفقير الصدقة ممن يعطيه لا ممن تصل إليه على يديه ، ومن قبل من الوسائط فهو المترسم بالفقر مع دناءة همته ، أنبأنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي قال : أخبرنا عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أحمد بن علي بن جعفر يقول : سمعت أن أبا سليمان الداراني كان يقول : آخر أقدام الزاهدين أول أقدام المتوكلين ، روى أن بعض العارفين زهد فبلغ من زهده أن فارق الناس وخرج من الأمصار وقال : لا أسأل أحدا شيئاً حتى يأتيني رزق فأخذ يسيح فأقام في سفح جبل سبعاً لم يأته شيء حتى كاد أن يتلف فقال : يارب إن أحييتني فأتني برزق الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك فألهمه الله تعالى في قلبه وعزتي وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقيم بين الناس ، فدخل المدينة وأقام بين ظهراني الناس فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب فأوجس في نفسه من ذلك فسمع هاتفاً أردت أن تبطل حكمته بزهدك في الدنيا ، أما علمت أن يرزق العباد بأيدي العباد أحب إليه من أن يرزقهم بأيدي القدرة فالواقف مع الفتوح استوى عنده أيدي الآدميين وأيدي الملائكة واستوى عنده القدرة والحكمة وطلب القفار والتوصل إلى قطع الأسباب من الارتياح برؤية الأسباب وإذا صح التوحيد تلاشت الأسباب في عين الإنسان أخبرنا شيخنا قال أخبرنا أبو حفص عمر قال أخبرنا أحمد بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال أخبرنا محمد بن أحمد بن حمدان العكبري قال سمعت أحمد بن محمود بن البسري يقول سمعت محمداً الإسكاف يقول سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول : من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين ، قال بعض المنقطعين كنت ذا صنعة جليلة فأريد مني تركها لحالك في صدري من أين المعاش ؟ فهتف بي هاتف لا أراه تنقطع إلى وتتهمني في رزقك على أن أخدمك ولياً من أوليائي أو أسخر لك منافقاً من أعدائي ، فلما صح حال الصوفي وانقطعت أطاعه وسكنت عن كل تشوف وتطلع خدمته الدنيا ، وصلحت له الدنيا خادمة وما رضيها مخدومة ، فصاحب الفتوح يرى حركة النفس بالتشوف جناية وذنبا .

روى أن أحمد بن حنبل خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقاً ولم يكن في ذلك الموضع من يحمله فوافى أيوب الجمال فحمله ودفع إليه أحمد أجرته فلما دخل الدار بعد إذنه له اتفق أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشف فرآه أيوب وكان يصوم الدهر ، فقال أحمد لابنه صالح ادفع إلى أيوب من الخبز فدفع له رغيفين فردهما ، قال أحمد ضعهما ثم صبر قليلا ثم قال خذهما فأخذهما فرجع صالح متعجبا فقال له أحمد تعجبت من رده وأخذه ؟ قال نعم ، قال هذا رجل صالح فرأى الخبز فاستشرفت نفسه إليه فلما أعطيناه مع الاستشراف رده ثم أيس فرددناه إليه بعد الإياس فقبل هذا حال أرباب الصدق إن سألوا سألوا بعلم وإن أمسكوا عن السؤال أمسكوا بحال ، وإن قبلوا قبلوا بعلم فمن لم يرزق حال الفتوح فله حال السؤال والكسب بشرط العلم فأما السائل مستكثراً فوق الحاجة لا في وقت الضرورة فليس من الصوفية بشيء سمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل فقال لمن عنده ألم أقل لك عش السائل ؟ فقال قد عشيته ؛ فنظر عمر فإذا تحت إبطه مخلاة مملوءة خبزا ؛ فقال عمر ألك عيال ؟ فقال لا ، فقال عمر لست بسائل ولكنك تاجر ، ثم نثر مخلاته بين يدي أهل الصدقة وضربه بالدرة وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال إن الله تعالى في خلقه مثوبات فقر وعقوبات فقر ، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن خلقه ويطيع ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علامة الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء خلقه ويعصي ربه ويكثر الشكاية ويتسخط للقضاء فحال الصوفية حسن الأدب في السؤال ، والفتوح والصدق مع الله على كل حال كيف تقلب .

الباب الحادى والعشرون

فى شرح حال المتجرد والمتأهل من الصوفية وصحة مقاصدهم

الصوفى يتزوج لله كما يتجرد لله ، فلتجرده مقصد وأوان ، ولتأهله مقصد وأوان . والصادق يعلم أوان التجرد والتأهل لأن الطبع الجموح للصوفى ملجم بلجام العلم . مهما يصلح له التجرد لايستعجله الطبع إلى التزوج ولا يقدم على التزوج إلا إذا انصلحت النفس واستحقت إدخال الرفق عليها ؛ وذلك إذا صارت منقادة مطواعة مجيبة إلى مايراد منها بمثابة الطفل الذى يتعاهد بما يروق له ويمنع عما يضره . فإذا صارت النفس محكومة مطواعة فقد فاءت إلى أمر الله وتنصلت عن مشاحة القلب فيصلح بينهما بالعدل وينظر فى أمرهما بالقسط . ومن صبر من الصوفية على العزوبة هذا الصبر إلى حين بلوغ الكتاب أجله ينتخب له الزوجة انتخابا ويهيئ الله له أعوانا وأسبابا وينعم برفيق يدخل عليه ورزق يساق إليه ومتى استعجل المريد واستفزه الطبع وخامره الجهل بثوران دخان الشهوة المطفئة لشعاع العلم وانحط من أوج العزيمة الذى هو قضية حاله وموجب إرادته وشريطة صدق طلبه إلى حضيض الرخصة التى هى رحمة من الله تعالى لعامة خلقه يحكم عليه بالنقصان ويشهد له بالخسران ومثل هذا الاستعجال هو حضيض الرجال . قال سهل بن عبد الله التسترى : إذا كان للمريد مال يتوقع به زيادة فدخل عليه الابتلاء فرجوعه فى الابتلاء إلى حال دون ذلك نقصان وحدث . وسمعت بعض الفقراء ، وقد قيل له : لم لاتتزوج ؟ فقال : المرأة لاتصلح إلا للرجال وأنا مابلغت مبلغ الرجال فكيف أتزوج ؟ فالصادقون لهم أوان بلوغ عنده يتزوجون .

وقد تعارضت الأخبار وتماثلت الآثار فى فضيلة التجريد والتزويج وتنوع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك لتنوع الأحوال ، فمنهم من فضيلته فى التجريد ، ومنهم من فضيلته فى التأهل ،وكل هذا التعارض فى حق من نار توقانه برد وسلام لكمال تقواه وقهره هواه ، وإلا فى غير هذا الرجل الذى يجب عليه الفتنة يجب النكاح فى حال التوقان المفرط ويكون الخلاف بين الأئمة فى غير التائق فالصوفى إذا صار متأهلا يتعين على الإخوان معاونته بالإيثار ومساعته فى الاستكثار إذا رؤى ضعيف الحال قاصرا عن رتبه الرجال كما وصفنا من صبر حتى ظفر لما بلغ الكتاب أجله ، أخبرنا أبو زرعه عن والده أبى الفضل المقدسى الحافظ قال : أخبرنا أبو محمد عبدالله بن محمد الخطيب قال أخبرنا أبو الحسين محمد بن عبدالله بن أخى ميمى قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز ، قال : حدثنا محمد بن هرون قال : أنبأنا المغيرة قال حدثنا صفوان بن عمرو قال حدثنا عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن عوف بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه فىء قسمه فى يومه فأعطى المتأهل حظين والعزب حظا واحد ؛ فدعينا وكنت ادعى قبل عمار بن ياسر فأعطانى حظين ، وأعطاه حظا واحدا فسخط حتى عرف ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه ومن حضره ، فبقيت معه سلسلة من ذهب فجعل رسول الله صلى الله عايه وسلم يرفعها بطرف عصاه وتسقط وهو يقول « كيف أنتم يوم يكثر لكم من هذا ؟ » فلم يجبه أحد ، فقال عمار ؛ وددنا يارسول الله لو قد أكثر لنا من هذا ؛ فالتجرد عن الأزواج والأولاد اعون على الوقت للفقير وأجمع لهمه وألذ لعيشه ويصلح للفقير فى ابتداء أمره قطع العلائق ومحو العوائق والتنقل فى الأسفار وركوب الأخطار والتجرد عن الأسباب والخروج عن كل مايكون حجابا ، والتزوج انحطاط من العزيمة إلى الرخص ورجوع من التروح إلى النغص وتقيد بالأولاد والأزواج ودوران حول مظان الاعوجاج والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة وانعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة ، قال أبو سليمان الدارانى : ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا ، من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث ، وقال : ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته . أخبرنا الشيخ طاهر قال أخبرنا والدى أبو الفضل قال أخبرنا محمد بن إسمعيل المقرى قال أخبرنا أحمد بن الحسن قال أخبرنا حاجب الطوسى قال حدثنا عبدالرحيم قال حدثنا الفزارى عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم « ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » وروى رجاء بن حيوة عن معاذ بن جبل ، قال ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر وإن أخوف ماأخاف عليكم فتنة النساء إذا تسورن بالذهب ولبسن ربط الشام وعصب اليمن وأتعبن الغنى وكلفن الفقير مالايجد ، وقال بعض الحكماء معالجة العزوبة خير من معالجة النساء ، وسئل سهل بن عبد الله عن النساء فقال : الصبر عنهن خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار . وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ خلق الإنسان ضعيفا ﴾ لأنه لايصبر عن النساء وقيل فى قوله تعالى ﴿ ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به ﴾ الغلمة .

فإن قدر الفقير على مقاومة النفس ورزق العلم الوافر بحسن المعاملة فى معالجة النفس وصبر عنهن فقد حاز الفضل واستعمل العقل ، واهتدى إلى الأمر السهل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ ، قيل يارسول الله وماخفيف الحاذ ؟ قال : الذى لا أهل له ولا ولد ، وقال بعض الفقراء - لما قيل له تزوج - أنا إلى أن أطلق نفسى أحوج منى إلى التزوج ، وقيل لبشر بن الحارث : إن الناس يتكلمون فيك فقال : مايقولون ؟ قيل : يقولون إنه تارك للسنة - يعنى النكاح - فقال : قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة . وكان يقول : لوكنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلادا على الجسر .

والصوفى مبتلى بالنفس ومطالبها وهو فى شغل شاغل عن نفسه ، فإذا انضاف إلى مطالبات نفسه مطالبات زوجته يضعف طلبه وتكل إرادته وتفتر عزيمته . والنفس إذا أطمعت طمعت ، وإذا أقنعت قنعت ، فيستعين الشاب الطالب على حسم مواد خاطر النكاح بإدامة الصوم ، فإن للصوم أثرا ظاهرا فى قمع النفس وقهرها ، وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر بجماعة من الشبان وهم يرفعون الحجارة فقال « يامعشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء ، أصل الوجاء رض الخصيتين ، كانت العرب تجأ الفحل من الغنم لتذهب فحولته ويسمن ، ومنه الحديث : ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين موجوءين ، وقد قيل هى النفس إن لم تشغلها شغلتك ، فإذا أدام الشاب المريد العمل وأداب نفسه فى العبادة تقل عليه خواطر النفس ، وأيضا شغله بالعبادة يثمر له حلاوة المعاملة ، ومحبة الإكثار منه ، ويفتح عليه باب السهولة والعيش فى العمل فيغار على حاله ووقته أن يتكدر بهم الزوجة

ومن حسن أدب المريد فى عزوبته أن لايمكن خواطر النساء من باطنه ، وكلما خطر له خاطر النساء والشهوة يفر إلى الله تعالى بحسن الإنابة فيتداركه الله تعالى حينئذ بقوة العزيمة ويؤيده بمراغمة النفس ؛ بل ينعكس على نفسه نور قلبه ثوابا لحسن إنابته فتسكن النفس عن المطالبة ، ثم يعرض على نفسه مايدخل عليه بالنكاح من الدخول فى المداخل المذمومة المؤدية إلى الذل والهوان ، وأخذ الشىء من غير وجهه ، ومايتوقع من القواطع بسبب التفات الخاطر إلى ضبط المرأة وحراستها والكلف التى لاتنحصر . وقد سئل عبد الله بن عمر عن جهد البلاء فقال : كثرة العيال وقلة المال وقد قيل كثرة العيال أحد الفقرين ، وقلة العيال أحد اليسارين . وكان إبراهيم بن أدهم يقول : من تعود أفخاذ النساء لايفلح ولاشك أن المرأة تدعو إلى الرفاهية والدعة ، وتمنع عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ويتسلط على الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار ، وكل هذا بعيد عن المتجرد ، وقد ورد « إذا كان بعد المائتين أبيحت العزوبة لأمتى » فإن توالت على الفقير خواطر النكاح ، وزاحمت باطنه سيما فى الصلاة والأذكار والتلاوة فليستعن بالله أولا ثم بالمشايخ والإخوان ، ويشرح الحال لهم ويسألهم مسألة الله له فى حسن الاختيار ، ويطوف على الأحياء والأموات والمساجد والمشاهد ويستعظم الأمر ولايدخل فيه بقلة الاكتراث فإنه باب فتنة كبيرة وخطر عظيم وقد قال الله تعالى ﴿ إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم ﴾ ويكثر الضراعة إلى الله تعالى ويكثر البكاء بين يديه فى الخلوات ويكرر الاستخارة ، وإن رزق القوة والصبر حتى يستبين له من فضل الله الخيرة فى ذلك فهو الكمال والتمام ؛ فقد يكشف الله تعالى للصادق ذلك منعا أو إطلاقا فى منامه ، أو يقظته ، أو على لسان من يثق إلى دينه ، وحاله أنه إذا

أشار لايشير إلا على بصيرة ، وإذا حكم لايحكم إلا بحق فعند ذلك يكون تزوجه مدبرا معانا فيه. وسمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلى قال له بعض الصالحين : لم تزوجت ؟ فقال : ماتزوجت حتى قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوج ؛ فقال له ذلك الرجل : الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخص وطريق القوم التلزم بالعزيمة . فلا أعلم ما قال الشيخ فى جوابه ولكنى أقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخصة وأمره على لسان الشرع ، فأما من التجأ إلى الله تعالى وافتقر إليه واستخاره فيكاشفه الله بتنبيهه إياه فى منامه ، وأمره هذا لايكون أمر رخصة بل هو أمر يتبعه أرباب العزيمة لأنه من علم الحال لامن علم الحكم ، ويدل على صحة ماوقع لى ـ ما نقل عنه ـ أنه قال: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أجترئ على التزوج خوفا من تكدير الوقت فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله لى أربع زوجات مافيهن إلا من تنفق على إراده ورغبة ، فهذه ثمرة الصبر الجميل الكامل فإذا صبر الفقير وطلب الفرج من الله يأتيه الفرج والمخرج ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ﴾ فإذا تزوج الفقير بعد الاستقصاء والإكثار من الضراعة والدعاء وورد عليه وارد من الله تعالى بإذن فيه فهو الغاية والنهاية . وإن عجز عن الصبر إلى ورود الإذن واستنفد جهده فى الدعاء والضراعة فقد يكون ذلك حظه من الله تعالى ، ويعان عليه لحسن نيته وصدق مقصده ، وحسن رجائه واعتماده على ربه ، وقد نقل عن عبدالله بن عباس أنه قال : لايتم نسك الشاب حتى يتزوج . ونقل عن شيخ من مشايخ خراسان أنه كان يكثر التزوج حتى لم يكن يخلو عن زوجتين أو ثلاث ؛ فعوتب فى ذلك فقال : هل يعرف أحدمنكم أنه جلس بين يدى الله تعالى جلسة أو وقف وقفة فى معاملته فخطر على قلبه خاطر شهوة ؟ فقالوا : قديصيبنا ذلك ، فقال : لورضيت فى عمرى كله بمثل حالكم فى وقت واحد ماتزوجت قط ، ولكنى ماخطر على قلبي خاطر شهوة قط شغلنى عن حالى إلا انفذته لأستريح منه وأرجع إلى شغلى ، ثم قال منذ أربعين سنة ماخطر على قلبي خاطر معصية ، فالصادقون مادخلوا فى النكاح إلا على بصيرة وقصدوا حسم مواد النفس وقد يكون للأقوياء والعلماء الراسخين فى العلم أحوال فى دخولهم فى النكاح تختص بهم وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والمراقبات والرياضات تطمئن نفوسهم وتقبل قلوبهم ، وللقلوب إقبال وإدبار

يقول بعضهم : إن للقلوب إقبالا وإدبارا ، فإذا أدبرت روحت بالإرفاق ، وإذا أقبلت ردت إلى الميثاق فتبقى قلوبهم دائمة الإقبال إلا اليسير . ولايدوم إقبالها إلا لطمأنينة النفوس وكفها عن المنازعة، وترك التشبث فى القلوب فإذا اطمأنت النفوس واستقرت عن طيشها ونفورها وشراستها توفرت عليها حقوقها ، وربما يصير من حقوقها حظوظها . لأن فى أداء الحق إقناعا ، وفى أخذ الحظ اتساعا ، وهذا من دقيق علم الصوفية ، فإنهم يتسعون بالنكاح المباح إيصالا إلى النفس حظوظها لأنها مازالت تخالف هواها حتى صار داؤها دواءها ، وصارت الشهوات المباحة واللذات المشروعة لاتضرها ولاتفتر عليها عزائمها ، بل كلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها ازداد القلب انشراحا وانفساحا ، ويصير بين القلب والنفس موافقة يعطف أحدهما على الآخر ويزداد كل واحد منهما بما يدخل على الآخر من الحظ ، كلما أخذ القلب حظه من الله خلع على النفس خلع الطمأنينة فيكون مزيد السكينة للقلب مزيد الطمأنينة للنفس وينشد :

إن السماء إذا اكتست كست الثرى * حللا يدبجها الغمام الراهم

وكلما أخذت النفس حظها تروح القلب تروح الجار المشفق براحة الجار . سمعت بعض الفقراء يقول: النفس تقول للقلب كن معى فى الطعام أكن معك فى الصلاة ، وهذا من الأحوال العزيزة لاتصلح إلا لعالم ربانى، وكم من مدع يهلك بتوهمه هذا فى نفسه ، ومثل هذا العبد يزداد بالنكاح ولاينقص : والعبد إذا كمل دلمه يأخذ من الأشياء ولا تأخذ الأشياء منه ، وقد كان الجنيد يقول : أنا أحتاج إلى الزوجة كما أحتاج إلى الطعام .

وسمع بعض العلماء بعض الناس يطعن فى الصوفية فقال : ياهذا ما الذى ينقصهم عندك ؟ فقال : يأكلون كثيرا ،

فقال : وأنت أيضا لو جعت كما يجوعون أكلت كما يأكلون . ثم قال : ويتزوجون كثيراً ، قال : وأنت أيضا لو حفظت فرجك كما يحفظون تزوجت كما يتزوجون ، قال وأى شيء أيضا ؟ قال : يسمعون القول ، قال وأنت أيضا لو نظرت كما ينظرون سمعت كما يسمعون .

وكان سفيان بن عيينة يقول : كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية ، وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول : خير هذه الأمة أكثرها نساء . وقد ذكر فى أخبار الأنبياء أن عابدا تبتل للعبادة حتى فاق أهل زمانه فذكر لنبي ذلك الزمان فقال : نعم الرجل لولا أنه تارك لشيء من السنة ؛ فنمى ذلك إلى العابد فأهمه فقال : ما تنفعنى عبادتى وأنا تارك السنة ؛ فجاء إلى النبي عليه السلام فسأله فقال : نعم إنك تارك التزوج ؛ فقال ما تركته لأنى أحرمه وما منعنى منه إلا أنى فقير لا شيء لى وأنا عيال على الناس يطعمنى هذا مرة وهذا مرة فأكره أن أتزوج بامرأة أعضلها أو أرهقها جهدا ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : وما يمنعك إلا هذا ؟ قال : نعم فقال : أنا أزوجك ابنتى فزوجه النبي عليه السلام ابنته وكان عبد الله بن مسعود يقول لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام أحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزبا وما ذكر الله تعالى فى القرآن من الأنبياء إلا المتأهلين . وقيل إن يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوج لأجل السنة ولم يكن يقربها وقيل إن عيسى عليه السلام سينكح إذا نزل إلى الأرض ويولد له . وقيل إن ركعة من متأهل خير من سبعين ركعة من عزب أخبرنا الشيخ طاهر بن أبى الفضل قال أخبرنا أبو منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الهيثم المقومى القزوينى قال أخبرنا أبو طلحة القاسم ابن أبى البدر الخطيب قال حدثنا أبو الحسن على بن إبراهيم بن سلمة القطان قال حدثنا أبو عبد الله بن محمد بن يزيد بن ماجه قال حدثنا أحمد بن الأزهر قال حدثنا آدم قال حدثنا عيسى بن ميمون عن القاسم عن عائشة رضى الله عنه قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النكاح سنتى فمن لم يعمل بسنتى فليس منى فتزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم ، ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعليه بالصيام ، فإن الصوم له وجاء » ومما ينبغى للمتأهل أن يحذر من الإفراط فى المخالطة والمعاشرة مع الزوجة إلى حد ينقطع عن أوراده وسياسة أوقاته ، فإن الإفراط فى ذلك يقوى النفس وجنودها ويفتر ناهض الهمة وللمتأهل بسبب الزوجة فتنتان فتنة لعموم وفتنة لخصوص حاله ففتنة عموم حاله الإفراط فى الاهتمام بأسباب المعيشة ، كان الحسن يقول : والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبه الله على وجهه فى النار . وفى الخبر « يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعيرونه بالفقر ويكلفونه مالا يطيق فيدخل فى المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك » . وروى أن قوما دخلوا على يونس عليه السلام فأضافهم ، وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت ، فعجبوا من ذلك وهابوه أن يسألوه فقال لا تعجبوا من هذا فإنى سألت الله فقلت يارب ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا فقال إن عقوبتك بنت فلان تزوج بها فتزوجت بها ، وأنا صابر على ما ترون ، فإذا أفرط الفقير فى المداراة ربما تعدى حد الاعتدال فى وجوه المعيشة متطلبا رضا الزوجة فهذا فتنة عموم حاله . وفتنة خصوص حاله الإفراط فى المجالسة والمخالطة فتنطلق النفس عن قيد الاعتدال وتسترق الغرض بطول الاسترسال فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والغفلة ، ويستجلس مقار المهلة فيقل الوارد لقلة الأوراد ويتكدر الحال لإهمال شروط الأعمال وألطف من هذين الفتنتين فتنة أخرى تختص بأهل القرب والحضور وذلك أن للنفوس امتزاجا وبرابطة الامتزاج تعتضد وتشتد وتتطرى طبيعتها الجامدة وتلتهب نارها الخامدة ، فدواء هذه الفتنة أن يكون للمتأهل عند المجالسة عينان باطنان ينظر بهما إلى مولاه وعينان ظاهران يستعملهما فى طريق هواه ، وقد قالت رابعة فى معنى هذا نظماً :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى ٭ وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم من للجليس مؤانس ٭ وحبيب قلبي فى الفؤاد أنيسى

وألطف من هذا فتنة أخرى يخشاها المتأهل ، وهو أن يصير للروح استرواح إلى لطف الجمال ، ويكون ذلك

الاستزواح موقوفا على الروح ، ويصير ذلك وليجة فى حب الروح المخصوص بالتعلق بالحضرة الإلهية ، فتنبلد الروح ويفسد باب المزيد من الفتوح ، وهذه البلادة فى الروح ، يعز الشعور بها فلتحذر . ومن هذا القبيل : دخلت الفتنة على طائفة قالوا بالمشاهدة ، وإذا كان فى باب الحلال وليجة فى الحب يتولد منها بلادة الروح فى القيام بوظائف حب الحضرة الإلهية ، فما ظنك فيمن يدعى ذلك فى باب غير مشروع يغره سكون النفس فيظن أنه لو كان من قبل الهوى ماسكنت النفس ؟ والنفس لا تسكن فى ذلك دائما بل تسلب من الروح ذلك الوصف وتأخذه إليها ، على أنى استبحثت عما يبتلى به المفتونون بالمشاهدة ، فوجدت المحمى من ذلك من صورة الفسق عنده رغوة شراب الشهوة ، إذ لو ذهب علة الشراب مابقيت الرغوة ، فليحذر ذلك جدا ولا يسمع ممن يدعى فيه حالا وصحة فإنه كذاب مدع ، ولهذا المعنى قال الأطباء : الجماع يسكن هيجان العشق ـ وإن كان من غير المعشوق ـ فليعلم أن مستنده الشهوة ، ويكذب من يدعى فيه حالا ، وهذه فتن المتأهل .

وفتنة العزب مرور النساء بخاطره وتصورهن فى متخيله ، ومن أعطى الطهارة فى باطنه لايدنس باطنه بخواطر الشهوة ، وإذا سنح الخاطر يمحوه بحسن الإنابة والياذ بالهرب ، ومتى سامر الفكر كشف الخاطر خرج من القلب إلى الصدر ، وعند ذلك يحذر حساس العضو بالخاطر فيصير ذلك عملا خفيا ، وما أقبح مثل هذا بالصادق المتطلع إلى الحضور واليقظة ، فيكون ذلك فاحشة الحال . وقد قيل مرور الفاحشة بقلب العارفين كعمل الفاعلين لها والله أعلم .

الباب الثانى والعشرون : فى القول فى السماع قبولا وإيثارا

قال الله تعالى ﴿ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ قيل أحسنه : أى أهداه وأرشده ، وقال عز وجل ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ هذا السماع هو السماع الحق ـ الذى لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان ـ محكوم لصاحبه بالهداية واللب ، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع ، لأنه تارة يثير حزنا والحزن حار ، وتارة يثير شوقا والشوق حار ، وتارة يثير ندما والندم حار ، فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين أبكى وأدمع ، لأن الحرارة والبرودة إذا اصطدما عصرا ماء ، فإذا ألم السماع بالقلب تارة يخف ألمامه فيظهر أثره فى الجسد ويقشعر منه الجلد ، قال الله تعالى ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ وتارة يعظم وقعه ويتصوب أثره إلى فوق نحو الدماغ كالمخبر للعقل فيعظم وقع المتجدد الحادث فتندفق منه العين بالدمع ، وتارة يتصوب أثره إلى الروح فتموج منه الروح موجا يكاد تضيق عنه نطاق القالب فيكون من ذلك الصياح والاضطراب ، وهذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الحال ، وقد يحكيها بدلا ئل هوى النفس أرباب المحال :

روى أن عمر رضى الله عنه كان ربما مر بآية فى ورده فتخنقه العبرة ويسقط ، ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضا ، فالسماع يستجلب الرحمة من الله الكريم .

روى زيد بن أسلم قال : قرأ أبى بن كعب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة من الله تعالى » وروت أم كلثوم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه الذنوب كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها » وورد أيضا « إذا اقشعر الجلد من خشية الله حرمه الله تعالى على النار » .

وهذه جملة لا تنكر ولا اختلاف فيها ، إنما الاختلاف فى استماع الأشعار بالألحان ، وقد كثرت الأقوال فى ذلك وتباينت الأحوال فمن منكر يلحقه بالفسق ، ومن مولع به يشهد بأنه واضح الحق ويتجاذبان فى طرفى الإفراط والتفريط . قيل لأبى الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذوالنون يسمعون ؟ فقال : كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى ؟ فقد كان جعفر الطيار يسمع ، وإنما المنكر اللهو واللعب

فى السماع وهذا قول صحيح .

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبى الفضل عن أبيه الحافظ المقدسى قال : أخبرنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخوافى قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال حدثنا أبو بكر بن وثاب وقال حدثنا عمرو بن الحارث قال حدثنا الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها ، أن أبابكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان بدفين ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : دعهما يا أبابكر فإنها أيام عيد ، وقالت عائشة رضى الله عنها : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا أسأم . وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله ما يدل على تجويزه ، ونقل عن كثير من السلف صحابى وتابعى وغيرهم . وقول الشيخ أبى طالب المكى يعتبر لوفور علمه وكمال حاله وعلمه بأحوال السلف ومكان ورعه وتقواه وتحريه الأصوب والأولى . وقال : فى السماع حرام وحلال وشبهة ؛ فمن سمعه بنفس مشاهدة شهوة وهوى فهو حرام ، ومن سمعه بمعقوله على صفة مباح من جارية أو زوجة كان شبهة لدخول اللهو فيه ، ومن سمعه بقلب يشاهد معانى تدله على الدليل ويشهده طرقات الجليل فهو مباح ، وهذا قول الشيخ أبى طالب المكى وهو الصحيح . فإذن لا يطلق القول بمنعه وتحريمه والإنكار على من يسمع كفعل القراء المتزهدين المبالغين فى الإنكار ، ولا يفسح فيه على الإطلاق كفعل بعض المشتهرين به المهملين شروطه وآدابه المقيمين على الإصرار .

وتفصل الأمر فيه تفصيلا ، وتوضح الماهية فيه تحريما وتحليلا . فأما الدف والشبابة وإن كان فيهما فى مذهب الشافعى فسحة ؛ فالأولى تركهما والأخذ بالأحوط والخروج من الخلاف .

وأما غير ذلك فإن كان من القصائد فى ذكر الجنة والنار والتشويق إلى دار القرار ووصف نعم الملك الجبار ، وذكر العبادات والترغيب فى الخيرات فلا سبيل إلى الإنكار ، ومن ذلك القبيل قصائد الغزاة والحجاج فى وصف الغزو والحج ؛ مما يثير كامن العزم من الغازى وساكن الشوق من الحاج .

وأما ما كان من ذكر القدود والخدود ووصف النساء فلا يليق بأهل الديانات الاجتماع لمثل ذلك .

وأما ما كان من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصد مما يقرب حمله على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلون أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين ، فمن سمع ذلك وحدث عنده ندم على مافات أو تجدد عنده عزم لما هو آت فكيف يكون سماعه ؟ وقد قيل إن بعض الواجدين يقتات بالسماع ويتقوى به على الطى والوصال ، ويثير عنده من الشوق ما يذهب عنه لهب الجوع ، فإذا استمع العبد إلى بيت من الشعر وقلبه حاضر فيه كأن يسمع الحادى يقول مثلا:

أتوب إليك يارحمن إنى ٭ أسأت وقد تضاعفت الذنوب

فأما من هوى ليلى وحبى ٭ زيارتها فإنى لا أتوب

فطاب قلبه لما يجده من قوة عزمه على الثبات فى أمر الحق إلى الممات ـ يكون فى سماعه هذا ذكر الله تعالى .

قال بعض أصحابنا كنا نعرف مواجيد أصحابنا فى ثلاثة أشياء : عند المسائل ، وعند الغضب ، وعند السماع . وقال الجنيد تنزل الرحمة على هذه الطائفة فى ثلاثة مواضع : عند الأكل لأنهم يأكلون عن فاقة ، وعند المذاكرة لأنهم يتحاورون فى مقامات الصديقين وأحوال النبيين ، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا

وسئل رويم عن وجد الصوفية عند السماع فقال : يشهدون المعانى التى تعزب عن غيرهم فيشير إليهم إلىّ إلىّ فيتنعمون بذلك من الفرح ، ويقع الحجاب للوقت فيعود ذلك الفرح بكاء ، فمنهم من يمزق ثيابه ، ومنهم من يبكى ، ومنهم من يصيح .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمى قال : سمعت أباسهل محمد بن سليمان يقول ؟ المستمع بين استتار وتجل ، فالاستتار يورث التلهب ، والتجلى يورث المزيد ، فالاستتار يتولد منه حركات المريدين وهو محل الضعف

والعجز ، والتجلي يتولد منه السكون للواصلين وهو محل الاستقامة والتمكين . وكذلك محل الحضرة ليس فيه إلا الذبول تحت موارد الهيبة . قال الشيخ أبو عبدالرحمن السلمي : سمعت جدي يقول : المستمع ينبغي أن يستمع بقلب ونفس ميتة ، ومن كان قلبه ميتا ونفسه حية لايحل له السماع .

وقيل في قوله تعالى ﴿ يزيد في الخلق مايشاء ﴾ الصوت الحسن . وقال عليه السلام « لله أشد أذنا بالرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب قينة إلى قينته » نقل عن الجنيد قال : رأيت إبليس في النوم فقلت له : هل تظفر من أصحابنا بشيء أوتنال منهم شيئا ؟ فقال إنه يعسر علي شأنهم ويعظم علي أن أصيب منهم شيئا إلا في وقتين ، قلت : أي وقت ؟ قال : وقت السماع وعند النظر فإني أسترق منهم فيه وأدخل عليهم به ، قال : فحكيت رؤياي لبعض المشايخ فقال لو رأيته قلت له ياأحمق من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر أتربح أنت عليه شيئا أو تظفر بشيء منه ؟ فقلت صدقت ، وروت عائشة رضي الله عنها قالت « كانت عندي جارية تسمعني فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي على حالها ، ثم دخل عمر ففرت ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : مايضحكك يارسول الله ؟ فحدثه حديث الجارية فقال : لاأبرح حتى أسمع ماسمع رسول الله ؛ فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسمعته » وذكر الشيخ أبو طالب المكي قال : كان لعطاء جاريتان تلحنان وكان إخوانه يجتمعون اليهما ، وقال : أدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعن التلحين أعدهن لصوفية ، وهذا القول نقلته من قول الشيخ أبي طالب فقال : وعندي اجتناب ذلك هو الصواب ، وهو لايسلم إلابشرط طهارة القلب وغض البصر والوفاء بشرط قوله تعالى ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ وما هذا القول من الشيخ أبي طالب المكي الا مستغرب عجيب ، والتنزه عن مثل ذلك هو الصحيح .

وفي الحديث : في مدح داود عليه السلام أنه كان حسن الصوت بالنياحة على نفسه وبتلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والطير لسماع صوته ، وكان يحمل من مجلسه آلاف من الجنائز ، وقال عليه السلام في مدح أبي موسى الأشعري « لقد أعطي مزمارا من مزامير آل داود » وروي عنه عليه السلام أنه قال « إن من الشعر لحكمة » ، ودخل رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده قوم يقرءون القرآن وقوم ينشدون الشعر فقال : يارسول الله قرآن وشعر ؟ فقال « من هذا مرة ومن هذا مرة » .

وأنشد النابغة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أبياته التي فيها :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له * بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في أمر إذا لم يكن له * حكيم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك » فعاش أكثر من مائة سنة وكان أحسن الناس ثغرا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد ؛ فيقوم على المنبر قائما يهجو الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس مع حسان مادام ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورأى بعض الصالحين أباالعباس الخضر قال ، فقلت له ماتقول في السماع الذي يختلف فيه أصحابنا ؟ فقال : هو الصفا الزلال لايثبت عليه إلا أقدام العلماء . ونقل عن ممشاد الدينوري قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يارسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا ؟ فقال ما أنكره ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختمون بعده بالقرآن ، فقلت يارسول الله إنهم يؤذونني وينبسطون ، فقال احتملهم يا أباعلي هم أصحابك . فكان ممشاد يفتخر ويقول كناني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما وجه الإنكار فيه فهو أن يرى جماعة من المريدين دخلوا في مبادئ الإرادة ونفوسهم ماتمرنت على صدق المجاهدة حتى يحدث عندهم علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب حتى تنضبط حركاتهم بقانون العلم ويعلمون ماهم عليهم مشتغلين به .

حكى أن ذا النون لما دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوال ؛ فاستأذنوه أن يقول شيئا فأذن له فأنشد القوال :

صغير هواك عذبنى ⁕ فكيف به إذا احتنكا ⁕ وأنت جمعت من قلبى ⁕ هوى قد كان مشتركا

أما ترثى لمكتئب ⁕ إذا ضحك الخلى بكى

فطاب قلبه ، وقام وتواجد وسقط على جبهته والدم يقطر من جبهته ولا يقع على الأرض . ثم قام واحد منهم فنظر إليه ذو النون فقال : اتق الذى يراك حين تقوم ؛ فجلس الرجل ، وكان جلوسه لموضع صدقه وعلمه أنه غير كامل الحال غير صالح للقيام متواجد ، فيقوم أحدهم من غير تدبر وعلم فى قيامه وذلك إذا سمع إيقاعا موزونا بسمع يؤدى ماسمعه إلى طبع موزون ، فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون والإيقاع الموزون ، وينسبل حجاب نفسه المنبسط بانبساط الطبع على وجه القلب ، ويستفزه النشاط المنبعث من الطبع فيقوم يرقص موزونا ممزوجا بتصنع وهو محترم عند أهل الحق ، ويحسب ذلك طيبة للقلب ، ومارأى وجه القلب وطيبته لله تعالى . ولعمرى هو طيبة القلب ولكن قلب ملون النفس ميال إلى الهوى موافق للردى لايهتدى إلى حسن النية فى الحركات ولايعرف شروط صحة الإرادات ، ولمثل هذا الراقص قيل : الرقص نقص ؛ لأنه رقص مصدره الطبع غير مقترن بنية صالحة لاسيما إذا انضاف إلى ذلك شوب حركاته بصريح النفاق بالتودد والتقرب إلى بعض الحاضرين من غير نية ، بل بدلالة نشاط النفس من المعانقة وتقبيل اليد والقدم ، وغير ذلك من الحركات التى لايعتمدها من المتصوفة إلا من ليس له من التصوف إلا مجرد زى وصورة ، أو يكون القوال أمرد تنجذب النفوس إلى النظر إليه وتستلذ ذلك وتضمر خواطر السوء ، أو يكون للنساء إشراف على الجمع وتتراسل البواطن المملوءة من الهوى بسفارة الحركات والرقص وإظهار التواجد فيكون ذلك عين الفسق المجمع على تحريمه فأهل المواخير حينئذ أرجى حالا ممن يكون هذا ضميره وحركاته ، لأنهم يرون فسقهم وهذا لايراه ويريه عبادة لمن لايعلم ذلك ، أفترى أحدا من أهل الديانات يرضى بهذا ولاينكره ؟ فمن هذا الوجه توجه المنكر الإنكار ، وكان حقيقا بالاعتذار ، فكم من حركات موجبة للمقت ، وكم من نهضات تذهب رونق الوقت ، فيكون إنكار المنكر على المريد الطالب بمنعه عن مثل هذه الحركات ، ويحذره من مثل هذه المجالس ، وهذا إنكار صحيح . وقد يرقص بعض الصادقين إيقاع ووزن من غير إظهار وجد وحال ، ووجه نيته فى ذلك أنه ربما يوافق بعض الفقراء فى الحركة فيتحرك بحركة موزونة غير مدع بها حالا ووجداً ، يجعل حركته فى طرف الباطل ، لأنها إن لم تكن محرمة فى حكم الشرع ولكنها غير محللة بحكم الحال لما فيها من اللهو ، فتصير حركاته ورقصه من قبيل المباحات التى تجرى عليه من الضحك والمداعبة وملاعبة الأهل والولد ويدخل ذلك فى باب الترويح للقلب . وربما صار ذلك عبادة بحسن النية إذا نوى به استجمام النفس . كما نقل عن أبى الدرداء أنه قال : إنى لأستجم نفسى بشىء من الباطل ليكون ذلك عونا إلى على الحق ولموضع الترويح كرهت الصلاة فى أوقات ليستريح عمال الله وترتفق النفوس ببعض مآربها من ترك العمل وتستطيب أوطان المهل . والآدمى بتركيبه المختلف وترتيب خلقه المتنوع بتنوع أصول خلقته ـ وقد سبق شرحه فى غير هذا الباب ـ لاتفى قواه بالصبر على الحق الصرف ، فيكون التفسح فى أمثال ماذكرناه من المباح الذى ينزع إلى لهو ما باطلا يستعان به على الحق ، فإن المباح وإن لم يكن باطلا فى حقيقة الشرع ؛ لأن حد المباح مااستوى طرفاه واعتدل جانباه ، ولكنه باطل بالنسبة إلى الأحوال . ورأيت فى بعض كلام سهل بن عبد الله يقول فى وصفه للصادق : الصادق يكون جهله مزيدا لعلمه ، وباطله مزيدا لحقه ، ودنياه مزيدا لآخرته ، ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء ليكون ذلك حظ نفسه الشريفة الموهوب لها حظوظها ، الموفر عليها حقوقها لموضع طهارتها وقدسها ، فيكون ماهو نصيب الباطل الصرف فى حق الغير من المباحات المقبولة برخصة الشرع المردودة بعزيمة الحال فى حقه صلى الله عليه وسلم متسما بسمة العبادات . وقد ورد فى فضيلة النكاح مايدل على أنه عبادة ، ومن ذلك من طريق القياس اشتماله على المصالح الدينية والدنيوية على ما أطنب فى شرحه الفقهاء فى مسئلة التخلى لنوافل العبادات ؛ فإذاً يخرج هذا الراقص بهذه النية المتبرئ من دعوى الحال فى ذلك من إنكار المنكر فيكون رقصه لاعليه ولاله ، وربما كان بحسن النية فى الترويح يصير عبادة سيما إن أضمر فى نفسه

فرحا بربه ونظر إلى شمول رحمته وعطفه ، ولكن لايليق الرقص بالشيوخ ، ومن يقتدى به لمافيه من مشابهة اللهو ، واللهو لايليق بمنصبهم ويباين حال التمكن مثل ذلك .

وأما وجه منع الإنكار فى السماع فهو أن المنكر للسماع على الإطلاق من غير تفصيل لايخلو من أحد أمور ثلاثة : إما جاهل بالسنن والآثار ، وإما مغتر بما أتيح له من أعمال الأخيار ، وإما جامد الطبع لا ذوق له فيصر على الإنكار ، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يقابل بما سوف يقبل . أما الجاهل بالسنن والآثار فيعرف بما أسلفناه من حديث عائشة رضى الله عنها وبالأخبار والآثار الواردة فى ذلك ، وفى حركة بعض المتحركين تعرف رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم للحبشة فى الرقص ونظر عائشة رضى الله عنها إليهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا إذا سلمت الحركة من المكاره التى ذكرناها . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى رضى الله عنه « أنت منى وأنا منك » فحجل ، وقال لجعفر « أشبهت خلقى وخلقى » فحجل ، وقال لزيد « أنت أخونا ومولانا » فحجل ، وكان حجل جعفر فى قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها على وجعفر وزيد . وأما المنكر المغرور بما أتيح له من أعمال الأخيار فيقال : تقربك إلى الله بالعبادة لشغل جوارحك بها ، ولولا نية قلبك ما كان لعمل جوارحك قدر ، فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ مانوى ، والنية لنظرك إلى ربك خوفا أو رجاء ، فالسامع من الشعر بيتا يأخذ منه معنى يذكره ربه إما فرحا أو حزنا أو انكسارا أو افتقارا كيف يقلب قلبه فى أنواع ذلك ذاكرا لربه ، ولو سمع صوت طائر طاب له ذلك الصوت وتفكر فى قدرة الله تعالى وتسويته حنجرة الطائر وتسخيره خلقه ومنشأ الصوت وتأديته إلى الأسماع كان فى جميع ذلك الفكر مسبحا مقدسا ، فإذا سمع صوت آدمى وحضره مثل ذلك الفكر وامتلأ باطنه ذكرا وفكرا كيف ينكر ذلك .

حكى بعض الصالحين قال : كنت معتكفا فى جامع جدة على البحر فرأيت يوما طائفة يقولون فى جانب منه شيئا ، فأنكرت ذلك بقلبى وقلت : فى بيت من بيوت الله تعالى يقولون الشعر ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام تلك الليلة وهو جالس فى تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر ، وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والنبى صلى الله عليه وسلم يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك ، فقلت فى نفسى : ماكان ينبغى لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع وأبو بكر إلى جنبه يقول ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول هذا حق بحق أو حق من حق ، بلى إذا كان ذلك الصوت من أمرد يخشى بالنظر إليه الفتنة ، أو من امرأة غير محرم ، وإن وجد من الأذكار والأفكار ماذكرنا : يحرم سماعه لخوف الفتنة لالمجرد الصوت ، ولكن يجعله سماع الصوت حريم الفتنة ، ولكل حرام حريم ينسحب عليه حكم المنع لوجه المصلحة كالقبلة للشاب الصائم ؛ حيث جعلت حريم حرام الوقاع ، وكالخلوة بالأجنبية وغير ذلك . فعلى هذا قد تقتضى المصلحة المنع من السماع إذا علم حال السامع وما يؤديه إليه سماعه فيجعل المنع حريم الحرام هكذا ، وينكر السماع جامد الطبع عديم الذوق فيقال له : العنين لايعلم لذة الوقاع ، والمكفوف ليس له بالجمال البارع استمتاع ، وغير المصاب لايتكلم بالاسترجاع ، فماذا ينكره من محب نربى باطنه بالشوق والمحبة ؟ ويرى انحباس روحه الطيارة فى مضيق قفص النفس الأمارة يمر بروحه نسيم أنس الأوطان وتلوح له طوالع جنود العرفان ، وهو بوجود النفس فى دار الغربة يتجرع كأس الهجران ، يئن تحت أعباء المجاهدة ولاتحمل عنه سوانح المشاهدة ، وكلما قطع منازل النفس بكثرة الأعمال لايقرب من كعبة الوصول ولا يكشف لها المسبل من الحجاب ، فيتروح بنفس الصعداء ويرتاح باللائح من شدة البرحاء ، ويقول مخاطبا للنفس والشيطان وهما المانعان :

أيا جبلى نعمان بالله خليا ٭ نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها
فإن الصبا ريح إذا ماتنسمت ٭ على قلب محزون تجلت همومها
أجد بردها أوتشف منى حرارة ٭ على كبد لم يبق إلا صميمها
ألا إن أدوائى بليلى قديمة ٭ وأقتل داء العاشقين قديمها

ولعل المنكر يقول هل المحبة إلا امتثال الأمر ؟ وهل يعرف غير هذا وهل هناك إلا خوف من الله؟ وينكر المحبة الخاصة التي تختص بالعلماء الراسخين والأبدال المقربين . ولما تقرر في فهمه القاصر أن المحبة تستدعي مثالا وخيالا وأجناسا وأشكالا أنكر محبة القوم ولم يعلم أن القوم بلغوا في رتب الإيمان إلى أتم من المحسوس وجادوا من فرط الكشف والعيان بالأرواح والنفوس . روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه ذكر غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء ؟ قالت : الله ، قال : من خلق الأرض؟ قالت : الله ، قال: من خلق الجبال ؟ قالت : الله ، قال : من خلق الغيم ؟ قالت : الله ، فقال: إني أسمع لله شأنا ورمى بنفسه من الجبل فتقطع ، فالجمال الأزلي الإلهي منكشف للأرواح غير مكيف للعقل ولا مفسر للفهم ، لأن العقل موكل بعالم الشهادة لا يهتدي من الله سبحانه إلا إلى مجرد الوجود ولا يتطرق إلى حريم الشهود المتجلي في طي الغيب المنكشف للأرواح بلا ريب ، وهذه رتبة من مطالعة الجمال رتبة خاصة ، وأعم منها من رتب المحبة الخاصة دون العامة مطالعة جمال الكمال من الكبرياء والجلال والاستقلال بالمنح والنوال والصفات المقسمة إلى ماظهر منها في الآباد ولازم الذات في الآزال؛ فالكمال جمال لايدرك بالحواس ولا يستنبط بالقياس . وفي مطالعة ذلك الجمال أخذ طائفة من المحبين حصو ابتجلي الصفات ولهم بحسب ذلك ذوق وشوق ووجد وسماع . والأولون منحوا قسطا من تجلي الذات فكان وجدهم على قدر الوجود وسماعهم على حد الشهود .

وحكى بعض المشايخ قال : رأينا جماعة يمشي على الماء والهواء يسمعون السماع ويجدون به ويتولهون عنده . وقال بعضهم : كنا على الساحل فسمع بعض إخواننا فجعل يتقلب على الماء يمر ويجيء حتى رجع إلى مكانه .

ونقل أن بعضهم كان يتقلب على النار عند السماع ولا يحس بها . ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع فأخذ شمعة فجعلها في عينه ، قال الناقل : قربت من عينه ، أنظر ، فرأيت نارا أو نورا يخرج من عينه يرد نار الشمعة وحكي عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع من الأرض في الهواء أذرعا يمر ويجيء فيه .

وقال الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله في كتابه : إن أنكرنا السماع مجملا مطلقا غير مقيد مفصل يكون إنكارا على سبعين صديقا ، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقرب إلى قلوب القراء والمتعبدين ، وإلا أنا لا نفعل ذلك لأنا نعلم مالا يعلمون ، وسمعنا عن السلف من الأصحاب والتابعين مالا يسمعون . وهذا قول الشيخ عن علمه الوافر بالسنن والآثار مع اجتهاده وتحريه الصواب ولكن نبسط لأهل الإنكار لسان الاعتذار ، ونوضح لهم الفرق بين سماع يؤثر وبين سماع ينكر وسمع الشبلي قائلا يقول :   أسائل عن سلمى فهل من مخبر * يكون له علم بها أين تنزل

فزعق الشبلي وقال : لا والله مافي الدارين عنه مخبر .

وقيل الوجد سر صفات الباطن كما أن الطاعة سر صفات الظاهر ، وصفات الظاهر الحركة والسكون وصفات الباطن الأحوال والأخلاق . وقال أبو نصر السراج أهل السماع على ثلاث طبقات: فقوم يرجعون في سماعهم إلى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون ، وقوم يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم فهم مرتبطون بالعلم ومطالبون بالصدق فيما يشيرون لله من ذلك ، وقوم هم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون لطيبة قلوبهم ويليق بهم السماع فهم أقرب الناس إلى السلامة وأسلمهم من الفتنة . وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف .

وسئل بعضهم عن التكلف في السماع فقال : هو على ضربين ؛ تكلف في المستمع لطلب جاه أو منفعة دنيوية فذلك تلبيس وخيانة ، وتكلف فيه لطلب الحقيقة كمن يطلب الوجد بالتواجد وهو بمنزلة التباكي المندوب إليه . وقول القائل إن هذه الهيئة من الاجتماع بدعة يقال له : إنما البدعة المحذورة الممنوع منها بدعة تزاحم سنة مأمورا بها ومالم يكن هكذا فلا بأس به . وهذا كالقيام للداخل ؛ لم يكن ، فكان في عادة العرب ترك ذلك ، حتى نقل : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل ولا يقام له ، وفي البلاد التي فيها هذا القيام لهم عادة إذا اعتمد ذلك لتطييب القلوب والمداراة لا بأس به ؛

لأن تركه يوحش القلوب ويوغر الصدور ؛ فيكون ذلك من قبيل العشرة وحسن الصحبة ويكون بدعة لا بأس بها لأنها لم تزاحم سنة مأثورة .

الباب الثالث والعشرون : فى القول فى السماع ردا وإنكارا

قد ذكرنا وجه صحة السماع وما يليق منه بأهل الصدق وحيث كثرت الفتنة بطريقه وزالت العصمة فيه ، وتصدى للحرص عليه أقوام قلت أعمالهم ، وفسدت أحوالهم وأكثروا الاجتماع للسماع ، وربما يتخذ للاجتماع طعام تطلب النفوس الاجتماع لذلك لا رغبة للقلوب فى السماع كما كان من سير الصادقين ، فيصير السماع معلولا تركن إليه النفوس للشهوات واستحلاء لمواطن اللهو والغفلات ، ويقطع ذلك على المريد طلب المزيد . ويكون بطريقه تضييع الأوقات وقلة الحظ من العبادات ، وتكون الرغبة فى الاجتماع طلبا لتناول الشهوة واستروا حالأولى الطرب واللهو والعشرة ولا يخفى أن هذا الاجتماع مردود عند أهل الصدق . وكان يقال لا يصح السماع إلا لعارف مكين ، ولا يباح لمريد مبتدئ .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إذا رأيت المريد يطلب السماع فاعلم أن فيه بقية البطالة . وقيل إن الجنيد ترك السماع فقيل له : كنت تستمع ؟ فقال : مع من ؟ قيل له : تسمع لنفسك ؟ فقال : ممن ؟ لأنهم كانوا لا يسمعون إلا من أهل مع أهل فلما فقد الإخوان ترك . فما اختاروا السماع حيث اختاروه إلا بشرط وقيود وآداب ؛ يذكرون به الآخرة، ويرغبون فى الجنة ، ويحذرون من النار ، ويزداد به طلبهم ، وتحسن به أحوالهم ، ويتفق لهم ذلك اتفاقا فى بعض الأحايين لا أن يجعلوه دأبا وديدنا حتى يتركوا لأجله الأوراد .

وقد نقل عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال فى كتاب القضاء : الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، وقال : من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته : واتفق أصحاب الشافعى أن المرأة غير المحرم لا يجوز الاستماع إليها سواء كانت حرة أو مملوكة أو مكشوفة الوجه أومن وراء حجاب . ونقل عن الشافعى رضى الله عنه ، أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول : وضعه الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن ، وقال : لا بأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصوت بها بأى وجه كان . وعند مالك رضى الله عنه : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يردها بهذا العيب ، وهو مذهب سائر أهل المدينة ؛ وهكذا مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه .

وسماع الغناء من الذنوب وما أباحه إلا نفر قليل من الفقهاء . ومن أباحه من الفقهاء أيضاً لم ير إعلانه فى المساجد والبقاع الشريفة وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ﴾ قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : هو الغناء والاستماع إليه ، وقيل قوله تعالى ﴿ وأنتم سامدون ﴾ أى مغنون ؛ رواه عكرمة عن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما وهو الغناء بلغة حمير ، يقول أهل اليمن : سمد فلان ، إذا غنى ، وقوله تعالى ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال مجاهد : الغناء والمزامير .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى » وروى عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إنما نهيت عن صوتين فاجرين : صوت عند نعمة ، وصوت عند مصيبة » وقد روى عن عثمان رضى الله عنه أنه قال : ما غنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الغناء ينبت النفاق فى القلب ، وروى أن ابن عمر رضى الله عنه مر على قوم وهم محرمون وفيهم رجل يتغنى فقال : ألا لا سمع الله لكم ، ألا لا سمع الله لكم ، وروى أن إنسانا سأل القاسم بن محمد عن الغناء فقال : أنهاك عنه وأكرهه لك ، قال أحرام هو ؟ قال : انظر يا ابن أخى إذا ميز الله الحق والباطل فى أيهما يجعل الغناء ؟ وقال الفضيل بن عياض : الغناء رقية الزنا ، وعن الضحاك : الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب ، وقال بعضهم : إياكم والغناء فإنه يزيد الشهوة ويهدم المروءة، وأنه لينوب

عن الحد ويفعل ما يفعل السكر ، وهذا الذى ذكره هذا القائل صحيح لأن الطبع الموزون يقيق بالغناء والأوزان ، ويستحسن صاحب الطبع عند السماع مالم يكن يستحسنه من الفرقعة بالأصابع والتصفيق والرقص وتصدر منه أفعال تدل على سخافة العقل ، وروى عن الحسن أنه قال : ليس الدف من سنة المسلمين ، والذى نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه سمع الشعر ، لايدل على إباحة الغناء فإن الشعر كلام منظوم وغيره كلام منثور فحسنه حسن وقبيحه قبيح ، وإنما يصير غناء بالألحان وإن أنصف المنصف وتفكر فى اجتماع أهل الزمان وقعود المغنى بدفه والمشبب بشبابته وتصور فى نفسه هل وقع مثل هذا الجلوس والهيئة بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل استحضروا قوالا وقعدوا مجتمعين لاستماعه لاشك بأنه ينكر ذلك من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ ولو كان فى ذلك فضيلة تطلب ما أهملوها ؟ فمن يشير بأنه فضيلة تطلب ويجتمع لها لم يحظ بذوق معرفة أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين ، واستروح إلى استحسان بعض المتأخرين ذلك . وكثيرا ما يغلط الناس فى هذا ، وكلما احتج عليهم بالسلف الماضين يحتجون بالمتأخرين . وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهديهم أشبه بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكثير من الفقراء يتسمح عند قراء القرآن بأشياء من غير غلبة . قال عبدالله بن عروة بن الزبير : قلت لجدتى أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن ؟ قالت : كانوا كما وصفهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم ، قال : قلت إن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه ، قالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وروى أن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما مر برجل من أهل العراق يتساقط قال : ما لهذا ؟ قالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : إنا لنخشى الله وما نسقط إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ، ماهكذا كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ القرآن فقال : بيننا وبينهم أن يقعد واحد منهم على ظهر بيت باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره ، فإن رمى بنفسه فهو صادق . وليس هذا القول منهم إنكاراً على الإطلاق إذ يتفق ذلك لبعض الصادقين ، ولكن للتصنع المتوهم فى حق الأكثرين ، فقد يكون ذلك من البعض تصنعا ورياء ، ويكون من البعض لقصور علم ومخامرة جهل بمزوج بهوى يلم بأحدهم بسير من الوجد فيتبعه بزيادات يجهل أن ذلك يضر بدينه ، وقد لايجهل أن ذلك من النفس ولكن النفس تسترق السمع استراقا خفيا تخرج الوجد عن الحد الذى ينبغى أن يقف عليه وهذا بيان الصدق

نقل أن موسى عليه السلام وعظ قومه فشق رجل منهم قميصه ، فقيل لموسى عليه السلام : قل لصاحب القميص لايشق قميصه ويشرح قلبه .

وأما إذا أضاف إلى السماع أن يسمع من أمرد فقد توجهت الفتنة وتعين على أهل الديانات إنكار ذلك . قال بقية بن الوليد : كانوا يكرهون النظر إلى الغلام الأمرد الجميل ، وقال عطاء : كل نظرة يهواها القلب فلا خير فيها ، وقال بعض التابعين : ما أنا أخوف على الشاب التائب من السبع الضارى خوفى عليه من الغلام الأمرد يقعد إليه ، وقال بعض التابعين أيضا : اللوطية على ثلاثة أصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون ذلك العمل . فقد تعين على طائفة الصوفية اجتناب مثل هذه الجماعات واتقاء مواضع التهم فإن التصوف صدق كله وجد كله يقول بعضهم : التصوف كله جد فلا تخلطوه بشىء من الهزل ، فهذه الآثار دلت على اجتناب السماع وأخذ الحذر منه .

والباب الأول بما فيه دل على جوازه بشروطه وتنزيهه عن المكاره التى ذكرناها وقد فصلنا القول وفرقنا بين القصائد والغناء وغير ذلك ، وكان جماعة من الصالحين لا يسمعون ومع ذلك لاينكرون على من يسمع بنية حسنة ويراعى الأدب فيه .

الباب الرابع والعشرون : فى القول فى السماع ترفعا واستغناء

اعلم أن الوجد يشعر بسابقة فقد فمن لم يفقد لم يجد ، إنما كان الفقد لمزاحمة وجود العبد بوجود صفاته وبقاياه فلو

تمحض عبد لتمحض حرا ومن تمحض حرا أفلت من شرك الوجد فشرك الوجد يصطاد البقايا ووجود البقايا بالتخلف شىء من العطايا

قال الحصرى رحمه الله : ماأدون حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه ؛ فالوجد بالسماع فى حق المحق كالوجد بالسماع فى حق المبطل : من حيث النظر إلى انزعاجه ، وتأثير الباطن به ، وظهور أثره على الظاهر ، وتغييره للعبد من حال إلى حال . وإنما يختلف الحال بين المحق والمبطل : أن المبطل يجد لوجود هوى النفس ، والمحق يجد لوجود إرادة القلب ؛ ولهذا قيل : السماع لايحدث فى القلب شيئا ، وإنما يحرك ما فى القلب ، فمن يتعلق باطنه بغير الله يحركه السماع فيجد بالهوى ، ومن يتعلق باطنه بمحبة الله يجد بالإرادة إرادة القلب ؛ فالمبطل محجوب بحجاب النفس ، والمحق محجوب بحجاب القلب ، وحجاب النفس حجاب أرضى ظلمانى ، وحجاب القلب حجاب سماوى نورانى ، ومن لم يفقد بدوام التحقق بالشهود ولا يتعثر بأذيال الوجود فلا يسمع ولا يجد ، ومن هذه المطالعة قال بعضهم : الوجد نار دم كلى لاينفذ فى قول .

ومر ممشاد الدينورى رحمه الله بقوم فيهم قوال ؛ فلما رأوه أمسكوا ، فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فوالله لوجمعت ملاهى الدنيا فى أذنى ما شغل همى ولا شفى بعض مابى ، فالوجد صراخ الروح المبتلى بالنفس تارة فى حق المبطل وبالقلب تارة فى حق المحق ، فثار الوجد الروح الروحانى فى حق المحق والمبطل ، ويكون الوجد تارة من فهم المعانى يظهر ، وتارة من مجرد النغمات والألحان ، فما كان من قبيل المعانى تشارك النفس الروح فى السماع فى حق المبطل ويشارك القلب فى حق المحق . وما كان من قبيل مجرد النغمات تتجرد الروح للسماع ، ولكن فى حق المبطل تسترق النفس السمع ، وفى حق المحق يسترق القلب السمع . ووجه استلذاذ الروح النغمات : أن العالم الروحانى يجمع الحسن والجمال ، ووجود التناسب فى الأكوان مستحسن قولا وفعلا ، ووجود التناسب فى الهياكل والصور ميراث الروحانية فمتى سمع الروح النغمات اللذيذة والألحان المتناسبة تأثر به لوجود الجنسية ، ثم يتقيد ذلك بالشرع بمصالح عالم الحكمة ، ورعاية الحدود للعبد عين المصلحة عاجلا وآجلا ، ووجه آخر : إنما يستلذ الروح النغمات ، لأن النغمات بها نطق النفس مع الروح بالإيماء الخفى إشارة ورمزا بين المتعاشقين ، وبين النفوس والأرواح تعاشق أصلى ينزع ذلك إلى أنوثة النفس وذكورة الروح ، والميل والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقع ، قال الله تعالى ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ وفى قوله سبحانه ﴿ منها ﴾ إشعار بتلازم وتلاصق موجب للائتلاف والتعاشق ، والنغمات يستلذها الروح لأنها مناغاة بين المتعاشقين ، وكما أن فى عالم الحكمة كونت حواء من آدم ففى عالم القدرة كونت النفس من الروح الروحانى ، فهذا التآلف من هذا الأصل : وذلك أن النفس روح حيوانى تجنس بالقرب من الروح الروحانى وتجنسها بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان بشرف القرب من الروح الروحانى فصارت نفسا ، فإذاً تكون النفس من الروح الروحانى فى عالم القدرة ، كتكون حواء من آدم فى عالم الحكمة ، فهذا التآلف والتعاشق ونسبة الأنوثة والذكورة من ههنا ظهر ، وبهذا الطريق استطابت الروح النغمات ، لأنها مراسلات بين المتعاشقين ومكالمة بينهما ، وقد قال القائل :

تكلم منا فى الوجود عيوننا ٭ فنحن سكوت والهوى يتكلم

فإذا استلذ الروح النغمة وجدت النفس المعلولة بالهوى وتحركت بما فيها الحدوث العارض ، ووجد القلب المعلول بالإرادة وتحرك بما فيه لوجود العارض فى الروح :

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة ٭ وللأرض من كاس الكرام نصيب

فنفس المبطل أرض لسماء قلبه ، وقلب المحق أرض لسماء روحه ، فالبالغ مبلغ الرجال والمتجوهر المتجرد من أعراض الأحوال خلع فعل النفس والقلب بالوادى المقدس ، وفى مقعد صدق عند مليك مقتدر استقر وعرس ، وأحرق بنور العيان أجرام الألحان ولم تصغ روحه إلى مناغاة عاشقه لشغله بمطالعة آثار محبوبه ، فالهائم المشتاق لايسمه كشف ظلامة العشاق ، ومن هذا حاله لايحركه السماع رأسا ، وإذا كانت الألحان لاتلحق هذا الروح مع لطافة مناجاتها

وخنى لطف مناغاتها ، كيف يلحقه السماع بطريق فهم المعانى وهو أكثف ، ومن يضعف عن حمل لطيف الإشارات كيف يتحمل ثقل أعباء العبارات ، وأقرب من هذا عبارة تقرب إلى الأفهام : الوجد وارد يرد من الحق سبحانه وتعالى ، ومن يريد الله لا يقنع بما من عند الله ، ومن صار فى محل القرب متحققا به لا يلهيه ولا يحركه ما ورد من عند الله ؛ فالوارد من عند الله مشعر ببعد ، والقريب واجد فما يصنع بالوارد ، والوجد نار والقلب للواجد ربه نور ، والنور ألطف من النار ، والكثيف غير مسيطر على اللطيف ، فما دام الرجل البالغ مستمرا على جادة استقامته غير منحرف عن وجه معهوده بنوازع وجوده لا يدركه الوجد بالسماع ، فإن دخل عليه فتور أو عاقه قصور بدخول الابتلاء عليه من المبتلى المحسن يتألف المحن من تفاريق صور الابتلاء : أى يدخل عليه وجود يدركه الواجد لعود العبد عند الابتلاء إلى حجاب القلب ، فمن هو مع الحق إذا زل وقع على القلب . ومن هو مع القلب إذا زل وقع على النفس .

سمعت بعض مشايخنا يحكى عن بعضهم أنه وجد من السماع ، فقيل له : أين حالك من هذا ؟ فقال : دخل على داخل أوردنى هذا المورد .

قال بعض أصحاب سهل : صحبت سهلا سنين ما رأيته تغير عند شىء كان يسمعه من الذكر والقرآن ؛ فلما كان فى آخر عمره قرئ عنده ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية﴾ فارتعد وكاد يسقط ؛ فسألته عن ذلك ؟ قال نعم لحقنى ضعف . وسمع مرة ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ فاضطرب ، فسأله ابن سالم وكان صاحبه قال : قد ضعفت ؛ فقيل له : إن كان هذا من الضعف فما القوة ؟ قال . القوة أن الكامل لا يرد عليه وارد إلا ابتلعه بقوة حاله فلا يغيره الوارد . ومن هذا القبيل قول أبى بكر رضى الله عنه : هكذا كنا حتى قست القلوب ، لما رأى الباكى يبكى عند قراءة القرآن . وقوله وقست ، أى تصلبت وأدمنت سماع القرآن وألفت أنواره فما استغربته حتى تغير والواجد كالمستغرب . لهذا قال بعضهم : حالى قبل الصلاة كحالى فى الصلاة إشارة منه إلى استمرار حال الشهود فهكذا فى السماع كقبل السماع . وقد قال الجنيد : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم ، وفضل العلم أتم من فضل الوجد وبلغنا عن الشيخ حماد رحمه الله كان يقول : البكاء من بقية الوجود . وكل هذا يقرب البعض من البعض فى المعنى لمن عرف الاشارة فيه ، وفهم وهو عزيز الفهم ؛ عزيز الوجود ، واعلم أن للباكين عند السماع مواجيد مختلفة فمنهم من يبكى خوفا ، ومنهم من يبكى شوقا ، ومنهم من يبكى فرحا ؛ كما قال القائل :

طفح السرور على حتى إننى ٭ من عظم ما قد سرنى أبكانى

قال الشيخ أبو بكر الكتانى رحمه الله : سماع العوام على متابعة الطبع ، وسماع المريدين رغبة ورهبة ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء ، وسماع العارفين على المشاهدة ، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ؛ ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام . وقال أيضا : الموارد ترد فتصادف شكلا أو موافقا فأى وارد صادف شكلا مازجه ؟ وأى وارد صادف موافقا ساكنه ؟ وهذه كلها مواجيد أهل السماع . وما ذكرناه حال من ارتفع عن السماع . وهذا الاختلاف منزل على اختلاف أقسام البكاء التى ذكرناها من الخوف والشوق والفرح ، وأعلاها بكاء الفرح بمثابة قادم يقدم على أهله بعد طول غربته فعند رؤية الأهل يبكى من قوة الفرح وكثرته .

وفى البكاء رتبة أخرى أعز من هذه يعز ذكرها ويكبر نشرها لقصور الأفهام عن إدراكها ؛ فربما يقابل ذكرها بالإنكار ويحظى بالاستكبار ، ولكن يعرفها من وجدها قدما ووصولا أو فهمها نظرا تأثيرا ومثولا ، وهو بكاء الوجدان غير بكاء الفرح ، وحدوث ذلك فى بعض مواطن حق اليقين ، ومن حق اليقين فى الدنيا إلمامات يسيرة فيوجد البكاء فى بعض مواطنه لوجود تغاير وتباين بين المحدث والقديم ، فيكون البكاء رشحا هو من وصف الحدثان لوهج سطوة عظمة الرحمن . ويقرب من ذلك مثلا فى الشاهد قطر الغمام بتلاقى مختلف الأجرام وهذا وإن عز مشعر ببقية تقدح فى صرف الفناء . نعم قد يتحقق العبد فى الفناء متجردا عن الآثار منغمسا فى الأنوار ، ثم يرتقى منه إلى مقام البقاء ، ويرد إليه الوجود مظهرا ، فتعود إليه أقسام البكاء خوفا وشوقا وفرحا ووجدانا بمشاكلة صورها ومباينة حقائقها

بفرق لطيف يدركه أربابه ، وعند ذلك يعود عليه من السماع أيضا قسم ، وذلك القسم مقدور له مقهور معه يأخذه إذا أراد ويرده إذا أراد ، ويكون هذا السماع من المتمكن بنفس اطمأنت واستنارت وباينت طبيعتها واكتسبت طمأنينتها ، وأكسبها الروح معنى منه فيكون سماعه نوع تمتع للنفس كتمتعها بمباحات اللذات والشهوات لأن يأخذ السماع منه أو يزيد به أو يظهر عليه منه أثر ، فتكون النفس في ذلك بمثابة الطفل في حجر الوالد يفرحه في بعض الأوقات ببعض مآربه .

ومن هذا القبيل ما نقل أن أبا محمد الراشي كان يشغل أصحابه بالسماع وينعزل عنهم ناحية يصلي ؛ فقد تطرق هذه النغمات مثل هذا المصلي فتتدلى إليها النفس متنعمة بذلك ، فيزداد مورد الروح من الأنس صفاء عند ذلك لبعد النفس عن الروح في تمتعها ، فإنها مع طمأنينتها توصف من الأجنبية بوضعها وجبلتها ، وفي بعدها توفر أقسام الروح من الفتوح ، ويكون طروق الألحان سمعه في الصلاة غير محيل بينه وبين حقيقة المناجاة ، وفهم تنزيل الكلمات ، وتصل الأقسام إلى محالها غير مزاحمة ، ولا مزاحمة وذلك كله لسعة شرح الصدر بالإيمان والله المحسن المنان ولهذا قيل السماع لقوم كالدواء ، ولقوم كالغذاء ، ولقوم كالمروحة . ومن عود أقسام البكاء ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي « اقرأ ، فقال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : أحب أن أسمعه من غيري . فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فإذا عيناه تهملان » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل الحجر واستلمه ثم وضع شفتيه عليه طويلا يبكي ، وقال : ياعمر ههنا تسكب العبرات . والمتمكن تعود إليه أقسام البكاء ، وفي ذلك فضيلة سألها النبي صلى الله عليه وسلم فقال « اللهم ارزقني عينين هطالتين ، ويكون البكاء في الله ، فيكون لله ويكون بالله هو الأتم لعوده إليه بوجود مستأنف موهوب له من الكريم المنان في مقام البقاء .

الباب الخامس والعشرون : في القول في السماع تأدبا واعتناء

ويتضمن هذا الباب آداب السماع ، وحكم التخريق وإشارات المشايخ في ذلك ، وما في ذلك من المأثور والمحذور

مبنى التصوف على الصدق في سائر الأحوال وهو جد كله ، لا ينبغي لصادق أن يتعمد الحضور في مكون يجمع فيه سماع إلا بعد أن يخلص النية لله تعالى ويتوقع به مزيدا في إرادته وطلبه ، ويحذر من ميل النفس لشيء من هواها ، ثم يقدم الاستخارة للحضور ويسأل الله تعالى إذا عزم البركة فيه . وإذا حضر يلزم الصدق والوقار بسكون الأطراف ، قال أبو بكر الكتاني رحمه الله : المستمع يجب أن يكون في سماعه غير مستروح إليه يهيج منه السماع وجداً أو شوقاً أو غلبة أو واردا والوارد عليه يفنيه عن كل حركة وسكون ، فيتقي الصادق استدعاء الوجد ويجتنب الحركة فيه مهما أمكن سيما بحضرة الشيوخ .

حكى أن شابا كان يصحب الجنيد رحمه الله وكلما سمع شيئا زعق وتغير ، فقال له يوما : إن ظهر منك شيء بعد هذا فلا تصحبني ، فكان بعد ذلك يضبط نفسه ، وربما كان من كل شعرة منه تقطر قطرة عرق ، فلما كان يوما من الأيام زعق زعقة فخرج روحه . فليس من الصدق إظهار الوجد من غير وجد نازل ، أو ادعاء الحال من غير حال حاصل ، وذلك عين النفاق .

قيل كان النصراباذي رحمه الله كثير الولع بالسماع فعوتب في ذلك فقال : نعم هو خير من أن نقعد ونغتاب ، فقال له أبو عمرو بن بجيد وغيره من إخوانه : هيهات يا أبا القاسم زلة في السماع شر من كذا وكذا سنة نغتاب الناس وذلك أن زلة السماع إشارة إلى الله تعالى وترويح للحال بصريح المحال . وفي ذلك ذنوب متعددة منها : أنه يكذب على الله تعالى أنه وهب له شيئا وما وهب له . والكذب على الله من أقبح الزلات ، ومنها : أن يغر بعض الحاضرين فيحسن به الظن والإغرار خيانة ، قال عليه السلام « من غشنا فليس منا » ومنها أنه إذا كان مبطلا ويرى بعين الصلاح فسوف يظهر منه بعد ذلك ما يفسد عقيدة المعتقد فيه فيفسد عقيدته في غيره ممن يظن به الخير من أمثاله ،

فيكون سببا إلى فساد العقيدة فى أهل الصلاح ، ويدخل بذلك ضرر على الرجل الحسن الظن مع فساد عقيدته؛ فينقطع عنه مدد الصالحين ويتشعب من هذا آفات كثيرة يعوّز علينا من يبحث عنها ومنها أنه يحوج الحاضرين إلى موافقته فى قيامه وقعوده فيكون متكلفا مكلفا للناس بباطله ، ويكون فى الجمع من يرى بنور الفراسة أنه مبطل ويحمل على نفسه الموافقة للجمع مداريا ويكثر شرح الذنوب فى ذلك فليتق الله فى ربه ولا يتحرك إلا إذا صارت حركته حركة المرتعش الذى لايجد سبيلا إلى الإمساك ، وكالعاطس الذى لايقدر أن يرد العطسة ، وتكون حركته بمثابة النفس الذى يدعوه إليه داعية الطبع قهرا .

قال السرى : شرط الواجد فى زعقته أن يبلغ إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لايشعر فيه بوجع ، وقد يقع هذا لبعض الواجدين نادرا ، وقد لا يبلغ الواجد هذه الرتبة من الغيبة ، ولكن زعقته تخرج كالتنفس بنوع إرادة ممزوجة بالاضطرار ، فهذا الضبط من رعاية الحركات ورد الزعقات وهو فى تمزيق الثياب آكد ، فإن ذلك يكون إتلاف المال وإنفاق الحال ، وهكذا رمى الخرقة إلى الحادى لاينبغى أن يفعل إلا إذا حضرته نية يجتنب فيها التكلف والمراءاة وإذا حسنت النية فلا بأس بإلقاء الخرقة إلى الحادى ، فقد روى عن كعب بن زهير أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وأنشده أبياته التى أولها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول * . . . .

حتى انتهى إلى قوله فيها :

إن الرسول لسيف يستضاء به * مهند من سيوف الله مسلول

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أنت ؟ » فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، أنا كعب بن زهير ؛ فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه بردة كانت عليه ، فلما كان زمن معاوية بعث إلى كعب بن زهير : بعنا بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشرة آلاف ، فوجه إليه ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا . فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألفا وأخذ البردة وهى البردة الباقية عند الإمام الناصر لدين الله اليوم عادت بركتها على أيامه الزاهرة .

وللمتصوفة آداب يتعاهدونها ، ورعايتها حسن الأدب فى الصحبة والمعاشرة ، وكثير من السلف لم يكونوا يعتمدون ذلك ؛ ولكن كل شىء استحسنوه وتواطئوا عليه ولاينكره الشرع لاوجه للإنكار فيه . فمن ذلك أن أحدهم إذا تحرك فى السماع فوقعت منه خرقة أو نازله وجد ورمى عمامته إلى الحادى ، فالمستحسن عندهم موافقة الحاضرين له فى كشف الرأس إذا كان ذلك من متقدم وشيخ ، وإن كان ذلك من الشبان فى حضرة الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشبان فى ذلك ، وينسحب حكم الشيوخ على بقية الحاضرين فى ترك الموافقة للشبان ، فإذا سكتوا عن السماع رد الواجد إلى خرقته ويوافقه الحاضرون برفع العمائم ثم ردها على الرءوس فى الحال الموافقة ، والخرقة إذا رميت إلى الحادى هى للحادى إذا قصد إعطاءه إياها ، وإن لم يقصد إعطاءها للحادى ، فقيل هى للحادى لأن المحرك هو ومنه صدر الموجب لرمى الخرقة . وقال بعضهم : هى للجمع والحادى واحد منهم لأن المحرك قول الحادى مع بركة الجمع فى إحداث الوجد ، وإحداث الوجد لايتقاصر عن قول القائل فيكون الحادى واحدا منهما فى ذلك .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر « من وقف بمكان كذا فله كذا ، ومن قتل فله كذا ومن أسر فله كذا » فتسارع الشبان وأقام الشيوخ والوجوه عند الرايات ، فلما فتح الله على المسلمين طلب الشبان أن يجعل ذلك لهم ، فقال الشيوخ : كنا ظهرا لكم وردءا فلاتذهبوا بالغنائم دوننا ، فأنزل الله تعالى ﴿ يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ فقسم النبى صلى الله عليه وسلم بينهم بالسوية .

وقيل : إذا كان القوال من القوم يجعل كواحد منهم ، وإذا لم يكن من القوم فما كان له قيمة يؤثره ، وما كان من خرق الفقراء يقسم بينهم . وقيل إذا كان القوال أجيرا فليس له منها شىء ، وإن كان متبرعا يؤثر بذلك ، وكل هذا

إذا لم يكن هناك شيخ يحكم ، فأما إذا كان هناك شيخ يهاب ويمتثل أمره فالشيخ يحكم فى ذلك بما يرى ، فقد تختلف الأحوال فى ذلك وللشيخ اجتهاد فيفعل مايرى فلا اعتراض لأحد عليه ، وان فداها بعض المحبين أو بعض الحاضرين فرضى القوال والقوم بما رضوا به وعاد كل واحد منهم إلى خرقته فلا بأس بذلك ، وإذا أصر واحد على الإيثار بما خرج منه لنية له فى ذلك يؤثر بخرقته الحادى ، وأما تمزيق الخرقة المجروحة التى مزقها واجد صادق عن غلبة سلبت اختياره كغلبة النفس ، فمن يتعمد إمساكه فنيتهم فى تفرقتها وتمزيقها التبرك بالخرقة لأن الوجد أثر من آثار فضل الحق وتمزيق الخرقة أثر من آثار الوجد ، فصارت الخرقة متأثرة بأثر ربانى من حقها أن تفدى بالنفوس وتترك على الرءوس إكراما واعزازا :

تضوع أرواح نجد من ثيابهم * يوم القدوم لقرب العهد بالدار

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقبل الغيث ويتبرك به ويقول « حديث عهد بربه » ، فالخرقة الممزقة حديثة العهد ، لحكم المجروحة أن تفرق على الحاضرين ، وحكم مايتبعها من الخرق الصحاح أن يحكم فيها الشيخ ، إن خصص بشىء منها بعض الفقراء فله ذلك ، وإن خرقها خرقا فله ذلك ، ولا يقال هذا تفريط وسرف فإن الخرقة الصغيرة ينتفع بها فى موضعها عند الحاجات كالكبيرة .

وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حلة حرير فأرسل بها إلى فخرجت فيها فقال لى « ماكنت لأكره لنفسى شيئا أرضاه لك فشققها بين النساء خمرا » ، وفى رواية أتيته فقلت : ما أصنع بها ألبسها ؟ قال : لا ، ولكن اجعلها خمرا بين الفواطم ، أراد فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة بنت حمزة ، وفى هذه الرواية أن الهدية كانت حلة مكفوفة بحرير ، وهذا وجه فى السنة لتمزيق الثوب وجعله خرقا .

حكى أن الفقهاء والصوفية بنيسابور اجتمعوا فى دعوة فوقعت الخرقة ، وكان شيخ الفقهاء الشيخ أبا محمد الجوينى وشيخ الصوفية الشيخ أبا القاسم القشيرى ؛ فقسمت الخرقة على عادتهم ؛ فالتفت الشيخ أبو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سرا ، هذا سرف وإضاعة للمال ، فسمع أبو القاسم القشيرى ولم يقل شيئا حتى فرغت القسمة ، ثم استدعى الخادم وقال : انظر فى الجمع من معه سجادة خرق اتلى بها ، لجاءه بسجادة ثم أحضر رجلا من أهل الخبرة ، فقال : هذه السجادة بكم تشترى فى المزاد ؟ قال بدينار ، قال : ولو كانت قطعة واحدة كم تساوى ؟ قال : نصف دينار ثم التفت إلى الشيخ أبى محمد وقال : هذا لا يسمى إضاعة المال . والخرقة الممزقة تقسم على جميع الحاضرين من كان من الجنس أو من غير الجنس إذا كان حسن الظن بالقوم معتقدا للتبرك بالخرقة .

روى طارق بن شهاب أن أهل البصرة غزوا نهاوند ، وأمدهم أهل الكوفة وعلى أهل الكوفة عمار بن ياسر ، فظهروا وأراد أهل البصرة أن لا يقسموا لأهل الكوفة من الغنيمة شيئا ، فقال رجل من بنى تميم لعمار . أيها الأجدع تريد أن تشاركنا فى غنائمنا ، فكتب إلى عمر بذلك ، فكتب عمر رضى الله عنه ، إن الغنيمة لمن شهد الوقعة ، وذهب بعضهم إلى أن المجروح من الخرق يقسم على الجمع وما كان من ذلك صحيحا يعطى للقوال ، واستدل بما روى عن أبى قتادة قال : لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين وفرغنا من القوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا فله سلبه » ، وهذا له وجه فى الخرقة الصحيحة ، فأما المجروحة لحكمها إسهام الحاضرين والقسمة لهم ، ولو دخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضرا قسم له . روى أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : لما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خيبر بثلاث ، فأسهم لنا ولم يسهم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا ، ويكره للقوم حضور غير الجنس عندهم فى السماع كمتزهد لاذوق له من ذلك فينكر ما لاينكر ، أو صاحب دنيا يحوج الى المداراة والتكلف ، أو متكلف للوجد يشوش الوقت على الحاضرين بتواجده .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن والده أبى الفضل الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفرى

بسرخس قال أخبرنا أبو علي الفضل بن منصور بن نصر الكاغدي السمر قندي إجازة ، قال حدثنا الهيثم بن كليب قال أخبرنا أبو بكر عمار بن اسحق قال حدثنا سعيد عامر عن شعبة عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال : يارسول الله إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ؛ ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل فيكم من ينشدنا ؟ فقال بدوي : نعم يارسول الله فقال هات فأنشأ الأعرابي :

قد لسعت حية الهوى كبدي * فلا طبيب لها ولا راقي
إلا الحبيب الذي شغفت به * فعنده رقيتي وترياقي

فتواجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبه ، فلما فرغوا أوى كل واحد منهم إلى مكانه ، قال معاوية بن أبي سفيان ما أحسن لعبكم يارسول الله ، فقال « مه يامعاوية ليس بكريم من لم يهتز عند سماع ذكر الحبيب ، ثم قسم رداءه رسول الله صلى الله عليه وسلم على من حاضرهم بأربعمائة قطعة . فهذا الحديث أوردناه مسندا كما سمعناه ووجدناه ، وقد تكلم في صحته أصحاب الحديث . وما وجدنا شيئا نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاكل وجد أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم إلا هذا ، وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان في سماعهم وتمزيقهم الخرق وقسمتها أن لو صح والله أعلم .

ويخالج سرى أنه غير صحيح ، ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وما كانوا يعتمدونه على مابلغنا في هذا الحديث ويأبى القلب قبوله ، والله أعلم بذلك .

الباب السادس والعشرين : في خاصية الأربعينية التي يتعاهدها الصوفية

ليس مطلوب القوم من « الأربعين » شيئا مخصوصا لايطلبونه في غيرها ؟ ولكن لماطرقتهم مخالفات حكم الأوقات أحبوا تقييد الوقت بأربعين رجاء أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم ، فيكونوا في جميع أوقاتهم كهيئتهم في الأربعين ، على أن الأربعين خصت بالذكر في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وقد خص الله تعالى الأربعين بالذكر في قصة موسى عليه السلام وأمره بتخصيص الأربعين بمزيد تبتل قال الله تعالى ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ وذلك أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر أن الله تعالى إذا أهلك عدوهم واستنقذهم من أيديهم يأتيهم بكتاب من عند الله تعالى فيه تبيان الحلال والحرام والحدود والأحكام . فلما فعل الله ذلك وأهلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوما ـ وهو ذو القعدة ـ فلما تمت الثلاثون ليلة أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب ، فقالت له الملائكة : كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك . فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ؟ ولم يكن صوم موسى عليه السلام ترك الطعام بالنهار وأكله بالليل ، بل طوى الأربعين من غير أكل . فدل على أن خلو المعدة من الطعام أصل كبير في الباب حتى احتاج موسى إلى ذلك مستعد لمكالمة الله تعالى .

والعلوم اللدنية في قلوب المنقطعين إلى الله تعالى ضرب من المكالمة : ومن انقطع إلى الله أربعين يوما مخلصا متعاهدا نفسه بخفة المعدة يفتح الله عليه العلوم اللدنية كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . غير أن تعين الأربعين من المدة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أمر الله تعالى موسى عليه السلام بذلك والتحديد والتقييد بالأربعين لحكمة فيه . ولا يطلع أحد على حقيقة ذلك إلا الأنبياء إذا عرفهم الحق ذلك أو من يخصه الله تعالى بتعريف ذلك من غير الأنبياء . ويلوح في سر ذلك معنى والله أعلم .

وذلك أن الله تعالى لما أراد بتكوين آدم من تراب قدر التخمير بهذا القدر من العدد ، كما ورد « خمر طينة آدم

بيده أربعين صباحا ، فكأن آدم لما كان مستصلحا لعمارة الدارين وأراد الله تعالى منه عمارة الدنيا كما أراد منه عمارة الجنة كونه من التراب تركيبا يناسب عالم الحكمة والشهادة ، وهذه الدار الدنيا وما كانت عمارة الدنيا تأتى منه وهو غير مخلوق من أجزاء أرضية سفلية بحسب قانون الحكمة . فمن التراب كونه ، وأربعين صباحا خمر طينته ؛ ليبعد بالتخمير أربعين صباحا بأربعين حجابا من الحضرة الإلهية كل حجاب هو معنى مودع فيه يصلح به لعمارة الدنيا ويتعوق به عن الحضرة الإلهية ومواطن القرب ؛ إذ لو لم يتعوق بهذا الحجاب ما عمرت الدنيا . فتأصل البعد عن مقام القرب فيه لعمارة عالم الحكمة وخلافة الله تعالى فى الأرض . فالتبتل لطاعة الله تعالى والإقبال عليه والانتزاع عن التوجه إلى أمر المعاش بكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودع . وعلى قدر زوال كل حجاب ينجذب ويتخذ منزلا فى القرب من الحضرة الإلهية التى هى مجمع العلوم ومصدرها . فإذا تمت الأربعون زالت الحجب وانصبت إليه العلوم والمعارف انصبابا . ثم العلوم والمعارف هى أعيان انقلبت أنوارا باتصال إكسير نور العظمة الإلهية بها ، فانقلبت أعيان حديث النفس علوما إلهامية ، وتصدت أجرام حديث النفس لقبول أنوار العظمة ، فلولا وجود النفس وحديثها ما ظهرت العلوم الإلهية ؛ لأن حديث النفس وعاء وجودى لقبول الأنوار وما للقلب فى ذاته لقبول العلم شىء ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » أشار إلى القلب باعتبار أن للقلب وجها إلى النفس باعتبار توجهه إلى عالم الشهادة ، وله وجه إلى الروح باعتبار توجهه إلى عالم الغيب ، فيستمد القلب العلوم المكنونة فى النفس ويخرجها إلى اللسان الذى هو ترجمانه ، فظهور العلوم من القلب لأنها متأصلة فيه ، فللقلب والروح مراتب من قرب الملهم سبحانه وتعالى فوق رتب الإلهام ، فالعبد بانقطاعه إلى الله تعالى واعتزال الناس يقطع مسافات وجوده ويستنبط من معدن نفسه جواهر العلوم

وقد ورد فى الخبر « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » فنى كل يوم بإخلاصه فى العمل لله يكشف طبقة من الطباق الترابية الجبلية المبعدة عن الله تعالى إلى أن يكشف باستكمال الأربعين أربعين طبقة ، فى كل يوم طبقا من أطباق حجابه ، وآية صحة هذا العبد وعلامة تأثره بالأربعين ووفائه بشروط الإخلاص أن يزهد الأربعين فى الدنيا ويتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود ، لأن الزهد فى الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة ، ومن لم يزهد فى الدنيا ما ظفر بالحكمة ، ومن لم يظفر بالحكمة بعد الأربعين تبين أنه قد أخل بالشروط ولم يخلص لله تعالى ، ومن لم يخلص لله ما عبد الله ، لأن الله تعالى أمرنا بالإخلاص كما أمرنا بالعمل فقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ .

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبى الفضل إجازة قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف إجازة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى قال أخبرنا أبو منصور الضبعى قال حدثنا محمد بن أشرس قال حدثنا حفص بن عبد الله قال حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عاصم عن زر عن صفوان بن عسال رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا كان يوم القيامة يجىء الإخلاص والشرك يجثوان بين يدى الرب عز وجل ، فيقول الرب للإخلاص : انطلق أنت وأهلك إلى الجنة . ويقول للشرك : انطلق أنت وأهلك إلى النار » وبهذا الإسناد قال السلمى سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال سمعت إبراهيم الشقيق وسألته عن الإخلاص ماهو قال سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الإخلاص ماهو قال سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ماهو قال سألت أبا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ماهو قال سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ماهو قال سألت أحمد بن على الهجيمى عن الإخلاص ماهو قال سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ماهو قال سألت الحسن عن الإخلاص ماهو قال سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو قال سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ماهو قال : سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ماهو : قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : هو سر من سرى أودعته قلب من أحببت من عبادى .

فمن الناس من يدخل الخلوة على مراغمة النفس ، إذ النفس بطبعها كارهة للخلوة ميالة إلى مخالطة الخلق ، فإذا أزعجها عن مقار عادتها وحبسها على طاعة الله تعالى يعقب كل مرارة تدخل عليها حلاوة فى القلب .

قال ذوالنون رحمه الله : لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من الخلوة ، ومن أحب الخلوة ، فقد استمسك بعمود الإخلاص وظفر بركن من أركان الصدق وقال الشبلى رحمه الله لرجل استوصاه : الزم الوحدة وامح اسمك عن القوم واستقبل الجدار حتى تموت ، وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : الوحدة منية الصديقين

ومن الناس من ينبعث من باطنه داعية الخلوة وتنجذب النفس إلى ذلك وهذا أتم وأكمل وأدل على كمال الاستعداد وقد روى من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم إسمعيل بن أحمد المقرى قال أخبرنا جعفر بن الحكاك المكى قال أخبرنا أبو عبدالله الصنعانى قال أخبرنا أبو عبدالله البغوى قال أخبرنا إسحق الدبرى قال أخبرنا عبد الرزاق عن معمر قال : أخبرنى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى : الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارئ ؟ فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ؟ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ؟ فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ﴾ حتى بلغ ﴿ ما لم يعلم ﴾ فرجع بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة : مالى ـ وأخبرها الخبر ـ فقال : قد خشيت على عقلى ، فقالت : كلا أبشر فوالله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة رضى الله عنها حتى أتت به ورقة بن نوفل وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : ياعم اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى ، ياليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أومخرجى هم ؟ قال ورقة : نعم إنه لم يأت أحد قط بما جئت به إلا عودى وأوذى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، .

وحدث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه « فبينا أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فجئثت منه رعبا فرجعت فقلت : زملونى زملونى ؟ فدثرونى فأنزل الله تعالى ﴿ ياأيها المدثر قم فأنذر ﴾ إلى ﴿ والرجز فاهجر ﴾ .

وقد نقل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب مراراً كى يردى نفسه من شواهق الجبال ، فكلما وافى ذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبرائيل عليه السلام فقال : يامحمد إنك لرسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه ؛ وإذا طالت عليه فترة الوحى عاد لمثل ذلك فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك ، فهذه الأخبار المنبئة عن بدء أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم هى الأصل فى إيثار المشايخ الخلوة للمريدين والطالبين ؛ فإنهم إذا أخلصوا لله تعالى فى خلواتهم يفتح الله عليهم ما يؤنسهم فى خلوتهم تعويضا من الله إياهم عما تركوا لأجله ، ثم خلوة القوم مستمرة ، وإنما الأربعون واستكمالها له أثر ظاهر فى ظهور مبادى بشائر الحق سبحانه وتعالى وسنوح مواهبه السنية .

الباب السابع والعشرون : فى ذكر فتوح الاربعينية

وقد غلط فى طريق الخلوة والأربعينية قوم وحرفوا الكلم عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان وفتح عليهم بابا

من الغرور ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم من تأدية حق الخلوة بالإخلاص ، وسمعوا أن المشايخ والصوفية كانت لهم خلوات وظهرت لهم وقائع وكوشفوا بغرائب وعجائب فدخلوا الخلوة لطلب ذلك ، وهذا عين الاعتلال ومحض الضلال ، وإنما القوم اختاروا الخلوة والوحدة لسلامة الدين وتفقد أحوال النفس وإخلاص العمل لله تعالى .

نقل عن أبي عمرو الأنماطي أنه قال : لن يصفو للعاقل فهم الأخير إلا بإحكامه مايجب عليه من إصلاح الحال الأول ، والمواطن التي ينبغي أن يعرف منها أمزداد هو أم منتقص ؟ فعليه أن يطلب مواضع الخلوة لكي لايعارضه شاغل فيفسد عليه ما يريده .

أنبأنا طاهر بن أبي الفضل إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة قال . أنبأنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا تميم المغربي يقول من اختار الخلوة على الصحبة فينبغي أن يكون خاليا من جميع الأفكار إلا ذكر ربه عز وجل ، وخاليا من جميع المرادات إلا مراد ربه ، وخاليا من مطالبة النفس من جميع الأسباب فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة أو بلية .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أخبرنا أبو بكر إجازة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : جاء رجل إلى زيارة أبي بكر الوراق وقال له : أوصني ، فقال : وجدت الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة ووجدت شرهما في الكثرة والاختلاط .

فمن دخل الخلوة معتلا في دخوله دخل عليه الشيطان وسول له أنواع الطغيان ، وامتلأ من الغرور والمحال فظن أنه على حسن الحال ، فقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجموا نفوسهم بالعزلة عن الخلوة ، ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والبراهمة والفلاسفة ، والوحدة في جمع الهم لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا ، فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنتج تنوير القلب والزهد في الدنيا وحلاوة الذكر ، والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك ، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتج صفاء في النفس يستعان به على اكتساب علوم الرياضة مما يعتني به الفلاسفة والدهريون ـ خذلهم الله تعالى ـ وكلما أكثر من ذلك بعد عن الله . ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياطية أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه الركون التام ويظن أنه فاز بالمقصود ، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة ، وليس هو المقصود من الخلوة يقول بعضهم إن الحق يريد منك الاستقامة وأنت تطلب الكرامة ، وقد يفتح على الصادقين شيء من خوارق العادات ، وصدق الفراسة ، ويتبين ماسيحدث في المستقبل ، وقد لايفتح عليهم ذلك ، ولايقدح في حالهم عدم ذلك ، وإنما يقدح في حالهم الانحراف عن حد الاستقامة ، فما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سببا لمزيد إبقائهم والداعي لهم إلى صدق المجاهدة والمعامله والزهد في الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق ، ولايزال به حتى يخلع ربقة الإسلام عن عنقه وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام ، ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى ويترك متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وتزندق نعوذ بالله من الضلال ، وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع ويشبهونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك ، فمن أراد تحقيق ذلك فليعلم أن العبد إذا أخلص لله وأحسن نيته وقعد في الخلوة أربعين يوما أو أكثر ؛ فمنهم من يباشر باطنه صفو اليقين ويرفع الحجاب عن قلبه ويصير كما قال قائلهم : رأى قلبي ربي ، وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات بالصالحات وكف الجوارح وتوزيع الأوراد من الصلاة والتلاوة والذكر على الأوقات ، وتارة يبادئه الحق لموضع صدقه وقوة استعداده مبادأة من غير عمل وجد منه ، وتارة يجد ذلك بملازمة ذكر واحد من الأذكار لأنه لايزال يردد ذلك الذكر ويقوله ، وتكون عبادته الصلوات الخمس بسننها الراتبة فحسب ، وسائر أوقاته مشغولة بالذكر الواحد لايتخللها فتور ، ولايوجد منه قصور ، ولايزال يردد ذلك الذكر ملتزما به حتى في طريق الوضوء

وساعة الأكل لايفتر عنه .

واختار جماعة من المشايخ من الذكر كلة « لا إله إلا الله » وهذه الكلمة لها خاصية فى تنوير الباطن وجمع الهم إذا داوم عليها صادق مخلص ، وهى من مواهب الحق لهذه الأمة ، وفيها خاصية لهذه الأمة ، فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين إملاء قال : أخبرنا أبو القاسم الدمشقى الحافظ قال أخبرنا عبدالكريم بن الحسين قال أخبرنا عبدالوهاب الدمشقى قال أخبرنا محمد بن خريم قال حدثنا هشام بن عمار قال حدثنا الوليد بن مسلم قال أخبرنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه : أن عيسى بن مريم عليه السلام قال : رب أنبئنى عن هذه الأمة المرحومة ؟ قال : أمة محمد عليه الصلاة والسلام علماء أخفياء أتقياء حلماء أصفياء حكماء كأنهم أنبياء يرضون منى بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . ياعيسى هم أكثر سكان الجنة لأنها لم تذل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنهم ، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت رقابهم .

وعن عبد الله عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : إن هذه الآية مكتوبة فى التوراة : ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيراً وحرزا للمؤمنين وكنزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولاغليظ ولاصخاب فى الأسواق ، ولايجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن أقبضه حتى تقام به الملة المعوجة بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتحوا أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا ، فلايزال العبد فى خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه مع مواطأة القلب حتى تصير الكلمة متأصلة فى القلب مزيلة لحديث النفس ينوب معناها فى القلب عن حديث النفس ؛ فإذا استولت الكلمة وسهلت على اللسان يتشربها القلب ، فلو سكت اللسان لم يسكت القلب ، ثم تتجوهر فى القلب وبتجوهرها يستكن نور اليقين فى القلب ، حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لايزال نورها متجوهرا ويتخذ الذكر مع رؤية عظمة المذكور سبحانه وتعالى ، ويصير الذكر حينئذ ذكر الذات ، وهذا الذكر هو المشاهدة والمكاشفة والمعاينة - أعنى ذكر الذات بتجوهر نور الذكر - وهذا هو المقصد الأقصى من الخلوة . وقد يحصل هذا من الخلوة لابذكر الكلمة بل بتلاوة القرآن إذا أكثر من التلاوة واجتهد فى مواطأة القلب مع اللسان ، حتى تجرى التلاوة على اللسان ، ويقوم معنى الكلام مقام حديث النفس ، فيدخل على العبد سهولة فى التلاوة والصلاة ويتنور الباطن بتلك السهولة فى التلاوة والصلاة ويتجوهر نور الكلام فى القلب ويكون منه أيضا ذكر الذات ويجتمع نور الكلام فى القلب مع مطالعة عظمة المتكلم سبحانه وتعالى ، ودون هذه الموهبة ماينفتح على العبد من العلوم الإلهامية اللدنية ، وإلى حين بلوغ العبد هذا المبلغ من حقيقة الذكر والتلاوة إذا صفا باطنه قد يغيب فى الذكر من كمال أنسه وحلاوة ذكره حتى يلتحق فى غيبته فى الذكر بالنائم ، وقد تنجلى له الحقائق فى لبسة الخيال أولا كما تنكشف الحقائق للنائم فى لبسة الخيال ، كمن رأى فى المنام أنه قتل حية فيقول له المعبر : تظفر بالعدو ، فظفره بالعدو هو كشف كاشفه الحق تعالى به ، وهذا الظفر روح بجرد صاغ مثل الرؤيا له جسدا لهذا الروح من خيال الحية ، فالروح الذى هو كشف الظفر إخبار الحق ، ولبسة الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثال انبعث من نفس الرائى فى المنام من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من اليقظة فيتألف روح كشف الظفر مع جسد مثال الحية فافتقر إلى التعبير ، إذ لو كشف بالحقيقة التى هى روح الظفر من غير هذا المثال الذى هو بمثابة الجسد ما احتاج إلى التعبير ، فكان يرى الظفر ويصح الظفر وقد يتجرد الخيال باستصحاب الخيال والوهم من اليقظة فى المنام من غير حقيقة فيكون المنام أضغاث أحلام لايعبر وقد يتجرد لصاحب الخلوة الخيال المنبعث من ذاته من غير أن يكون وعاء لحقيقة فلا يبنى على ذلك ولا يلتفت إليه ، فليس ذلك واقعة وإنما هو خيال ، فأما إذا غاب الصادق فيه ذكر الله تعالى حتى يغيب عن المحسوس بحيث لو دخل عليه داخل من الناس لايعلم به لغيبته فى الذكر ، فعند ذلك قد ينبعث فى الابتداء من نفسه مثال وخيال ينفخ فيه روح الكشف فإذا عاد من غيبته فإما يأتيه تفسيره من باطنه موهبة من الله تعالى وإما يفسره له شيخه ، كما يعبر المعبر المنام ويكون ذلك واقعة لأنه كشف حقيقة فى لبسة مثال ، وشرط صحة الواقعة الإخلاص فى الذكر أولا ثم الاستغراق فى الذكر ثانيا

وعلامة ذلك الزهد فى الدنيا وملازمة التقوى لأن الله جعله بما يكاشف به فى واقعه مورد الحكمة ، والحكمة تحكم بالزهد والتقوى ، وقد يتجرد للذاكر الحقائق من غير لبسة المثال فيكون ذلك كشفا وإخبارا من الله تعالى إياه ، ويكون ذلك تارة بالرؤية وتارة بالسماع ، وقد يسمع فى باطنه وقد يطرق ذلك من الهواء لا من باطنه كالهواتف يعلم بذلك أمرا يريد الله إحداثه له أو لغيره فيكون إخبار الله إياه بذلك مزيدا ليقينه ، أو يرى فى المنام حقيقة الشيء.

نقل عن بعضهم أنه أتى بشراب فى قدح فوضعه من يده وقال : قد حدث فى العالم حدث ، ولا أشرب هذا دون أن أعلم ماهو ؛ فانكشف له أن قوما دخلوا مكة وقتلوا فيها .

وحكى عن أبى سليمان الخواص قال : كنت راكبا حماراً لى يوما ، وكان يؤذيه الذباب فيطأطئ رأسه ؛ فكنت أضرب رأسه بخشبة كانت فى يدى ؛ فرفع الحمار رأسه إلى وقال : اضرب فإنك على رأسك تضرب ، قيل له: يا أبا سليمان وقع لك ذلك أو سمعته ، فقال : سمعته يقول كما سمعتنى . وحكى عن أحمد بن عطاء الروذبارى قال : كان لى مذهب فى أمر الطهارة ؛ فكنت ليلة من الليالى أستنجى إلى أن مضى ثلث الليل ولم يطب قلبى فتضجرت ، فبكيت وقلت : يارب العفو : فسمعت صوتا ولم أر أحدا يقول يا أبا عبد الله العفو فى العلم .

وقد يكاشف الله تعالى عبده بآيات وكرامات تربية للعبد وتقوية ليقينه وإيمانه . قيل : كان عند جعفر الخلدى رحمه الله فص له قيمة ، وكان يوما من الأيام راكبا فى السمارية فى دجلة ، فهم أن يعطى الملاح قطعة وحل الخرقة فوقع الفص فى الدجلة ، وكان عنده دعاء للضالة مجرب ، وكان يدعو به فوجد الفص فى وسط أوراق كان يتصفحها والدعاء هو أن يقول : ياجامع الناس ليوم لاريب فيه اجمع على ضالتى . وسمعت شيخنا بهمذان حكى له شخص أنه كوشف فى بعض خلواته بولد له فى جيحون كاد يسقط فى الماء من السفينة قال : فزجرته فلم يسقط . وكان هذا الشخص بنواحى همذان وولده بجيحون ؛ فلما قدم الولد أخبر أنه كاد يسقط فى الماء فسمع صوت والده فلم يسقط

وقال عمر رضى الله عنه : ياسارية الجبل ـ على المنبر بالمدينة وسارية بنهاوند ـ فأخذ سارية نحوا الجبل وظفر بالعدو؛ فقيل لسارية كيف علمت ذلك ؟ فقال سمعت صوت عمر وهو يقول : ياسارية الجبل .

سئل ابن سالم وكان قد قال : للإيمان أربعة أركان : ركن منه الإيمان بالقدرة ، وركن منه الإيمان بالحكمة ، وركن منه التبرى من الحول والقوة ، وركن منه الاستعانة بالله عز وجل فى جميع الأشياء قيل له : مامعنى قولك الإيمان بالقدرة ؟ فقال هو أن تؤمن ولا تنكر أن يكون لله عبد بالمشرق ـ قائما على يمينه ـ ويكون من كرامة الله له أن يعطيه من القوة ماينقلب من يمينه على يساره ، فيكون بالمغرب تؤمن بجواز ذلك وكونه .

وحكى لى فقير أنه كان بمكة وأرجف على شخص ببغداد أنه قد مات ؛ فكاشفه الله بالرجل وهو راكب يمشى فى سوق بغداد فأخبر إخوانه أن الشخص لم يمت . وكان كذلك حتى ذكر لى هذا الشخص أنه فى تلك الحالة التى كوشف بالشخص راكبا قال : رأيته فى السوق وأنا أسمع بأذنى صوت المطرقة من الحداد فى سوق بغداد وكل هذه مواهب الله تعالى وقد يكاشف بها قوم وتعطى ، وقد يكون فوق هؤلاء من لايكون له شيء من هذا لأن هذه كلها تقوية اليقين . ومن منح صرف اليقين لاحاجة له إلى شيء من هذا . فكل هذه الكرامات دون ماذكرناه من تجوهر الذكر فى القلب ووجوده ذكر الذات ، فإن تلك الحكمة فيها تقوية للمريدين وتربية للسالكين ليزدادوا بها يقينا يجذبون به إلى مراغمة النفوس والسلو عن ملاذ الدنيا ويستنهض منهم بذلك ساكن عزمهم لعمارتهم الأوقات بالقربات ؛ فيتروحون بذلك ويروقون لطريقة من كوشف بصرف اليقين من ذلك لمكان أن نفسه أسرع إجابه وأسهل انقيادا وأتم استعداداً . والأولون استلين بذلك منهم ما استوعر واستكشف منهم ما استتر .

وقد لايمنع صور ذلك الرهابين والبراهمة ممن هو غير منتهج سبل الهدى وراكب طريق الردى ليكون ذلك فى حقهم مكرا واستدراجا ؛ ليستحسنوا حالهم ويستقروا فى مقار الطرد والبعد إبقاء لهم فيما أراد الله منهم من العمى والضلال والردى والوبال ؛ حتى لايغتر السالك بيسير شيء يفتح له ، ويعلم أنه لو مشى على الماء والهواء لاينفعه ذلك حتى يؤدى

حق التقوى والزهد ، فأما من تعوق بخيال أوقنع بمحال ولم يحكم أساس خلوته بالإخلاص يدخل الخلوة بالزور ويخرج بالغرور ، فيرفض العبادات ويستحقرها ويسلبه الله لذة المعاملة وتذهب عن قلبه هيبة الشريعة ويفتضح فى الدنيا والآخرة .

فليعلم الصادق أن المقصود من الخلوة التقرب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات وكف الجوارح عن المكروهات ، فيصلح لقوم من أرباب الخلوة إدامة الأوراد وتوزيعها على الأوقات ، ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد ويصلح لقوم دوام المراقبة ، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد ، ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر ، ومعرفة مقادير ذلك يعلمه المصحوب للشيخ المطلع على اختلاف الأوضاع وتنوعها مع نصحه للأمة وشفقته على الكافة ، يريد المريد لله لا لنفسه ، غير مبتلى بهوى نفسه ، محبا للاستتباع ، ومن كان محبا للاستتباع فما يفسده مثل هذا أكثر مما يصلحه .

الباب الثامن والعشرون : فى كيفية الدخول فى الأربعينية .

روى أن داود عليه السلام لما ابتلى بالخطيئة خر لله ساجدا أربعين يوما وليلة حتى أتاه الغفران من ربه .

وقد تقرر أن الوحدة والعزلة ملاك الأمر ومتمسك أرباب الصدق ، فمن استمرت أوقاته على ذلك لجميع عمره خلوة وهو الأسلم لدينه ، فإن لم يتيسر له ذلك وكان مبتلى بنفسه أولا ثم بالأهل والأولاد ثانيا فليجعل لنفسه من ذلك نصيبا .

نقل عن سفيان الثورى فيما روى أحمد بن حرب عن خالد بن زيد عنه أنه قال : كان يقال ما أخلص عبد لله أربعين صباحا إلا أنبت الله سبحانه الحكمة فى قلبه وزهده الله فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره داء الدنيا ودواءها. فيتعاهد العبد نفسه فى كل سنة مرة ، وأما المريد الطالب إذا أراد أن يدخل الخلوة فأكمل الأمر فى ذلك أن يتجرد من الدنيا ويخرج كل ما يملكه ويغتسل غسلا كاملا - بعد الاحتياط للثوب والمصلى بالنظافة والطهارة - ويصلى ركعتين ويتوب إلى الله تعالى من ذنوبه ببكاء وتضرع واستكانة وتخشع ، ويسوى بين السريرة والعلانية ولا ينطوى على غل وغش وحقد وحسد وخيانة ، ثم يقعد فى موضع خلوته ولا يخرج إلا لصلاة الجمعة وصلاة الجماعة ، فترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وخطأ ، فإن وجد تفرقة فى خروجه يكون له شخص يصلى معه جماعة فى خلوته ، ولا ينبغى أن يرضى بالصلاة منفردا البتة فيترك الجماعة يخشى عليه آفات ، وقد رأينا من يتشوش عقله فى خلوته ولعل ذلك بشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة ، غير أنه ينبغى أن يخرج من خلوته لصلاة الجماعة وهو ذاكر لا يفتر عن الذكر ، ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى ، ولا يصغى إلى ما يسمع لأن القوة الحافظة والمتخيلة كلوح ينتقش بكل مرئى ومسموع ، فيكثر بذلك الوسواس وحديث النفس والخيال ، ويجتهد أن يحضر الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيرة الإحرام ، فإذا سلم الإمام وانصرف ينصرف إلى خلوته ، ويتقى فى خروجه استجلاء نظر الخلق إليه وعلمهم بجلوسه فى خلوته ، فقد قيل : لا تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس ، وهذا أصل ينفسد به كثير من الأعمال إذا أهمل وينصلح به كثير من الأحوال إذا اعتبر ، ويكون فى خلوته جاعلا وقته شيئا موهوبا لله بإدامة فعل الرضا إما تلاوة أو ذكرا أو صلاة أو مراقبة ، وأى وقت فتر عن هذه الأقسام ينام . فإن أراد تعيين أعداد من الركعات ومن التلاوة والذكر أتى بذلك شيئا فشيئا ، وإن أراد أن يكون بحكم الوقت يعتمد أخف ما على قلبه من هذه الأقسام ، فإذا فتر عن ذلك ينام ، وإن أراد أن يبقى فى سجود واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة أو ركعتين ساعة أو ساعتين فعل ، ويلازم فى خلوته إدامة الوضوء ولا ينام إلا عن غلبة بعد أن يدفع النوم عن نفسه مرات. فيكون هذا شغله ليله ونهاره وإذا كان ذاكرا لكلمة : لا إله إلا الله . وسئمت النفس الذكر باللسان يقولها بقلبه من غير حركة اللسان . وقد قال سهل بن عبدالله إذا قلت : لا إله إلا الله . مد الكلمة وانظر إلى قدم الحق فاثبته وأبطل ما سواه ، وليعلم أن الأمر كالسلسلة يتداعى حلقة حلقة فليكن دائم التلازم بفعل الرضا .

وأما قوت من فى الأربعينية والخلوة فالأولى أن يقتنع بالخبز والملح ويتناول كل ليلة رطلا واحدا - بالبغدادى -

يتناوله بعد العشاء الآخرة ، وإن قسمه نصفين يأكل أول الليل نصف رطل وآخر الليل نصف رطل فيكون ذلك أخف للمعدة وأعون على قيام الليل وإحيائه بالذكر والصلاة ، وإن أراد تأخير فطوره إلى السحر فليفعل ، وإن لم يصبر على ترك الإدام يتناول الإدام ، وإن كان الإدام شيئا يقوم مقام الخبز ينقص من الخبز بقدر ذلك ، وإن أراد التقلل من هذا القدر أيضا ينقص كل ليلة دون اللقمة بحيث ينتهي تقلله في العشر الأخير من الأربعين إلى نصف رطل وإن قوى قمع النفس بنصف رطل من أول الأربعين ونقص يسيرا كل ليلة بالتدريج حتى يعود فطوره إلى ربع رطل في العشر الأخير .

وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء : قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام والاعتزال عن الناس ، وقد جعل للجوع وقتان ؛ أحدهما : آخر الأربع والعشرين ساعة فيكون من الرطل لكل ساعتين أوقية بأكلة واحدة يجعلها بعد العشاء الآخرة أو يقسمها أكلتين كما ذكرنا ، والوقت الآخر : على رأس اثنتين وسبعين ساعة ؛ فيكون الطى ليلتين والإفطار في الليلة الثالثة ، ويكون لكل يوم وليلة ثلث رطل ؛ وبين هذين الوقتين وقت وهو أن يفطر من كل ليلتين ليلة ، ويكون لكل يوم وليلة نصف رطل ، وهذا ينبغى أن يفعله إذا لم يفتح عليه سآمة وضجرا وقلة انشراح في الذكر والمعاملة ، فإذا وجد شيئا من ذلك فليفطر كل ليلة وليأكل الرطل في الوقتين أو الوقت الواحد ، فالنفس إذا أخذت بالإفطار من كل ليلتين ليلة ، ثم ردت إلى الإفطار كل ليلة تقنع ، وإن سومحت بالإفطار كل ليلة لا تقنع بالرطل وتطلب الإدام والشهوات ، وقس على هذا ، فهي إن أطعمت طعمت، وإن أقنعت قنعت ، وقد كان بعضهم ينقص كل ليلة حتى يرد النفس إلى أقل قوتها ، ومن الصالحين من كان يعير القوت بنوى التمر وينقص كل ليلة نواة ، ومنهم من كان يعير بعود رطب وينقص كل ليلة بقدر نشاف العود ، ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرغيف حتى يفنى الرغيف في شهر ، ومنهم من كان يؤخر الأكل ولا يعمل في تقليل القوت ولكن يعمل في تأخيره بالتدريج حتى تندرج ليلة في ليلة ، وقد فعل ذلك طائفة حتى انتهى طيهم إلى سبعة أيام وعشرة أيام وخمسة عشر يوما إلى الأربعين .

وقد قيل لسهل بن عبد الله : هذا الذي يأكل في كل أربعين وأكثر أكلة أين يذهب لهب الجوع عنه ؟ قال يطفئه النور ، وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك فذكر لى كلاما بعبارة دلت على أنه يجد فرحا بربه ينطفئ معه لهب الجوع ، وهذا في الخلق واقع أن الشخص يطرقه فرح وقد كان جائعا فيذهب عنه الجوع ، وهكذا في طرق الخوف يقع ذلك ، ومن فعل ذلك ودرج نفسه في شيء من هذه الأقسام التي ذكرناها لا يؤثر ذلك في نقصان عقله واضطراب جسمه إذا كان في حماية الصدق والإخلاص ، وإنما يخشى في ذلك وفي دوام الذكر على من لا يخلص لله تعالى .

وقد قيل : حد الجوع أن لا يميز بين الخبز وغيره مما يؤكل ، ومتى عينت النفس الخبز فليس بجائع وهذا المعنى قد يوجد في آخر الحد من بعد ثلاثة أيام ، وهذا جوع الصديقين ، وطلب الغذاء عند ذلك يكون ضرورة لقوام الجسد والقيام بفرائض العبودية . ويكون هذا حد الضرورة لمن لا يحتهد في التقليل بالتدريج فأما من درج نفسه في ذلك فقد يصبر على أكثر من ذلك إلى الأربعين - كما ذكرنا - وقد قال بعضهم : حد الجوع أن يبزق ؛ فإذا لم يقع الذباب على بزاقه يدل هذا على خلو المعدة من الدسومة ، وصفاء البزاق كالماء الذي لا يقصده الذباب .

روى أن سفيان الثورى وإبراهيم بن أدهم رضي الله عنهما كانا يطويان ثلاثا ثلاثا وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوى ستا . وكان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يطوى سبعة أيام . واشتهر حال جدنا محمد بن عبد الله - المعروف بعمويه رحمه الله ، وكان صاحب أحمد الأسود الدينورى - أنه كان يطوى أربعين يوما ، وأقصى ما بلغني هذا المعنى من الطى : رجل أدركنا زمانه وما رأيته - كان في أبهر يقال له الزاهد خليفة كان يأكل في كل شهر لوزة ، ولم نسمع أنه بلغ في هذه الأمة أحد بالطى والتدريج إلى هذا الحد ، وكان في أول أمره على ما حكى ينقص القوت بنشاف العود ثم طوى حتى انتهى إلى اللوزة في الأربعين ، ثم إنه قد يسلك هذا الطريق جمع من الصادقين وقد يسلك غير الصادق

هذا لوجود هو مستكن فى باطنه يهون عليه ترك الأكل إذا كان له استحلاء لنظر الخلق وهذا عين النفاق نعوذ بالله من ذلك ، والصادق ربما يقدر على الطى إذا لم يعلم بحاله أحد ؛ وربما تضعف عزيمته فى ذلك إذا علم بأنه يطوى ؛ فإن صدقه فى الطى ونظره إلى من يطوى لأجله يهون عليه الطى ، فإذا علم به أحد تضعف عزيمته فى ذلك ، وهذا علامة الصادق فهما أحس فى نفسه أنه يحب أن يرى بعين التقلل فليتهم نفسه فإن فيه شائبة النفاق ، ومن يطوى لله يعوضه الله تعالى فرحا فى باطنه ينسيه الطعام ، وقد لا ينسى الطعام ولكن امتلاء قلبه بالأنوار يقوى جاذب الروح الروحانى فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحانى وينفر بذلك عن أرض الشهوة النفسانية ، وأما أثر جاذب الروح إذا تخلف عنه جاذب النفس عند كمال طمأنينتها وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير فأجل من جذب المغناطيس للحديد ؛ إذ المغناطيس يجذب الحديد لروح فى الحديد مشاكل للمغناطيس فيجذبه بنسبة الجنسية الخاصة ، فإذا تجنست النفس بعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير فى النفس روح استمدها القلب من الروح وأداها إلى النفس فتجذب الروح النفس بجنسية الروح الحادثة فيها فتزدرى الأطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية . ويتحقق عنده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » ولا يقدر على ما وصفنا إلا عبد تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة فيتناول من الطعام أيضا ضرورة ، ولو تكلم مثلا بكلمة من غير ضرورة التهب فيه نار الجوع التهاب الحلفاء بالنار ، لأن النفس الراقدة تستيقظ بكل ما يوقظها وإذا استيقظت نزعت إلى هواها ، فالعبد المراد بهذا إذا فطن لسياسة النفس ورزق العلم سهل عليه الطى وتداركته المعونة من الله تعالى ؛ لاسيما إن كوشف بشىء من المنح الإلهية

وقد حكى لى فقير أنه اشتد به الجوع وكان لا يطلب ولا يتسبب قال : فلما انتهى جوعى إلى الغاية بعد أيام فتح الله على بتفاحة قال : فتناولت التفاحة وقصدت أكلها فلما كسرتها كوشفت بحوراء نظرت إليها عقيب كسرها ، فحدث عندى من الفرح بذلك ما استغنيت عن الطعام أياما ، وذكر لى أن الحوراء خرجت من وسط التفاحة ، والإيمان بالقدرة ركن من أركان الإيمان فسلم ولا تنكر . قال سهل بن عبد الله رحمه الله : من طوى أربعين يوما ظهرت له القدرة من الملكوت وكان يقال : لا يزهد العبد حقيقة الزهد الذى لا مشوبة فيه إلا بمشاهدة قدرة من الملكوت وقال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله : عرفنا من طوى أربعين يوما برياضة النفس فى تأخير القوت ، وكان يؤخر فطره كل ليلة إلى نصف سبع الليل ، حتى يطوى ليلة فى نصف شهر ، فيطوى الأربعين فى سنة وأربعة أشهر ، فتندرج الأيام والليالى حتى يكون الأربعين بمنزلة يوم واحد ، وذكر لى أن الذى فعل ذلك ظهرت له آيات الملكوت وكوشف بمعانى قدرة من الجبروت تجلى الله بها له كيف شاء .

واعلم أن هذا المعنى من الطى والتقلل لو أنه عين الفضيلة ما فات أحدا من الأنبياء ، ولكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ من ذلك إلى أقصى غاياته ، ولا شك أن لذلك فضيلة لا تنكر ، ولكن لا تنحصر مواهب الحق تعالى فى ذلك ، فقد يكون من يأكل كل يوم أفضل ممن يطوى أربعين يوما ، وقد يكون من لا يكاشف بشىء من معانى القدرة أفضل ممن يكاشف بها إذا كاشفه الله بصرف المعرفة ، فالقدرة أثر من القادر . وعن أهل القرب القادر لا يستغرب ولا يستنكر شيئا من القدرة ، ويرى القدرة تتجلى له من سجف أجزاء علم الحكمة ، فإذا أخلص العبد لله تعالى أربعين يوما واجتهد فى ضبط أحواله بشىء من الأنواع التى ذكرنا من العمل والذكر والقوت وغير ذلك ، تعود بركة تلك الأربعين على جميع أوقاته وساعاته ، وهو طريق حسن اعتمده طائفة من الصالحين .

وكان جماعة من الصالحين يختارون للأربعين ذا القعدة وعشر ذى الحجة ، وهى أربعون موسى عليه السلام .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون إجازة قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد ابن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا أبو معاوية الضرير قال حدثنا الحجاج عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أخلص لله تعالى العبادة أربعين يوما ظهرت

ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » .

الباب التاسع والعشرون : فى أخلاق الصوفية وشرح الخلق

الصوفية أوفر الناس حظا فى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحقهم بإحياء سنته والتخلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حسن الاقتداء وإحياء سنته ؛ على ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام أبو أحمد عبد الوهاب بن على قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبى القاسم الهروى قال أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن أحمد الترياقى قال أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى قال أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى قال أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى قال حدثنا مسلم بن حاتم الأنصارى البصرى قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى عن أبيه عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضى الله عنه : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يابنى إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل » ثم قال « يابنى وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحيانى ومن أحيانى كان معى فى الجنة » فالصوفية أحيوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم وقفوا فى بداياتهم لرعاية أقواله ، وفى وسط حالهم اقتدوا بأعماله فأثمر لهم ذلك أن تحققوا فى نهاياتهم بأخلاقه ، وتحسين الأخلاق لايأتى إلا بعد تزكية النفس ، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع ، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفسا كان أحسنهم خلقا ، قال مجاهد ﴿ على خلق عظيم ﴾ أى على دين عظيم ، والدين مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت . كان خلقه القرآن . قال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى وينتهى عما نهى الله عنه ، وفى قول عائشة : كان خلقه القرآن ، سر كبير وعلم غامض . ما نطقت بذلك إلا بما خصها الله تعالى به من بركة الوحى السماوى وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيصه إياها بكلمة « خذوا شطر دينكم من هذه الحميراء » وذلك أن النفوس مجبولة على غرائز وطبائع هى من لوازمها وضروراتها ، خلقت من تراب ولها بحسب ذلك طبع ، وخلقت من ماء ولها بحسب ذلك طبع ، وهكذا من حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار ، وبحسب تلك الأصول التى هى مبادى تكونها استفادت صفات من البهيمية والسبعية والشيطانية ، وإلى صفة الشيطنة فى الإنسان إشارة بقوله تعالى ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ لدخول النار فى الفخار . وقد قال الله تعالى ﴿ وخلق الجان من مارج من نار ﴾ والله تعالى بخفى لطفه وعظيم عنايته نزع نصيب الشيطان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما ورد فى حديث حليمة ابنة الحارث أنها قالت فى حديث طويل : فبينا نحن خلف بيوتنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخ له من الرضاعة فى بهم لنا ، جاءنا أخوه يشتد فقال : ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعاه فشقا بطنه ، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائما منتقعا لونه فاعتنقه أبوه ، وقال : أى بنى ماشأنك ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعانى فشقا بطنى ، ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه ، ثم رداه كما كان ، فرجعنا به معنا ، فقال أبوه ياحليمة : لقد خشيت أن يكون ابنى هذا قد أصيب انطلق بنا فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف قالت : فاحتملناه فلم ترع أمه إلا وقد قدمنا به عليها ، قالت : ما ردكما قد كنتما عليه حريصين ، قلنا : لا والله لا ضير إلا أن الله عز وجل قد أدى عنا وقضينا الذى كان علينا ، وقلنا نخشى الأتلاف والأحداث نرده إلى أهله ، فقالت ماذاك بكما فأصدقانى شأنكما ؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره ، فقالت : خشيتما عليه الشيطان كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وإنه لكائن لابنى هذا شأن ألا أخبركما بخبره ؟ قلنا : بلى ، قالت : حملت به فما حملت حملا قط أخف منه : فأريت فى النوم حين حملت به كأنه خرج منى نور قد أضاءت به قصور الشام ثم وقع حين ولدته وقوعا لم يقعه المولود معتمدا على يديه رافعا رأسه إلى السماء فدعاه عنكما .

فبعد أن طهر الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حد نفوس البشر ، لها ظهور بصفات

وأخلاق مبقاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للخلق لوجود أمهات تلك الصفات فى نفوس الأمة بمزيد من الظلمة لتفاوت حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحال الأمة ، فاستمدت تلك الصفات المبقاة بظهورها فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنزيل الآيات المحكمات بإزائها لقمعها ، تأديبا من الله لنبيه رحمة خاصة له وعامة للأمة ، موزعة بنزول الآيات على الآناء والأوقات عند ظهور الصفات ، قال الله تعالى ﴿وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ وتثبيت الفؤاد بعد اضطرابه بحركة النفس بظهور الصفات لارتباط بين القلب والنفس وعند كل اضطراب آية متضمنة لخلق صالح سنى إما تصريحا أو تعريضا ، كما تحركت النفس الشريفة النبوية لما كسرت رباعيته وصار الدم يسيل على الوجه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمسحه ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ ، فأنزل الله تعالى ﴿ليس لك من الأمر شىء﴾ فاكتسى القلب النبوى لباس الاصطبار وفاء بعد الاضطراب إلى القرار ، فلما توزعت الآيات على ظهور الصفات فى مختلف الأوقات صفت الأخلاق النبوية بالقرآن ليكون خلقه القرآن ، ويكون فى إبقاء تلك الصفات فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى قوله عليه السلام : « إنما أنسى لأسن » ، فظهور صفات نفسه الشريفة وقت استنزال الآيات لتأديب نفوس الأمة وتهذيبها رحمة فى حقهم حتى تتزكى نفوسهم وتشرف أخلاقهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أراد الله تعالى بعبد خيرا منحه منها خلقا » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى مائة وبضعة عشر خلقا من آتاه واحدا منها دخل الجنة » فتقديرها وتحديدها لا يكون إلا بوحى سماوى لمرسل ونبى ، والله تعالى أبرز إلى الخلق أسماءه منبئة عن صفاته سبحانه وتعالى وما أظهرها لهم إلا ليدعوهم إليها ، ولولا أن الله تعالى أودع فى القوى البشرية التخلق بهذه الأخلاق ما أبرزها لهم دعوة لهم إليها يختص برحمته من يشاء .

ولا يبعد ـ والله أعلم ـ أن قول عائشة رضى الله عنها ، كان خلقه القرآن ، فيه رمز غامض وإيماء خفى إلى الأخلاق الربانية فاحتشمت من الحضرة الإلهية أن تقول : متخلقا بأخلاق الله تعالى ، فعبرت عن المعنى بقولها : كان خلقه القرآن استحياء من سبحات الجلال وسترا للحال بلطف المقال ، وهذا من وفور علمها وكمال أدبها وبين قوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم﴾ وبين قوله ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ مناسبة مشعرة بقول عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن .

قال الجنيد رحمه الله : كان خلقه عظيما لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى ، وقال الواسطى رحمه الله : لأنه جاد بالكونين عوضا عن الحق ، وقيل : لأنه عليه السلام عاشر الخلق بخلقه وباينهم بقلبه ؛ وهذا ما قاله بعضهم فى معنى التصوف : التصوف الخلق مع الخلق والصدق مع الحق . وقيل : عظم خلقه حيث صغرت الأكوان فى عينه بمشاهدة مكونها . وقيل سمى خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه .

وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته إلى حسن الخلق فى حديث أخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال : أخبرنا الفتح الهروى قال أخبرنا أبو نصر الترياقى قال أخبرنا أبو محمد الجراحى قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى قال أخبرنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال حدثنا أحمد بن الحسين بن خراش قال حدثنا حبان بن هلال قال حدثنا مبارك بن فضالة قال حدثنى عبد الله بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون ، قالوا : يا رسول الله علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال « المتكبرون » ، والثرثار هو المكثار من الحديث ، والمتشدق المتطاول على الناس فى الكلام .

قال الواسطى رحمه الله : الخلق العظيم أن لا يخاصم ولا يخاصم ، وقال أيضا ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ لوجدانك حلاوة المطالعة على سرك . وقال أيضا : لأنك قبلت فنون ما أسديت من نعمى أحسن مما قبله غيرك من الأنبياء

والرسل وقال الحسين : لأنه لم يؤثر فيك جفاء الخلق مع مطالعة الحق . وقيل : الخلق العظيم لباس التقوى والتخلق بأخلاق الله تعالى إذ لم يبق للأعواض عنده خطر .

وقال بعضهم . قوله تعالى ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ﴾ أتم لأنه حيث قال ﴿ وإنك ﴾ أحضره وإذا أحضره أعفله وحجبه ، وقوله ﴿ لأخذنا ﴾ أتم لأنفيه فناء . فيقول هذا القائل نظر ؛ فهلا قال : إن كان في ذلك فناء فني قوله ﴿ وإنك ﴾ بقاء وهو بقاء بعد فناء ، والبقاء أتم من الفناء ، وهذا أليق بمنصب الرسالة لأن الفناء إنما عن مزاحمة وجود مذموم ، فإذا نزع المذموم من الوجود وتبدلت النعوت فأى عزة تبق في الفناء ؟ فيكون حضوره بالله لا بنفسه فأى حجبة تبقى هنالك ؟

وقيل من أوتى الخلق فقد أوتى أعظم المقامات لأن المقامات ارتباطا عاما والخلق ارتباط بالنعوت والصفات .

وقال الجنيد : اجتمع فيه أربعة أشياء السخاء والألفة والنصيحة والشفقة . وقال ابن عطاء : الخلق العظيم أن لا يكون له اختيار ويكون تحت الحكم مع فناء النفس وفناء المألوف ، وقال أبو سعيد القرشي : العظيم هو الله ومن أخلاقه الجود والكرم والصفح والعفو والإحسان ، ألا ترى إلى قوله عليه السلام ، إن لله مائة وبضعة عشر خلقا من أتى بواحد منها دخل الجنة ، فلما تخلق بأخلاق الله تعالى وجد الثناء عليه بقوله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقيل : عظم خلقك لأنك لم ترض بالأخلاق وسرت ولم تسكن إلى النعوت حتى وصلت إلى الذات ، وقيل : لما بعث محمد عليه الصلاة والسلام إلى الحجاز حجزه بها عن اللذات والشهوات وألقاه في الغربة والجفوة فلما صفا بذلك عن دنس الأخلاق قال له ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وأخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة بن الحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسى عن أبيه قال : أخبرنا أبو عمر المليحى قال : أخبرنا أبو محمد عبدالله بن يوسف قال أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابى قال حدثنا جعفر بن الحجاج الرقى قال أخبرنا أيوب بن محمد الوزان ، قال حدثنى الوليد قال حدثنى ثابت عن يزيد عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان نبى الله صلى الله عليه وسلم يقول ، مكارم الأخلاق عشرة تكون فى الرجل ولا تكون فى ابنه وتكون فى الابن ولا تكون فى أبيه وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة : صدق الحديث وصدق اليأس وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان وإعطاء السائل والمكافأة بالصنائع وحفظ الأمانة وصلة الرحم والتذمم للصاحب وإقراء الضيف ورأسهن الحياء ، . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال ، تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال ، الغم والفرح ، يكون هذا الغم غم فوات الحظوظ العاجلة ، لأن ذلك يتضمن التسخط والتضجر ، وفيه الاعتراض على الله تعالى وعدم الرضا بالقضاء ، ويكون الفرح المشار إليه الفرح بالحظوظ العاجلة الممنوع منه بقوله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ وهو الفرح الذى قال الله تعالى ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ لما رأى مفاتحه تنوء بالعصبة أولى القوة . فأما الفرح بالأقسام الأخروية فمحمود يتنافس فيه قال الله تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ وفسر عبدالله بن المبارك حسن الخلق فقال : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف وكف الأذى .

فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق وكم من نفس تجيب إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق . فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق ، ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض ، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال : سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول سمعت أبابكر الكتانى يقول : التصوف خلق فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصوف . فالعباد أجابت نفوسهم إلى الأعمال لأنهم يسلكون بنور الإسلام ، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان ،

والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان ، فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نور اليقين وتأصل فى بواطنهم ذلك انصلح القلب بكل أرجائه وجوانبه ، لأن القلب يبيض بعضه بنور الإسلام ، وبعضه بنور الإيمان ، وكله بنور الإحسان والإيقان . فإذا ابيض القلب وتنور انعكس نوره على النفس ، وللقلب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح، والنفس وجه إلى القلب ، ووجه إلى الطبع والغريزة . والقلب إذا لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح بكله ، ويكون ذا وجهين ، وجه إلى الروح ، ووجه إلى النفس ، فإذا ابيض كله توجه إلى الروح بكله ، فيتدارك مدد الروح، ويزداد إشراقا وتنورا . وكلما انجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب، وكلما انجذبت توجهت إلى القلب بوجهها الذى يليه ، وتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذى يلى القلب . وعلامة تنورها طمأنينتها قال الله تعالى ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ وتنور وجهها الذى يلى القلب بمثابة نورانية أحد وجهى الصدف لاكتساب النورانية من اللؤلؤ . وبقاء شىء من الظلمة على النفس لنسبة وجهها الذى يلى الغريزة والطبع ، كبقاء ظاهر الصدف على ضرب من الكدر والنقصان مخالفا لنورانية باطنه . وإذا تنور أحد وجهى النفس لجأت إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت ، ولذلك سمى الأبدال أبدالا . والسر الآكبر فى ذلك أن قلب الصوفى بدوام الإقبال على الله ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقى إلى ذكر الذات ، ويصير حينئذ بمثابة العرش . فالعرش قلب الكائنات فى عالم الخلق والحكمة والقلب عرش فى عالم الأمر والقدرة . قال سهل بن عبد الله التسترى : القلب كالعرش والصدر كالكرسى . وقد ورد عن الله تعالى « لا يسعنى أرضى ولا سمائى ويسعنى قلب عبدى المؤمن » .

فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الذات وصار بحرا مواجا من نسمات القرب جرى فى جداول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات وتحقق التخلق بأخلاق الله تعالى . حكى عن الشيخ أبى على الفارمذى أنه حكى عن شيخه أبى القاسم الكركانى أنه قال : إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للعبد السالك وهو بعد فى السلوك غير واصل ، ويمكون الشيخ عنى بهذا أن العبد يأخذ من كل اسم وصفا يلائم ضعف حال البشر وقصوره ، مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى «الرحيم» معنى من الرحمة على قدر قصور البشر ، وكل إشارات المشايخ فى الأسماء والصفات التى هى أعز علومهم على هذا المعنى والتفسير . وكل من توهم بذلك شيئا من الحلول ترندق وألحد .

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا بوصية جامعة لمحاسن الأخلاق فقال له « يامعاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ، وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه فى القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح ، وإياك أن تسب حليما أو تكذب صادقا أو تطيع آثما أو تعصى إماما عادلا أو تفسد أرضا ، أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية ، بذلك أدب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب » وروى معاذ أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب » .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبدالوهاب بن على بإسناده المتقدم إلى الترمذى رحمه الله قال : أخبرنا أبو كريب قال حدثنا قبيصة بن الليث عن مطرف عن عطاء عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال : سمعت النبى عليه السلام يقول « مامن شىء يوضع فى الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة» وقد كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان أسخى الناس لايبيت عنده دينار ولادرهم ، وإن فضل ولم يجد من يعطيه ويأتيه الليل لايأوى إلى منزله حتى يبرأ منه ، ولا ينال من الدنيا ، وأكثر قوت عامه من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، ويضع ماعدا ذلك فى سبيل الله ، لايسئل شيئا إلا يعطى ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام ، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم فى مهنة أهله ويقطع اللحم معهن ، وكان أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعا فصلوات الرحمن عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

الباب الثلاثون : فى تفاصيل أخلاق الصوفية

من أحسن أخلاق الصوفية التواضع، ولا يلبس العبد لبسة أفضل من التواضع ، ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد مقداراً يعلم أنه يقيمه ، ويقيم كل أحد على ما عنده من نفسه ؛ ومن رزق هذا فقد استراح وأراح ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى ، قال أخبرنا عثمان بن عبدالله ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن ابراهيم ، قال حدثنا عبدالرحمن بن حمدان ، قال حدثنا أبو حاتم الرازى ، قال حدثنا النضر بن عبدالجبار ، قال أخبرنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا ولا يبغى بعضكم على بعض » .

وقال عليه السلام فى قوله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى ﴾ قال : « على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس » . وكان من تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيب دعوة الحر والعبد ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافئ عليها ويأكلها ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين .

وأخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمى ، قال أخبرنا أحمد بن على المقرى ، قال أخبرنا محمد بن المنهال ، قال حدثنى أبى عن محمد بن جابر اليمانى عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت ، وترد على من سلم عليك ، وأن ترضى بالدون من المجلس ، وأن لا تحب المدحة والتزكية والبر » .

وورد أيضاً عنه عليه السلام « طوبى لمن تواضع من غير منقصة ، وذل فى نفسه من غير مسكنة » .

سئل الجنيد عن التواضع ؟ فقال : خفض الجناح ولين الجانب . وسئل الفضيل عن التواضع ؟ فقال : تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله وتسمع منه . وقال أيضاً : من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب .

وقال وهب بن منبه : مكتوب فى كتب الله : إنى أخرجت الذر من صلب آدم فلم أجد قلبا أشد تواضعا إلى من قلب موسى عليه السلام ، فلذلك اصطفيته وكلمته .

وقيل : من عرف كوامن نفسه لم يطمع فى العلو والشرف ويسلك سبيل التواضع ؛ فلا يخاصم من يذمه ، ويشكر الله لمن يحمده .

قال أبو حفص : من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرمتهم ؛ فمن شدة تواضعهم فى أنفسهم يقتدى بهم ولا يتكبر .

وقال لقمان عليه السلام : لكل شىء مطية ، ومطية العمل التواضع .

وقال الثورى : خمسة أنفس أعز الخلق فى الدنيا : عالم زاهد ، وفقيه صوفى ، وغنى متواضع ، وفقير شاكر ، وشريف سنى .

وقال الجلاء : لولا شرف التواضع كنا إذا مشينا نخطر . وقال يوسف بن أسباط ـ وقد سئل : ما غاية التواضع ؟ قال : أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحداً إلا رأيته خيراً منك .

ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب ـ وكنت معه فى سفره إلى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاما على رءوس الأسارى من الافرنج وهم فى قيودهم ـ فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأوانى حتى تفرغ قال للخادم : أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء ، فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفا واحداً ، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم ، فأكل وأكلوا ، وظهر لنا على وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله والانكسار فى نفسه وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله .

أخبرنا أبو زرعة ، إجازة عن أبى بكر بن خلف ، إجازة عن السلمى قال : سمعت أبا الحسين الفارسى يقول :

سمعت الجريري يقول : صح عند أهل المعرفة أن الدين رأس مال : خمسة فى الظاهر ، وخمسة فى الباطن ؛ فأما اللواتى فى الظاهر : فصدق فى اللسان ، وسخاوة فى الملك ، وتواضع فى الأبدان ، وكف الأذى ، واحتماله بلا إباء . وأما اللواتى فى الباطن : فحب وجود سيده ، وخوف الفراق من سيده ، ورجاء الوصول إلى سيده ، والندم على فعله ، والحياء من ربه .

وقال يحيى بن معاذ : التواضع فى الخلق حسن ، ولكن فى الأغنياء أحسن . والتكبر سمج فى الخلق ، ولكن فى الفقراء أسمج .

وقال ذو النون : ثلاثة من علامات التواضع : تصغير النفس معرفة بالعيب ، وتعظيم الناس حرمة للتوحيد ، وقبول الحق والنصيحة من كل واحد .

وقيل لأبى يزيد : متى يكون الرجل متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه حقاما ولا حالا من عله بشرها وازدرائها ولا يرى أن فى الخلق شرا منه .

قال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والبخل ، أحمد من الكبر مع الأدب والسخاء .

وقيل لبعض الحكماء : هل تعرف نعمة لا يحسد عليها ، وبلاء لا يرحم صاحبه عليه ؟ قال : نعم ، أما النعمة فالتواضع ، وأما البلاء فالكبر .

والكشف عن حقيقة التواضع : أن التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة ؛ فالكبر رفع الإنسان نفسه فوق قدره ، والضعة وضع الإنسان نفسه مكانا يزرى به ويفضى إلى تضييع حقه . وقد انفهم من كثير من إشارات المشايخ فى شرح التواضع أشياء إلى حد أقاموا التواضع فيه مقام الضعة ، ويلوح فيه الهوى من أوج الإفراط إلى حضيض التفريط ، ويوهم انحرافا عن حد الاعتدال ، ويكون قصدهم فى ذلك المبالغة فى قمع نفوس المريدين خوفا عليهم من العجب والكبر ؛ فقل أن ينفك مريد فى مبادى ظهور سلطان الحال من العجب ، حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالإعجاب ، وكل ما نقل من ذلك القبيل من المشايخ لبقايا السكر عندهم وانحصارهم فى مضيق سكر الحال وعدم الخروج إلى فضاء الصحو فى ابتداء أمرهم ، وذلك إذا حقق صاحب البصيرة نظره يعلم أنه من استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب ، والنفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لايعفو على الوقت وصلافة الحال فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب ، كقول بعضهم : من تحت خضراء السماء مثلى ؟ وقول بعضهم : قدمى على رقبة جميع الأولياء ، وكقول بعضهم : أسرجت وألجمت وطفت فى أقطار الأرض وقلت هل من مبارز فلم يخرج إلى أحد ، إشارة منه فى ذلك إلى تفرده فى وقته . ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم أنه من استراق النفس السمع فليزن ذلك بميزان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعهم واجتنابهم أمثال هذه الكلمات واستبعادهم أن يحوز للعبد التظاهر بشىء من ذلك ، ولكن يحمل لكلام الصادقين وجه فى الصحة ، ويقال : إن ذلك طفح عليهم فى سكر الحال وكلام السكارى يحمل ؛ فالمشايخ أرباب التمكين لما علموا فى النفوس هذا الداء الدفين بالغوا فى شرح التواضع إلى حد الحقارة بالضعة تداويا للمريدين ، والاعتدال فى التواضع : أن يرضى الإنسان بمنزلة دون مايستحقه ، ولو أمن الشخص جموح النفس لأوقفها على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان ، ولكن لما كان الجموح فى جبلة النفس ـ لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها إلى مركز النار ـ احتاجت فى التداوى بالتواضع وإيقافها دون ما تستحقه لئلا يتطرق إليها الكبر ، فالكبر ظن الإنسان أنه أكبر من غيره ، والتكبر إظهاره ذلك ، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالى ، ومن ادعاها من المخلوقين يكون كاذبا ، والكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل بالانسلاخ من الإنسانية حقيقة ، وقد عظم الله تعالى شأن الكبر بقوله تعالى ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ وقال تعالى ﴿ أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ وقد ورد ، يقول الله تعالى : الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما قصمته ، وفى رواية ، قذفته فى نار جهنم ، وقال

عز وجل ردا للإنسان فى طغيانه إلى حده : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ وقال تعالى ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق ﴾ وأبلغ من هذا قوله تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ﴾ وقد قال بعضهم لبعض المتكبرين : أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك حامل العذرة : وقد نظم الشاعر هذا المعنى :

كيف يزهو من رجيعه ٭ أبد الدهر ضجيعه

وإذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر انتشر أثره فى بعض الجوارح وترشح الإناء بما فيه ؛ فتارة يظهر أثره فى العنق بالتمايل ، وتارة فى الخد بالتصعير . قال الله تعالى ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ وتارة يظهر فى الرأس عند استعصاء النفس . قال الله تعالى ﴿ لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ .

وكما أن الكبر له انقسام على الجوارح والأعضاء تتشعب منه شعب ، فكذلك بعضها أكثف من البعض : كالتيه والزهو والعزة وغير ذلك ، إلا أن العزة تشتبه بالكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود والضعة مذمومة ، والكبر مذموم والعزة محمودة . قال الله تعالى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ والعزة غير الكبر ، ولا يحل لمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه . وإكرامها : أن لا يضعها لأعراض عاجلة دنيوية ، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها . قال بعضهم للحسن : ما أعظمك فى نفسك ! قال : لست بعظيم ولكنى عزيز . ولما كانت العزة غير مذمومة وفيها مشاكلة بالكبر قال الله تعالى ﴿ تستكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ فيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، فالوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر ، ولا يؤيد فى ذلك ولا يثبت عليه إلا أقدام العلماء الراسخين والسادة المقربين ورؤساء الأبدال والصديقين . قال بعضهم : من تكبر فقد أخبر عن نذالة نفسه ، ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه .

وقال الترمذى : التواضع على ضربين : الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونهيه ، فإن النفس لطلب الراحة تتلهى عن أمره ، والشهوة التى فيها تهوى فى نهيه ، فإذا وضع نفسه لأمره ونهيه فهو تواضع . والثانى : أن يضع نفسه لعظمة الله فإن اشتهت نفسه شيئاً مما أطلق له من كل نوع من الأنواع منعها ذلك . وجملة ذلك : أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى

واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه ؛ فعند ذلك تذوب النفس ، وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب ، فتلين وتطيع للحق والخلق لمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها ، وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبينا عليه السلام فى أوطان القرب ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها فى الحديث الطويل قالت : فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فأخذنى ما يأخذ النساء من الغيرة ظنا منى أنه عند بعض أزواجه ، فطلبته فى حجر نسائه فلم أجده ، فوجدته فى المسجد ساجداً كالثوب الخلق وهو يقول فى سجوده « سجد لك سوادى وخيالى ، وآمن بك فؤادى وأقر بك لسانى ، وها أنا ذا بين يديك ، يا عظيم يا غافر الذنب العظيم » وقوله عليه السلام « سجد لك سوادى وخيالى » استقصاء فى التواضع بمحو آثار الوجود حيث لم تتخلف ذرة منه عن السجود ظاهراً وباطنا ، ومتى لم يكن للصوفى حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفر حظه فى التواضع للخلق ، وهذه سعادات إن أقبلت جاءت بكليتها . والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية .

ومن أخلاق الصوفية : المداراة واحتمال الأذى من الخلق ، وبلغ من مداراة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود ، فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحق ، بل وداه بمائة ناقة من قبله وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به .

وكان من حسن مداراته أن لا يذم طعاما ولا ينهر خادما . أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على ،

قال أخبرنا أبو الفتح الكرخى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط وما قال لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، وما مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالمداراة مع كل أحد من الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية وباحتمال الأذى يظهر جوهر النفس . وقد قيل لكل شىء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو محمد الصريفينى ، قال أخبرنا أبو القاسم عبيدالله ابن حبابة ، قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز ، قال حدثنا على بن الجعد ، قال أخبرنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : من هو ؟ قال : ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « المؤمن الذى يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لايخالطهم ولا يصبر على أذاهم » وفى الخبر « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم » قيل : ماذا كان يصنع أبو ضمضم ؟ قال « كان إذا أصبح قال : اللهم إنى تصدقت اليوم بعرضى على من ظلمنى ، فمن ضربنى لا أضربه ، ومن شتمنى لا أشتمه ، ومن ظلمنى لا أظلمه » .

وأخبرنا ضياء الدين عبدالوهاب قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال حدثنا الترياقى ، قال أخبرنا الجراحى ؛ قال أخبرنا المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا ابن أبى عمر ، قال حدثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال : بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة ، ثم أذن له فألان له القول ؛ فلما خرج قلت : يارسول الله قلت له ماقلت ثم ألنت له القول قال : « ياعائشة إن من شر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فحشه » وروى أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » فماشىء يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه كحسن المداراة ، والنفس لا تزال تشمئز من يعكس مرادها ؛ ويستفزها الغيظ والغضب ، بالمداراة قطع حمة النفس ورد طيشها ونفورها . وقد ورد « من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء » . وروى جابر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم على من تحرم النار ؟ على كل هين لين سهل قريب » . وروى أبو مسعود الأنصارى رضى الله عنه قال : أتى النبى عليه السلام برجل فكلمه فأرعد فقال : « هون عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

وعن بعضهم فى معنى لين جانب الصوفية :

هينون لينون أيسار بنو يسر * سواس مكرمة أبناء أيسار
لاينطقون عن الفحشاء إن نطقوا * ولا يمارون إن ماروا بإكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم * مثل النجوم التى يسرى بها السارى

وروى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير » .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله الماليني ، قال أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن أبى طلحة الداودى ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله الحموى السرخسى ، قال أخبرنا أبو عمران عيسى بن عمر السمرقندى ، قال أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن الدرامى ، قال أخبرنا محمد بن أحمد بن أبى خلف ،

قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد عن محمد بن إسحق قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن رجل من العرب قال : زحمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وفي رجلي نعل كثيفة ، فوطئت بها على رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنفحني نفحة بسوط في يده وقال « بسم الله أوجعتني » قال . فبت لنفسي لائماً أقول : أوجعت رسول الله ، قال : فبت بليلة كما يعلم الله ؛ فلما أصبحنا إذا رجل يقول : أين فلان ؟ قلت : هذا والله الذي كان مني بالأمس . قال : فانطلقت وأنا متخوف ، فقال لي : « إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس فأوجعتني ، فنفحتك نفحة بالسوط فهذه ثمانون نعجة فخذها بها » .

ومن أخلاق الصوفية : الإيثار والمواساة ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعاً ، وقوة اليقين شرعاً ، يؤثرون بالموجود ويصبرون على المفقود .

قال أبو يزيد البسطامي : ما غلبني أحد ما غلبني شاب من أهل بلخ ، قدم علينا حاجاً فقال لي : يا أبا يزيد ، ما حد الزهد عندك ؟ قلت : إذا وجدنا أكلنا ، وإذا فقدنا صبرنا ، فقال : هكذا عندنا كلاب بلخ ، فقلت له : وما حد الزهد عندكم ؟ قال : إذا فقدنا شكرنا ، وإذا وجدنا آثرنا .

وقال ذو النون : من علامة الزاهد المشروح صدره ثلاث : تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، والإيثار بالقوت .

روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النضير للأنصار « إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم شيئاً من الغنيمة » فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصابه جهد فقال : يا رسول الله ، إني جائع فأطعمني ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى أزواجه ، هل عندكن شيء ؟ ، فكلهن قلن : والذي بعثك بالحق نبياً ما عندنا إلا الماء ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماعندنا ما نطعمك هذه الليلة » ثم قال « من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله ؟ » فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ؛ فأتى به منزله فقال لأهله : هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرميه ولا تدخري عنه شيئاً ؛ فقالت : ماعندنا إلا قوت الصبية ؛ فقال : فقومي عليهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعمون شيئاً ثم اسرجي ، فإذا أخذ الضيف ليأكل قومي كأنك تصلحين السراج فأطفئيه وتعالي نمضغ ألسنتنا لضيف رسول الله حتى يشبع ضيف رسول الله ، فقامت إلى الصبية فعللتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيئاً ، ثم قامت فأثردت وأسرجت ؛ فلما أخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته ، فجعلا يمضغان ألسنتهما لضيف رسول الله ، وظن الضيف أنهما يأكلان معه حتى شبع الضيف وباتا طاويين ؛ فلما أصبحا غدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نظر إليهما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة » وأنزل الله تعالى ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

قال أنس رضي الله عنه : أهدي لبعض أصحابه رأس شاة مشوي ـ وكان مجهوداً ـ فوجه به إلى جار له ، فتداوله سبعة أنفس ثم عاد إلى الأول ؛ فأنزلت الآية لذلك .

وروى أن أبا الحسن الأنطاكي اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية بقرب الري وله أرغفة معدودة لم تشبع خمسة منهم ، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام ؛ فلما رفعوا الطعام فإذا هو بحاله لم يأكل أحد منهم إيثاراً منه على نفسه .

وحكى عن حذيفة العدوي قال انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لي معي شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه ، فإذا أنا به ، فقلت : أسقيك ، فأشار إلي أن نعم ؛ فإذا رجل يقول : آه ، فقال ابن عمي : انطلق به إليه ، فجئت إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ، فسمع هشام آخر يقول : آه ، فقال ، انطلق

به إليه ، فجئت إليه فإذا هو قد مات ، ثم رجعت إلى هشام ، فإذا هو أيضا قد مات ، ثم رجعت إلى ابن عمى ، فإذا هو أيضا قد مات .

وسئل أبو الحسين البوشنجى عن الفتوة؟ قال : الفتوة عندى ماوصف الله تعالى به الأنصار فى قوله ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان ﴾ قال ابن عطاء : ﴿ يؤثرون على أنفسهم ﴾ جودا وكرما ﴿ ولو كان بهم خصاصة ﴾ . يعنى جوعا وفقرا .

قال أبو حفص : الإيثار هو أن يقدم حظوظ الإخوان على حظوظه فى أمر الدنيا والآخرة .

وقال بعضهم : الإيثار لايكون عن اختيار ، إنما الإيثار أن تقدم حقوق الخلق أجمع على حقك ، ولاتميز فى ذلك بين أخ وصاحب وذى معرفة .

وقال يوسف بن الحسين : من رأى لنفسه ملكا لايصح منها الإيثار ، لأنه يرى نفسه أحق بالشىء برؤية ملكه ، إنما الإيثار عن يرى الأشياء كلها للحق ؛ فمن وصل إليه فهو أحق به ، فإذا وصل شىء من ذلك إليه يرى نفسه ويده فيه يد أمانة يوصلها إلى صاحبها أو يؤديها إليه .

وقال بعضهم : حقيقة الإيثار أن تؤثر بحظ آخرتك على إخوانك ، فإن الدنيا أقل خطرا من أن يكون للإيثار محل أو ذكر . ومن هذا المعنى مانقل أن بعضهم رأى أخا له فلم يظهر البشر الكثير فى وجهه ، فأنكر أخوه ذلك منه ، فقال : يا أخى سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا التقى المسلمان نزل عليها مائة رحمة تسعون لأكثرهما بشرا ، وعشرة لأقلهما بشرا » فأردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر .

أخبرنا الشيخ ضياء الدين أبو النجم إجازة ، قال أخبرنا أبو حفص عمر بن الصفار النيسابورى قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، قال : سمعت أبا القاسم الرازى يقول : سمعت أبا بكر بن أبى سعدان يقول : من صحب الصوفية فليصحبهم بلانفس ولاقلب ولاملك ، فمن نظر إلى شىء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده .

وقال سهل بن عبدالله : الصوفى من يرى دمه هدرا وملكه مباحا .

وقال رويم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار وترك التعرض والاختيار .

قيل : لما سعى بالصوفية وتميز الجنيد بالفقه وقبض على الشحام والرقام والنورى وبسط النطع لضرب رقابهم ، تقدم النورى فقيل له : إلى ماذا تبادر ؟ فقال : أوثر إخوانى بفضل حياة ساعة .

وقيل : دخل الروذبارى دار بعض أصحابه فوجده غائبا وباب بيته مغلق ، فقال : صوفى وله باب مغلق ، اكسروا الباب فكسروه وأمر بجميع ماوجدوا فى البيت أن يباع ، فأنفذوه إلى السوق واتخذوا من ذلك الثمن رفقا وقعدوا فى الدار ، فدخل صاحب المنزل ولم يقل شيئا ، ودخلت امرأته وعليها كساء ، فدخلت بيتا فرمت بالكساء وقالت : هذا أيضا من بقية المتاع فبيعوه ، فقال الزوج لها : لم تكلفت هذا باختيارك ؟ قالت : اسكت مثل الشيخ يباسطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شىء ندخره عنه .

وقيل : مرض قيس بن سعد فاستبطأ إخوانه فى عيادته ، فسأل عنهم فقالوا : إنهم يستحيون بما لك عليهم من الدين ، فقال : أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا ينادى : من كان لقيس عليه مال فهو منه فى حل ، فكسرت عتبة داره بالعشى لكثرة عواده .

وقيل : أتى رجل صديقا له ودق عليه الباب ، فلما خرج قال : لماذا جئتنى ؟ قال : لأربعمائة درهم دين على ، فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه ودخل الدار باكيا ، فقالت امرأته : هلا تعللت حين شق عليك الإجابة ، فقال : إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج أن يفاتحنى .

وأخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي ، قال أخبرنا محمد بن محمد إمام جامع أصفهان : قال حدثنا أبو عبد الله الجرجاني ، قال حدثنا أبو طاهر محمد بن الحسن المحمد اباذى ، قال حدثنا أبو البختري ، قال حدثنا أبو أسامة قال حدثنا زيد بن أبي بردة عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو وقل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم » .

وحدث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه إذا أراد أن يغزو قال « يامعشر المهاجرين والأنصار ، إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عدة ، فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة ، فما لأحدكم من ظهر جمله إلا عقبة كعقبة أحدهم » قال : فضممت إلى اثنين أو ثلاثة مالي إلا عقبة كعقبة أحدهم من جمله .

وروى أنس قال : لما قدم عبدالرحمن بن عوف المدينة آخى النبي عليه السلام بينه وبين سعد بن الربيع فقال له : أقاسمك مالي نصفين ، ولي امرأتان فأطلق إحداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك .

فحال الصوفي في الإيثار الاطهارة نفسه وشرف غريزته ، وما جعله الله تعالى صوفيا إلا بعد أن سوى غريزته لذلك ، وكل من كانت غريزته السخاء والسخي يوشك أن يصير صوفيا ، لأن السخاء صفة الغريزة ، وفي مقابلته الشح، والشح من لوازم صفة النفس . قال الله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ حكم بالفلاح لمن يوقى الشح ، وحكم بالفلاح لمن أنفق وبذل فقال ﴿ ومما رزقناهم ينفقون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ والفلاح : أجمع اسم لسعادة الدارين ، والنبي عليه السلام نبه بقوله « ثلاث مهلكات ... وثلاث منجيات » فجعل إحدى المهلكات شحا مطاعا ، ولم يقل بمجرد الشح يكون مهلكا بل يكون مهلكا إذا كان مطاعا ، فأما كونه موجودا في النفس غير مطاع فإنه لا ينكر ذلك ، لأنه من لوازم النفس مستمدا من أصل جبلتها التراب ، وفي التراب قبض وإمساك ، وليس ذلك بالعجب من الآدمي وهو جبلي فيه : وإنما العجب وجود السخاء في الغريزة ، وهو لنفوس الصوفية الداعي لهم إلى البذل والإيثار والسخاء أتم وأكمل من الجود ففي مقابلة الجود البخل ، وفي مقابلة السخاء الشح ، والجود والبخل يتطرق إليهما الاكتساب بطريق العادة بخلاف ، الشح والسخاء إذا كان من ضرورة الغريزة ، وكل سخي جواد ، وليس كل جواد سخيا ، والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء ، لأن السخاء من نتيجة الغرائز والله تعالى منزه عن الغريزة ، والجود يتطرق إليه الرياء ويأتي به الإنسان متطلعا إلى عوض من الخلق أو الحق بمقابل ما من الثناء وغيره من الخلق والثواب من الله تعالى . والسخاء لا يتطرق إليه الرياء لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة من الأعواض دنيا وآخرة ، لأن طلب العوض مشعر بالبخل لكونه معلولا بطلب العوض ، فما تمحض سخاء ، فالسخاء لأهل الصفاء ، والإيثار لأهل الأنوار ويجوز أن يكون قوله تعالى ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ أنه نفى في الآية الإطعام لطلب الأعواض حيث قال ﴿ لا نريد ﴾ بعد قوله ﴿ لوجه الله ﴾ فما كان لله لا يشعر بطلب العوض ، بل الغريزة لطهارتها تنجذب إلى مراد الحق لا العوض ، وذلك أكمل السخاء من أطهر الغرائز .

روت أسماء بنت أبي بكر قالت : قلت يا رسول الله ، ليس لي من شيء إلا ما أدخل على الزبير فأعطي ؟ قال « نعم ، لا توكي فيوكى عليك » .

ومن أخلاق الصوفية . التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة . قال سفيان : الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنقد السوق خذ شيئا وهات شيئا وقال الحسن . الإحسان أن تعم ولا تخص كالشمس والريح والغيث .

وروى أنس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت قصوراً مشرفة على الجنة فقلت : ياجبريل لمن هذه ؟ قال ، للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

روى أبو هريرة رضى الله عنه : أن أبا بكر رضى الله عنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس ، فجاء رجل فوقع في أبي بكر وهو ساكت والنبي عليه السلام يتبسم ، ثم رد أبو بكر عليه بعض الذي قال ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام ، فلحقه أبو بكر فقال : يارسول الله شتمني وأنت تبتسم ثم رددت عليه بعض ما قال فغضبت وقمت ؟ فقال : إنك حيث كنت ساكتا كان معك ملك يرد عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان فلم أكن لأقعد في مقعد فيه الشيطان ، ياأبا بكر ، ثلاث كلهن حق : ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها إلا أعز الله نصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة ، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها كثرة .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال : أخبرنا الكرخي ، قال أخبرنا الترياقي ، قال أخبرنا الجراحي ، قال أخبرنا المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا أبو هشام الرفاعي ، قال حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد ابن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » .

وقال بعض الصحابة : يارسول الله الرجل أمر به فلا يقريني ولا يضيفني ، فيمربي أفأجزيه ؟ قال « لا ، أقره » .

وقال الفضيل : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الواصل المكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مكارم الأخلاق أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك » .

ومن أخلاق الصوفية : البشر وطلاقة الوجه ، الصوفي بكاؤه في خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس ، فالبشر على وجهه من آثار أنوار قلبه ، وقد تنازل باطن الصوفي منازلات إلهية ومواهب قدسية يرتوى منها القلب ، ويمتلئ فرحا وسرورا ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ والسرور إذا تمكن من القلب فاض على الوجه آثاره ، قال الله تعالى ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ أي مضيئة مشرقة ﴿ ضاحكة مستبشرة ﴾ أي فرحة ، قيل : أشرقت من طول ما اغبرت في سبيل الله ، ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة ، فالوجه مشكاة والقلب زجاج والروح مصباح ؛ فإذا تنعم القلب بلذيذ المسامرة ظهر البشر على الوجه . قال الله تعالى ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ أي نضارته وبريقه ، يقال أنضر النبات إذا أزهر ونور ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ فلما نظرت نضرت ، فأرباب المشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور المشاهدة وانصقلت مرآة قلوبهم وانعكس فيها نور الجمال الأزلي ، وإذا أشرقت الشمس على المرآة المصقولة استنارت الجدران ، قال الله تعالى ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ وإذا تأثر الوجه بسجود الظلال ، وهي القوالب في قول الله تعالى ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ كيف لايتأثر بشهود الجمال .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا الكرخي ، قال أخبرنا الترياقي ، قال أخبرنا الجراحي ، قال أخبرنا المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك » .

وقال سعد بن عبد الرحمن الزبيدي : يعجبني من القراء كل سهل طلق مضحاك ؛ فأما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمن عليك ، فلا أكثر الله في القراء مثله .

ومن أخلاق الصوفية : السهولة ولين الجانب والنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم وترك التعسف والتكلف ، وقد روى في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار . وأخلاق الصوفية تحاكي أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول عليه الصلاة والسلام « أما إني أمزح ولا أقول إلا حقا » روى أن رجلا يقال له زاهر بن حرام ، وكان بدويا ، وكان لايأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا جاء بطرفة يهديها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء يوما

من الأيام فوجده رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق المدينة يبيع سلعة له ولم يكن أتاه ذلك اليوم ، فاحتضنه النبى عليه السلام من ورائه بكفيه ، فالتفت فأبصر النبى عليه السلام فقبل كفيه ، فقال النبى عليه السلام « من يشترى العبد ؟ » فقال : إذن تجدنى كاسدا يارسول الله ، فقال « ولكن عند الله ربيح » ثم قال عليه السلام « لكل أهل حضر بادية وبادية آل محمد زاهر بن حرام » .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ المقدسى عن أبيه ، قال أخبرنا المطهر بن محمد الفقيه ، قال أخبرنا أبو الحسن قال أخبرنا أبو عمرو بن حكيم ، قال أخبرنا أبو أمية ، قال حدثنا عبيد بن إسحق العطار ، قال حدثنا سنان بن هرون عن حميد عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، احملنى على جمل ، فقال : « أحملك على ابن الناقة » قال : أقول لك احملنى على جمل وتقول أحملك على ابن الناقة ؟ فقال عليه السلام « فالجمل ابن الناقة » .

وروى صهيب فقال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه تمر يأكل ، فقال « أصب من هذا الطعام » فجعلت آكل من التمر ، فقال « أتأكل وأنت رمد ؟ » فقلت : إذن أمضغ من الجانب الآخر ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم « ياذا الأذنين » .

وسئلت عائشة رضى الله عنها : كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا فى البيت ؟ قالت : كان ألين الناس بساما ضحاكا . وروت أيضا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ، ثم سابقها بعد ذلك فسبقها ، فقال : « هذه بتلك » .

وأخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الحافظ الترمذى ، قال حدثنا عبد الله بن الوضاح الكوفى ، قال حدثنا عبد الله بن إدريس عن أبى التياح عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخاطبنا حتى إنه كان يقول لأخ لى صغير « يا أبا عمير ما فعل النغير » والنغير : عصفور صغير .

وروى أن عمر سابق زبيرا رضى الله عنهما فسبقه الزبير ، فقال : سبقتك ورب الكعبة ، ثم سابقه مرة أخرى فسبقه عمر ، فقال عمر : سبقتك ورب الكعبة . وروى عبد الله بن عباس قال : قال لى عمر : تعال أنافسك فى الماء أينا أطول نفسا ، ونحن محرمون .

وروى بكر بن عبد الله قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمازحون حتى يتبادحون بالبطيخ ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال . يقال : بدح يبدح : إذا رمى ، أى يترامون بالبطيخ .

وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال : أخبرنا الحسن بن أحمد الكرخى ، قال حدثنا أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله ، حدثنى إسحق الحربى ، قال حدثنا أبو سلمة ، قال حدثنا حماد بن خالد ، قال أخبرنا محمد بن عمرو بن علقمة ، قال حدثنا أبو الحسن بن محيصن الليثى عن يحيى بن عبد الرحمن ابن حاطب بن أبى بلتعة قال : إن عائشة رضى الله عنها قالت : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم بحريرة طبختها له وقلت لسودة والنبى صلى الله عليه وسلم بينى وبينها : كلى ، فأبت ، فقلت لها : كلى ، فأبت ، فقلت : لتأكلن أو لألطخن بها وجهك ، فأبت ، فوضعت يدى فى الحريرة فلطخت بها وجهها ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ، فوضع فخذه وقال لسودة : الطخى وجهها ، فلطخت بها وجهى ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فمر عمر رضى الله عنه على الباب فنادى : ياعبد الله ياعبد الله ، فظن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سيدخل ، فقال قوما فاغسلا وجهيكما ، فقالت عائشة رضى الله عنها فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه .

ووصف بعضهم ابن طاوس فقال : كان مع الصبي صبيا ومع الكهل كهلا وكان فيه مزاحة إذا خلا .

وروى معاوية بن عبد الكريم قال : كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين ، وكان يقول ونمزح عنده ويمازحنا وكنا نخرج من عنده ونحن نضحك ، وكنا إذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكى ؛ فهذه الأخبار والآثار دالة على حسن لين الجانب وصحة حال الصوفية وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من المداعبة فى الربط وينزلون مع الناس على حسب طباعهم لنظرهم إلى سعة رحمة الله ؛ فإذا خلوا وقفوا موقف الرجال واكتسوا ملابس الأعمال والأحوال ، ولا يقف فى هذا المعنى على حد الاعتدال إلا صوفى قاهر للنفس عالم بأخلاقها وطباعها سائس لها بوفور العلم ، حتى يقف فى ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط ، ولا يصلح الإكثار من ذلك للمريدين المبتدئين لقلة علمهم ومعرفتهم بالنفس وتعديهم حدّ الاعتدال ؛ فللنفس فى هذه المواطن نهضات ووثبات تجر إلى الفساد وتجنح إلى العناد ، فالنزول إلى طباع الناس يحسن بمن صعد عنهم وترقى لعلو حاله ومقامه ، فينزل إليهم وإلى طباعهم حين ينزل بالعلم ؛ فأما من لم يصعد بصفاء حاله عنهم وفيه بقية مزح من طباعهم ونفوسهم الجامحة الأمارة بالسوء ، إذا دخلت فى هذه المداخل أخذت النفس حظها واغتنمت مآربها واستروحت إلى الرخصة ، والنزول إلى الرخصة يحسن لمن يركب العزيمة غالب أوقاته ، وليس ذلك شأن المبتدئ ؛ فللصوفية العلماء فيما ذكرناه ترويح يعلمون حاجة القلب إلى ذلك ، والشىء إذا وضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة ، ومعيار مقدار الحاجة فى ذلك علم غامض لا يسلم لكل أحد

قال سعيد بن العاص لابنه : اقتصد فى مزاحك فالإفراط فيه يذهب بالبهاء ويجرئ عليك السفهاء وتركه يغيظ المؤانسين ويوحش المخالطين . قال بعضهم : المزاح مسلبة للبهاء مقطعة للإخاء ، وكما يصعب معرفة الاعتدال فى ذلك يصعب معرفة الاعتدال فى الضحك ، والضحك من خصائص الإنسان ويميزه عن جنس الحيوان ، ولا يكون الضحك إلا عن سابقة تعجب ، والتعجب يستدعى الفكر ، والفكر شرف الإنسان وخاصيته ، ومعرفة الاعتدال فيه أيضا شأن من ترسخ قدمه فى العلم ، ولهذا قيل : إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ، وقيل : كثرة الضحك من الرعونة وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال « إن الله تعالى يبغض الضحاك من غير عجب ، المشاء فى غير أرب » وذكر فرق بين المداعبة والمزاح ، فقيل : المداعبة مالا يغضب جده ، والمزاح ما يغضب جده وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله القهقهة فى الصلاة من الذنب ، وحكم ببطلان الوضوء بها ، وقال : يقوم الإثم مقام خروج الخارج ؛ فالاعتدال فى المزاح والضحك لا يتأتى إلا إذا خلص وخرج من مضيق الخوف والقبض والهيبة ، فإنه يتقوم بكل مضيق من هذه المضايق بعض التقويم ، فيعتدل الحال فيه ويستقيم ؛ فالبسط والرجاء ينشئان المزاح والضحك والخوف والقبض يحكمان فيه بالعدل .

ومن أخلاق الصوفية : ترك التكلف ، وذلك أن التكلف تصنع وتعمل وتمايل على النفس لأجل الناس ، وذلك يباين حال الصوفية ، وفى بعضه خفى منازعة للأقدار ، وعدم الرضا بما قسم الجبار . ويقال : التصوف ترك التكلف ، ويقال . التكلف تخلف وهو تخلف عن شأن الصادقين . روى أنس بن مالك قال : شهدت وليمة لرسول الله ما فيها خبز ولا لحم . وروى عن جابر : أنه أتاه ناس من أصحابه فأتاهم بخبز وخل وقال : كلوا فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نعم الإدام الخل » . وعن سفيان بن سلمة قال دخلت على سلمان الفارسى فأخرج إلى خبزا وملحا وقال كل ، لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن يتكلف أحد لأحد لتكلفت لكم . والتكلف مذموم فى جميع الأشياء كالتكلف بالملبوس للناس من غير نية فيه ، والتكلف فى الكلام وزيادة التملق الذى صار دأب أهل الزمان ؛ فما يكاد يسلم من ذلك إلا آحاد وأفراد . وكم من متملق لا يعرف أنه تملق ولا يفطن له ؛ فقد يتملق الشخص إلى حد يخرجه إلى صريح النفاق وهو مباين لحال الصوفى .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا أحمد بن منيع قال حدثنا يزيد بن هرون عن محمد بن مطرف عن حسان بن عطية عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« الحياء والعى شعبتان من الإيمان ، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق » البذاء : الفحش ، وأراد بالبيان ههنا : كثرة الكلام والتكلف للناس بزيادة تملق وثناء عليهم وإظهار التفصح ، وذلك ليس من شأن أهل الصدق .

وحكى عن أبى وائل قال : مضيت مع صاحب لى نزور سلمان ؛ فقدم إلينا خبز شعير وملحا جريشا ؛ فقال صاحبى لو كان فى هذا الملح سعتر كان أطيب ، فخرج سلمان ورهن مطهرته وأخذ سعترا ، فلما أكلنا قال صاحبى الحمد لله الذى قنعنا بما رزقنا ؛ فقال سلمان : لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتى مرهونة . وفى هذا من سلمان ترك التكلف قولا وفعلا

وفى حديث يونس النبى عليه السلام : أنه زاره إخوانه فقدم إليهم كسرا من خبز شعير وجز لهم بقلا كان يزرعه ثم قال : لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم .

قال بعضهم : إذا قصدت للزيارة فقدم ماحضر ، وإذا استزرت فلا تبق ولا تذر .

وروى الزبير بن العوام قال : نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما « اللهم اغفر للذين يدعون لأموات أمتى ولا يتكلفون ، ألا إنى برىء من التكلف وصالحو أمتى » .

وروى أن عمر رضى الله عنه قرأ قوله تعالى ﴿فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا﴾ ثم قال : هذا كله قد عرفناه فما الأب ؟ قال : وبيد عمر عصاه فضرب بها الأرض ثم قال : هذا لعمر الله هو التكلف ؛ فخذوا أيها الناس مابين لكم منه ، فما عرفتم اعملوا به ومن لم تعرفوا فكلوا علمه إلى الله .

ومن أخلاق الصوفية : الإنفاق من غير إقتار ، وترك الادخار ؛ وذلك أن الصوفى يرى خزائن فضل الحق ، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطئ بحر ، والمقيم على شاطىء البحر لا يدخر الماء فى قربته وراويته : روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مامن يوم إلا له ملكان يناديان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » وروى أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئا لغد وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر ، فأطعم خادمه طيرا ، فلما كان الغد أتاه به فقال رسول الله « ألم أنهك أن تخبأ شيئا لغد ، فإن الله تعالى يأتى برزق كل غد » . وروى أبو هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على بلال وعنده صبرة من تمر ، فقال « ماهذا يابلال ؟ » فقال : أدخر يارسول الله قال « أماتخشى ، أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا » .

وروى أن عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم كان يأكل الشجر ، ويلبس الشعر ، ويبيت حيث أمسى ، ولم يكن له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، ولا يخبأ شيئا لغد .

فالصوفى كل خباياه فى خزائن الله اصدق توكله وثقته بربه ، فالدنيا للصوفى كدار الغربة ليس له فيها ادخار ولا له منها استكثار . قال عليه السلام « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب قال أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله المالينى ، قال أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودى ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله السرخسى ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندى ، قال أخبرنا عبد الله ابن عبد الرحمن الدارمى ، قال أخبرنا محمد بن يوسف عن سفيان عن ابن المنكدر عن جابر قال ماسئل النبى صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا . قال ابن عيينة إذا لم يكن عنده وعد .

وبالإسناد عن الدارمى قال أخبرنا يعقوب بن حميد ، قال أخبرنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخى الزهرى ، قال إن جبريل عليه السلام قال مافى الأرض أهل عشيرة من أبيات إلا قلبتهم ، فما وجدت أحداً أشد إنفاقا لهذا المال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا قال ذو النون المصرى من قنع استراح من أهل زمانه واستطال على أقرانه . وقال بشر بن الحارث لو لم يكن فى القناعة إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه . وقال بنان الحمال

الحر عبد ما طمع * والعبد حر ما قنع

وقال بعضهم : انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص .
وقال أبو بكر المراغى : العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ، ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل .
وقال يحيى بن معاذ : من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه .
وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه : القناعة سيف لا ينبو .
أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبى الفضل قال أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن الحسن الخلال ببغداد قال أخبرنا ابو حفص عمر بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو القاسم البغوى ، قال حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا أبو سعيد عن صدقة بن الربيع عن عمارة بن عزية عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الأعواد يقول « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا ثم صبر عليه » .
وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا وقال « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » .
وروى جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « القناعة مال لا ينفد » .
وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : كونوا أوعية الكتاب وينابيع الحكمة ، وعــدوا أنفسكم فى الموتى ، واسألوا الله تعالى الرزق يوما بيوم ، ولا يضركم أن لا يكثر لكم .
وأخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبى الفضل والده ، قال أخبرنا أبو القاسم إسمعيل بن عبدالله الشاوى قال أخبرنا أحمد بن على الحافظ ، قال أخبرنا أبو عمرو بن حمدان ، قال حدثنا الحسن بن سفيان ، قال حدثنا عمرو بن مالك البصرى ، قال حدثنا مروان بن معاوية ، قال حدثنا عبد الرحمن بن أبى سلمة الأنصارى ، قال أخبرنى سلمة بن عبدالله ابن محصن عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا » وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ هى القناعة .
فالصوفى قوام على نفسه بالقسط ، عالم بطبائع النفس وجدوى القنـاعة والتوصل إلى استخراج ذلك من النفس اعلمه بدائها ودوائها .
وقال أبو سليمان الدارانى : القناعة من الرضا كما أن الورع من الزهد .
ومن أخلاق الصوفية : ترك المراء والمجادلة والغضب إلا بحق واعتمادا الرفق والحلم ؛ وذلك أن النفوس تثب وتظهر فى المماريين . والصوفى كلما رأى نفس صاحبه ظاهرة قابلها بالقلب ، وإذا قوبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة وانطفأت الفتنة . قال الله تعالى تعليما لعباده ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ ولا ينزع المراء إلا من نفوس زكية انتزع منها الغل ، ووجود الغل فى النفوس مراء الباطن ، وإذا انتزع المراء من الباطن ذهب من الظاهر أيضا ؛ وقد يسكون الغل فى النفس مع من يشاكله ويماثله لوجود المنافسة ، ومن استقصى فى تذويب النفس بنار الزهادة فى الدنيا ينمحى الغل من باطنه ، ولا تبقى عنده منافسة دنيوية فى حظوظ عاجلة من جاه ومال : قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة المتقين ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ قال أبو حفص : كيف يبقى الغل فى قلوب ائتلفت بالله واتفقت على محبته واجتمعت على مودته وأنست بذكره ؛ فإن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع ، بل كحلت بنور التوفيق فصارت إخوانا ؛ فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتمعين على الكلمة الواحدة ، ومن التزم بشروط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق .
والناس رجلان : رجل طالب ما عندالله تعالى ويدعو إلى ما عندالله نفسه وغيره ؛ فما للمحق الصوفى مع هذا منافسة ومراء وغل ، فإن هذا معه فى طريق واحد ووجهة واحدة ، وأخوه ومعينه ، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا . ورجل مفتتن بشىء من محبة الجاه والمال والرياسة وفتنة الخلق ، فالصوفى مع هذا منافسة لأنه زاهد فيما فيه راغب ، فمن شأن الصوفى أن ينظر إلى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه محجوبا مفتتنا فلا ينطوى له على غل ولا يماريه

فى الظاهر على شىء ، لعله بظهور نفسه الأمارة بالسوء فى المراء والمجادلة

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا زياد بن أيوب ، قال حدثنا المحاربى عن ليث عن عبد الملك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تمار أخاك ولا تعده موعدا فتخلفه » .

وفى الخبر « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بنى له فى وسطها ، ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها » .

وأخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السهروردى محمد بن أبى عبدالله المالينى ، قال أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودى ، قال أخبرنا أبو محمد عبدالله بن أحمد الحموى ، قال أخبرنا أبو عمران عيسى السمرقندى ، قال أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن الدارمى ، قال حدثنا يحيى بن بسطام عن يحيى بن حمزة قال : حدثنا النعمان بن مكحول عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلب العلم ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء أو يريد أن يقبل بوجوه الناس إليه ، أدخله الله تعالى جهنم » انظر كيف جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم المماراة مع السفهاء سببا لدخول النار ، وذلك بظهور نفوسهم فى طلب القهر والغلبة ، والقهر والغلبة من صفات الشيطنة فى الآدمى .

قال بعضهم : المجادل المارى يضع فى نفسه عند الخوض فى الجدال أن لا يقتنع بشىء ، ومن لا يقتنع إلا أن لا يقتنع فإلى إقناعه سبيل ، فنفس الصوفى تبدلت صفاتها وذهب عنه صفة الشيطنة والسبعية ، وتبدل باللين والرفق والسهولة والطمأنينة .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » انظر كيف جعل النبى صلى الله عليه وسلم من شرط الإسلام سلامة القلب واللسان .

وروى عنه عليه السلام أنه مر بقوم وهم يحدون حجرا . قال : «ماهذا . ؟ » قالوا : هذا حجر الأشداء . قال : «ألا أخبركم بأشد من هذا ؟ رجل كان بينه وبين أخيه غضب فأتاه فغلب شيطانه وشيطان أخيه فكلمه » .

وروى أنه جاء غلام لأبى ذر وقد كسر رجل شاة فقال أبو ذر : من كسر رجل هذه الشاة ؟ فقال : أنا قال : ولم فعلت ذلك ؟ قال : عمدا فعلت . قال : ولم قال أغيظك فتضربنى فتأثم ، فقال أبو ذر : لأغيظن من حضك على غيظى ، فأعتقه .

وروى الأصمعى عن أعرابى قال إذا أشكل عليك أمران لاتدرى أيهما أرشـــد فخالف أقربهما إلى هواك ، فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبى الفضل قال أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن على قال أخبرنا خورشيد ، قال حدثنا إبراهيم بن عبدالله قال حدثنا أحمد بن محمد بن سليم قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا سعيد بن سعد عن أخيه عن جده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فخشية الله فى السر والعلانية ، والحكم بالحق عند الغضب والرضا ، والاقتصاد عند الفقر والغنى . وأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح إلا من عالم ربانى أمير على نفسه يصرفها بعقل حاضر وقلب يقظان ونظر إلى الله بحسن الاحتساب . .

نقل أنهم كانوا يتوضأون عن إيذاء المسلم ، يقول بعضهم لأن أتوضأ من كلمة خبيثة أحب إلى من أن أتوضأ من طعام طيب .

وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما الحدث حدثان : حدث من فرجك ، وحدث من فيك ، فلا يحل حبوة الوقار والحلم إلا الغضب ويخرج عن حد العدل إلى العدوان بتجاوز الحد ، فبالغضب يثور دم القلب ، فإن كان الغضب

على من فوقه عما يعجز عن إنفاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجلد واجتمع فى القلب ويصير منه الهم والحزن والانكاد ، ولاينطوى الصوفى على مثل هذا ؛ لأنه يرى الحوادث والأعراض من الله تعالى فلاينكد ولايغتم . والصوفى صاحب الرضا صاحب الروح والراحة ، والنبى عليه السلام أخبر أن الهم والحزن فى الشك والسخط .

سئل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن الغم والغضب ؟ قال : مخرجهما واحد واللفظ مختلف ، فمن نازع من يقوى عليه أظهره غضبا ، ومن نازع من لايقوى عليه كتمه حزنا . والحرد : غضب أيضا ولكن يستعمل إذا قصد المغضوب عليه ، وإن كان الغضب على من يشاكله ويماثله من يتردد الانتقام منه يتردد القلب بين الانقباض والانبساط فيتولد منه الغل والحقد ولايأوى مثل هذا إلى قلب الصوفى . قال الله تعالى ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ وسلامة قلب الصوفى وحاله يقذف زبد الغل والحقد كما يقذف البحر الزبد ، لما فيه من تلاطم أمواج الأنس والهيبة ، وإن كان الغضب على من دونه ممن يقدر على الانتقام منه ثار دم القلب ، والقلب إذا ثار دمه يحمر ويقسو ويتصلب وتذهب عنه الرقة والبياض ، ومنه تحمر الوجنتان ، لأن الدم فى القلب ثار وطلب الاستعلاء وانتفخت منه العروق ، فظهر عكسه وأثره على الخد ، فيتعدى الحدود حينئذ بالضرب والشتم ، ولايكون هذا فى الصوفى إلا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى ؛ فأما فى غير ذلك فينظر الصوفى إلى الله تعالى عند الغضب ، ثم تقواه تحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل ، ويتهم النفس بعدم الرضا بالقضاء .

قيل لبعضهم : من أقهر الناس لنفسه ؟ قال : أرضاهم بالمقدور . وقال بعضهم : أصبحت ومالى سرور إلا مواقع القضاء . وإذا اتهم الصوفى النفس عند الغضب تداركه العلم ، وإذا لاح علم العلم قوى القلب وسكنت النفس وعاد دم القلب إلى موضعه ومقره واعتدل الحال وغاضت حمرة الخد وبانت فضيلة العلم . قال عليه السلام ، السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة » .

وروى حارثة بن قدامة قال : قلت يارسول الله أوصنى وأقلل لعلى أعيه ، قال ، فأعاد عليه ، كل ذلك يقول « لا تغضب » قال عليه السلام « إن الغضب جمرة من النار ، ألم تنظروا حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، من وجد ذلك منكم فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فليضطجع » .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أخبرنا أبو الفتح الهروى قال أخبرنا أبو نصر الترياقى قال أخبرنا الجراحى ، قال أخبرنا المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا محمد بن عبد الله ، قال حدثنا بشر بن المفضل عن قرة بن خالد عن أبى حمزة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأشج عبد القيس : « إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى : الحلم والأناة » .

ومن أخلاق الصوفية : التودد والتآلف ، والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة . قال الله تعالى فى وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال الله تعالى ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ والتودد والتآلف من ائتلاف الأرواح على ما ورد فى الخبر الذى أوردناه « فما تعارف منها ائتلف » قال الله تعالى ﴿ فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ وقال عليه السلام « المؤمن آلف مألوف ، لاخير فيمن لايألف ولا يؤالف » .

وقال عليه السلام « مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا » وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ : إنى أحبك فى الله ، فقال : أبشر ثم أبشر ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس وهم لايفزعون ، ويخاف الناس وهم لايخافون ، وهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » قيل : من هؤلاء يارسول الله ؟ قال « المتحابون فى الله » .

وقيل : لو تحاب الناس وتعاطوا أسباب المحبة لاستغنوا بها عن العدالة .

وقيل : العدالة خايفة المحبة تستعمل حيث لاتوجد المحبة . وقيل : طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة ؛ فإن طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج ؛ ولهذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثرة من البعض فى البعض ، لأنهم لما تحابوا فى الله تواصوا بمحاسن الأخلاق ووقع القبول بينهم لوجود المحبة ، فانتفع لذلك المريد بالشيخ ، والأخ بالأخ ؛ ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس فى كل يوم خمس مرات فى المساجد أهل كل درب وكل محلة ، وفى الجامع فى الأسبوع مرة أهل بلد ، وانضمام أهل السواد إلى البلدان فى الأعياد فى جميع السنة مرتين ، وأهل الأقطار من البلدان المتفرقة فى العمر مرة للحج : كل ذلك لحكم بالغة ، منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين . وقال عليه السلام « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرنا والدى أبو الفضل قال أخبرنا أبو نصر محمد بن سلمان العدل قال أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى ، فقال أخبرنا أبو العباس عبد الله بن يعقوب الكرمانى ، قال حدثنا يحيى الكرمانى ، قال حدثنا حماد بن زيد عن مجالد بن سعد عن الشعبى عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا إن مثل المؤمنين فى توادّهم وتحابهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر والحمى » .

والتآلف والتودد يؤكدان أسباب الصحبة ، والصحبة مع الأخيار مؤثرة جدا . وقد قيل : لقاء الإخوان لقاح ، ولاشك أن البواطن تتلقح ويتقوى البعض بالبعض ، بل بمجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحا ، والنظر فى الصور يؤثر أخلاقا مناسبة لخلق المنظور إليه ، كدوام النظر إلى المحزون يحزن ، ودوام النظر إلى المسرور يسر . وقد قيل : من لاينفعك لحظه لا ينفعك لفظه ، والجمل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الجمل الذلول ؛ فالمقارنة لها تأثير فى الحيوان والنبات والجماد ، والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف ، والزروع تنقى عن أنواع العروق فى الأرض والنبات لموضع الإفساد بالمقارنة ، وإذا كانت المقارنة مؤثرة فى هذه الأشياء ، ففى النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيرا ؛ وسمى الإنسان إنسانا لأنه يأنس بما يراه من خير وشر ، والتآلف والتودد مستجلب للمزيد ، وإنما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة إلى أراذل الناس وأهل الشر ؛ فأما أهل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة فيغتنم مقارنتهم ، والاستئناس بهم استئناس بالله تعالى ، كما أن محبتهم محبة لله ، والجامع رابطة الحق ومع غيرهم رابطة الطبع ؛ فالصوفى مع غير الجنس كائن بائن ، ومع الجنس كائن معاين ، والمؤمن مرآة المؤمن ، إذا نظر إلى أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات إلهية ، وتعريفات وتلويحات من الله الكريم خفية ؛ غابت عن الأغيار ، وأدركها أهل الأنوار .

ومن أخلاق الصوفية : شكر المحسن على الإحسان والدعاء له ، وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم وصفاء توحيدهم وقطعهم النظر إلى الأغيار ورؤيتهم النعم من المنعم الجبار ، ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال « مامن الناس أحد أمنّ علينا فى صحبته وذات يده من ابن أبى قحافة ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر خليلا » ، وقال « مانفعنى مال كمال أبى بكر » فالخلق حجبوا عن الله بالخلق فى المنع والعطاء .

فالصوفى فى الابتداء يفنى عن الخلق ، ويرى الأشياء من الله حيث طالع ناصيته التوحيد وخرق الحجاب الذى منع الخلق عن صرف التوحيد ، فلايثبت للخلق منعا ولاعطاء ، ويحجبه الحق عن الخلق ؛ فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق ، ويثبت لهم وجودا فى المنع والعطاء ، بعد أن يرى المسبب أولا ، ولذلك لسعة علمه وقوة معرفته يثبت الوسائط ، فلايحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين ، ولايحجبه الحق عن الخلق كأرباب الإرادة والمبتدئين ؛ فيكون شكره للحق لأنه المنعم والمعطى والمسبب ، ويشكر الخلق لأنهم واسطة وسبب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول مايدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله تعالى فى السراء والضراء » وقال عليه السلام « من عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال دفع الله تعالى بها عنه سبعين داء أهونها الجذام » .

وروى جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد ينعم عليه بنعمة فيحمد الله إلا كان

الحمد أفضل منها ، فقوله عليه السلام «كان الحمد أفضل منها» يحتمل أن يرضى الحق بها شكرا ، ويحتمل أن الحمد أفضل منها نعمة فتكون نعمة الحمد أفضل من النعمة التى حمد عليها ؛ فإذا شكروا المنعم الأول يشكرون الواسطة المنعم من الناس ويدعون له .

روى أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أفطر عند قوم قال « أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار ونزلت عليكم السكينة » .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد البزار ، وقال أخبرنا أبو حفص عمر بن إبراهيم ، قال حدثنا عبدالله بن محمد البغوى ، قال أخبرنا عمرو بن زرارة ، قال حدثنا عيينة بن يونس عن موسى بن عبيدة عن محمد ابن ثابت عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال لأخيه جزاك الله خيرا فقد أبلغ فى الثناء » .

ومن أخلاق الصوفية : بذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة ، فإذا كان الرجل وافر العلم بصيرا بعيوب النفس وآفاتها وشهواتها فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة فى إصلاح ذات البين ، وفى هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم ، لأنهما أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم ، ولا يصلح ذلك إلا لصوفى تام الحال عالم ربانى .

روى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان نبى من الأنبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس .

وقال عطاء : لأن يرانى الرجل سنين فيكتسب جاها يعيش فيه مؤمن ، أتم له من أن يخاص العمل لنجاة نفسه . وهذا باب غامض لا يؤمن أن يفتتن به خلق من الجهال المدعين ، ولا يصلح هذا إلا لعبد اطلع على باطنه فعمل منه أن لا رغبة له فى شىء من الجاه والمال ، ولو أن ملوك الأرض وقفوا فى خدمته ما طغى ولا استطال ، ولو دخل إلى أتون يوقد ما ظهرت نفسه بصريح الإنكار لهذا الحال ، وهذا لا يصلح إلا لآحاد من الخلق وأفراد من الصادقين ينسلخون عن إرادتهم واختيارهم ويكاشفهم الله تعالى بمراده منهم ، فيدخلون فى الأشياء بإرادة الله تعالى ؛ فإذا علموا أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل الجاه يدخلون فى ذلك بقية صفات النفس ، وهذا لأقوام ماتوا ثم حشروا وأحكموا مقام الفناء ثم رقوا إلى مقام البقاء ، فيكون لهم فى كل مدخل ومخرج برهان وبيان وإذن من الله تعالى ، فهم على بصيرة من ربهم ، وهذا ليس فيه ارتياب لصاحب قلب مكاشف بصريح المراد فى خفى الخطاب ؛ فيأخذ وقته أبدا من الأشياء ولم تأخذ الأشياء من وقته ، ولا يكون فى قطر من الأقطار إلا واحد متحقق بهذا الحال .

قال أبو عثمان الحيرى : لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء : المنع والعطاء والعز والذل ، ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه والدخول فيما ذكرناه .

قال سهل بن عبدالله : لا يستحق الإنسان الرياسة حتى يجتمع فيه ثلاث خصال : يصرف جهله عن الناس ويحتمل جهل الناس ، ويترك ما فى أيديهم ، ويبذل ما فى يده لهم . وهذه الرياسة ليست عين الرياسة التى زهد فيها وتعين الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه ، وإنما هذه رياسة أقامها الحق لصلاح خلقه ، فهو فيها بالله يقوم بواجب حقها وشكر نعمتها لله تعالى .

الباب الحادى والثلاثون : فى ذكر الأدب ومكانه من التصوف

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، فالأدب : تهذيب الظاهر والباطن فإذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيا أديبا ، وإنما سميت المأدبة مأدبة لاجتماعها على أشياء ، ولا يتكامل الأدب فى العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق ، ومكارم الأخلاق مجموعها من تحسين الخلق ؛ فالخلق صورة الإنسان والخلق معناه ، فقال بعضهم : الخلق لا سبيل إلى تغييره كالخلق ، وقدورد « فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والأجل » ، وقد قال تعالى ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ والأصح أن تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليه ، بخلاف الخلق . وقد روى

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « حسنوا أخلاقكم » وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وهيأه لقبول الصلاح والفساد وجعله أهلا للأدب ومكارم الأخلاق ، ووجود الأهلية فيه كوجود النار فى الزناد ووجود النخل فى النوى ؛ ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان ومكنه من إصلاحه بالتربية إلى أن يصير النوى نخلا ، والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار ، وكما جعل فى نفس الإنسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الإصلاح والإفساد ، فقال سبحانه وتعالى ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فتسويتها صلاحيتها للشيئين جميعا ، ثم قال عز وجل ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ فإذا تزكت النفس تدربت بالعقل واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة وتهذبت الأخلاق وتكونت الآداب فالأدب : استخراج مافى القوة إلى الفعل ، وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه ، والسجية فعل الحق لاقدرة للبشر على تكوينها ، كتكون النار فى الزناد إذ هو فعل الله المحض واستخراجه بكسب الآدمى ، فهكذا الآداب منبعها السجايا الصالحة والمنح الإلهية ، ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجايا فيها توصلوا بحسن الممارسة والرياضة إلى استخراج مافى النفوس وهو مركوز بخلق الله تعالى إلى الفعل ، فصاروا مؤدبين مهذبين ، والآداب تقع فى حق بعض الأشخاص من غير زيادة ممارسة ، ورياضة لقوة ما أودع الله تعالى فى غرائزهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وفى بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة لنقصان قوى أصولها فى الغريزة ، فلهذا احتاج المريدون إلى صحبة المشايخ لتكون الصحبة والتعلم عونا على استخراج مافى الطبيعة إلى الفعل ، قال الله تعالى ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : فقهوهم وأدبوهم . وفى لفظ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الأخلاق فقال ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ » قال يوسف بن الحسين : بالأدب يفهم العلم ، وبالعلم يصح العمل ، وبالعمل تنال الحكمة ، وبالحكمة يقام الزهد ، وبالزهد تترك الدنيا ، وبترك الدنيا يرغب فى الآخرة ، وبالرغبة فى الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى .

قيل : لما ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبى حفص وقوفا على رأسه يأتمرون لأمره لايخطئ أحد منهم ، فقال : ياأبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك ، فقال : لاياأبا القاسم ، ولكن حسن الأدب فى الظاهر عنوان الأدب فى الباطن .

قال أبو الحسين النورى : ليس لله فى عبده مقام ولاحال ولامعرفة تسقط معها آداب الشريعة ؛ وآداب الشريعة حلية الظاهر ، والله تعالى لايبيح تعطيل الجوارح من التحلى بمحاسن الآداب .

قال عبد الله بن المبارك : أدب الخدمة أعز من الخدمة .

حكى عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال : دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة وربما كنت أستلقى وأمد رجلى ؛ فجاءتنى عائشة المكية فقالت لى : ياأبا عبيد يقال إنك من أهل العلم ، اقبل منى كلمة ، لاتجالسه إلا بأدب وإلا فيمحى اسمك من ديوان القرب ، قال أبو عبيد : وكانت من العارفات .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، والنفس تجرى بطباعها فى ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده إلى حسن المطالبة ؛ فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية ، ومهما أعانها فهو شريكها .

وقال الجنيد : من أعان نفسه على هواها فقد أشرك فى قتل نفسه ، لأن العبودية ملازمة الأدب ، والطغيان سوء الأدب

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو النصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع » .

وروى أيضاً أنه قال عليه السلام « ما نحل والد ولداً من نحلة أفضل من أدب حسن » . وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه » .

وقال أبو علي الدقاق : العبد يصل بطاعته إلى الجنة ، وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى . قال أبو القاسم القشيري رحمه الله وكان الأستاذ أبو علي لا يستند إلى شيء ، فكان يوماً في مجمع ، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأني رأيته غير مستند ، فتنحى عن الوسادة قليلا ، فتوهمت أنه توقى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة ، فقال : لا أريد الاستناد ، فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند إلى شيء أبداً .

وقال الجلال البصري : التوحيد يوجب الإيمان ، فمن لا إيمان له لا توحيد له ، والإيمان يوجب الشريعة ، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له ، والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له .

وقال بعضهم : الزم الأدب ظاهراً وباطناً ، فما أساء أحد الأدب ظاهراً إلا عوقب ظاهراً ، وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً .

قال بعضهم ـ هو غلام الدقاق ـ نظرت إلى غلام أمرد فنظر إلى الدقاق وأنا أنظر إليه ، فقال : لتجدن غبها ولو بعد سنين ، قال : فوجدت غبها بعد عشرين سنة أن أنسيت القرآن .

وقال السري : صليت وردي ليلة من الليالي ومددت رجلي في المحراب ، فنوديت : ياسري هكذا تجالس الملوك ؟ فضممت رجلي ثم قلت : وعزتك لا مددت رجلي أبداً . وقال الجنيد : فبقي ستين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهاراً .

وقال عبد الله بن المبارك : من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن ، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة .

وسئل السري عن مسئلة في الصبر فجعل يتكلم فيها ، فدب على رجله عقرب فجعلت تضربه بإبرتها ، فقيل له : ألا تدفعها عن نفسك ؟ قال : أستحي من الله أن أتكلم في حال ثم أخالف ما أعلم فيه .

وقيل : من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » ولم يقل رأيت .

وقال أنس بن مالك : الأدب في العمل علامة قبول العمل .

وقال ابن عطاء : الأدب الوقوف مع المستحسنات . قيل : ما معناه ؟ قال : أن تعامل الله سراً وعلناً بالأدب ، فإذا كنت كذلك كنت أديباً وإن كنت أعجمياً . ثم أنشد :

إذا نطقت جاءت بكل مليحة ◦ وإن سكتت جاءت بكل مليح

وقال الجريري منذ عشرين سنة ما مددت رجلي في الخلوة ، فإن حسن الأدب مع الله أحسن وأولى .

وقال أبو علي : ترك الأدب موجب للطرد ، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب .

الباب الثاني والثلاثون : في آداب الحضرة الإلهية لأهل القرب

كل الآداب تتلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه عليه السلام مجمع الآداب ظاهراً وباطناً ، وأخبر الله تعالى عن حسن أدبه في الحضرة بقوله تعالى ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ وهذه غامضة من غوامض الآداب اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس في الإعراض والإقبال ، أعرض عما سوى الله وتوجه إلى الله ، وترك وراء ظهره الأرضين والدار العاجلة بحظوظها والسموات والدار الآخرة بحظوظها ، فما التفت إلى ما أعرض عنه ولا لحقه الأسف على الغائب في إعراضه ، قال الله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ﴾ فهذا الخطاب للعموم و ﴿ ما زاغ البصر ﴾ إخبار عن حال النبي عليه السلام بوصف خاص من معنى ما خاطب به العموم

فكان ﴿ مازاغ البصر ﴾ حاله فى طرف الإعراض وفى طرف الإقبال تلقى ماورد عليه فى مقام قاب قوسين بالروح والقلب ؛ ثم فرّ من الله تعالى حياء منه وهيبة وإجلالا ، وطوى نفسه بفراره فى مطاوى انكساره وافتقاره، لكيلا تنبسط النفس فتطغى ؛ فإن الطغيان عند الاستغناء وصف النفس . قال الله تعالى ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ۝ أن رآه استغنى ﴾ والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع ، ومتى نالت قسطا من المنح استغنت وطغت والطغيان يظهر منه فرط البسط ، والإفراط فى البسط يسد باب المزيد وطغيان النفس اضيق وعائها عن المواهب ؛ فموسى عليه السلام صح له فى الحضرة أحد طرفى ﴿ مازاغ البصر ﴾ وما التفت إلى مافاته ﴿ وماطغى ﴾ متأسفا لحسن أدبه ، ولكن امتلأ من المنح ، واسترقت النفس السمع وتطلعت إلى القسط والحظ ؛ فلما حظيت النفس استغنت وطفح عليها ما وصل إليها ، وضاق نطاقها فتجاوز الحد من فرط البسط وقال ﴿ أرنى أنظر إليك ﴾ فمنع ولم يطلق فى فضاء المزيد ، وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام ، وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية ، فكل قبض يوجب عقوبة لأن كل قبض سد فى وجه باب الفتوح ، والعقوبة بالقبض أوجبت الإفراط فى البسط ، ولو حصل الاعتدال فى البسط ماوجبت العقوبة بالقبض ، والاعتدال فى البسط بإيقاف النازل من المنح على الروح والقلب ، والإيقاف على الروح والقلب بما ذكرناه من حال النبي عليه السلام من تغييب النفس فى مطاوى الانكسار ، فذلك الفرار من الله إلى الله وهو غاية الأدب حظى به رسول الله عليه الصلاة والسلام فما قوبل بالقبض ، فدام مزيده وكان قاب قوسين أو أدنى ، ويشاكل الشرح الذى شرحناه قول أبى العباس بن عطاء فى قوله تعالى ﴿ مازاغ البصر وماطغى ﴾ قال لم يره بطغيان يميل ، بل رآه على شرط اعتدال القوى .

وقال سهل بن عبدالله التسترى : لم يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاهد نفسه ولا إلى مشاهدتها ، وإنما كان مشاهدا بكليته لربه : يشاهد مايظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل ؛ وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز فى ذلك عن سهل بن عبد الله ، ويؤيد ذلك أيضا ماأخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة ، قال أخبرنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن محمد بن منصور الصفار النيسابورى ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : سمعت أبا نصر بن عبد الله ابن على السراج ، قال أخبرنا أبو الطيب العكى عن أبى محمد الحريرى ، قال : التسرع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة ، والوقوف على حد الانحسار نجاة ، واللياذ بالهرب من علم الدنو وصلة ، واستقباح ترك الجواب ذخيرة ، والاعتصام من قبول دواعى استماع الخطاب تكلف ، وخوف فوت علم ماانطوى من فصاحة الفهم فى حيز الإقبال مساءة ، والإصغاء إلى تلق ماينفصل عن معدنه بعد ، والاستسلام عند التلاق جراءة ، والانبساط فى محل الأنس غرة ، وهذه الكلمات كلها من آداب الحضرة لأربابها وفى قوله تعالى ﴿ مازاغ البصر وماطغى ﴾ وجه آخر ألطف مما سبق ﴿ مازاغ البصر ﴾ حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر ﴿ وماطغى ﴾ لم يسبق البصر البصيرة فيتجاوز حده ويتعدى مقامه ، بل استقام البصر مع البصيرة ، والظاهر مع الباطن ، والقلب مع القالب ، والنظر مع القدم ، فى تقدم النظر على القدم طغيان ، والمعنى بالنظر علم ، وبالقدم حال القالب ، فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانا ، ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون تقصيرا ، فلما اعتدلت الأحوال وصار قلبه كقالبه وقالبه كقلبه ، وظاهره كباطنه وباطنه كظاهره ، وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره ، فحيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله ، ولهذا المعنى انعكس حكم معناه ونوره على ظاهره ، وأتى البراق ينتهى خطوه حيث ينتهى نظره لايتخلف قدم البراق عن موضع نظره كما جاء فى حديث المعراج ، فكان البراق بقالبه مشاكلا لمعناه ، ومتصفا بصفته لقوة حاله ومعناه ، وأشار فى حديث المعراج إلى مقامات الأنبياء ورأى فى كل سماء بعض الأنبياء إشارة إلى تعويقهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته ، ورأى موسى فى بعض السموات فمن هو فى بعض السموات يكون قوله ﴿ أرنى أنظر إليك ﴾ تجاوزا للنظر عن حد القدم وتخلفا للقدم عن النظر ، وهذا هو الإخلال بأحد الوصفين من قوله ﴿ مازاغ البصر وماطغى ﴾ فرسول الله حمل مقترنا قدمه

ونظره فى حجال الحياء والتواضع ، ناظرا إلى قدمه ، قادما على نظره ، ولو خرج عن حجال الحياء والتواضع وتطاول بالنظر متعديا حدّ القدم لعوق فى بعض السموات كتعوق غيره من الأنبياء ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم متحلس حجالهفى خفارة أدب حاله ، حتى خرق حجب السموات ، فانصبت إليه أقسام القرب انصبابا ، وانقشعت عنه سحائب الحجب حجابا حجابا ، حتى استقام على صراط ﴿ مازاغ البصروماطغى ﴾ فركالبرق الخاطف إلى مخدع الوصل واللطائف ، وهذا غاية فى الأدب ونهاية فى الأرب .

قال أبو محمد بن رويم حين سئل عن أدب المسافر فقال : لايجاوز همه قدمه ، فحيث وقف قلبه يكون مقره .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أخبرنا عمر بن أحمد ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف قال أخبرنا أبو عبدالرحمن السلمى ، قال حدثنا القاضى أبو محمد يحيى بن منصور ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن على الترمذى قال حدثنا محمد بن رزام الأيلى ، قال حدثنا محمد بن عطاء الهجيمى ، قال حدثنامحمد بن نصير عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ رب أرنى أنظر إليك ﴾ قال : قال ياموسى إنه لايرانى حى إلا مات ، ولايابس إلا تدهده ، ولارطب إلاتفرق ، إنما يرانى أهل الجنة الذين لاتموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم » .

ومن آداب الحضرة ماقال الشبلى : الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب ، وهذا يختص ببعض الأحوال والأشياء دون البعض ، ليس هو على الإطلاق ، لأن الله تعالى أمر بالدعاء ، وإنما الإمساك عن القول كأمسك موسى عن الانبساط فى طلب المآرب والحاجات الدنيوية ، حتى رفعه الحق مقاما فى القرب وأذن له فى الانبساط وقال : اطلب منى ولو ملحا لعجينك ، فلما بسط انبسط وقال ﴿ رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ لأنه كان يسأل حوائج الآخرة ويستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها وهو فى حجاب الحشمة عن سؤال المحقرات ، ولهذا مثال فى الشاهد ، فإن الملك المعظم يسأل المعظمات ويحتشم فى طلب المحقرات ، فلما رفع بساط حجاب الحشمة صار فى مقام خاص من القرب يسأل الحقير كما يسأل الخطير .

قال ذوالنون المصرى : أدب العارف فوق كل أدب ، لأن معروفه مؤدب قلبه

وقال بعضهم : يقول الحق سبحانه وتعالى : من ألزمته القيام مع أسمائى وصفاتى ألزمته الأدب ، ومن كشف له عن حقيقة ذاتى ألزمته العطب . فاختر أيهما شئت : الأدب أو العطب . وقول القائل هذا : يشير إلى أن الأسماء والصفات تستقل بوجوب محتاج إلى الأدب لبقاء رسوم البشرية وحظوظ النفس ومع لمعان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالأنوار . ويكون معنى العطب : التحقق بالفناء ، وفى ذلك العطب نهاية الأرب .

وقال أبو على الدقاق فى قوله تعالى ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ لم يقل ارحمنى لأنه حفظ أدب الخطاب . وقال عيسى عليه السلام ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ولم يقل : لم أقل ، رعاية لأدب الحضرة

وقال أبو نصر السراج : أدب أهل الخصوصية من أهل الدين فى طهارة القلوب ، ومراعاة الأسرار ، والوفاء بالعهود ، وحفظ الوقت ، وقلة الالتفات إلى الخواطر والعوارض والبوادى والعوائق ، واستواء السر والعلانية ، وحسن الأدب فى مواقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور . والأدب أدبان : أدب قول ، وأدب فعل ؛ فمن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعل منحه محبة القلوب .

قال ابن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم . وقال أيضا : الأدب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف .

وقال الثورى : من لم يتأدب للوقت فوقته مقت .

وقال ذو النون : إذا خرج المريد عن حد استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء .

وقال ابن المبارك أيضا : قد أكثر الناس فى الأدب ونحن نقول : هو معرفة النفس . وهذه إشارة منه إلى أن

النفس هى منبع الجهالات ، وترك الآداب من مخامرة الجهل ؛ فإذا عرف النفس صادف نور العرفان ، على ماورد « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة إلا ويقمعها بصريح العلم وحينئذ يتأدب ، ومن قام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر .

الباب الثالث والثلاثون : فى آداب الطهارة ومقدماتها

قال الله تعالى فى وصف أصحاب الصفة ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾ قيل فى التفسير: يحبون أن يتطهروا من الأحداث والجنابات والنجاسات بالماء . قال الكلبى : هو غسل الأدبار بالماء . وقال عطاء : كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل قباء لما نزلت هذه الآية « إن الله تعالى قد أثنى عليكم فى الطهور فما هو ؟ » قالوا : إنا نستنجى بالماء ، وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله « إذا أتى أحدكم الخلاء فليستنج بثلاثة أحجار » وهكذا كان الاستنجاء فى الابتداء حتى نزلت الآية فى أهل قباء .

قيل لسلمان : قد علمكم نبيكم كل شىء حتى الخراءة ! فقال سلمان : أجل نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ، أو نستنجى باليمين ، أو يستنجى أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار ، أو نستنجى برجيع أو عظم .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء ، قال أخبرنا أبو منصور الحريمى ، قال أخبرنا أبو بكر الخطيب ، قال أخبرنا أبو عمرو الهاشمى ، قال أخبرنا أبو على اللؤلؤى ، قال أخبرنا أبو داود ، قال حدثنا عبد الله بن محمد ، قال حدثنا ابن المبارك عن ابن عجلان عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه » وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمة ، والفرض فى الاستنجاء شيئان : إزالة الخبث وطهارة المزيل : وهو أن لا يكون رجيعا وهو الروث ، ولا مستعملا مرة أخرى ، ولا رمة وهى عظم الميتة . ووتر الاستنجاء سنة فإما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع ، واستعمال الماء بعد الحجر سنة ، وقد قيل فى الآية ﴿يحبون أن يتطهروا﴾ ولما سئلوا عن ذلك قالوا : كنا نتبع الماء الحجر ، والاستنجاء بالشمال سنة ، ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة ، وهكذا يكون فى الصحراء إذا كانت أرضا طاهرة وترابا طاهرا . وكيفية الاستنجاء أن يأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المخرج قبل ملاقاة النجاسة ويمره بالمسح ويدير الحجر فى مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع إلى موضع ، ويفعل ذلك إلى أن ينتهى إلى مؤخر المخرج ، ويأخذ الثانى ويضعه على المؤخر كذلك ، ويمسح إلى المقدمة ، ويأخذ الثالث ويديره حول المسربة . وإن استجمر بحجر ذى ثلاث شعب جاز . وأما الاستبراء إذا انقطع البول فيمد ذكره من أصله ثلاثا إلى الحشفة بالرفق لئلا يندفق بقية البول ، ثم ينثره ثلاثا ، ويحتاط فى الاستبراء بالاستنقاء : وهو أن يتنحنح ثلاثا ؛ لأن العروق ممتدة من الحلق إلى الذكر ، وبالتنحنح تتحرك وتقذف ما فى مجرى البول ؛ فإن مشى خطوات وزاد فى التنحنح فلا بأس ، ولكن يراعى حد العلم ولا يجعل للشيطان عليه سبيلا بالوسوسة فيضيع الوقت ، ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر إلى أن لا يرى الرطوبة . وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال ، لا يزال تظهر منه الرطوبة ما دام يمد فيراعى الحد فى ذلك ، ويراعى الوتر فى ذلك أيضا ، والمسحات تكون على الأرض الطاهرة أو حجر طاهر وإن احتاج إلى أخذ الحجر لصغره فليأخذ الحجر باليمين والذكر باليسار ويمسح على الحجر ، وتكون الحركة باليسار لا باليمين لئلا يكون مستنجيا باليمين . وإذا أراد استعمال الماء انتقل إلى موضع آخر ويقنع بالحجر ما لم ينتشر البول على الحشفة ، وفى ترك الاستنقاء فى الاستبراء وعيد ورد فيما رواه عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما هذا فكان لا يستبرئ أو لا يستنزه من البول ، وأما هذا فكان يمشى بالنميمة » ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال « لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » ، والعسيب : الجريد ، وإذا كان فى الصحراء يبعد عن العيون .

روى جابر رضي الله عنه أن النبي عليه السلام كان إذا أراد البراز انطلق حتى لا يراه أحد وروى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فأتى النبي عليه السلام حاجته فأبعد في المذهب وروى: أن النبي عليه السلام كان يتبوأ لحاجته كما يتبوأ الرجل المنزل، وكان يستتر بحائط أو نشز من الأرض أو كوم من الحجارة.

ويجوز أن يستتر الرجل براحلته في الصحراء أو بذيله إذا حفظ الثوب من الرشاش. ويستحب البول في أرض دمثة أو على تراب مهيل. قال أبو موسى: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأراد أن يبول، فأتى دمثا في أصل جدار فبال ثم قال: إذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله.

وينبغي أن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستقبل الشمس والقمر، ولا يكره استقبال القبلة في البنيان، والأولى اجتنابه لذهاب بعض الفقهاء إلى كراهية ذلك في البنيان أيضا، ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض، ويتجنب مهاب الريح احترازا من الرشاش: قال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه: أحسبك تحسن الخراءة؛ فقال: بلى وأبيك إني بها لحاذق. قال: فصفها لي، فقال: أبعد البشر وأعدّ المدر، وأستقبل الشيح وأستدبر الريح وأقعى إقعاء الظبي وأجفل إجفال النعام يعني أستقبل أصول النبات من الشيح وغيره وأستدبر الريح احترازا من الرشاش. والإقعاء ههنا: أن يستوفز على صدور قدميه. والإجفال: أن يرفع عجزه.

ويقول عند الفراغ من الاستنجاء: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وطهر قلبي من الرياء، وحصن فرجي من الفواحش.

ويكره أن يبول الرجل في المغتسل: روى عبد الله بن مغفل أن النبي عليه السلام، نهى أن يبول الرجل في مستحمه وقال: إن عامة الوسواس منه. وقال ابن المبارك: يوسع في البول في المستحم إذا جرى فيه الماء وإذا كان في البنيان يقدم رجله اليسرى لدخول الخلاء ويقول قبل الدخول: بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث.

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي، قال أخبرنا أبو منصور المقري، قال أخبرنا أبو بكر الخطيب قال أخبرنا أبو عمرو الهاشمي، قال أخبرنا أبو علي اللؤلؤي، قال أخبرنا أبو داود، قال حدثنا عمرو بن مرزوق البصري قال حدثنا شعبة عن قتادة عن النضر بن أنس عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث، وأراد بالحشوش الكنف. وأصل الحش: جماعة النخل الكثيف كانوا يقضون حوائجهم إليها قبل أن تتخذ الكنف في البيوت. وقوله: محتضرة، أي يحضرها الشياطين.

وفي الجلوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى ولا يتولى بيده، ولا ينظر في الأرض والحائط وقت قعوده، ولا يكثر النظر إلى عورته إلا للحاجة إلى ذلك، ولا يتكلم، فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عوراتهما يتحدثان، فإن الله تعالى يمقت على ذلك.

ويقول عند خروجه: غفرانك، الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني. ولا يستصحب معه شيئا عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره، ولا يدخل حاسر الرأس: روت عائشة رضي الله عنها عن أبيها أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: استحيوا من الله فإني لأدخل الكنيف فألزق ظهري وأغطي رأسي استحياء من ربي عز وجل.

الباب الرابع والثلاثون: في آداب الوضوء وأسراره

إذا أراد الوضوء يبتدئ بالسواك: حدثنا شيخنا أبو النجيب قال أخبرنا أبو عبد الله الطائي، قال أخبرنا الحافظ الفراء، قال أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، قال أخبرنا أبو منصور محمد بن أحمد، قال أخبرنا أبو جعفر محمد ابن أحمد بن عبد الجبار، قال حدثنا حميد بن زنجويه، قال حدثنا يعلى بن عبيد، قال حدثنا محمد بن إسحق عن محمد

ابن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن زيد بن خالد الجهني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن أشق على أمتي لأخرت العشاء إلى ثلث الليل ، ولأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة » ، وروت عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » . وعن حذيفة قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك » . والشوص : الدلك . ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء ، وكلما تغير الفم من أزم وغيره . وأصل الأزم إمساك الأسنان بعضها على بعض . وقيل للسكوت : أزم ، لأن الأسنان تنطبق وبذلك يتغير الفم . ويكره للصائم بعد الزوال . ويستحب قبل الزوال ، وآكد استحبابه مع غسل الجمعة ، وعند القيام من الليل ، ويندى السواك اليابس بالماء ، ويستاك عرضاً وطولا ؛ فإن اقتصر فعرضاً ، فإذا فرغ من السواك يغسله ويجلس للوضوء ، والأولى أن يكون مستقبل القبلة ، ويبتدئ بسم الله الرحمن الرحيم ويقول ﴿ رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ ويقول عند غسل اليد : اللهم إني أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة . ويقول عند المضمضة : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك . ويقول عند الاستنشاق : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأوجدني رائحة الجنة وأنت عني راض .

ويقول عند الاستنثار : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك من روائح النار وسوء الدار . ويقول عند غسل الوجه : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبيض وجهي يوم تبيض وجوه أوليائك ، ولا تسود وجهي يوم تسود وجوه أعدائك . وعند غسل اليمين : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وآتني كتابي بيميني وحاسبني حسابا يسيرا ، وعند غسل الشمال : اللهم إني أعوذ بك أن تؤتيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري ، وعند مسح الرأس : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وغشني برحمتك وأنزل علي من بركاتك وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظل عرشك ويقول عند مسح الأذنين : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلني ممن يسمع القول فيتبع أحسنه ، اللهم أسمعني منادي الجنة مع الأبرار . ويقول في مسح العنق : اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال . ويقول عند غسل قدمه اليمنى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين . ويقول عند اليسرى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك أن تزل قدمي عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين (١) وإذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه إلى السماء ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسي أستغفرك وأتوب إليك فاغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، واجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني صبورا شكورا ، واجعلني أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا .

وفرائض الوضوء : النية عند غسل الوجه . وغسل الوجه ـ وحد الوجه من مبتدأ تسطيح الوجه إلى منتهى الذقن وما ظهر من اللحية وما استرسل منها ، ومن الأذن إلى الأذن عرضا ، ويدخل في الغسل البياض الذي بين الأذنين واللحية وموضع الصلع وما انحسر عنه الشعر وهو النزعتان من الرأس ، ويستحب غسلهما مع الوجه ويوصل الماء إلى شعر التحذيف وهو القدر الذي يزيله النساء من الوجه ، ويوصل الماء إلى العنفقة والشارب والحاجب والعذار ، وما عدا ذلك لا يجب ، ثم اللحية إن كانت خفيفة يجب إيصال الماء إلى البشرة ، وحد الخفيف أن ترى البشرى من تحته . وإن كانت كثيفة فلا يجب ، ويجتهد في تنقية مجتمع الكحل من مقدم العين الواجب الثالث . غسل اليدين إلى المرفقين ويجب إدخال المرفقين في الغسل ويستحب غسلهما إلى أنصاف العضدين ،

---

(١) ما ذكره المؤلف من الأذكار عند غسل الأعضاء في الوضوء هو خلاف الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يرد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم في الوضوء إلا التسمية أوله والتشهد في آخره ، فيكفينا ما كفى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، فتدبر والله ولي التوفيق ، اهـ مصححه .

وإن طالت الأظفار حتى خرجت من رءوس الأصابع يجب غسل ماتحتها على الأصح . الواجب الرابع : مسح الرأس ، ويكفى مايطلق عليه اسم المسح ، واستيعاب الرأس بالمسح سنة : وهو أن يلصق رأس أصابع اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدم الرأس ويمدهما إلى القفا ثم يردهما إلى الموضع الذى بدأ منه ، وينصف بلل الكفين مستقبلا ومستدبرا . والواجب الخامس : غسل القدمين ، ويجب إدخال الكعبين فى الغسل ، ويستحب غسلهما إلى أنصاف الساقين ويقنع غسل القدمين من الكعبين ، ويجب تخليل الأصابع الملتفة ، فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ويختم بخنصر اليسرى ، وإن كان فى الرجل شقوق يجب إيصال الماء إلى باطنها ، وإن ترك فيها عجينا أو شحما يجب إزالة عين ذلك الشىء ، الواجب السادس : الترتيب على النسق المذكور فى كلام الله تعالى . الواجب السابع : التتابع فى القول القديم عند الشافعى رحمه الله تعالى ، وحد التفريق الذى يقطع التتابع إنشاف العضو مع اعتدال الهواء .

وسنن الوضوء ثلاثة عشر : التسمية فى أول الطهارة وغسل اليدين إلى الكوعين ، والمضمضة . والاستنشاق ، والمبالغة فيهما ، فيغرغر فى المضمضة حتى يرد الماء إلى الغلصمة ، ويستعد فى الاستنشاق الماء بالنفس إلى الخياشيم ، ويرفق فى ذلك إن كان صائما . وتخليل اللحية الكثة ، وتخليل الأصابع المنفرجة ، والبداءة بالميامن ، وإطالة الغرة ، واستيعاب الرأس بالمسح ، ومسح الأذنين ، والتثليث ، وفى القول الجديد : التتابع ، ويجتنب أن يزيد على الثلاث ، ولا ينفض اليد ، ولا يتكلم فى أثناء الوضوء ، ولا يلطم وجهه بالماء لطما ، وتجديد الوضوء مستحب بشرط أن يصلى بالوضوء ماتيسر ، وإلا فمكروه .

الباب الخامس والثلاثون : فى آداب أهل الخصوص والصوفية فى الوضوء

آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الأحكام ؛ أديهم فى الوضوء حضور القلب فى غسل الأعضاء ، سمعت بعض الصالحين يقول ؛ إذا حضر القلب فى الوضوء يحضر فى الصلاة ، وإذا دخل السهو فيه دخلت الوسوسة فى الصلاة . ومن آدابهم ؛ استدامة الوضوء ، والوضوء سلاح المؤمن ، والجوارح إذا كانت فى حماية الوضوء الذى هو أثر شرعى يقل طروق الشيطان عليها . قال عدى بن حاتم ؛ ما أقيمت صلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء وقال أنس بن مالك ؛ قدم النبى عليه الصلاة والسلام المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين ، فقال لى ؛ يابنى إن استطعت أن لاتزال على الطهارة فافعل ، فإنه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطى الشهادة ، فشأن العاقل أن يكون أبدا مستعدا للموت ، ومن الاستعداد لزوم الطهارة . وحكى عن الحصرى أنه قال ، مهما أنتبه من الليل لايحملنى النوم إلا بعد ما أقوم وأجدد الوضوء لئلا يعود إلى النوم وأنا على غير طهارة وسمعت من صحب الشيخ على بن الهيتمى أنه كان يقعد الليل جميعه ، فإن غلبه النوم يكون قاعدا كذلك ، وكلما انتبه يقول ؛ لا أكون أسأت الأدب ، فيقوم ويجدد الوضوء ويصلى ركعتين . وروى أبو هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر ، يابلال ، حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام فإنى سمعت دف نعليك بين يدى فى الجنة ، . قال ؛ ماعملت عملا فى الإسلام أرجى عندى أنى لم أتطهر طهرا فى ساعة ليل أو نهار إلا صليت لربى عز وجل بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى .

ومن أدبهم فى الطهارة : ترك الإسراف فى الماء والوقوف على حد العلم ، أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن على . قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا محمد بن بشار ، قال حدثنا أبو داود ، قال حدثنا خارجة بن مصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن عن يحيى بن ضمرة السعدى عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وساوس الماء » .

قال أبو عبد الله الروذبارى : إن الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بنى آدم ، فلايبالى أن يأخذ نصيبه بأن يزدادوا فيما أمروا به أو ينقصوا عنه .

وحكى عن ابن الكرنبي أنه أصابته جنابة ليلة من الليالي ، وكانت عليه مرقعة ثخينة غليظة ، فجاء إلى الدجلة وكان بردشديد ، فحزنت نفسه عن الدخول في الماء لشدة البرد ، فطرح نفسه في الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال : عقدت أن لا أنزعها من بدني حتى تجف علي : فمكثت عليه شهرا لثخانتها وغلظها : أدب بذلك نفسه لما حزنت عن الائتمار لأمر الله تعالى . وقيل : إن سهل بن عبدالله كان يحث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلة صبه على الأرض ، وكان يرى أن في الإكثار من شرب الماء ضعف النفس وإماتة الشهوات وكسر القوة .

ومن أفعال الصوفية الاحتياط في استبقاء الماء للوضوء . قيل : كان إبراهيم الخواص إذا دخل البادية لايحمل معه إلاركوة من الماء وربما كان لايشرب منها إلاالقليل : يحفظ الماء للوضوء ، وقيل إنه كان يخرج من مكة إلى الكوفة ولايحتاج إلى التيمم يحفظ الماء للوضوء ويقنع بالقليل للشرب ، وقيل : إذا رأيت الصوفي ليس معه ركوة أو كوز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى .

وحكى عن بعضهم أنه أدب نفسه في الطهارة إلى حد أنه أقام بين ظهراني جماعة من النساك وهم يجتمعون في دار فما رآه أحد منهم أنه دخل الخلاء لأنه كان يقضي حاجته إذا خلا الموضع في وقت يريد تأديب نفسه .

وقيل : مات الخواص في جامع الري في وسط الماء ، وذاك أنه كان به علة البطن وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه فدخله مرة ومات فيه ، كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة ، وقيل : كان إبراهيم بن أدهم به قيام ، فقام في ليلة واحدة نيفا وسبعين مرة ، كل مرة يجدد الوضوء ويصلي ركعتين .

وقيل : إن بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الريح إلا في وقت البراز يراعي الأدب في الخلوات .

واتخاذ المنديل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا : إن الوضوء يوزن ، وأجازه بعضهم ، ودليلهم ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبدالوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر ، قال أخبرنا أبو محمد ، قال أخبرنا أبو العباس ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا سفيان بن وكيع ، قال حدثنا عبد الله بن وهب عن زيد بن حباب عن أبي معاذ عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خرقة ينشف بها أعضاءه بعد الوضوء ، وروى معاذ بن جبل قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه .

واستقصاء الصوفية في تطهير البواطن من بين الصفات الرديئة والأخلاق المذمومة ، لا الاستقصاء في طهارة الظاهر إلى حد يخرج عن حد العلم ، وتوضأ عمر رضي الله عنه من جرة نصرانية مع كون النصارى لايحترزون عن الخمر ، وأجرى الأمر على الظاهر وأصل الطهارة .

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون على الأرض من غير سجادة ، ويمشون حفاة في الطرق ، وقد كانوا لا يجعلون وقت النوم بينهم وبين التراب حائلا ، وقد كانوا يقتصرون على الحجر في الاستنجاء في بعض الأوقات ، وكان أمرهم في الطهارة الظاهرة على التساهل ، واستقصاؤهم في الطهارة الباطنة ، وهكذا شغل الصوفية ، وقد يكون في بعض الأشخاص تشدد في الطهارة ويكون مستمد ذلك رعونة النفس ، فلو اتسخ ثوبه تحرج ، ولا يبالي بما في باطنه من الغل والحقد والكبر والعجب والرياء والنفاق ، ولعله ينكر على الشخص لو داس الأرض حافيا مع وجود رخصة الشرع ، ولا ينكر عليه أن يتكلم بكلمة غيبة تخرب بها دينه ، وكل ذلك من قلة العلم وترك التأدب بصحبة الصادقين من العلماء الراسخين ، وكانوا يكرهون كثرة الدلك في الاستبراء ، لأنه ربما يسترخى العرق ولا يمسك البول ويتولد منه القطر المفرد .

ومن حكايات المتصوفة في الوضوء والطهارات : أن أبا عمرو الزجاجي جاور بمكة ثلاثين سنة وكان لايتغوط في الحرم ويخرج إلى الحل ، وأقل ذلك فرسخ .

وقيل : كان بعضهم على وجهه قرح لم يندمل اثنتى عشرة سنة لأن الماء كان يضره ، وكان مع ذلك لا يدع تجديد

الوضوء عند كل فريضة .

وبعضهم نزل في عينه الماء فحملوا إليه المداوى وبذلوا له مالا كثيرا ليداويه، فقال المداوى: يحتاج إلى ترك الوضوء أياما ويكون مستلقيا على قفاه فلم يفعل ذلك ، واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء .

الباب السادس والثلاثون : فى فضيلة الصلاة وكبر شأنها

روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله تعالى جنة عدن وخلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها : تكلمى فقالت ﴿ قد أفلح المؤمنين الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ ثلاثا » .

وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتانى جبرائيل لدلوك الشمس حين زالت وصلى بى الظهر » .

واشتقاق الصلاة قيل من الصلى وهو النار ، والخشبة المعوجة إذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوم ، وفى العبد اعوجاج لوجود نفسه الإمارة بالسوء ، وسبحات وجه الله الكريم التى لو كشف حجابها لأحرقت من أدركته : يصيب بها المصلى من وهج السطوة الإلهية والعظمة الربانية مايزول به اعوجاجه ، بل يتحقق به معراجه ؛ فالمصلى كالمصطلى بالنار ، ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لا يعرض على نار جهنم إلا تحلة القسم

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسمعيل القزوينى إجازة ، قال أخبرنا أبو سعيد محمد بن أبى العباس بن محمد بن أبى العباس الخليلى ، قال أخبرنا أبو سعيد الفرخزاذى ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد ، قال أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن ، قال أخبرنا أبو زكريا يحيى بن محمد العنبرى ، قال حدثنا جعفر بن أحمد بن الحافظ قال أخبرنا أحمد بن نصير ، قال حدثنا آدم بن أبى اياس عن ابن سمعان عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله عز وجل : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فإذا قال العبد : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : مجدنى عبدى ؛ فإذا قال : الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى : حمدنى عبدى ؛ فإذا قال الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى علىّ عبدى ، فإذا قال : مالك يوم الدين، قال : فوّض إلى عبدى ؛ فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بينى وبين عبدى ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال الله تعالى: هذا لعبدى ولعبدى ماسأل » .

فالصلاة صلة بين الرب والعبد وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعا لصولة الربوبية على العبودية. وقد ورد أن الله تعالى إذا تجلى لشىء خضع له ؛ ومن يتحقق بالصلة فى الصلاة تلمع له طوالع التجلى فيخشع ؛ والفلاح الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، وبانتفاء الخشوع ينتفى الفلاح وقال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ وإذا كانت الصلاة للذكر كيف يقع فيها النسيان . قال الله تعالى ﴿ لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ﴾ فمن قال ولا يعلم مايقول كيف يصلى وقد نهاه الله عن ذلك ، فالسكران يقول الشىء لابحضور عقل ، والغافل يصلى لابحضور عقل ؛ فهو كالسكران . وقيل فى غرائب التفسير فى قوله تعالى ﴿فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾ قيل : نعليك همك بامرأتك وغنمك ؛ فالاهتمام بغير الله تعالى سكر فى الصلاة .

وقيل : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء وينظرون يمينا وشمالا ؛ فلما نزلت ﴿الذين هم فى صلاتهم خاشعون﴾ جعلوا وجوههم حيث يسجدون ، ومارؤى بعد ذلك أحد منهم ينظر إلا إلى الأرض وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين يدى الرحمن ، فإذا التفت قال له الرب : إلى من تلتفت ؟ إلى من هو خير لك منى ؟ ابن آدم ، أقبل إلى فأنا خير لك ممن تلتفت إليه » .

وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال ، لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه ، . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا صليت فصل صلاة مودع ، .

فالمصلى سائر إلى الله تعالى بقلبه يودع هواه ودنياه وكل شىء سواه . والصلاة فى اللغة هى الدعاء ، فكأن المصلى يدعو الله تعالى بجميع جوارحه ، فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعو بها ظاهراً وباطناً ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والتقلب والهيئات فى تملقات متضرع سائل محتاج ، فإذا دعا بكليته أجابه مولاه لأنه وعد فقال ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ وكان خالد الربعى يقول : عجبت لهذه الآية ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ليس بينهما شرط ، والاستجابة والإجابة : هى نفوذ دعاء العبد ؛ فإن الداعى الصادق العالم بمن يدعوه بنور يقينه ، فتخرق الحجب وتقف الدعوة بين يدى الله تعالى متقاضية للحاجة . وخص الله تعالى هذه الأمة بإنزال فاتحة الكتاب وفيها تقديم الثناء على الدعاء : ليكون أسرع إلى الإجابة ، وهى تعليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء . وفاتحة الكتاب هى السبع المثانى والقرآن العظيم . قيل : سميت مثانى لأنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة نزلت منها فهم آخر ، بل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة يقرؤها على التردد مع طول الزمان فهم آخر ، وهكذا المصلون المحققون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها ، وتقذف لهم كل مرة درر بحارها . وقيل : سميت مثانى لأنها استثنيت من الرسل وهى سبع آيات .

وروت أم رومان قالت : رآنى أبو بكر وأنا أتميل فى الصلاة ، فزجرنى زجراً كدت أن أنصرف عن صلاتى ، ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود ، فإن سكون الأطراف من تمام الصلاة ، .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعوذوا بالله من خشوع النفاق ، قيل : وما خشوع النفاق ؟ قال ، خشوع البدن ونفاق القلب ، .

أما تميل اليهود ، قيل : كان موسى يعامل بنى إسرائيل على ظاهر الأمور لقلة مافى باطنهم . فكان يهىء الأمور ويعظمها ، ولهذا المعنى أوحى الله تعالى إليه أن يحلى التوراة بالذهب ، ووقع لى والله أعلم أن موسى كان يرد عليه الوارد فى صلاته ومحال مناجاته فيموج به باطنه كبحر ساكن تهب عليه الريح فتتلاطم الأمواج ، فكان يتمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب إذا هب عليه نسمات الفضل ، وربما كانت الروح تتطلع إلى الحضرة الإلهية ، فتهم بالاستعلاء ، وللقلب بها تشبك وامتزاج ، فيضطرب القالب ويتمايل ، فرأى اليهود ظاهره فتمايلوا من غير حظ لبواطنهم من ذلك ؛ ولهذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكاراً على أهل الوسوسة ، وهكذا خرجت عظمة الله من قلوب بنى إسرائيل حتى شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم ، لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه ، وإن الرجل على صلاته دائم ولا يكتب عشرها إذا كان قلبه ساهياً لاهياً ، .

واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الصلاة عماد الدين ، فمن ترك الصلاة فقد كفر ، فالصلاة تحقيق العبودية وأداء حق الربوبية ، وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة .

قال سهل بن عبد الله : يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتكميل الفرائض ، ويحتاج إلى النوافل لتكميل السنن ، ويحتاج إلى الآداب لتكميل النوافل .

ومن الأدب : ترك الدنيا ، والذى ذكره سهل هو معنى ماقال عمر على المنبر : إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وما أكمل لله صلاة ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله فيها . وقد ورد فى الأخبار إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم ، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه ، وإن المصلى لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ، ويناديه مناد : لو علم المصلى من يناجى ما التفت ، أو ما انفتل .

وقد جمع الله تعالى للمصلين فى كل ركعة مافرق على أهل السموات ، فلله ملائكة فى الركوع منذ خلقهم الله لايرفعون من الركوع إلى يوم القيامة ، وهكذا فى السجود والقيام والقعود ، والعبد المتيقظ يتصف فى ركوعه بصفة الراكعين منهم ، وفى السجود بصفة الساجدين ، وفى كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم . وفى غير الفريضة ينبغى للمصلى أن يمكث فى ركوعه متلذذا بالركوع غير مهتم بالرفع منه ، فإن طرقته سآمة بحكم الجبلة استغفر منها ، ويستديم تلك الهيئة ويتطلع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ليصير قلبه بلون الهيئة ، وربما يتراءى للراكع المحق أنه إن سبق همه فى حال الركوع أو السجود إلى الرفع منه ماوفى الهيئة حقها ، فيكون همه الهيئة مستغرقا فيها مشغولا بها عن غيرها من الهيآت ، فبذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة ، فإن السرعة التى يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتوح ، ويقف فى مهاب النفحات الإلهية حتى يتكامل حظ العبد ، فتنمى آثاره بحسن الاسترسال ويستقر فى مقعد الوصال .

وقيل : فى الصلاة أربع هيآت وستة أذكار ؛ فالهيئات الأربع : القيام والقعود والركوع والسجود . والأذكار الستة : التلاوة ، والتسبيح ، والحمد ، والاستغفار ، والدعاء ، والصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام . فصارت عشرة كاملة تفرق هذه العشرة على عشرة صفوف من الملائكة : كل صف عشرة آلاف ؛ فيجتمع فى الركعتين مايفرق على مائة ألف من الملائكة

الباب السابع والثلاثون : فى وصف صلاة أهل القرب

ونذكر فى هذا الوصف كيفية الصلاة بهيآتها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على الكمال بأقصى ماانتهى إليه فهمنا وعلمنا على الوجه ، مع الإعراض عن نقل الأقوال فى كل شىء من ذلك ، إذ فى ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والإيجاز المقصود ، فنقول وبالله التوفيق :

ينبغى للعبد أن يستعد للصلاة قبل دخول وقتها بالوضوء ولا يوقع الوضوء فى وقت الصلاة ؛ فذلك من المحافظة عليها ، ويحتاج فى معرفة الوقت إلى معرفة الزوال وتفاوت الأقدام لطول النهار وقصره ، ويعتبر الزوال بأن الظل مادام فى الانتقاص فهو النصف الأول من النهار ، فإذا أخذ الظل فى الازدياد فهو النصف الآخر وقد زالت الشمس ، وإذا عرف الزوال وأن الشمس على كم قدم تزول ؟ يعرف أول الوقت وآخره ووقت العصر ، ويحتاج إلى معرفة المنازل ليعلم طلوع الفجر ويعلم أوقات الليل ، وشرح ذلك يطول ويحتاج أن يفرد له باب ، فإذا دخل وقت الصلاة يقدم السنة الراتبة ، ففى ذلك سر وحكمة ، وذلك والله أعلم : أن العبد تشعث باطنه وتفرق همه لما بلى به من المخالطة من الناس وقيامه بمهام المعاش ، أوسهو جرى بوقل الجبلة ، أوصرف هم إلى أكل أونوم بمقتضى العادة . فإذا قدم السنة ينجذب باطنه إلى الصلاة ويتهيأ للمناجاة ، ويذهب بالسنة الراتبة أثر الغفلة والكدورة من الباطن فينصلح الباطن ويصير مستعدا للفريضة ، فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات وتطرق النفحات ، ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله ، ومن الذنوب عامة وخاصة ، فالعامة الكبائر والصغائر مما أومأ إليه الشرع ونطق به الكتاب والسنة ، والخاصة . ذنوب حال الشخص ، فلكل عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرفها صاحبها . وقيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ثم لايصلى إلا جماعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تفضل صلاة الجماعة صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » ثم يستقبل القبلة بظاهره والحضرة الإلهية بباطنه ويقرأ ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ويقرأ فى نفسه آية التوجه ، وهذا التوجه قبل الصلاة والاستفتاح قبل الصلاة لوجه الظاهر بانصرافه إلى القبلة وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة ، ثم يرفع يديه حذو منكبيه بحيث تكون كفاه حذو منكبيه وإبهاماه عند شحمة أذنيه ورءوس الأصابع مع الأذنين ويضم الأصابع ، وإن نشرها جاز ، والضم أولى ، فإنه قيل : النشر نشر الكف لا نشر الأصابع ، ويكبر ، ولايدخل بين باء « أكبر » وراءه ألفا ، ويجزم « أكبر » ويجعل المد فى « الله » ولايبالغ فى

ضم الهاء من «الله» ، ولا يبتدئ بالتكبير إلا إذا استقرت اليدان حذو المنكبين ، ويرسلهما مع التكبير من غير نفض ؛ فالوقار إذا سكن القلب تشكلت به الجوارح وتأيدت بالأولى والأصوب ، ويجمع بين نية الصلاة والتكبير بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلى الصلاة بعينها .

وحكى عن الجنيد أنه قال : لكل شيء صفوة ، وصفوة الصلاة التكبيرة الأولى . وإنما كانت التكبيرة صفوة لأنها موضع النية وأول الصلاة .

قال أبو نصر السراج : سمعت ابن سالم يقول : النية بالله ولله ومن الله ، والآفات التى تدخل فى صلاة العبد بعد النية من العدو ، ونصيب العدو وإن كثر لا يوازن بالنية التى هى لله بالله وإن قل .

وسئل أبو سعيد الخراز : كيف الدخول فى الصلاة ؟ فقال : هو أن تقبل على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة ووقوفك بين يدى الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تناجيه وتعلم بين يدى من أنت واقف فإنه الملك العظيم .

وقيل لبعض العارفين : كيف تكبر التكبيرة الأولى ؟ فقال : ينبغى إذا قلت الله أكبر أن يكون مصحوبك فى الله : التعظيم مع الألف ، والهيبة مع اللام ، والمراقبة والقرب مع الهاء . واعلم أن من الناس من إذا قال «الله أكبر» غاب فى مطالعة العظمة والكبرياء ، وامتلأ باطنه نورا ، وصار الكون بأسره فى فضاء شرح صدره كخردلة بأرض فلاة ، ثم تلق الخردلة ، فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس ! وما يتخايل فى الباطن من الكون الذى صار بمثابة الخردلة فألقيت ! فكيف تزاحم الوسوسة وحديث النفس مثل هذا العبد ؟ وقد تزاحم مطالعة العظمة والغيبوبة فى ذلك كون النية ، غير أنه لغاية لطف الحال يختص الروح بمطالعة العظمة والقلب يتميز بالنية ، فتكون النية موجودة بألطف صفاتها مندرجة فى نور العظمة اندراج الكواكب فى ضوء الشمس ، ثم يقبض بيده اليمنى يده اليسرى ويجعلهما بين السرة والصدر ، واليمنى لكرامتها تجعل فوق اليسرى ، ويمد المسبحة والوسطى على الساعد ، ويقبض بالثلاثة البواقى اليسرى من الطرفين ، وقد فسر أمير المؤمنين على رضى الله عنه قوله تعالى ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال : إنه وضع اليمنى على الشمال تحت الصدر ، وذلك أن تحت الصدر عرقا يقال له الناحر : أى ضع يدك على الناحر وقال بعضهم ﴿ وانحر ﴾ أى استقبل القبلة بنحرك ، وفى ذلك سر خفى يكاشف به من وراء أستار الغيب ، وذلك أن الله تعالى بلطيف حكمته خلق الآدمى وشرفه وكرمه وجعله محل نظره ومورد وحيه ونخبة ما فى أرضه وسمائه روحانيا وجسمانيا أرضيا وسماويا ، منتصب القامة مرتفع الهيئة ، فنصفه الأعلى من حد الفؤاد مستودع أسرار السموات ، ونصفه الأسفل مستودع أسرار الأرض ، فمحل نفسه ومركزها النصف الأسفل ، ومحل روحه الروحانى والقلب النصف الأعلى ؛ فجواذب الروح مع جواذب النفس يتطاردان ويتحاربان ، وباعتبار تطاردهما وتغالبهما تكون لمة الملك ولمة الشيطان ، ووقت الصلاة يكثر التطارد لوجود التجاذب بين الإيمان والطبع ، فيكاشف المصلى الذى صار قلبه سماويا مترددا بين الفناء والبقاء لجواذب النفس متصاعدة من مركزها .

وللجوارح وتصرفها وحركتها مع معانى الباطن ارتباط وموازنة ؛ فبوضع اليمنى على الشمال حصر النفس ومنع من صعود جواذبها ، وأثر ذلك يظهر بدفع الوسوسة وزوال حديث النفس فى الصلاة ، ثم إذا استولت جواذب الروح وتملكت من الفرق إلى القدم - عند كمال الأنس وتحقق قرة العين واستيلاء سلطان المشاهدة - تصير النفس مقهورة ذليلة ، ويستنير مركزها بنور الروح ، وتنقطع حينئذ جواذب النفس ؛ وعلى قدر استنارة مركز النفس يزول كل العبادة ، ويستغنى حينئذ عن مقاومة النفس ومنع جواذبها بوضع اليمين على الشمال فيسبل حينئذ ، ولعل لذلك - والله أعلم - ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى مسبلا ، وهو مذهب مالك رحمه الله ، ثم يقرأ ﴿ وجهت وجهى ﴾ الآية ، وهذا التوجه إنقاء لوجه قلبه ، والذى قبل الصلاة لوجه قالبه ، ثم يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك أنت ربى وأنا عبدك ،

ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لى ذنوبى جميعا إنه لايغفر الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لايهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها فإنه لايصرف عنى سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك فالخير كله بيديك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك. ويطرق رأسه فى قيامه ويكون نظره إلى موضع السجود، ويكمل القيام بانتصاب القامة ونزع يسير الانطواء عن الركبتين والخواصر ومعاطف البدن، ويقف كأنه ناظر بجميع جسده إلى الأرض؛ فهذا من خشوع سائر الأجزاء، ويتسكون الجسد بتسكون القلب من الخشوع؛ ويراوح بين القدمين بمقدار أربع أصابع؛ فإن ضم الكعبين هو الصفد المنهى عنه، ولا يرفع إحدى الرجلين فإنه الصفن المنهى عنه: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفن والصفد، وإذا كان الصفن منهيا عنه ففى زيادة الاعتماد على إحدى الرجلين دون الأخرى معنى من الصفن؛ فالأولى رعاية الاعتدال فى الاعتماد على الرجلين جميعا ويكره اشتمال الصماء: وهو أن يخرج يده من قبل صدره. ويجتنب السدل: وهو أن يرخى أطراف الثوب إلى الأرض، ففيه معنى الخيلاء. وقيل: هو الذى يلتف بالثوب، ويجعل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك. وفى معناه ما إذا جعل يديه داخل القميص. ويجتنب الكف: وهو أن يرفع ثيابه بيديه عند السجود، ويكره الاختصار: وهو أن يجعل يده على الخاصرة ويكره الصلب: وهو وضع اليدين جميعا على الخصرين وتجافى العضدين؛ فإذا وقف فى الصلاة على الهيئة التى ذكرناها مجتنبا المكاره فقد تم القيام وكمله، فيقرأ آية التوجه والدعاء كما ذكرناه، ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقولها فى كل ركعة أمام القراءة، ويقرأ الفاتحة وما بعدها بحضور قلب وجمع هم ومواطأة بين القلب واللسان بحفظ وافر من الوصلة والدنو والهيبة والخشوع والخشية والتعظيم والوقار والمشاهدة والمناجاة، وإن قرأ بين الفاتحة وما يقرأ بعدها إذا كان إماما فى السكتة الثانية، اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب، ونقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد، لحسن، وإن قالها فى السكتة الأولى لحسن. وروى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال ذلك. وإن كان منفردا يقولها قبل القراءة، ويعلم العبد أن تلاوته نطق اللسان ومعناها نطق القلب؛ وكل مخاطب لشخص يتكلم بلسانه، ولسانه يعبر عما فى قلبه، ولو أمكن المتكلم إفهام من يكلمه من غير لسان فعل، ولكن حيث تعذر الإفهام إلا بالكلام جعل اللسان ترجمانا؛ فإذا قال باللسان من غير مواطأة القلب فما اللسان ترجمانا ولا القارئ متكلما قاصدا إسماع الله حاجته ولا مستمعا إلى الله فاهما عنه سبحانه مايخاطبه، وماعنده غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد مايقول؛ فينبغى أن يكون متكلما مناجيا، أو مستمعا راعيا؛ فأقل مراتب أهل الخصوص فى الصلاة الجمع بين القلب واللسان فى التلاوة ووراء ذلك أحوال للخواص يطول شرحها.

قال بعضهم: مادخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها غير ما أقول. وقيل لعامر بن عبد الله: هل تجد فى الصلاة شيئا من أمور الدنيا؟ فقال: لأن تختلف علىّ الأسنة أحب إلىّ من أجد فى الصلاة ماتجدون.

وقيل لبعضهم: هل تحدث نفسك فى الصلاة بشىء من أمور الدنيا؟ فقال: لا فى الصلاة ولا فى غيرها.

ومن الناس من إذا أقبل على الله فى صلاته يتحقق بمعنى الإنابة لأن الله تعالى قدم الإنابة وقال: ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة﴾ فينيب إلى الله تعالى ويتقى الله تعالى بالتبرى عما سواه، ويقيم الصلاة بصدر منشرح بالإسلام، وقلب منفتح بنور الإنعام؛ فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه ويسمعها بقلبه، فتقع الكلمة فى فضاء قلب ليس فيه غيرها، فيتملكها القلب بحسن الفهم ولذيذ نعمة الإصغاء، ويتشربها بحلاوة الاستماع وكمال الوعى، ويدرك لطيف معناها وشريف فحواها معانى تلطف عن تفصيل الذكر وتتشكل بخفى الفكر، ويصير الظاهر من معانى القرآن قوت النفس؛ فالنفس المطمئنة متعوضة بمعانى القرآن عن حديثها لكونها معانى ظاهرية متوجهة إلى عالم الحكمة والشهادة، تقرب مناسبتها من النفس المكونة لإقامة رسم الحكمة ومعانى القرآن الباطنة التى يكاشف بها من الملكوت قوت القلب، وتخلص الروح المقدس إلى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم، وبمثل هذه المطالعة يكون

كال الاستغراق فى لجج الأشواق ؛ كما نقل عن مسلم بن يسار أنه صلى ذات يوم فى مسجد البصرة ، فوقعت أسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق ، وهو واقف فى الصلاة لم يعلم بذلك .

ثم إذا أراد الركوع يفصل بين القراءة والركوع ، ثم يركع منطوى القامة والنصف الأسفل بحاله فى القيام من غير انطواء الركبتين ، ويجافى مرفقيه عن جنبيه ، ويمد عنقه مع ظهره ، ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الأصابع . روى مصعب بن سعد قال صليت إلى جنب سعد بن مالك ، فجعلت يدى بين ركبتى وبين فخذى وطبقتهما ، فضرب بيدى وقال : اضرب بكفيك على ركبتيك وقال : يابنى إنا كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نضرب بالأكف على الركب ، ويقول « سبحان ربى العظيم » ثلاثا وهو أدنى الكمال ، والكمال أن يقول إحدى عشرة ، وما يأتى به من العدد يكون بعد التمكن من الركوع ، ومن غير أن يمزج آخر ذلك بالرفع ، ويرفع يديه للركوع والرفع من الركوع ، ويكون فى ركوعه ناظرا نحو قدميه فهو أقرب إلى الخشوع من النظر إلى موضع السجود ، وإنما ينظر إلى موضع سجوده فى قيامه ويقول بعد التسبيح « اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت ، خشع لك سمعى وبصرى وعظمى ومخى وعصبى » ويكون قلبه فى الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والإخبات ، ثم يرفع رأسه قائلا : سمع الله لمن حمده عالما بقلبه ما يقول فإذا استوى قائما يحمد ويقول « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شىء بعد » ، ثم يقول « أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » فإن أطال فى النافلة القيام بعد الرفع من الركوع فليقل « لربى الحمد » مكررا ذلك مهما شاء . فأما فى الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحد زيادة بينة ، ويقنع فى الرفع من الركوع بتمام الاعتدال بإقامة الصلب : ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا ينظر الله إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود » .

ثم يهوى ساجدا ويكون فى هويه مكبرا مستيقظا حاضرا خاشعا عالما بما يهوى فيه وإليه وله ، فمن الساجدين من يكاشف أنه يهوى إلى تخوم الأرضين متفيئا فى أجزاء الملك لامتلاء قلبه من الحياء واستشعار روحه عظم الكبرياء ، كما ورد أن جبرائيل عليه السلام تستر بخافية من جناحه حياء من الله تعالى ، ومن الساجدين من يكاشف أنه يطوى بسجوده بساط الكون والمكان ويسرح قلبه فى فضاء الكشف والعيان ، فتهوى دون هويه أطباق السموات وتتمحى لقوة شهوده تماثيل الكائنات ويسجد على طرف رداء العظمة وذلك أقصى ما ينتهى إليه طائر الهمة البشرية وكفى بالوصول إليه القوى الإنسانية ، وتتفاوت الأنبياء والأولياء فى مراتب العظمة واستشعار كبرها لكل منهم على قدره حظ من ذلك ، وفوق كل ذى علم عليم . ومن الساجدين من يتسع وعاؤه ، وينتشر ضياؤه ، ويحظى بالصنفين ويبسط الجناحين ، فيتواضع بقلبه إجلالا ، ويرفع بروحه إكراما وإفضالا ، فيجتمع له الأنس والهيبة ، والحضور والغيبة ، والفرار والقرار ، بالإسرار والجهار ؛ فيكون فى سجوده ، سابحا فى بحر شهوده ، لم يتخلف منه عن السجود شعرة كما قال سيد البشر فى سجوده « سجد لك سوادى وخيالى » ﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها ﴾ الطوع للروح والقلب لما فيهما من الأهلية ، والكره من النفس لما فيها من الأجنبية .

ويقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى » ثلاثا إلى العشر الذى هو الكمال ، ويكون فى السجود مفتوح العينين لأنهما يسجدان ، وفى الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه ، ويكون ناظرا نحو أرنبة أنفه فى السجود ، فهو أبلغ فى الخشوع للساجد ، ويباشر بكفيه المصلى ، ولا يلفهما فى الثوب ، ويكون رأسه بين كفيه ، ويداه حذو منكبيه غير متيامن ومتياسر بهما ، ويقول بعد التسبيح « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين » وروى أمير المؤمنين على رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده ذلك . وإن قال « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » فحسن . روت عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده ذلك . ويجافى مرفقيه عن جنبيه

ويوجه أصابعه فى السجود نحو القبلة ويضم أصابع كفيه مع الإبهام ، ولا يفرش ذراعيه على الأرض . ثم يرفع رأسه مكبرا ، ويجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى موجها بالأصابع إلى القبلة ، ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف ضمهما وتفريجهما ، ويقول : « رب اغفر لى وارحمنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنى » ، ولا يطيل هذه الجلسة فى الفريضة ؛ أما فى النافلة فلا بأس مهما أطال ، قائلا « رب اغفر وارحم » مكررا ذلك ، ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا ، ويكره الإقعاء فى القعود ، وهو ههنا : يضع أليتيه على عقبيه .

ثم إذا أراد النهوض إلى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة ، ويفعل فى بقية الركعات هكذا ، ثم يتشهد . وفى الصلاة سر المعراج : وهو معراج القلوب ، والتشهد مقر الوصول بعد قطع مسافات الهيئات على تدريج طبقات السموات . والتحيات سلام على رب البريات ، فليذعن لما يقول ، ويتأدب مع من يقول ، ويدر كيف يقول ، ويسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويمثله بين عينى قلبه ، ويسلم على عباد الله الصالحين ؛ فلا يبقى عبد فى السماء ولا فى الأرض من عباد الله إلا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصية الفطرية ، ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى مقبوضة الأصابع إلا المسبحة ، ويرفع المسبحة فى الشهادة فى « إلا الله » لا فى كلمة النفى . ولا يرفعها منتصبة بل مائلة برأسها إلى الفخذ منطوية ؛ فهذه هيئة خشوع المسبحة ودليل سراية خشوع القلب إليها .

ويدعو فى آخر صلاته لنفسه وللمؤمنين . وإن كان إماما ينبغى أنْ لا ينفرد بالدعاء ، بل يدعو لنفسه ولمن وراءه ؛ فإن الإمام المتيقظ فى الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراءه أصحاب الحوائج : يسأل لهم ويعرض حاجتهم ، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وبهذا وصفهم الله تعالى فى كلامه بقوله سبحانه ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ .

وفى وصف هذه الأمة فى الكتب السالفة : صفهم فى صلاتهم كصفهم فى قتالهم .

وحدثنا بذلك شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء قال أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن عيسى بن شعيب المالينى ، قال أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد المظفر الواعظ ا قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسى ، قال أخبرنا أبو عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، قال أخبرنا مجاهد بن موسى ، قال حدثنا معن هو ابن عيسى : أنه سأل كعب الأحبار : كيف نجد نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ؟ قال : نجده : « محمد بن عبد الله ، ويولد بمكة ويهاجر لطيبة ، ويكون ملكه بالشام ، وليس بفحاش ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يكافئ بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، أمته الحامدون : يحمدون الله فى كل سراء ، ويكبرون الله على كل نجد ، يوضئون أطرافهم ويأتزرون فى أوساطهم ، يصفون فى صلاتهم كما يصفون فى قتالهم ، دويهم فى مساجدهم كدوى النحل ، يسمع مناديهم فى جو السماء » .

فالإمام فى الصلاة مقدمة الصف فى محاربة الشيطان ، فهو أولى المصلين بالخشوع والإتيان بوظائف الأدب ظاهرا وباطنا ، والمصلون المتيقظون كلما اجتمعت ظواهرهم تجتمع بواطنهم وتتناصر وتتعاضد ، وتسرى من البعض إلى البعض أنوار وبركات ، بل جميع المسلمين المصلين فى أقطار الأرض بينهم تعاضد وتناصر بحسب القلوب ونسب الإسلام ورابطة الإيمان ؛ بل يمدهم الله تعالى بالملائكة الكرام كما أمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المسومين ؛ لحاجتهم إلى محاربة الشيطان أمس من حاجاتهم إلى محاربة الكفار ، ولهذا كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » فتتداركهم الأملاك ، بل بأنفاسهم الصادقة تتماسك الأفلاك .

فإذا أراد الخروج من الصلاة يسلم على يمينه ، وينوى مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على الملائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمنى الجن ، ويجعل خده مبينا لمن على يمينه بالتواء عنقه ، ويفصل بين هذا السلام والسلام عن يساره ، فقد ورد النهى عن المواصلة ، والمواصلة خمس : اثنتان تخص بالإمام : هو أن لا يوصل القراءة بالتكبير ، والركوع بالقراءة . واثنتان على المأموم : وهو أن لا يوصل تكبيرة الإحرام بتكبيرة الإمام . ولا تسليمه بتسليمه . وواحدة على الإمام والمأمومين : وهو أن لا يوصل تسليم الفرض بتسليم النفل . ويجزم التسليم ولا يمد مدا ، ثم يدعو بعد التسليم بما

يشاء من أمر دينه ودنياه ، ويدعو قبل التسليم أيضا فى صلب الصلاة فإنه يستجاب ومن أقام الصلوات الخمس فى جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة ، وكل المقامات والأحوال زبدتها الصلوات الخمس فى جماعة ، وهى سر لدين ، وكفارة المؤمن ، وتمحيص للخطايا : على ما أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله إجارة ، قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة ، قال أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس بن زكريا ، قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد ، قال حدثنا الحسين بن الحسين المروزى ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا يحيى بن عبد الله . قال سمعت أبى يقول : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس كفارات للخطايا ، واقرءوا إن شئتم ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين﴾ » .

الباب الثامن والثلاثون : فى ذكر آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آداب المصلى : أن لا يكون مشغول القلب بشىء قل أو كثر ؛ لأن الأكياس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما أمروا ؛ لأن الدنيا وأشغالها لما كانت شاغلة للقلب رفضوها غيرة على محل المناجاة ، ورغبة فى أوطان القربات ، وإذعانا بالباطن لرب البريات ؛ لأن حضور الصلاة بالظاهر إذعان الظاهر : وفراغ القلب فى الصلاة عما سوى الله تعالى إذعان الباطن ، فلم يروا حضور الظاهر وتخلف الباطن حتى لا يختل إذعانهم فتنخرم عبوديتهم ؛ فيجتنب أن يكون باطنه مرتهنا بشىء ويدخل الصلاة .

وقيل : من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ، ولهذا ورد « إذا حضر العشاء والعشاء فقدموا العشاء على العشاء » ولا يصلى وهو حاقن يطالبه البول ، ولا حازق يطالبه الغائط والحزق أيضا : ضيق الخف ، ولا يصلى أيضا وخفه ضيق يشغل قلبه ؛ فقد قيل : لا رأى لحازق ، قيل الذى يكون معه ضيق . وفى الجملة ليس من الأدب أن يصلى وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التى ذكرناها ، والاهتمام المفرط ، والغضب : وفى الخبر « لا يدخل أحدكم فى الصلاة وهو مقطب ، ولا يصلين أحدكم وهو غضبان » فلا ينبغى للعبد أن يتلبس بالصلاة إلا وهو على أتم الهيآت .

وأحسن لبسة المصلى سكون الأطراف وعدم الالتفات والإطراق ووضع اليمين على الشمال ؛ فما أحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدى ملك عزيز . وفى رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز ؛ وأرباب العزيمة يتركون الحركة فى الصلاة جملة : وقد حركت يدى فى السلام وعندى شخص من الصالحين ، فلما انصرفت من الصلاة أنكر على وقال : عندنا إن العبد إذا وقف فى الصلاة ينبغى أن يبقى جمادا بجمدا لا يتحرك منه شىء . وقد جاء فى الخبر « سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان : الرعاف ، والنعاس ، والوسوسة ، والتثاؤب ، والحكاك ، والالتفات ، والعبث بالشىء من الشيطان أيضا وقيل : السهو والشك .

وقد روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الخشوع فى الصلاة : أن لا يعرف المصلى من على يمينه وشماله .

ونقل عن سفيان أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته . وروى عن معاذ بن جبل أشد من ذلك قال : من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمدا فلا صلاة له .

وقال بعض العلماء : من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة قال بعضهم : لأن ذلك عدوه عملا .

وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿والذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قيل : هو سكون الأطراف والطمأنينة .

قال بعضهم : إذا كبرت التكبيرة الأولى فاعلم أن الله ناظر إلى شخصك عالم بما فى ضميرك ، ومثل فى صلاتك الجنة عن يمينك والنار عن شمالك ، وإنما ذكرنا أن تمثل الجنة والنار لأن القلب إذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه

الوسواس ، فيكون هذا التمثيل تداويا للقلب لدفع الوسوسة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد الصفار ، قال أخبرنا أبو بكر ابن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن ، قال سمعت أبا الحسين الفارسي يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : قال سهل : من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان ؛ فأما من باشر باطنه صفو اليقين ونور المعرفة فيستغنى ويشاهد عن تمثيل مشاهدة قال أبو سعيد الخراز : إذا ركع فالأدب في ركوعه أن ينتصب ويدنو ويتدلى في ركوعه حتى لا يبقى منه مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش العظيم ، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم من الله ويصغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء ، وإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك . وقال أيضا : ويكون معه من الخشية ما يكاد يذوب به .

قال السراج : إذا أخذ العبد في التلاوة فالأدب في ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى ، أو كأنه يقرأ على الله تعالى . وقال السراج أيضا : من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ونفى كل شيء غير الله تعالى ؛ فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة ، فيكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا في الصلاة بهما . فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب ، فكأنهم أبدا في الصلاة ؛ فهذا هو أدب الصلاة .

وقيل : كان بعضهم لا يتهيأ له حفظ الورد من كثرة استغراقه ، وكان يجلس واحد من أصحابه يعد عليه كم ركعة صلى

وقيل : للصلاة أربع شعب : حضور القلب في المحراب ، وشهود العقل عند الملك الوهاب ، وخشوع القلب بلا ارتياب وخضوع الأركان بلا ارتقاب ، لأن عند حضور القلب رفع الحجاب ، وعند شهود العقل رفع العتاب ، وعند حضور النفس فتح الأبواب ، وعند خضوع الأركان وجود الثواب ؛ فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصل لاه ، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مصل ساه ، ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مصل خاطىء ، ومن أتاها بلا خشوع الأركان فهو مصل جاف ، ومن أتاها كما وصف فهو مصل واف .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قام العبد إلى الصلاة المكتوبة مقبلا على الله بقلبه وسمعه وبصره انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصابها ، وبغسل رجليه خطيئة أصابها ، حتى يدخل في صلاته وليس عليه وزر .

وذكرت السرقة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أى السرقة أقبح ؟ ، فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ فقال : إن أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته ، قالوا : كيف يسرق الرجل من صلاته ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها . وروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قدم للإمامة فقال لا أصلح ، فلما ألحوا عليه كبر فغشى عليه فقدموا إماما آخر ، فلما أفاق سئل فقال : لما قلت استووا هتف بي هاتف : هل استويت أنت مع الله قط .

وقال عليه السلام : إن العبد إذا أحسن الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت : حفظك الله كما حفظتني ثم صعدت ولها نور حتى تنتهي إلى السماء وحتى تصل إلى الله فتشفع لصاحبها ، وإذا أضاعها قالت : ضيعك الله كما ضيعتني ثم صعدت ولها ظلمة حتى تنتهي إلى أبواب السماء فتغلق دونها ، ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها .

وقال أبو سليمان الداراني : إذا وقف العبد في الصلاة يقول الله تعالى : ارفعوا الحجب فيما بيني وبين عبدي ، فإذا التفت يقول الله : ارخوها فيما بيني وبينه وخلوا عبدي وما اختار لنفسه .

وقال أبو بكر الوراق : ربما أصلي ركعتين فأنصرف منهما وأنا أستحيى من الله حياء رجل انصرف من الزنا

قوله هذا : لعظيم الأدب عنده ، ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب .

وقيل لموسى بن جعفر : إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بممرهم بين يديك ، قال : إن الذى أصلى له أقرب إلى من الذى يمشى بين يدى . وقيل : كان زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لايعرف من تغير لونه ، فيقال له فى ذلك فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقف ؟

وروى عمار بن ياسر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لايكتب للعبد من صلاته إلا مايعقل » . وقد ورد فى لفظ آخر « منكم من يصلى الصلاة كاملة ، ومنكم من يصلى النصف والثلث والربع والخمس حتى يبلغ العشر » .

قال الخواص : ينبغى للرجل أن ينوى نوافله لنقصان فرائضه ، فإن لم ينوها لم يحسب له منها شىء ، بلغنا أن الله لايقبل نافلة حتى تؤدى فريضة ، يقول الله تعالى : مثلكم كمثل العبد السوء بدأ بالهدية قبل قضاء الدين . وقال أيضا : انقطع الخلق عن الله تعالى بخصلتين ، إحداهما : أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض . والثانية : أنهم عملوا أعمالا بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها ، وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملا إلا بالصدق وإصابة الحق ، وفتح العين فى الصلاة أولى من تغميض العين إلا أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع ، وإن تثاءب فى الصلاة يضم شفتيه بقدر الإمكان ولا يلوى ذقنه بصدره ولا يزاحم فى الصلاة غيره ، قيل : ذهب المزحوم بصلاة المزاحم ، وقيل : من يترك الصف الأول مخافة أن يضيق على أهله فماله فى ثباته أعطاه الله مثل ثواب الصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شىء .

وقيل : إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل .

وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل ، حتى كان يسمع فى بعض سكك المدينة .

وسئل الجنيد : ما فريضة الصلاة ؟ قال : قطع العلائق ، وجمع الهم ، والحضور بين يدى الله . وقال الحسن : ماذا يعز عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك ؟

وقيل : أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء فقال : إذا دخلت الصلاة فهب لى من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع ، فإنى قريب .

وقال أبو الخير الأقطع : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت : يا رسول الله أوصنى ، فقال ، يا أبا الخير عليك بالصلاة فإنى استوصيت ربى ، فأوصانى بالصلاة وقال لى : إن أقرب ما أكون منك وأنت تصلى ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ركعتان فى تفكر خير من قيام ليلة . وقيل : إن محمد بن يوسف الفرغانى رأى حاتما الأصم واقفا يعظ الناس فقال له : ياحاتم ، أراك تعظ الناس ، أفتحسن أن تصلى ؟ قال : نعم . قال : كيف تصلى ؟ قال : أقوم بالأمر وأمشى بالخشية ، وأدخل بالهيبة ، وأكبر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأقعد للتشهد بالتمام ، وأسلم إلى ربى بالسنة ، وأسلمها إلى ربى ، وأحفظها أيام حياتى ، وأرجع باللوم على نفسى ، وأخاف أن لاتقبل منى ، وأرجو أن تقبل منى بين الخوف والرجاء ، وأشكر من علمنى ، وأعلمها من سألنى ، وأحمد ربى إذ هدانى ، فقال محمد بن يوسف : مثلك يصلح أن يكون واعظا ، وقوله تعالى ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ قيل : من حب الدنيا ، وقيل : من الاهتمام ، وقال عليه السلام « من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشىء من الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه » ، وقال أيضا « إن الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتنادم وترفع يديك وتقول : اللهم اللهم فن لايفعل ذلك فهى خداج » ، أى ناقصة .

وقد ورد أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان فى أقطار الأرض خوفا منه لأنه تأهب للدخول على الملك فإذا كبر حجب عنه إبليس ، قيل : يضرب بينه وبينه سرادق لاينظر إليه ، وواجهه الجبار بوجهه ، فإذا قال ، الله أكبر ، اطلع الملك فى قلبه فإذا لم يكن فى قلبه أكبر من الله تعالى يقول : صدقت ، الله فى قلبك كما تقول ، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ، ويكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض ، ويكتب له حشو ذلك

النور حسنات ، إن الجاهل الغافل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل ؛ فإذا كبر اطلع الله على قلبه ، فإذا كان شئ في قلبه أكبر من الله تعالى عنده يقول له : كذبت ، ليس الله تعالى أكبر في قلبك كما تقول ؛ فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء ، فيكون حجابا لقلبه عن الملكوت ؛ فيزداد ذلك الحجاب ظلمة ، ويلتقم الشيطان قلبه ، فلا يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس إليه ويزين حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه .

وفى الخبر « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » والقلوب الصافية التى كل أديها لكمال أدب قوالبها تصير سماوية تدخل بالتكبير فى السماء كما تدخل فى الصلاة ، والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين فالقلب السماوى لاسبيل للشيطان إليه ، فتتبع مواجس نفسانية عند ذلك لاتنقطع بالتحصن بالسماء كانقطاع تصرف الشيطان والقلوب المرادة بالقرب تدرج بالتقريب ، وتعرج فى طبقات السموات ، وفى كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شئ من ظلمة النفس ؛ وبقدر ذلك يقل الهاجس إلى ان يتجاوز السموات ويقف أمام العرش ؛ فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش ، وتندرج ظلمات النفس فى نور القلب اندراج الليل فى النهار ، وتتأدى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب .

وما ذكرنا من أدب الصلاة يسير من كثير وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكمل من ذكرنا ؛ وقد غلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى ؛ وإذا حصل الذكر فأى حاجة إلى الصلاة ، وسلكوا طرقا من الضلال ، وركنوا إلى أباطيل الخيال ؛ ومحوا الرسوم والأحكام ، ورفضوا الحلال والحرام وقوم آخرون سلكوا فى ذلك طريقا أدبهم إلى نقصان الحال ، حيث سلموا من الضلال ، لأنهم اعترفوا بالفرائض وأنكروا فضل النوافل ، واغتروا بيسير رواج الحال ، وأهملوا فضل الأعمال ، ولم يعلموا أن لله فى كل هيئة من الهيئات وكل حركة من الحركات أسرارا وحكما لاتوجد فى شئ من الأذكار ؛ فالأحوال والأعمال روح وجسمان ، وما دام العبد فى دار الدنيا إعراضه عن الأعمال عين الطغيان فالأعمال تزكو بالأحوال ، والأحوال تنمو بالأعمال .

الباب التاسع والثلاثون : فى فضل الصوم وحسن أثره

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصبر نصف الإيمان والصوم نصف الصبر » وقيل : مامن عمل ابن آدم شئ إلا ويذهب برد المظالم إلا الصوم فإنه لايدخله قصاص ويقول الله تعالى يوم القيامة : هذالى ، فلا ينقص أحد منه شيئا . وفى الخبر : « الصوم لى وأنا أجزى به » قيل : أضافه إلى نفسه لأن فيه خلقا من أخلاق الصمدية ، وأيضا لأنه من أعمال السر من قبيل التروك لايطلع عليه أحد إلا الله . وقيل فى تفسيره قوله تعالى ﴿ السائحون ﴾ الصائمون ، لأنهم ساحوا إلى الله تعالى بجوعهم وعطشهم ، وقيل فى قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ هم الصائمون ، لأن الصبر اسم من أسماء الصوم ويفرغ للصائم إفراغا ويجازف له مجازفة ، وقيل : أحد الوجوه فى قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ كان عملهم الصوم .

وقال يحيى بن معاذ : إذا ابتلى المرء بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له ومن ابتلى بحرص الأكل فقد أحرق بنار الشهوة ، وفى نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها فى كف الشيطان متعلق بها ، فإذا جوع بطنه وأخذ حلقه وراض نفسه يبس كل عضو واحترق بنار الجوع وفر الشيطان من ظله ، وإذا أشبع بطنه وترك حلقه فى لذائذ الشهوات فقد رطب أعضاؤه وأمكن الشيطان . والشبع نهر فى النفس ترده الشيطان ، والجوع نهر فى الروح ترده الملائكة ، وينهزم الشيطان من جائع نائم ، فكيف إذا كان قائما ، ويعانق الشيطان شبعانا قائما فكيف إذا كان نائما ، فقلب المريد الصادق يصرخ إلى تعالى من طلب النفس الطعام والشراب .

دخل رجل إلى الطيالسى وهو يأكل خبزا يابسا قد بله بالماء مع ملح جريش ، فقال له : كيف تشتهى هذا ؟ قال :

أدعه حتى أشتهيه ، وقيل : من أسرف فى مطعمه ومشربه يعجل الصغار والذل إليه فى دنياه قبل آخرته ، وقال بعضهم: الباب العظيم الذى يدخل منه إلى الله تعالى قطع الغذاء ، وقال بشر : إن الجوع يصفى الفؤاد ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق ، وقال ذو النون : ما أكلت حتى شبعت ، ولا شربت حتى رويت إلا عصيت الله أو هممت بمعصية ، وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان يأتى علينا الشهر ونصف شهر ما تدخل بيتنا نار لمصباح ولا لغيره ، قال : قلت سبحان الله ؛ فبأى شىء كنتم تعيشون ؟ قالت : بالتمر والماء وكان لنا جيران من الأنصار جزاهم الله خيرا كانت لهم منائح ، فربما واسونا بشىء ، وروى أن حفصة بنت عمر رضى الله عنهما قالت لأبيها : إن الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعاما أكثر من طعامك ولبست ثيابا ألين من ثيابك ؟ فقال : إنى أخاصمك إلى نفسك ؛ ألم يكن من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ؟ يقول مرارا ؛ فبكت ، فقال : قد أخبرتك والله لأشاركنه فى عيشه الشديد لعلى أصيب عيشة الرخاء .

وقال بعضهم : ما نخلت لعمر دقيقا إلا وأنا له عاص .

قالت عائشة رضى الله عنها : ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من خبز بر حتى مضى لسبيله .

قالت عائشة رضى الله عنها: أديموا قرع باب الملكوت يفتح لكم قالوا: كيف نديم ؟ قالت : بالجوع والعطش والظمأ .

وقيل : ظهر إبليس ليحيى بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق ، فقال: ما هذه؟ قال: الشهوات التى أصيب بها ابن آدم ؛ قال : هل تجد لى فيها شهوة ؟ قال : لا ، غير أنك شبعت ليلة فثقلناك عن الصلاة والذكر ؛ فقال : لاجرم أنى لأشبع أبدا . قال إبليس : لاجرم أنى لاأنصح أحدا أبدا .

وقال شقيق : العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلاتها الجوع .

وقال لقمان لابنه : إذا ملئت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال الحسن : لاتجمعوا بين الأدمين فإنه من طعام المنافقين . وقال بعضهم : أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الأغذية .

فيكره للمريد أن يوالى فى الافطار أكثر من أربعة أيام فإن النفس عند ذلك تركن إلى العادة وتتسع بالشهوة .

وقيل . الدنيا بطنك فعلى قدر زهدك فى بطنك زهدك فى الدنيا .

وقال عليه السلام ، ماملأ آدمى وعاء شرا من بطن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

وقال فتح الموصلى . صحبت ثلاثين شيخا كل يوصينى عند مفارقتى إياه بترك عشرة الأحداث وقلة الأكل .

الباب الأربعون : فى اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار

جمع من المشايخ الصوفية كانوا يديمون الصوم فى السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى .

وكان عبد الله بن جابار قد صام نيفا وخمسين سنة لايفطر فى السفر والحضر ، فجهد به أصحابه يوما وأفطر ، فاعتل من ذلك أياما . فإذا رأى المريد صلاح قلبه فى دوام الصوم فليصم دائما ويدع للإفطار جانبا ؛ فهو عون حسن له على ما يريد .

روى أبو موسى الأشعرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين » ، أى لم يكن له فيها موضع .

وكره قوم صوم الدهر ، وقد ورد فى ذلك مارواه أبو قتادة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بمن صام الدهر ؟ قال ، لاصام ولا أفطر ، وأول قوم أن صوم الدهر : هو أن لايفطر العيدين وأيام التشريق فهو الذى يكره ، وإذا أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذى كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وقد ورد « أفضل الصيام صوم أخي داود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما » واستحسن ذلك قوم من الصالحين ليكونن بين حال الصبر وحال الشكر .

ومنهم من كان يصوم يومين ويفطر يوما أو يصوم يوما ويفطر يومين .

ومنهم من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة . وقيل : كان سهل بن عبد الله يأكل في كل خمسة عشر يوما مرة وفي رمضان يأكل أكلة واحدة ، وكان يفطر بالماء القراح للسنة .

وحكى عن الجنيد أنه كان يصوم على الدوام ، فإذا دخل عليه إخوانه أفطر معهم ويقول : ليس فضل المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم ، غير أن هذا الإفطار يحتاج إلى علم ، فقد يكون الداعي إلى ذلك شره النفس لا لنية الموافقة ، وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب . وسمعت شيخنا يقول : لي سنين ما أكلت شيئا بشهوة نفس ابتداء واستدعاء ، بل يقدّم إلى الشيء فأراه من فضل الله ونعمته وفعله فأوافق الحق في فعله : وذكر أنه في ذات يوم اشتهى الطعام ولم يحضر من عادته تقديم الطعام إليه . قال : ففتحت باب البيت الذي فيه الطعام وأخذت رمانة لآكلها . فدخلت السنور وأخذت دجاجة كانت هناك ، فقلت : هذا عقوبة لي على تصرفي في أخذ الرمانة .

ورأيت الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام في اليوم مرات ، أي وقت أحضر الطعام أكل منه . ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق ؛ لأن حاله مع الله ترك الاختيار في مأكوله وملبوسه وجميع تصاريفه ، وكان حاله الوقوف مع فعل الحق ، وقد كان له في ذلك بداية يعز مثلها ، حتى نقل أنه كان يبقى أياما لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه ولا يتسبب إلى تناول شيء وينتظر فعل الحق لسياقه الرزق إليه ، ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان . ثم إن الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتلامذة ، وكانوا يتكلفون الأطعمة ويأتون بها إليه وهو يرى في ذلك فضل الحق والموافقة ، سمعته يقول أصبح كل يوم وأحب ما إلى الصوم ، وينقض الحق على محبتي الصوم بفعله ، فأوافق الحق في فعله .

وحكى عن بعض الصادقين من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة ، وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا في رمضان .

وقال أبو نصر السراج : أنكر قوم هذه المخالفة وإن كان الصوم تطوعا ، واستحسنه آخرون لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع وأن لا يتمتع برؤية الصوم ، ووقع لي أن هذا إن قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم ، فقد تمتع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم ، وهذا يتسلسل ، والأليق بموافقة العلم إمضاء الصوم . قال الله تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ ولكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون ، والصدق محمود لعينه كيف كان ، والصادق في خفارة صدقه كيف تقلب . وقال بعضهم : إذا رأيت الصوفي يصوم صوم التطوع فاتهمه فإنه قد اجتمع معه شيء من الدنيا .

وقيل : إذا كان جماعة متوافقين أشكالا وفيهم مريد يحثونه على الصيام فإن لم يساعدوه يهتموا لإفطاره ويتكلفوا له رفقا به ولا يحملوا حاله على حالهم ، وإن كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه ويفطرون لإفطاره إلا من يأمره الشيخ بغير ذلك .

وقيل : إن بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه حتى ينظر الشاب إليه فيتأدب به ويصوم بصيامه .

وحكى عن أبي الحسن المكي أنه كان يصوم الدهر وكان مقيما بالبصرة ، وكان لا يأكل الخبز إلا ليلة الجمعة ، وكان قوته في كل شهر أربع دوانيق يعمل بيده حبال الليف ويبيعها . وكان الشيخ أبو الحسن بن سالم يقول . لا أسلم عليه إلا أن يفطر ويأكل . وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية له في ذلك لأنه كان مشهورا بين الناس .

وقال بعضهم : ما أخلص لله عبد قط إلا أحب أن يكون في جب لا يعرف . ومن أكل فضلا من الطعام أخرج فضلا من الكلام . وقيل : أقام أبو الحسن التنيسي بالحرم مع أصحابه سبعة أيام لم يأكلوا ، فخرج بعض أصحابه ليتطهر فرأى قشر بطيخ ، فأخذه وأكله ، فرآه إنسان فاتبع أثره وجاء برفق فوضعه بين يدي القوم ، فقال الشيخ : من جنى منكم هذه الجناية ؟ فقال الرجل : أنا وجدت قشر بطيخ فأكلته ، فقال كن أنت مع جنايتك ورفقك ، فقال أنا تائب من جنايتي .

فقال : لا كلام بعد التوبة ، وكانوا يستحبون صيام أيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .
وروى أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض اسود جسده من أثر المعصية ، فلما تاب الله عليه أمره أن يصوم أيام البيض ، فابيض ثلث جسده بكل يوم صامه حتى أبيض جميع جسده بصيام أيام البيض .
ويستحبون صوم النصف الأول من شعبان وإفطار نصفه الأخير ، وإذا واصل بين شعبان ورمضان فلا بأس به ، ولكن إن لم يكن صام فلا يستقبل رمضان بيوم أو بيومين .
وكان يكره بعضهم أن يصام رجب جميعه كراهة المضاهاة برمضان . ويستحب صوم العشر من ذى الحجة والعشر من المحرم ، ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن يصام من الأشهر الحرم ، وورد فى الخبر ؟ من صام ثلاثة أيام من شهر حرام : الخميس ، والجمعة ، والسبت بعد من النار سبعمائة عام » .

الباب الحادى والأربعون : فى آداب الصوم ومهامه

آداب الصوفية فى الصوم : ضبط الظاهر والباطن وكف الجوارح عن الآثام ، كمنع النفس عن الطعام ، ثم كف النفس عن الاهتمام بالأقسام .
سمعت أن بعض الصالحين بالعراق كان طريقه وطريق أصحابه أنهم كانوا يصومون ، وكلما فتح عليهم قبل وقت الإفطار يخرجونه ، ولا يفطرون إلا على ما فتح لهم وقت الإفطار .
وليس من الأدب أن يمسك المريد عن المباح ويفطر بحرام الآثام .
قال أبو الدرداء : ياحبذا نوم الأكياس وفطرهم ، كيف يعيبون قيام الحمقى وصيامهم ! والذرة من ذى يقين وتقوى أفضل من أمثال الجبال من أعمال المغترين .
ومن فضيلة الصوم وأدبه : أن يقلل الطعام عن الحد الذى كان يأكله وهو مفطر ، وإلا فإذا جمع الأكلات بأكلة واحدة فقد أدرك بها مافوت ، ومقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع ، وأخذهم من الطعام قدر الضرورة لعلمهم أن الاقتصار على الضرورة يجذب النفس من سائر الأفعال والأقوال إلى الضرورة ، والنفس من طبعها أنها إذا قهرت لله تعالى فى شىء واحد على الضرورة تأدى ذلك إلى سائر أحوالها ، فيصير بالأكل النوم ضرورة ، والقول والفعل ضرورة ، وهذا باب كبير من أبواب الخير لأهل الله تعالى يجب رعايته وافتقاده ولا يختص بعلم الضرورة وفائدتها وطلبها ، إلا عبد أبر يد الله تعالى أن يقربه ويدنيه ويصطفيه ويربيه ، ويتنعم فى صومه من ملاعبة الأهل والملامسة ، فإن ذلك أنزه للصوم .
ويتسحر استعمالا للسنة ، وهو أدعى إلى إمضاء الصوم لمتبنين ، أحدهما : عود بركة السنة عليه ، والثانى : التقوية بالطعام على الصيام : وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تسحروا فإن فى السحور بركة » .
ويعجل الفطر عملا بالسنة ، فإن لم يرد تناول الطعام إلا بعد العشاء ويريد إحياء مابين العشاءين يفطر بالماء أو على أعداد من الزبيب أو التمر ويأكل لقيمات إن كانت النفس تنازع ، ليصفو له الوقت بين العشاءين ، فإحياء ذلك له فضل كثير ، وإلا فيقتصر على الماء لأجل السنة .
أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا إسحق بن موسى الأنصارى ، قال حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن قرة عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه « قال الله عز وجل ، أحب عبادى إلى أعجلهم فطرا » وقال عليه السلام « لايزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » والإفطار قبل الصلاة سنة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر على جرعة من ماء أو مذقة من لبن أو تمرات ، وفى الخبر « كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش » ، قيل

هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على الحرام ، وقيل : هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغيبة ، قال سفيان من اغتاب فسد صومه . وعن مجاهد : خصلتان تفسدان الصوم : الغيبة والكذب . قال الشيخ أبو طالب المكى : قرن الله الاستماع إلى الباطل ؛ والقول بالإثم بأكل الحرام فقال ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾

وورد فى الخبر « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تهلكا ؛ فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذنانه فى الإفطار ؛ وأرسل إليهما قدحا وقال « قولوا لهما قيئا فيه ما أكلتما ، فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا ، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه فعجب الناس من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . هاتان صامتا عن ما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، وقال عليه الصلاة والسلام « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ شاتمه فليقل إنى صائم » . وفى الخبر « إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته » والصوفى الذى لا يرجع إلى معلوم ولا يدرى متى يساق إليه الرزق ، فإذا ساق الله إليه الرزق تناوله بالأدب وهو دائم المراقبة لوقته ، وهو فى إفطاره أفضل من الذى له معلوم معد فإن كان مع ذلك يصوم فقد أكمل الفضل .

حكى عن رويم قال اجتزت فى الهاجرة ببعض سكك بغداد ، فعطشت فتقدمت إلى باب دار فاستسقيت ، فإذا جارية قد خرجت ومعها كوز جديد ملآن من الماء المبرد ، فلما أردت أن أتناول من يدها قالت : صوفى ويشرب بالنهار ، وضربت بالكوز على الارض وانصرفت . قال رويم : فاستحييت من ذلك ونذرت أن لا أفطر أبداً .

والجماعة الذين كرهوا دوام الصوم كرهوه لمكان أن النفس إذا ألفت الصوم وتعودته اشتد عليها الإفطار ، وهكذا يتعودها الإفطار تكره الصوم ، فيرون الفضل فى أن لا تركن النفس إلى عادة ، ورأوا أن إفطار يوم وصوم يوم أشد على النفس .

ومن أدب الفقراء ، أن الواحد إذا كان بين جمع وفى صحبة جماعة لا يصوم إلا بإذنهم ، وإنما كان ذلك لأن قلوب الجمع متعلقة بفطوره وهم على غير معلوم ، فإن صام بإذن الجمع وفتح عليهم بشىء لا يلزمهم ادخاره للصائم ، ومع العلم بأن الجمع المفطرين يحتاجون إلى ذلك ، فإن الله تعالى يأتى للصائم برزقه إلا أن يكون الصائم يحتاج إلى الرفق لضعف حاله أو ضعف بنيته لشيخوخته أو غير ذلك ، وهكذا الصائم لا يليق أن يأخذ نصيبه فيدخره ، لأن ذلك من ضعف الحال فإن كان ضعيفا يعترف بحاله وضعفه فيدخره ، والذى ذكرناه لأقوام هم على غير معلوم ، فأما الصوفية المقيمون فى رباط على معلوم فلا يليق بحالهم الصيام ، ولا يلزمهم موافقة الجمع فى الإفطار ، وهذا يظهر فى جمع منهم لهم معلوم يقدم لهم بالنهار ، فأما إذا كانوا على غير معلوم ، فقد قيل : مساعدة الصوام للمفطرين أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوام ، وأمر القوم مبناه على الصدق ، ومن الصدق افتقاد النية وأحوال النفس ، فكل ما صحت النية فيه من الصوم والإفطار والموافقة وترك الموافقة فهو الافضل ، فأما من حيث السنة فمن يوافق له وجه إذا كان صائما وأفطر للموافقة ، وإن صام ولم يوافق فله وجه فأما وجه من يفطر ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أبيه أبى الفضل الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو الفضل محمد بن عبد الله ، قال أخبرنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوى ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدويه ، قال حدثنا عبد الله بن حماد ، قال حدثنا عبد الله بن صالح ، قال حدثنى عطاء بن خالد عن حماد بن حميد عن محمد بن المنكدر ، عن أبى سعيد الخدرى قال : اصطنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه طعاما ، فلما قدم إليهم قال رجل من القوم : إنى صائم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دعاكم أخوكم وتكلف لكم ، ثم تقول إنى صائم ، افطر وإقض يوما مكانه ، وأما وجه من لا يوافق ، فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكلوا وبلال صائم ، فقال رسول الله : « نأكل رزقنا ورزق بلال فى الجنة » . فإذا علم أن هنالك قلبا يتأذى أو فضلا يرجى من موافقة من يغتنم موافقته يفطر بحسن النية لا بحكم الطبع وتقاضيه ، فإن لم يجد هذا المعنى لا ينبغى أن يتلبس عليه الشره وداعية النفس بالنية فليتم صومه ، وقد تكون الإجابة لداعية

النفس لاقضاء حق أخيه .

ومن أحسن آداب الفقير الطالب : أنه إذا أفطر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيرا عن هيئته ونفسه متثبطة عن أداء وظائف العبادة ، فيعالج مزاج القلب المتغير بإذهاب التغير عنه ويذيب الطعام بركعات يصليها أو بآيات يتلوها أو بأذكار واستغفار يأتى به ، فقد ورد فى الخبر « أذيبوا طعامكم بالذكر » ومن مهام آداب الصوم كتمانه مهما أمكن إلا أن يكون متمكنا من الإخلاص فلا يبالى ظهر أم بطن .

الباب الثانى والأربعون : فى ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة

الصوفى بحسن نيته وصحة مقصده ووفور علمه وإتيانه بآدابه تصير عاداته عبادة ، والصوفى موهوب وقته لله وحياته لله ، كما قال الله تعالى لنبيه آمرا له ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾ فتدخل على الصوفى أمور العادة لموضع حاجته وضرورة بشريته ، ويحف بعادته نور يقظته وحسن نيته ، فتتنور العادات وتتشكل بالعبادات؛ ولهذا ورد « نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح » هذا مع كون النوم عين الغفلة ، ولكن كل مايستعان به على العبادة يكون عبادة ، فتناول الطعام أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية وتعلق أثره بالقلب والقالب ، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك ، والقالب مركب القلب وبهما عمارة الدنيا والآخرة ، وقد ورد « أرض الجنة قيعان نباتها التسبيح والتقديس » ، والقالب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة ، وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين ، والله تعالى ركب الآدمى بلطيف حكمته من أخص جواهر الجسمانيات والروحانيات ، وجعله مستودع خلاصة الأرضين والسموات جعل عالم الشهادة ومافيها من النبات والحيوان لقوام بدن الآدمى . قال الله تعالى ﴿خلق لكم مافى الأرض جميعا﴾ فكون الطبائع وهى الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة وكون بواسطتها النبات ، وجعل النبات قواما للحيوانات وجعل الحيوانات مسخرة للآدمى يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه ، فالطعام يصل إلى المعدة ، وفى المعدة طباع أربع ، وفى الطعام طباع أربع ، فإذا أراد الله اعتدال مزاج البدن أخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام ، فتأخذ الحرارة للبرودة والرطوبة لليبوسة ، فيعتدل المزاج ويأمن الاعوجاج . وإذا أراد الله تعالى إفناء قالب وتخريب بنية: أخذت كل طبيعة جنسها من المأكول ، فتميل الطبائع ويضطرب المزاج ويسقم البدن ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ روى عن وهب بن منبه قال : وجدت فى التوراة صفة آدم عليه السلام « إنى خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء . من رطب ، ويابس ، وبارد ، وسخن : وذلك لأنى خلقته من التراب وهو يابس ، ورطوبته من الماء وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح ، وخلقت فى الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق هن ملاك الجسم بإذنى وبهن قوامه ، فلا يقوم الجسم إلا بهن ولا تقوم منهن واحدة إلا بأخرى ، منهن المرة السوداء ، والمرة الصفراء والدم والبلغم . ثم أسكنت بعض هذا الخلق فى بعض ، فجعلت مسكن اليبوسة فى المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة فى المرة الصفراء ، ومسكن الحرارة فى الدم ، ومسكن البرودة فى البلغم ، فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التى جعلتها ملاكه وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربعا لا يزيد ولا ينقص : كملت صحته واعتدلت بنيته ، فإن زادت منهن واحدة عليهن هزمتهن ومالت بهن ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها حتى يضعف عن طاقتهن ويعجز عن مقدارهن » .

فأم الأمور فى الطعام أن يكون حلالا ، وكل مالا يذمه الشرع حلال رخصة ورحمة من الله لعباده ، ولولا رخصة الشرع كبر الأمر وأتعب طلب الحلال .

ومن أدب الصوفية : رؤية المنعم على النعمة ، وأن يبتدئ بغسل اليد قبل الطعام : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر » وإنما كان موجبا لنفى الفقر لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالأدب ،

وذلك من شكر النعمة ، والشكر يستوجب المزيد ؛ فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة مذهبا للفقر .

وقدروى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحب أن يكثر خيربيته فليتوضأ إذا حضر غداؤه » ثم يسمى الله تعالى ، فقوله تعالى ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكراسم الله عليه ﴾ تفسيره تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان .

واختلف الشافعى وأبو حنيفة رحمهما الله فى وجوب ذلك . وفهم الصوفى من ذلك بعد القيام بظاهر التفسير : أن لا يأكل الطعام إلا مقرونا بالذكر ؛ فقرنه فريضة وقته وأدبه ، ويرى أن تناول الطعام والماء ينتج من إقامة النفس ومتابعة هواها ، ويرى ذكر الله تعالى دواءه وترياقه .

روت عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل الطعام فى ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابى فأكله بلقمتين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إنه لو كان يسمى الله لكفاكم ؛ فإذا أكل أحدكم طعاما فليقل بسم الله ؛ فإن نسى أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره » .

ويستحب أن يقول فى أول لقمة « بسم الله » و فى الثانية « بسم الله الرحمن » وفى الثالثة يتم ، ويشرب الماء بثلاثة أنفاس ، يقول فى أول نفس : « الحمد لله » إذا شرب ، وفى الثانية « الحمد لله رب العالمين » وفى الثالثة « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم » وكما أن للمعدة طباعا تتقدر كاذكرناه بموافقة طباع الطعام ، فللقلب أيضا مزاج وطباع لأرباب التفقد والرعاية واليقظة ، ويعرف انحراف مزاج القلب من اللقمة المتناولة : تارة تحدث من اللقمة حرارة الطيش بالنهوض إلى الفضول ، وتارة تحدث فى القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت ، وتارة تحدث رطوبة السهو والغفلة وتارة يبوسة الهم والحزن بسبب الحظوظ العاجلة ، فهذه كلها عوارض يتفطن لها المتيقظ ، ويرى بتغير القالب بهذه العوارض تغير مزاج القلب عن الاعتدال ، والاعتدال كما هو مهم طلبه للقالب فللقلب أهم وأولى . وتطرق الانحراف إلى القلب أسرع منه إلى القالب . ومن الانحراف مايستمر به القلب فيموت لموت القالب ، واسم الله تعالى دواء نافع مجرب ينفى الأسواء ويذهب الداء ويجلب الشفاء .

حكى أن الشيخ أبا محمد الغزالى لما رجع إلى طوس وصف له فى بعض القرى عبد صالح ، فقصده زائرا ، فصادفه وهو فى صحراء له يبذر الحنطة فى الأرض ، فلما رأى الشيخ محمدا جاء إليه وأقبل عليه ، فجاء رجل من أصحابه وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ فى ذلك وقت اشتغاله بالغزالى ، فامتنع ولم يعطه البذر ، فسأله الغزالى عن سبب امتناعه . فقال : لأنى أبذر هذا البذر بقلب حاضر ولسان ذاكر ، أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئا ، فلا أحب أن أسلمه إلى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر .

وكان بعض الفقراء عند الأكل يشرع فى تلاوة سورة من القرآن ، يحضر الوقت بذلك حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر ولا يعقب الطعام مكروه ويتغير مزاج القلب .

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى يقول : أنا آكل وأنا أصلى ، يشير إلى حضور القلب فى الطعام ، وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله ، لئلا يتفرق همه وقت الأكل ، ويرى للذكر وحضور القلب فى الأكل أثرا كبيرا لايسعه الإهمال .

ومن الذكر عند الأكل الفكر فيما هيأ الله تعالى من الأسنان المعينة على الأكل فمنها الكاسرة ومنها القاطعة ومنها الطاحنة ، وماجعل الله تعالى من الماء الحلو فى الفم حتى لايتغير الذوق ، كما جعل ماء العين مالحا لما كان شحما حتى لايفسد ، وكيف جعل الندى تنبع من أرجاء اللسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ ، وكيف جعل القوة الهاضمة مسلطة على الطعام تفصله وتجزئه متعلقا مددها بالكبد ، والكبد بمثابة النار ، والمعدة بمثابة القدر وعلى قدر فساد الكبد تعتل الهاضمة ويفسد الطعام ولا ينفصل ولا يصل إلى كل عضو نصيبه ، وهكذا تأثير الأعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين ويطول شرح ذلك ، فمن أراد الاعتبار فليطالع تشريح الأعضاء ، ليرى العجب من قدرة

الله تعالى : من تعاضد الأعضاء وتعاونها ، وتعلق بعضها بالبعض فى إصلاح الغذاء ، واستجذاب القوة منه للأعضاء وانقسامه إلى الدم والثفل واللبن لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين ؛ فالفكر فى ذلك وقت الطعام وتعرّف لطيف الحكم والقدر فيه من الذكر .

وما يذهب أدواء الطعام المغير لمزاج القلب : أن يدعو فى أول الطعام ويسأل الله تعالى أن يجعله عونا على الطاعة ويكون من دعائه : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . وما رزقتنا مما نحب اجعله عونا لنا على ماتحب ، وما زويت عنا مما نحب اجعله فراغا لنا فيما نحب .

الباب الثالث والأربعون : فى آداب الأكل

فن ذلك أن يبتدئ بالملح ويختم به : روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى رضى الله عنه ياعلى ، ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح ؛ فإنّ الملح شفاء من سبعين داء ، منها : الجنون ، والجذام ، والبرص ، ووجع البطن ووجع الأضراس .

وروت عائشة رضى الله عنها قالت : لدغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إبهامه من رجله اليسرى لدغة ، فقال « علىّ بذلك الأبيض الذى يكون فى العجين » . فجئنا بملح فوضعه فى كفه ثم لعق منه ثلاث لعقات ، ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه .

ويستحب الاجتماع على الطعام ، وهو سنة الصوفية فى الربط وغيرها : روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدى » وروى أنه قيل : يارسول الله : إنا نأكل ولانشبع قال : « لعلكم تفترقون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه » .

ومن عادة الصوفية : الأكل على السفر ، وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن المقوى بإسناده إلى ابن ماجه الحافظ القزوينى ، قال أخبرنا محمد بن المثنى ، قال حدثنا معاذ بن هشام ، قال حدثنا أبى عن يونس بن الفرات عن قتادة عن أنس بن مالك قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولافى سكرجة . قال : فعلام كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر .

ويصغر اللقمة ويجود الأكل بالمضغ ، وينظر بين يديه ولايطالع وجوه الآكلين ، ويقعد على رجله اليسرى وينصب اليمنى ، ويجلس جلسة التواضع غير متكئ ولامتعزز : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل الرجل متكئا . وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة ، فجثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه يأكل فقال أعرابى : ماهذه الجلسة يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلقنى عبدا ولم يجعلنى جبارا عنيدا » .

ولايبتدئ بالطعام حتى يبدأ المقدم أو الشيخ : روى حذيفة قال : كنا إذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما لم يضع أحدنا يده حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأكل باليمين .

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ليأكل أحدكم بيمينه ، وليشرب بيمينه ، وليأخذ بيمينه وليعط بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويأخذ بشماله ويعطى بشماله » .

وإن كان المأكول تمرا أو ماله عجم لايجمع من ذلك مايرمى ولايتركه على الطبق ولافى كفه ، بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه .

ولايأكل من ذروة الثريد : روى عبد الله بن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه فإن البركة تنزل فى وسطه » .

ولايعيب الطعام : روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : ماعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

وإذا سقطت اللقمة يأكلها فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان » .

ويلعق أصابعه ، فقد روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، إذا أكل أحدكم الطعام فليمص أصابعه ، فإنه لا يدرى في أي طعامه تكون البركة » .

وهكذا أمر عليه السلام بإسلات القصعة : وهو مسحها من الطعام . قال أنس رضي الله عنه : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلات القصعة .

ولا ينفخ في الطعام ، فقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، النفخ في الطعام يذهب بالبركة » وروى عبدالله بن عباس أنه قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفخ في طعام ولا في شراب ولا يتنفس في الإناء فليس من الأدب ذلك .

والخل والبقل على السفرة من السنة . قيل : إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل . روت أم سعد رضي الله عنها قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها وأنا عندها فقال : هل من غداء ؟ فقالت : عندنا خبز وتمر وخل ، فقال عليه السلام ، نعم الإدام الخل اللهم بارك في الخل فإنه كان إدام الأنبياء قبلي » ولم يفتقر بيت فيه خل » .

ولا يصمت على الطعام فهو من سيرة الأعاجم ، ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين فقد نهى ، ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجمع ، فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، إذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم ، وليتعلل ، فإن الرجل يخجل جليسه فيقبض يده ، وعسى أن يكون له في الطعام حاجة .

وإذا وضع الخبز لا ينتظر غيره ، فقد روى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكرموا الخبز ، فإن الله تعالى سخر لكم بركات السماء والأرض والحديد والبقر وابن آدم » .

ومن أحسن الأدب وأهمه أن لا يأكل إلا بعد الجوع ويمسك عن الطعام قبل الشبع ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه » .

ومن عادة الصوفية : أن يلقم الخادم إذا لم يجلس مع القوم وهو سنة . روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ، إذا جاء أحدكم خادمه بطعام فإن لم يجلسه معه فليناوله أكلة أو أكلتين ، فإنه ولى حره ودخانه » .

وإذا فرغ من الطعام يحمد الله تعالى : روى أبو سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاما قال ، الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ، من أكل طعاما فقال : الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه » .

ويتخلل ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تخللوا فإنه نظافة والنظافة تدعو إلى الإيمان والإيمان مع صاحبه في الجنة » .

ويغسل يديه ، فقد روى أبو هريرة قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من بات وفي يده غمر لم يغسل فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه » .

ومن السنة غسل الأيدي في طست واحد : وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انزعوا الطسوس وخالفوا المجوس » .

ويستحب مسح العين ببلل اليد ، وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا توضأتم فأشربوا أعينكم الماء ولا تنفضوا أيديكم فإنها مراوح الشياطين » قيل لأبي هريرة : في الوضوء وغيره ؟ قال نعم في الوضوء

وغيره ، وفى غسل اليد يأخذ الأشنان باليمين ، وفى الخلاء لا يردرد مايخرج بالخلال من الأسنان ، وأما ما يلوكه باللسان فلابأس به ، ويجتنب التصنع فى أكل الطعام ، ويكون أكله بين الجمع كأكله منفردا، فإن الرياء يدخل على العبد فى كل شىء .

وصف لبعض العلماء بعض العباد فلم يثن عليه، قيل له تعلم به بأسا ؟ قال: نعم، رأيته يتصنع فى الأكل، ومن تصنع فى الأكل لايؤمن عليه التصنع فى العمل .

وإن كان الطعام حلالا فليقل : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات . اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، اللهم أطعمنا واستعملنا صالحا ، وإن كان شبهة يقول : الحمد لله على كل حال ، اللهم صل على محمد ولا تجعله عونا على معصيتك ، وليكثر الاستغفار والحزن ، ويبكى على أكل الشبهة ولا يضحك ، فليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك ، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولإيلاف قريش .

ويجتنب الدخول على قوم فى وقت أكلهم ، فقد ورد « من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما، وسمونا لمطفلا آخر ، ودخل سارقا وخرج مغيرا ، إلا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته .

ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار ، ولا يخرج الضيف بغير إذن صاحب الدار ، ويجتنب المضيف التكلف إلا أن يكون له نية فيه من كثرة الإنفاق ، ولا يفعل ذلك حياء وتكلفا .

وإذا أكل عند قوم طعاما فليقل عند فراغه إن كان بعد المغرب « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة» ، وروى أيضا «عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا بأثمين ولا فجار يصلون بالليل ويصومون بالنهار» ، كان بعض الصحابة يقول ذلك .

ومن الأدب : أن لايستحقر مايقدم له من طعام ، وكان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ماندرى أيهم أعظم وزراء ، الذى يحتقر مايقدم إليه ، أو الذى يحتقر ماعنده أن يقدمه .

ويكره أكل طعام المباهاة وما تكلف للأعراس والتمازى ، فا عمل للنوائح لايؤكل ، وما عمل لأهل العزاء لابأس به وما يجرى مجراه .

وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانبساط إليه فى التصرف فى شىء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذنه ، قال الله تعالى ﴿أو صديقكم﴾ قيل : دخل قوم على سفيان الثورى فلم يجدوه ، ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وأكلوا ، فدخل سفيان ففرح وقال : ذكرتمونى أخلاق السلف هكذا كانوا .

ومن دعى إلى طعام فالإجابة من السنة ، وأوكد ذلك الوليمة ، وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبرا وذلك خطأ ، وإن عمل ذلك تصنعا ورياء فهو أقل من التكبر . روى أن الحسن بن على مر بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق وقد نثروا كسرا على الأرض وهو على بغلته ؛ فلما مر بهم سلم عليهم فردوا عليه السلام وقالوا : هلم الغداء ياابن رسول الله ، فقال نعم إن الله لايحب المتكبرين ، ثم ثنى وركه فنزل عن دابته وقعد معهم على الأرض وأقبل يأكل ، ثم سلم عليهم وركب .

وكان يقال : الأكل مع الإخوان أفضل من الأكل مع العيال .

روى أن هرون الرشيد دعا أبامعاوية الضرير وأمر أن يقدم له طعام ، فلما أكل صب الرشيد على يده فى الطست فلما فرغ قال : ياأبا معاوية ، تدرى من صب على يدك ؟ قال لا . قال أمير المؤمنين ، قال ياأمير المؤمنين ، إنما أكرمت العلم وأجللته فأجلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم .

الباب الرابع والأربعون : فى ذكر أدبهم فى اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه

اللباس من حاجات النفس وضروراتها لدفع الحر والبرد ، كما أن الطعام من حاجات النفس لدفع الجوع، وكاأن

النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزيادات والشهوات ، فهكذا فى اللباس تتفنن فيه ، ولها فيه أهوية متنوعة ومآرب مختلفة ؛ فالصوفى يرد النفس فى اللباس إلى متابعة صريح العلم قيل لبعض الصوفية : ثوبك ممزق ، قال : ولكنه من وجه حلال ، وقيل له وهو وسخ ، قال : ولكنه طاهر ؛ فنظر الصادق فى ثوبه أن يكون من وجه حلال ، لأنه ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم من حرام لايقبل الله منه صرفا ولاعدلا » أى لافريضة ولانافلة ، ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهرا : لأن طهارة الثوب شرط فى صحة الصلاة ، وماعدا هذين النظرين فنظره فى كونه يدفع الحرّ والبرد لأن ذلك مصلحة النفس ، وبعد ذلك ماتدعو النفس إليه فكله فضول وزيادة ونظر إلى الخلق ، والصادق لاينبغى أن يلبس الثوب إلا لله : وهو ستر العورة ، أو لنفسه لدفع الحر والبرد .

وحكى أن سفيان الثورى رضى الله عنه خرج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقلوبا ؛ فقيل له ـ ولم يعلم بذلك ـ فهم أن يخلعه ويغيره ، ثم تركه وقال : حيث لبسته نويت أنى ألبسه لله ، والآن فما أغيره إلا لنظر الخلق فلا أنقض النية الأولى بهذه .

والصوفية خصوا بطهارة الأخلاق ، ومارزقوا طهارة الأخلاق إلا بالصلاحية والأهلية والاستعداد الذى هيأه الله تعالى لنفوسهم ، وفى طهارة الأخلاق وتعاضدها تناسب واقع لوجود تناسب هيئة النفس ، وتناسب هيئة النفس هو المشار إليه بقوله تعالى ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾ فالتناسب هو التسوية ، فمن المناسب أن يكون لباسهم مشاكلا لطعامهم ، وطعامهم مشاكلا لكلامهم ، وكلامهم مشاكلا لمنامهم ؛ لأن التناسب الواقع فى النفس مقيد بالعلم والتشابه والتماثل فى الأحوال يحكم به العلم ؛ ومتصوفة الزمان ملتزمون بشىء من التناسب مع مزج الهوى . وماعندهم من التطلع إلى التناسب رشح حال سلفهم فى وجود التناسب .

قال أبو سليمان الدارانى : يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم ، وشهوته فى بطنه بخمسة دراهم ! أنكر ذلك لعدم التناسب ؛ فمن خشن ثوبه ينبغى أن يكون مأكوله من جنسه ، وإذا اختلف الثوب والمأكول دل على وجود انحراف لوجود هوى كامن فى أحد الطرفين ، إما فى طرف الثوب لموضع نظر الخلق ، وإما فى طرف المأكول لفرط الشره ؛ وكلا الوصفين مرض يحتاج إلى المداواة ليعود إلى حد الاعتدال .

لبس أبو سليمان الدارانى ثوبا غسيلا ، فقال له أحمد : لو لبست ثوبا أجود من هذا؟ فقال : ليت قلبى فى القلوب مثل قميص فى الثياب فكان الفقراء يلبسون المرقع ، وربما كانوا يأخذون الخرق من المزابل ويرقعون بها ثوبهم ، وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح ، وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه ؛ فكما كانت رقاعهم من المزابل ، كانت لقمهم من الأبواب .

وكان أبو عبد الله الرفاعى مثابرا على الفقر والتوكل ثلاثين سنة ، وكان إذا حضر للفقراء طعام لايأكل معهم فيقال له فى ذلك ؛ فيقول : أنتم تأكلون بحق التوكل . وأنا آكل بحق المسكنة ، ثم يخرج بين العشاءين يطلب الكسر من الأبواب ، وهذا شأن من لايرجع إلى معلوم ولايدخل تحت منة

حكى أن جماعة من أصحاب المرقعات دخلوا على بشر بن الحارث فقال لهم : ياقوم ، اتقوا الله ولاتظهروا هذا الزى فإنكم تعرفون به وتكرمون له ، فسكتوا كلهم ، فقال له غلام منهم : الحمد لله الذى جعلنا ممن يعرف به ويكرم له ، والله ليظهرن هذا الزى حتى يكون الدين كله لله ، فقال له بشر : أحسنت ياغلام ، مثلك من يلبس المرقعة ، فكان أحدهم يبقى زمانه لايطوى له ثوب ولا يملك غير ثوبه الذى عليه .

وروى أن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه لبس قميصا اشتراه بثلاثة دراهم ثم قطع كمه من رءوس أصابعه ، وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب : إن أردت أن تلقى صاحبك فرقع قميصك واخصف نعلك وقصر أملك وكل دون الشبع

وحكى عن الجريرى قال : كان فى جامع بغداد رجل لاتكاد تجده إلا فى ثوب واحد فى الشتاء والصيف ، فسئل

عن ذلك ؟ فقال : قد كنت والعت بكثرة لبس الثياب ، فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأنى دخلت الجنة ، فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقراء على مائدة ، فرأيت أن أجلس معهم فإذا بجماعة من الملائكة أخذوا بيدى وأقامونى وقالوا لى هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك قيصان فلا تجلس معهم ، فانتبهت ونذرت أن لا ألبس إلا ثوبا واحدا إلى أن ألقى الله تعالى .

وقيل : مات أبو يزيد ولم يترك إلا قيصه الذى كان عليه وكان عارية ، فردوه إلى صاحبه .

وحكى لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا : أنه بقى زمانا لا يلبس الثوب إلا مستأجرا ، حتى إنه لم يلبس على ملك نفسه شيئا .

وقال أبو حفص الحداد : إذا رأيت وضاءة الفقير فى ثوبه فلا ترجو خيره .

وقيل : مات ابن الكرنبي وكان أستاذ الجنيد وعليه مرقعته . قيل : كان وزن فردكم له وتخاريصه ثلاثة عشر رطلا فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتخشن ، وقد يكون جمع من الصالحين يتكلفون لبس غير المرقع وزى الفقراء ، ويكون نيتهم فى ذلك ستر الحال أو خوف عدم النهوض بواجب حق المرقعة .

وقيل : كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم وله بيت فرش فيه الرمل لعله كان ينام عليه بلا وطاء ـ وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب حائلا ـ ويكون لبس أبى حفص الناعم بعلم ونية يلقى الله تعالى بصحتها ، وهكذا الصادقون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم فى ذلك ، فلا يعترض عليهم ، غير أن لبس الخشن والمرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقلل من الدنيا وزهرتها وبهجتها وقد ورد « من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حلل الجنة » .

وأما لبس الناعم فلا يصلح إلا لعالم بحاله بصير بصفات نفسه متفقد خفى شهوات النفس يلقى الله تعالى بحسن النية فى ذلك ، فلحسن النية فى ذلك وجوه متعددة يطول شرحها . ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب بعينه لا لخشونته ولا لنعومته ، بل يلبس ما يدخله الحق عليه فيكون بحكم الوقت ، وهذا حسن . وأحسن من ذلك أنه يتفقد نفسه فيه ، فإن رأى للنفس شرها وشهوة خفية أو جلية فى الثوب الذى أدخله الله عليه يخرجه ، إلا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار فعند ذلك لا يسعه إلا أن يلبس الثوب الذى ساقه الله إليه . وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى رحمه الله لا يتقيد بهيئة من الملبوس ، بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلف واختيار ، وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنانير ويلبس العمامة بدانق . وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة ويتطيلس . وكان الشيخ على بن الهيتى يلبس لبس فقراء السواد ؛ وكان أبو بكر الفراء بزنجان يلبس فروا خشنا كآحاد العوام . ولكل فى لبسه وهيئته نية صالحة . وشرح تفاوت الأقوام فى ذلك يطول .

وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله حاله مع الله ترك الاختيار ، وقد يساق إليه الثوب الناعم فيلبسه ، وكان يقال له : ربما يسبق إلى بواطن بعض الناس الإنكار عليك فى لبسك هذا الثوب ! فيقول : لا يلحقنى إلا أحد رجلين : رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع ، فنقول له . هل ترى أن ثوبنا يكرهه الشرع أو يحرمه ؟ فيقول : لا . ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزيمة ، فنقول له : هل ترى لنا فيما لبسنا اختيارا أو ترى عندنا فيه شهوة ؟ فيقول لا .

وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن ، ولكن يحب أن يختار الله له هيئة مخصوصة ، فيكثر اللجأ إلى الله والافتقار إليه ، ويسأله أن يريه أحب الزى إلى الله تعالى وأصلحه لدينه ودنياه لكونه غير صاحب غرض وهوى فى زى بعينه ؛ فالله تعالى يفتح عليه ويعرفه زيا مخصوصا ، فيلتزم بذلك الزى فيكون لبسه بالله ويكون هذا أتم وأكمل ممن يكون لبسه لله .

ومن الناس من يتوفر حظه من العلم وينبسط بما بسطه الله ، فيلبس الثوب عن علم وإيقان ولا يبالى بما لبسه ، ناعما لبس أو خشنا ، وربما لبس ناعما ولنفسه فيه اختيار وحظ ، وذلك الحظ فيه يكون مكفرا له مردودا عليه موهوبا له

يوافقه الله تعالى في إرادة نفسه ، ويكون هذا الشخص تام التزكية تام الطهارة محبوبا مرادا يسارع الله تعالى إلى مراده ومحابه ؛ غير أن ههنا منزلة قدم لكثير من المدعين .

حكى عن يحيى بن معاذ الرازى أنه كان يلبس الصوف والخلقان فى ابتداء أمره ، ثم صار فى آخر عمره يلبس الناعم ؛ فقيل لأبي يزيد ذلك ؛ فقال : مسكين يحيى لم يصبر على الدون فكيف يصبر على التحف .

ومن الناس من يسبق إليه علم ما سوف يدخل عليه من الملبوس فيلبسه محمودا فيه . وكل أحوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة ﴿قل كلٌّ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا﴾ .

ولبس الخشن من الثياب هو الأحب والأولى والأسلم للعبد والأبعد من الآفات : قال مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده فى مرضه ، فرأيت قميصه وسخا فقلت لامرأته فاطمة : اغسلوا ثياب أمير المؤمنين ؛ فقالت : نفعل إن شاء الله ؛ قال : ثم عدته فإذا القميص على حاله فقلت : يا فاطمة ، ألم آمركم أن تغسلوه ؟ قالت والله ماله قميص غير هذا .

وقال سالم : كان عمر بن عبد العزيز من ألين الناس لباسا من قبل أن يسلم عليه بالخلافة ، فلما سلم عليه بالخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى ، ثم دعا بأطمار له رثة فلبسها .

وقيل : لما مات أبو الدرداء وجد فى ثوبه أربعون رقعة وكان عطاؤه أربعة آلاف .

وقال زيد بن وهب : لبس على بن أبى طالب قميصا رازيا ، وكان إذا مدّ كمه بلغ أطراف أصابعه ، فعابه الخوارج بذلك ، فقال : أتعيبونى على لباس هو أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدى بى المسلم .

وقيل : كان عمر رضى الله عنه إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدرة وقال : دعوا هذه البراقات للنساء .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « نوروا قلوبكم بلباس الصوف فإنه مذلة فى الدنيا ونور فى الآخرة ، وإياكم أن تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتذى نعلين فلما نظر إليهما أعجبه حسنهما فسجد لله تعالى ، فقيل له فى ذلك فقال : خشيت أن يعرض عنى ربى فتواضعت له ، لا جرم لا يبيتان فى منزلى لما تخوفت المقت من الله تعالى من أجلهما ، فأخرجهما فدفعهما إلى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له نعلان مخصوفتان . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس الصوف واحتذى المخصوف وأكل مع العبيد .

وإذا كانت النفس محل الآفات فالورق على دسائسها وخفى شهواتها وكامن هواها عسر جدا ، فالأليق والأجدر والأولى الأخذ بالأحوط وترك ما يريب إلى ما لا يريب ، ولا يجوز للعبد الدخول فى السعة إلا بعد إتقان علم السعة وتزكية النفس ، وذلك إذا غابت النفس بغيبة هواها المتبع وتخلصت النية وتسدد التصرف بعلم صريح واضح ، والعزيمة أقوام يركبونها ويراعونها لا يرون النزول إلى الرخص خوفا من فوت فضيلة الزهد فى الدنيا واللباس الناعم من الدنيا . وقد قيل : من رق ثوبه رق دينه . وقد يرخص فى ذلك لمن لا يلتزم بالزهد ويقف على رخصة الشرع . وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من الكبر » فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام « إن الله جميل يحب الجمال » فتكون هذه الرخصة فى حق من يلبسه لا بهوى نفسه فى ذلك غير مفتخر به ومختال : فأما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكاثر بها فقد ورد فيه وعيد ؛ روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إزرة المؤمن إلى نصف الساق لا حرج عليه فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من الكعبين فهو فى النار من جر إزاره بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة ، فبينما رجل ممن كان قبلكم يتبختر فى ردائه إذ أعجبه رداؤه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » والأحوال تختلف ، ومن صح حاله بصحة علمه صحت نيته فى مأكوله وملبوسه وسائر تصاريفه ، وفى كل الأحوال يستقيم ويتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى ، وبقدر ذلك تستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى .

الباب الخامس والأربعون : فى فضل قيام الليل

قال الله تعالى ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ نزلت هذه الآية فى المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على كثيب من الرمل تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب ، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليها ، وأصبح المسلمون بين محدث وجنب وأصابهم الظمأ ، فوسوس لهم الشيطان أنكم تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله وقد غلب المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون الظفر عليهم ، فأنزل الله تعالى مطرا من السماء سال منه الوادى فشرب المسلمون منه واغتسلوا وتوضأوا وسقوا الدواب وملأوا الأسقية ولبد الأرض حتى ثبتت به الأقدام . قال الله تعالى ﴿ ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ﴾ أمدهم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين ، ولكل آية من القرآن ظهر وبطن وحد ومطلع والله تعالى كما جعل النعاس رحمة وأمنة للصحابة خاصة فى تلك الواقعة والحادثة فهو رحمة تعم المؤمنين ، والنعاس قسم صالح من الأقسام العاجلة للمريدين ، وهو أمنة لقلوبهم عن منازعات النفس ، لأن النفس بالنوم تستريح ولا تشكو الكلال والتعب ، إذ فى شكايتها وتعبها تكدير القلب ، وباستراحتها بالنوم بشرط العلم والاعتدال راحة القلب لما بين القلب والنفس من المواطأة عند طمأنينتها للمريدين السالكين . فقد قيل : ينبغى أن يكون ثلث الليل والنهار نوما حتى لا يضطرب الجسد فيكون ثمان ساعات : النوم ساعتين من ذلك يجعلها المريد بالنهار ، وست ساعات بالليل ، ويزيد فى أحدهما وينقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره فى الشتاء والصيف ، وقد يكون بحسن الإرادة وصدق الطلب ينقص النوم عن قدر الثلث ، ولا يضر ذلك إذا صار بالتدريج عادة ، وقد يحمل ثقل السهر وقلة النوم وجود الروح والأنس ، فإن النوم طبعه بارد رطب ينفع الجسد والدماغ ويسكن من الحرارة واليبس الحادث فى المزاج ، فإن نقص عن الثلث يضر الدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم ، فإذا ناب عن النوم روح والقلب وأنسه لا يضر نقصانه ، لأن طبيعة الروح والأنس باردة رطبة كطبيعة النوم . وقد تقصر مدة طول الليل بوجود الروح ، فتصير بالروح أوقات الليل الطويلة كالقصيرة ، كما يقال : سنة الوصل سنة ، وسنة الهجر سنة ، فيقصر الليل لأهل الروح .

نقل عن على بن بكار أنه قال منذ أربعين سنة ما أحزننى إلا طلوع الفجر .

وقيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : ما راعيته قط يرينى وجهه ثم ينصرف وما تأملته .

وقال أبو سليمان الدارانى : أهل الليل فى ليلهم أشد لذة من أهل اللهو فى لهوهم .

وقال بعضهم : ليس فى الدنيا شىء يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة فحلاوة المناجاة ثواب عاجل لأهل الليل .

وقال بعض العارفين : إن الله تعالى يطلع على قلوب المستيقظين فى الأسحار فيملؤها نورا ، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ، ثم تنتشر من قلوبهم الفوائد إلى قلوب الغافلين .

وقد ورد أن الله تعالى أوحى فى بعض ما أوحى إلى بعض أنبيائه : إن لى عبادا يحبونى وأحبهم ، ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ، ويذكرونى وأذكرهم وينظرون إلى وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عن ذلك مقتك . قال : يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا لى أقدامهم وافترشوا لى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا إلى بإنعامى ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشكون من حبى ، أول ما أعطيهم أن أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم ، والثانى : لو كانت السموات السبع والأرضون وما فيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم . والثالث : أقبل

بوجهى عليهم أفترى من أقبلت بوجهى عليه أيعلم أحد ماأريد أن أعطيه ؟ فالصادق المريد إذا خلا فى ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره ويصير نهاره فى حماية ليله ، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار ، فتتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل ، ويصير قالبه فى قبة من قباب الحق مسددا حركاته موفرة سكناته .

وقد ورد من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار ، ويجوز أن يكون للمنعين · أحدهما أن المشكاة تستنير بالمصباح ، فإذا صار سراج اليقين فى القلب تزهر بكثرة زيت العمل بالليل ، فيزداد المصباح إشراقا وتكتسب مشكاة القالب نورا وضياء .

كان يقول سهل بن عبدالله : اليقين نار ، والإقرار فتيلة ، والعمل زيت . وقد قال الله تعالى ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ وقال تعالى ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ فنور اليقين من نور الله فى زجاجة القلب يزداد ضياء بزيت العمل ، فتبتى زجاجة القلب كالكوكب الدرى وتنعكس أنوار الزجاجة على مشكاة القالب ، وأيضا يلين القلب بنار النور ، ويسرى لينه إلى القالب فيلين القالب للين القلب ، فيتشابهان لوجود اللين الذى عمهما ، قال الله تعالى ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ وصف الجلود باللين كما وصف القلوب باللين ، فإذا امتلأ القلب بالنور ، ولان القالب بما يسرى فيه من الأنس والسرور يندرج الزمان والمكان فى نور القلب ، ويندرج فيه الكلم والآيات والسور وتشرق الأرض أرض القالب بنور ربها ، إذ يصير القلب سماء والقالب أرضا ، ولذة تلاوة كلام الله فى محل المناجاة تستر كون الكائنات والكلام المجيد بكونه ينوب عن سائر الوجود فى مزاحمة صفو الشهود ، فلا يبقى حينئذ للنفس حديث ، ولا يسمع الهاجس حسيس ، وفى مثل هذه الحالة يتصور تلاوة القرآن من فاتحته إلى خاتمته من غير وسوسة وحديث نفس ، وذلك هو الفضل العظيم . والوجه الثانى : لقوله عليه السلام « من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار » معناه : أن وجوه أموره التى يتوجه إليها تحسن وتتدارك المعونة من الله الكريم فى تصاريفه ، ويكون معانا فى مصدره ومورده ، فيحسن وجه مقاصده وأفعاله ، وينتظم فى سلك السداد مسدداً أقواله ، لأن الأقوال تستقيم باستقامة القلب .

الباب السادس والأربعون : فى ذكر الأسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم

فن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب الشمس بتجديد الوضوء ، ويقعد مستقبل القبلة منتظرا بمجىء الليل وصلاة المغرب ، مقبلا فى ذلك على أنواع الأذكار ، ومن أولاها التسبيح والاستغفار . قال الله تعالى لنبيه ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾ ومن ذلك أن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر ، وأفضل ذلك الصلاة ، فإنه إذا واصل بين العشاءين ينغسل بباطنه آثار الكدورة الحادثة فى أوقات النهار من رؤية الخلق ومخالطتهم وسماع كلامهم ، فإن ذلك كله له أثر وخدش فى القلوب ، حتى النظر إليهم يعقب كدرا فى القلب يدركه من يرزق صفاء القلب ، فيكون أثر النظر إلى الخلق للبصيرة كالقذى فى العين للبصر ، وبالمواصلة بين العشاءين يرجى ذهاب ذلك الأثر . ومن ذلك : ترك الحديث بعد العشاء الآخرة ، فإن الحديث فى ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث فى القلب من مواصلة العشاءين ويقيد عن قيام الليل ، سيما إذا كان عريا عن يقظة القلب . ثم تجديد الوضوء بعد العشاء الآخرة أيضا معين على قيام الليل .

حكى لى بعض الفقراء عن شيخ له بخراسان أنه كان يغتسل فى الليل ثلاث مرات : مرة بعد العشاء الآخرة ، ومرة فى أثناء الليل بعد الانتباه من النوم ، ومرة قبل الصبح ، فللوضوء والغسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر فى تيسير قيام الليل . ومن ذلك التعود على الذكر أو القيام بالصلاة حتى يغلب النوم ، فإن التعود يعين على سرعة الانتباه ، إلا أن يكون واثقا من نفسه وعادته فيتعمل للنوم ويستجلبه ليقوم فى وقته المعهود ، وإلا فالنوم عن الغلبة هو الذى يصلح للمريدين والطالبين ، وبهذا وصف المحبون ، قيل : نومهم نوم الغرقى ، وأكلهم أكل المرضى ،

وكلاهم ضرورة ؛ فمن نام عن غلبة بهم مجتمع متعلق بقيام الليل يوفق لقيام الليل ، وإنما النفس إذا طمعت ووطنت على النوم استرسلت فيه ، وإذا أزعجت بصدق العزيمة لاتسترسل فى الاستقرار ، وهذا الانزعاج فى النفس بصدق العزيمة هو التجافى الذى قال الله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ لأن الهم بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنب والمضجع نبوّا وتجافيا . وقد قيل : للنفس نظران : نظر إلى تحت لاستيفاء الأقسام البدنية ، ونظر إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الروحانية ، فأرباب العزيمة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الرحانية ؛ فأعطوا النفوس حقها من النوم ومنعوها حظها ، فالنفس بما فيها مركوز من الترابية والجمادية ترسب وتستجلس وتستلذ النوم ، قال الله تعالى ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ﴾ والآدمى بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له . والرسوب صفة التراب والكسل والتقاعد والتناوم بسبب ذلك طبيعة فى الإنسان ؛ فأرباب الهمة أهل العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم فى قوله تعالى ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما ﴾ حتى قال ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ﴾ حكم لهؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم ؛ فهم لموضع علمهم أزعجوا النفوس عن مقار طبيعتها ورقوها بالنظر إلى اللذات الروحانية إلى ذرى حقيقتها ؛ فتجافت جنوبهم عن المضاجع وخرجوا من صفة الغافل الهاكع .

ومن ذلك : أن يغير العادة ؛ فإن كان ذا وسادة يترك الوسادة ، وإن كان ذا وطاء يترك الوطاء . وقد كان بعضهم يقول : لأن أرى فى بيتى شيطانا أحب إلى من أن أرى وسادة فإنها تدعونى إلى النوم ؛ ولتغيير العادة فى الوسادة والغطاء والوطاء تأثير فى ذلك ، ومن ترك شيئا من ذلك والله عالم بنيته وعزيمته يثيبه على ذلك بتيسير مارام ، ومن ذلك خفة المعدة من الطعام ، ثم تناول ما يأكل من الطعام إذا اقترن بذكر الله ويقظة الباطن أعان على قيام الليل ؛ لأن بالذكر يذهب داؤه ؛ فإن وجد للطعام ثقلا على المعدة ينبغى أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر ، فلا ينام حتى يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار . قال بعضهم : لأن أنقص من عشائى لقمة أحب إلى من أن أقوم ليلة .

والأحوط أن يوتر قبل النوم فإنه لايدرى ماذا يحدث ، ويعد طهوره وسواكه عنده ، ولا يدخل النوم إلا وهو على الطهارة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة ، وإن لم ينم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ ، فتكون المنامات أضغاث أحلام لا تصدق » والمريد المتأهل إذا نام فى الفراش مع الزوجة ينتقض وضوءه باللمس ، ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة مالم يسترسل فى التذاذ النفس باللمس ولا يعدم يقظة القلب ؛ فأما إذا استرسل فى الالتذاذ وغفل فتحتجب الروح أيضا لمكان صلاقته .

ومن الطهارة التى تثمر صدق الرؤيا : طهارة الباطن عن خدش الهوى وكدورة محبة الدنيا ، والتنزه عن أنجاس الغل والحقد والحسد ، وقد ورد « من أوى إلى فراشه لاينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم » وإذا طهرت النفس عن الرذائل : انجلت مرآة القلب وقابل اللوح المحفوظ فى النوم . وانتقشت فيه عجائب الغيب وغرائب الأنباء ؛ فمن الصديقين من يكون له فى منامه مكالمة ومحادثة ؛ فيأمره الله تعالى وينهاه ويفهمه فى المنام ، يعرفه ، ويكون موضع ما يفتح له فى نومه من الأمر والنهى كالأمر والنهى الظاهر : يعصى الله تعالى إن أخل بهما ، بل تكون هذه الأوامر آكد وأعظم وقعا ، لأن المخالفات الظاهرة تمحوها التوبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ؛ وهذه أوامر خاصة تتعلق بحاله فيما بينه وبين الله تعالى ؛ فإذا أخل بها يخشى أن ينقطع عليه طريق الإرادة ، ويكون فى ذلك الرجوع عن الله واستيجاب مقام المقت ، فإن ابتلى العبد فى بعض الأحايين بكسل وفتور عزيمة يمنع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث : يمسح أعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج بهذا القدر عن زمرة الغافلين حيث تقاعد عن فعل المتيقظين ، وهكذا إذا كسل عن القيام عقيب الانتباه يجتهد أن يستاك ويمسح أعضاءه بالماء مسحا ، حتى يخرج فى تقلباته وانتباهاته عن زمرة الغافلين ؛ فى ذلك فضل كثير لمن كثر نومه وقل قيامه : روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل نوم وعند الانتباه منه .

. ويستقبل القبلة فى نومه وهو على نوعين فإما على جنبه الأيمن كاللحود وإما على ظهره مستقبلا القبلة كالميت المسجى ، ويقول : باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه ، اللهم إن أمسكت نفسى فاغفر لها وارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رهبة منك ورغبة إليك لاملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك ، الحمد لله الذى حكم فقهر ، الحمد لله الذى بطن فخبر ، الحمد لله الذى ملك فقدر ، الحمد لله الذى هو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير اللهم إنى أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك وشر الشيطان وشركه ويقرأ خمس آيات من البقرة : الأربع من الأول والآية الخامسة ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ وآية الكرسى و ﴿ آمن الرسول ﴾ و ﴿ إن ربكم الله ﴾ و ﴿ قل ادعوا الله ﴾ وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وقل ياأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، والمعوذتين ، وينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وجسده ، وإن أضاف إلى ماقرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها فحسن ، ويقول : اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك ، واستعملنى بأحب الأعمال إليك التى تقربنى إليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعداً ، أسألك فتعطينى ، وأستغفرك فتغفرلى ، وأدعوك فتستجيب لى ، اللهم لاتؤمنى مكرك ، ولا تولى غيرك ، ولا ترفع عنى سترك ، ولاتنسنى ذكرك ، ولاتجعلنى من الغافلين ، ورد أن من قال هذه الكلمات بعث الله تعالى إليه ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة ، فإن صلى ودعا أمنوا على دعائه ، وإن لم يقم تعبدت الأملاك فى الهواء وكتب له ثواب عبادتهم ، ويسبح ويحمد ويكبر كل واحد ثلاثا وثلاثين ، ويتمم المائة بلا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الباب السابع والأربعون : فى أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل

إذا فرغ المؤذن من أذان المغرب يصلى ركعتين بين الأذان والإقامة ، وكان العلماء يصلون هاتين الركعتين فى البيت يعجلون بهما قبل الخروج إلى الجماعة كيلا يظن الناس أنهما سنة مرتبة فيقتدى بهم ، ظنا منهم أنهما سنة مؤكدة ، وإذا صلى المغرب يصلى ركعتى السنة بعد المغرب يعجل بهما (١) فإنهما يرفعان مع الفريضة ، يقرأ فيهما بقل ياأيها الكافرون وقل هو الله أحد ؛ ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين ، فيقول : مرحبا بملائكة الليل. مرحبا بالملكين الكريمين الكاتبين ، اكتبا فى صحيفتى أنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمد رسول الله ، وأشهد أن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، والصراط والميزان حق ، وأشهد أن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتى إليها . اللهم احطط بها وزرى واغفر بها ذنبى ، وثقل بها ميزانى ، وأوجب لى بها أمانى ، وتجاوز عنى يا أرحم الراحمين . فإن واصل بين العشاءين فى مسجد جماعته : يكون جامعا بين الاعتكاف ومواصلة العشاءين ، وإن رأى انصرافه إلى منزله وأن المواصلة بين العشاءين فى بيته أسلم لدينه وأقرب إلى الإخلاص وأجمع للهم فليفعل وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ فقال « هى الصلاة بين العشاءين » وقال عليه السلام « عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغاة النهار وتهذب آخره » ويجعل من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة البروج والطارق ، ثم ركعتين بعد ركعتين : يقرأ فى الأولى عشر آيات من أول سورة البقرة والآيتين ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ إلى آخر الآيتين ، وخمس عشرة مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وفى الثانية آية الكرسى و ﴿ آمن الرسول ﴾ وخمس عشرة مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ويقرأ فى الركعتين الأخيرتين من سورة الزمر والواقعة ، ويصلى بعد ذلك ماشاء ، فإن أراد أن يقرأ شيئا من حزبه فى هذا الوقت فى الصلاة أو غيرها ، وإن شاء صلى عشرين ركعة خفيفة بسورة الإخلاص

(١) أى بعد ختم الصلاة مباشرة فتنبه .

والفاتحة ، ولو واصل بين العشاءين بركعتين يطيلهما لحسن ، وفي هاتين الركعتين يطيل القيام تاليا للقرآن حزبه أو مكررا آية فيها الدعاء والتلاوة ، مثل أن يقرأ مكررا ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ أو آية أخرى في معناها ، فيكون جامعا بين التلاوة والصلاة والدعاء

فى ذلك جمع للهم وظفر بالفضل ، ثم يصلى قبل العشاء أربعا وبعدها ركعتين ، ثم ينصرف إلى منزله أو موضع خلوته فيصلى أربعا أخرى . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعا ، ويقرأ فى هذه الأربع سورة لقمان ويس وحم الدخان وتبارك الملك ، وإن أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسى وآمن الرسول وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر ، ويصلى بعد الأربع إحدى عشرة ركعة يقرأ فيها ثلثمائة آية من القرآن من ﴿ والسماء والطارق ﴾ إلى آخر القرآن ثلثمائة آية ، هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله ، وإن أراد قرأ هذا القدر فى أقل من هذا العدد من الركعات ، وإن قرأ من سورة الملك إلى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم ، وإن لم يحفظ القرآن يقرأ فى كل ركعة خمس مرات ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إلى عشر مرات إلى أكثر ، ولا يؤخر الوتر إلى آخر التهجد إلا أن يكون واثقا من نفسه فى عادتها بالانتباه للتهجد ؛ فيكون تأخير الوتر إلى آخر التهجد حينئذ أفضل . وقد كان بعض العلماء إذا أوتر قبل النوم ثم قام يتهجد يصلى ركعة يشفع بها وتره ، ثم يتنفل ما شاء ويوتر فى آخر ذلك ، وإذا كان الوتر من أول الليل يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا يقرأ فيهما ﴿ إذا زلزلت ﴾ و﴿ ألهاكم ﴾ ، وقيل : فعل الركعتين قاعدا بمنزلة الركعة قائما يشفع له الوتر ، حتى إذا أراد التهجد يأتى به ويوتر فى آخر تهجده ، ونية هاتين الركعتين نية النفل لا غير ذلك ، وكثيرا ما رأيت الناس يتفاوضون فى كيفية نيتهما ، وإن قرأ فى كل ليلة المسبحات وأضاف إليها سورة الأعلى فتصير سبعا ، فقد كان العلماء يقرءون هذه السور ويترقبون بركتها .

وإذا استيقظ من النوم فمن أحسن الأدب عند الانتباه أن يذهب بباطنه إلى الله ويصرف فكره إلى أمر الله قبل أن يجول الفكر فى شيء سوى الله ، ويشتغل اللسان بالذكر ، فالصادق كالطفل الكلف بالشيء إذا نام ينام على محبة الشيء وإذا انتبه يطلب ذلك الشيء الذى كان كلفا به ، وعلى حسب هذا الكلف والشغل يكون الموت والقيام إلى الحشر ، فلينظر وليعتبر عند انتباهه من النوم : ماهمه ؟ فإنه هكذا يكون عند القيام من القبر : إن كان همه الله فهو هو ، وإلا فهمه غير الله . والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة ، فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى حتى لا يذهب به نور الفطرة الذى انتبه عليه ويكون فارّا إلى ربه بباطنه خوفا من ذكر الأغيار ، ومهما وفى الباطن بهذا المعيار فقد انفتح طريق الأنوار وطرق النفحات الإلهية ، لجدير أن تنصب إليه أقسام الليل انصبابا ، ويصير جناب القرب له موئلا ومآبا ، ويقول باللسان : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . ويقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران ، ثم يقصد الماء الطهور . قال الله تعالى ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ وقال عز وجل ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : الماء القرآن ، والأودية القلوب ، فسالت بقدرها واحتملت ماوسعت ، والماء مطهر والقرآن مطهر ، والقرآن بالتطهير أجدر ، فالماء يقوم بغيره مقامه ، والقرآن والعلم لا يقوم غيرهما مقامهما ولا يسد مسدهما ، فالماء الطهور يطهر الظاهر ، والعلم والقرآن يطهران الباطن ويذهبان رجز الشيطان ، فالنوم غفلة وهو من آثار الطبع ، وجدير أن يكون من رجز الشيطان لما فيه من الغفلة عن الله تعالى ، وذلك أن الله تعالى أمر بقبض القبضة من التراب من وجه الأرض ، فكانت القبضة جلدة الأرض والجلدة ظاهرها بشرة وباطنها أدمة قال الله تعالى ﴿ إنى خالق بشرا من طين ﴾ فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته والأدمة عبارة عن باطنه وآدميته ، والآدمية مجمع الأخلاق الحميدة ، وكان التراب موطىء أقدام إبليس ، ومن ذلك اكتسب ظلمة ، وصارت تلك الظلمة معجونة فى طينة الآدمى ، ومنها الصفات المذمومة والأخلاق الرديئة ومنها الغفلة والسهو ، فإذا استعمل الماء وقرأ القرآن أتى بالمطهرين جميعا ، ويذهب عنه رجز الشيطان وأثر وطأته ، ويحكم له بالعلم والخروج من حيز الجهل ، فاستعمال الطهور أمر شرعى له تأثير فى تنوير القلب بإزاء النوم الذى هو الحكم الطبيعى

الغير له تأثير فى تكدير القلب ، فيذهب نور هذا بظلمة ذلك ، ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما مست النار ، وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من القهقهة فى الصلاة حيث رآها حكما طبيعيا جالبا للإثم ، والإثم رجز من الشيطان ، والماء يذهب رجز الشيطان ، حتى كان بعضهم يتوضأ من الغيبة والكذب وعند الغضب لظهور النفس وتصرف الشيطان فى هذه المواطن . ولو أن المتحفظ المراعى المراقب المحاسب - كلما انطلقت النفس فى مباح من كلام أو مساكنة إلى مخالطة الناس أو غير ذلك مما هو بعرضة تحليل عقد العزيمة كالخوض فيما لا يعنى قولا وفعلا عقب ذلك بتجديد الوضوء - لثبت القلب على طهارته ونزاهته ، ولكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذى لا يزال بخفة حركته يجلو البصر ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ فتذكر فيما نبهتك عليه تجد بركته وأثره .

ولو اغتسل عند هذه المتجددات والعوارض والانتباه من النوم ، لكان أزيد فى تنوير قلبه ، ولكان الأجدر أن العبد يغتسل لكل فريضة باذلا مجهوده فى الاستعداد لمناجاة الله ، ويجدد غسل الباطن بصدق الإنابة وقد قال الله تعالى ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ﴾ قدم الإنابة للدخول فى الصلاة ، ولكن من رحمة الله وحكم الحنيفية السهلة السمحة أن رفع الحرج وعوض بالوضوء عن الغسل ، وجوز أداء مفترضات بوضوء واحد دفعا للحرج عن عامة الأمة ، وللخواص وأهل العزيمة مطالبات من بواطنهم تحكم عليهم بالأولى وتلجئهم إلى سلوك طريق الأعلى . وإذا قام إلى الصلاة وأراد استفتاح التهجد يقول : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ، ويقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله عشر مرات ويقول : الله أكبر ذو الملك والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة ، اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ومنك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ومحمد عليه السلام حق ؛ اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ، اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، أسألك مسئلة البائس المسكين ، وأدعوك دعاء الفقير الذليل ، فلا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رءوفا رحيما ياخير المسئولين ويا أكرم المعطين

ثم يصلى ركعتين تحية الطهارة : يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ﴾ الآية ، وفى الثانية ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ ويستغفر بعد الركعتين مرات ، ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين إن أراد ، يقرأ فيهما بآية الكرسى وآمن الرسول وإن أراد غير ذلك ، ثم يصلى ركعتين طويلتين : هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتهجد هكذا . ثم يصلى ركعتين طويلتين أقصر من الأوليين ، وهكذا يتدرج إلى أن يصلى اثنتى عشرة ركعة أو ثمان ركعات ، أو يزيد على ذلك ، فإن فى ذلك فضلا كثيرا . والله أعلم .

الباب الثامن والاربعون : فى تقسيم قيام الليل

قال الله تعالى ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ كان عملهم قيام الليل .

وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ : استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصابرة العدو وفى الخبر « عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة لربكم وهو دأب الصالحين قبلكم ومنهاة عن الإثم وملغاة للوزر ومذهب كيد الشيطان ومطردة للداء عن الجسد » .

وقد كان جمع من الصالحين يقومون الليل كله ، حتى نقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الغداة

بوضوء المشاء : منهم سعيد بن المسيب ، وفضيل بن عياض ، ووهيب بن الفرات ، وأبو سليمان الداراني، وعلي بن بكار وحبيب العجمي ، وكهمس بن المنهال ، وأبو حازم ، ومحمد بن المنكدر ، وأبو حنيفة رحمه الله تعالى، وغيرهم عدهم وسماهم بأسمائهم الشيخ أبو طالب المكي في كتابه قوت القلوب ، فمن عجز عن ذلك يستحب له قيام ثلثه أو ثلثه . وأقل الاستحباب سدس الليل ، فإما أن ينام ثلث الليل الأول ويقوم نصفه وينام سدسه الآخر ، أو ينام النصف الأول ويقوم ثلثه ، أو ينام السدس .

روى أن داود عليه السلام قال : يارب إني أحب أن أتعبدلك ، فأى وقت أقوم ؟ فأوحى الله تعالى إليه: ياداود لاتقم أول الليل ولا آخره ، فإنه من قام أوله نام آخره ، ومن قام آخره نام أوله ، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك ، وارفع إلى حوائجك .

ويكون القيام بين نومتين ، وإلا فيغالب النفس من أول الليل ويتنفل ، فإذا غلبه النوم ينام ، فإذا انتبه يتوضأ فيكون له قومتان ونومتان ، ويكون ذلك من أفضل مايفعله ، ولا يصلي وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يعقل مايقول ، وقد ورد ، لاتكابدوا الليل » .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصلى من الليل ، فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال ، ليصل أحدكم من قليل ماتيسر ، فإذا غلبه النوم فلينم » وقال عليه السلام : « لاتشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه ، ولاتبغضن إلى نفسك عبادة الله » .

ولايليق بالطالب ولاينبغي له أن يطلع الفجر وهو نائم إلا أن يكون قد سبق له في الليل قيام طويل فيعذر في ذلك ، على أنه إذا استيقظ قبل الفجر بساعة مع قيام الليل سبق في الليل يكون أفضل من قيام طويل ، ثم النوم إلى بعد طلوع الفجر ، فإذا استيقظ قبل الفجر يكثر الاستغفار والتسبيح ويغتنم تلك الساعة ، وكلما يصلي بالليل يجلس قليلا بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ويصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجد بذلك ترويحا وقوة على القيام . وقد كان بعض الصالحين يقول : هي أول نومة ، فإن انتبهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أنام الله عيني .

وحكى لي بعض الفقراء عن شيخ له أنه كان يأمر الأصحاب بنومة واحدة بالليل ، وأكلة واحدة لليوم والليلة .

وقد جاء في الخبر « قم من الليل ولو قدر حلب شاة » وقيل : يكون ذلك قدر أربع ركعات وقدر ركعتين .

وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ هو قيام الليل ومن حرم قيام الليل كسلا وفتورا في العزيمة أو تهاونا به لقلة الاعتداد بذلك أو اغترار بحاله ، فليبك عليه فقد قطع عليه طريق كثير من الخير ، وقد يكون من أرباب الأحوال من يكون له إيواء إلى القرب ويجد من دعة القرب ماينفر عليه داعية الشوق ويرى أن القيام وقوف في مقام الشوق ، وهذا يغلط فيه ويهلك به خلق من المدعين ، والذي له ذلك ينبغي أن يعلم أن استمرار هذه الحالة متعذر ، والإنسان متعرض للقصور والتخلف والشيبة ، ولاحالة أجل من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما استغنى عن قيام الليل ، قام حتى تورمت قدماه ، وقد يقول بعض من يحتاج في ذلك :إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك تشريعا ، فنقول : ما بالنا لانتبع تشريعه ، وهذه دقيقة ، فتعلم أن رؤية الفضيلة في ترك القيام وادعاء الإيواء إلى جناب القرب واستواء النوم واليقظة : امتلاء وابتلاء حالي ، وهو تقييد بالحال وتحكيم للحال وتحكم من الحال في العبد ، والأقوياء لايتحكم فيهم الحال ويصرفون الحال في صور الأعمال ، فهم متصرفون في الحال لا الحال متصرف فيهم ، فليعلم ذلك فإنا رأينا من الأصحاب من كان في ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى أن ذلك وقوف وقصور .

قيل للحسن : ياأبا سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهوري ، فما بالي لاأقوم ؟ قال : ذنوبك قيدتك ، فليحذر العبد في نهاره ذنوبا تقيده في ليله .

وقال الثوري رحمه الله : حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنب أذنبته ، فقيل له : ماكان الذنب ؟ قال : رأيت

رجلا بكاء ؛ فقلت فى نفسى : هذا مراء .

وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكى ، فقلت : ما بالك أتاك نعى بعض أهلك ؟ فقال : أشد فقلت : وجع يؤلمك ؟ قال : أشد . فقلت : وما ذاك ؟ قال : بابى مغلق وسترى مسبل ولم أقرأ حزبى البارحة وما ذاك إلا بذنب أحدثته .

وقال بعضهم : الاحتلام عقوبة ، وهذا صحيح ، لأن المراعى المتحفظ بحسن تحفظه وعلمه بحاله : يقدر ويتمكن من سد باب الاحتلام ، ولا يتطرق الاحتلام إلا على جاهل بحاله أو مهمل حكم وقته وأدب حاله . ومن كل تحفظه ورعايته وقيامه بأدب حاله قد يكون من ذنبه الموجب للاحتلام : وضع الرأس على الوسادة إذا كان ذا عزيمة فى ترك الوسادة وقد يتمهد للنوم . ووضع الرأس على الوسادة بحسن النية ممن لا يكون ذلك ذنبه وله فيه نية للعون على القيام ، وقد يكون ذلك ذنبا بالنسبة إلى بعض الناس ، فإذا كان هذا القدر يصلح أن يكون ذنبا جالبا للاحتلام فقس على هذا ذنوب الأحوال فإنها تختص بأربابها ويعرفها أصحابها ، وقد يرتقى بأنواع الرفق من الفراش الوطىء والوسادة ولا يعاقب بالاحتلام وغيره من فعله إذا كان عالما ذا نية يعرف مداخل الأمور ومخارجها . وكم من نائم يسبق القائم لوفور علمه وحسن نيته ، وفى الخبر « إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد ، فإن قعد وذكر الله تعالى انحلت عقدة وإن توضأ انحلت عقدة أخرى ، وإن صلى ركعتين انحلت العقد كلها وأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس » .

وفى خبر آخر « إن من نام حتى يصبح بال الشيطان فى أذنه » والذى يخل بقيام الليل : كثرة الاهتمام بأمور الدنيا ، وكثرة أشغال الدنيا ، وإتعاب الجوارح ، والامتلاء من الطعام ، وكثرة الحديث ، واللغو واللغط ، وإهمال القيلولة . والموفق من يغتنم وقته ويعرف داءه ودواءه ولا يهمل فيهمل .

الباب التاسع والاربعون : فى استقبال النهار والادب فيه والعمل

قال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار ﴾ أجمع المفسرون على أن أحد الطرفين أراد به الفجر وأمر بصلاة الفجر . واختلفوا فى الطرف الآخر ، قال قوم : أراد به المغرب . وقال آخرون : صلاة العشاء . وقال قوم : صلاة العصر والظهر طرف . وصلاة العصر والمغرب طرف ﴿ وزلفا من الليل ﴾ صلاة العشاء ، ثم إن الله تعالى أخبر عن مقام بركة الصلاة وشرف قائمها ومقيمها وقال ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ أى الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات . وروى أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصارى كان يبيع التمر ، فأتت امرأة تبتاع تمرا ، فقال لها : إن هذا التمر ليس بجيد ، وفى البيت أجود منه ، فهل لك فيه رغبة ؟ قالت : نعم ، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها ، فقالت له : اتق الله ، فتركها وندم ، ثم أتى النبى عليه السلام وقال : يارسول الله ، ما تقول فى رجل راود امرأة عن نفسها ولم يبق شىء مما يفعل الرجال بالنساء إلا ركبه غير أنه لم يجامعها ؟ قال عمر بن الخطاب : لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك ؟ ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه شيئا وقال : أنتظر أمر ربى ، وحضرت صلاة العصر وصلى النبى عليه الصلاة والسلام العصر ، فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : وأين أبو اليسر ؟ ، فقال ها أنا ذا يارسول الله . قال : شهدت معنا هذه الصلاة ؟ ، قال : نعم . قال : اذهب فإنها كفارة لما عملت ، فقال عمر : يارسول الله هذا له خاصة أو لنا عامة ؟ فقال « بل للناس عامة » فيستعد العبد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر ، ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا فى أول الليل ، ثم يؤذن إن لم يكن أجاب المؤذن ، ثم يصلى ركعتى الفجر : يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفى الثانية ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وإن أراد قرأ فى الأولى ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل . . الآية ﴾ فى سورة البقرة . وفى الأخرى ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ... ﴾ ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما يتيسر له من العدد ، وإن اقتصر على كلمة : أستغفر الله لذنبى ، سبحان الله بحمد ربى : أى بالمقصود من التسبيح

والاستغفار . ثم يقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبي وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى وترد بها الفتن عنى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبي وترفع بها شاهدى وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلقنى بها رشدى وتعصمنى بها من كل سوء واللهم أعطنى إيمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء ، اللهم إنى أنزل بك حاجتى وإن قصر رأيى وضعف عملى وافتقرت إلى رحمتك ، وأسألك ياقاضى الأمور وياشافى الصدور ، كما تجير بين البحور ، أن تجيرنى من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور ، اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف فيه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى ، من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك ، فأنا راغب إليك فيه وأسألك إياه يارب العالمين . اللهم اجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين ، حربا لأعدائك وسلما لأوليائك ، نحب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك . اللهم هذا الدعاء منى ومنك الإجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود والركع السجود والموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وأنت تفعل ماتريد ، سبحان من تعطف بالعز وقال به ، سبحان من لبس المجد وتكرم به ، سبحان الذى لاينبغى التسبيح إلا له ، سبحان ذى الفضل والنعم ، سبحان ذى الجود والكرم ، سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه ، اللهم اجعل لى نوراً فى قلبي ونورا فى قبرى ، ونورا فى سمعى ، ونورا فى بصرى ، ونورا فى شعرى ، ونورا فى بشرى ، ونورا فى لحمى ونورا فى دمى ، ونورا فى عظامى ونورا من بين يدى ، ونورا من خلفى ، ونورا عن يمينى ، ونورا عن شمالى ، ونورا من فوقى ، ونورا من تحتى ، اللهم زدنى نورا وأعطنى نورا ، واجعل لى نورا .

ولهذا الدعاء أثر كبير . وما رأيت أحدا حافظ عليه إلا وعنده خير ظاهر وبركة ، وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضا بحفظه والمحافظة عليه ، منقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر ، ثم يقصد المسجد للصلاة فى الجماعة ويقول عند خروجه من منزله ﴿وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا﴾ ويقول فى الطريق : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إليك فإنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى إنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، وروى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، من قال ذلك إذا خرج إلى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله تعالى عليه بوجهه الكريم حتى يقضي صلاته .

وإذا دخل المسجد أو أدخل سجادته للصلاة يقول : بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ، ويقدم رجله اليمنى فى الدخول واليسرى فى الخروج من المسجد أو السجادة ، فسجادة الصوفى بمنزلة البيت والمسجد ، ثم يصلى صلاة الصبح فى جماعة ؛ فإذا سلم يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، ويقرأ : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم التسعة والتسعين اسما إلى آخرها ، فإذا فرغ منها يقول : اللهم صلى على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمى وعلى آل محمد صلاة تكون له رضاء ولحقه أداء ، وأعطه الوسيلة والمقام المحمود الذى وعدته ، واجزه عنا ماهو أهله ، واجزه عنا أفضل ماجازيت نبيا عن أمته ، وصل على جميع إخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . اللهم صل على محمد فى الأولين ، وصل على محمد فى الآخرين ، وصل على محمد إلى يوم الدين ، اللهم صل على روح محمد فى الأرواح ، وصل على جسد محمد فى الأجساد ، واجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك ورأفتك

ورحمتك وتحننك ورضوانك على محمد عبدك ونبيك ورسولك ، اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام . اللهم إنى أصبحت لاأستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيرى وأصبحت مرتهنا بعملى ، فلا فقير أفقر منى ، اللهم لاتشمت بى عدوى ولاتسئ بى صديق ، ولاتجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا تسلط على من لا يرحمنى ، اللهم هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعفها ، وماعملت فيه من سيئة فاغفرلى إنك غفور رحيم ودود ، رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم وخير ومافيه وأعوذ بك من شره وشر مافيه ، وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ومن بغتات الأمور وفجاءة الأقدار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقا يطرق منك بخير يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وأعوذ بك أن أزل أوازل أو أضل أوأضل أوأظلم أوأظلم أوأجهل أويجهل على ، عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك وعظمت نعماؤك ، أعوذ بك من شر مايلج فى الأرض ومايخرج منها ومابنزل من السماء ومايعرج فيها ، أعوذ بك من حدة الحرص وشدة الطمع وسورة الغضب وسنة الغفلة وتعاطى الكلفة ، اللهم إنى أعوذ بك من مباهاة المكثرين ، والإزراء على المقلين ، وأن أنصر ظالما أوأخذل مظلوما ، وأن أقول فى العلم بغير علم ، أوأعمل فى الدين بغير يقين ، أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لاأعلم ، أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وابن عبديك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ماصنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى ، فاغفر لى إنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وآخره نجاحا وأوسطه فلاحا ، اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة ، أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وماسكن فيهما لله الواحد القهار ، أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض ذوالجلال والإكرام ، أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ياحى ياقيوم ، ياحى حين لاحى فى ديمومة ملكه وبقائه ، ياحى محيي الموتى ، ياحى مميت الأحياء ووارث الأرض السماء ، اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله لاإله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم الأجل الأعز الأكرم الذى إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت ، يانورالنور يامدبر الأمور ياعالم مافى الصدور ، ياسميع ياقريب يامجيب الدعاء يالطيفا لما يشاء ، يارءوف يارحيم ياكبير ياعظيم ياالله يارحمن ياذا الجلال والإكرام ، الم الله لاإله إلاهو الحى القيوم وعنت الوجوه للحى القيوم ، ياإلهى وإله كل شىء إلها واحدا لاإله إلاأنت ؛ اللهم إنى أسألك باسمك ياالله ياالله ياالله الله الذى لاإله إلاهو رب العرش العظيم ، فتعالى الله الملك الحق لاإله إلاهو رب العرش الكريم أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وسعت كل شىء رحمة وعلما ، كهيعص حم عسق الر حم ن ياواحد ياقهار ياعزيز ياجبار ، ياأحد ياصمد ياودود ياغفور ، وهو الذى لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، اللهم إنى أعوذ باسمك المكنون المخزون المنزل السلام المطهر الطاهر القدوس المقدس . يادهر ياديهور ياديهار ياأزل ياأبد ياأزل يامن لم يزل ولا يزال ولا يزول هو ياهو لا إله إلا هو ، يامن لا هو إلا هو ، يامن لايعلم ماهو إلاهو ، ياكان ياكينان ياروح ياكائن قبل كل كون ، ياكائن بعد كل كون ، يامكونا لكل كون ، أهيا شراهيا أدوناى أصبؤت ، يامجلى عظائم الأمور ﴿فإن تولوا فقل حسبى الله لاإله إلاهو عليه توكلت وهورب العرش العظيم﴾ ﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾ اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم إنى أعوذ بك من

علم لاينفع وقلب لايخشع ودعاء لايسمع ، اللهم إنى أعوذبك من فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ، اللهم إنى أعوذ بك من شر ماعلمت وشر ما لم أعلم ، وأعوذ بك من شر سمعى وبصرى ولسانى وقلبى ؛ اللهم إنى أعوذ بك من القسوة والغفلة والذل والمسكنة ، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمعة والرياء ، وأعوذبك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسائر الأسقام ، اللهم إنى أعوذبك من زوال نعمتك ومن تحويل عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك ، اللهم إنى أسألك الصلاة على محمد وعلى آل محمد وأسألك من الخير كله عاجله وآجله ماعلمت منه ومالم أعلم ، وأعوذبك من الشر كله عاجله وآجله ماعلمت منه ومالم أعلم ، وأسألك الجنة وماقرب إليها من قول وعمل ، وأعوذبك من النار وماقرب إليها من قول وعمل ، وأسألك بما سألك عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأسألك ماقضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك ياأرحم الراحمين ، ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله يانور السموات والأرض ياجمال السموات والأرض ، ياعماد السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ، ياصريخ المستصرخين ، ياغوث المستغيثين ، يامنتهى رغبة الراغبين والمفرج عن المكروبين والمروح عن المغمومين ومجيب دعوة المضطرين وكاشف السوء وأرحم الراحمين وإله العالمين منزول بك كل حاجة ياأرحم الراحمين ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى وأقلنى عثراتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذبك أن أغتال من تحتى . اللهم إنى ضعيف فقو فى رضاك ضعفى ، وخذ إلى الخير بناصيتى ، واجعل الإسلام منتهى رضاى ، اللهم إنى ضعيف فقونى ، اللهم إنى ذليل فأعزنى ، اللهم إنى فقير فأغننى برحمتك ياأرحم الراحمين ، اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى ، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى ، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى ، اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى ، ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتب لى ، والرضا بما قسمت لى ياذا الجلال والإكرام .

اللهم ياهادى المضلين ويا راحم المذنبين ومقيل عثرة العاثرين ، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين ، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، آمين يارب العالمين اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات ، تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا أنت الوكيل وإليك المصير ، يامن لايشغله شأن عن شأن ولا يشغله سمع عن سمع ، ولا تشتبه عليه الأصوات ، ويامن لاتغلطه المسائل ولاتختلف عليه اللغات ، ويامن لايتبرم بإلحاح الملحين . أذقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك ؛ اللهم إنى أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعملا متقبلا ، أسألك من خير ماتعلم وأعوذبك من شر ماتعلم ، وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إنى أسألك إيمانا لايرتد ، ونعيما لاينفد ، وقرة عين الأبد ، ومرافقة نبيك محمد ، وأسألك حبك وحب من أحبك ، وحب عمل يقرب إلى حبك اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على خلقك ، أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى ما كانت الوفاة خيرا لى ، أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وكلمة العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ، وأعوذبك من ضراء مضرة وفتنة مضلة . اللهم اقسم لى من خشيتك ماتحول به بينى وبين معصيتك ، ومن طاعتك مايدخلنى جنتك ، ومن اليقين ماتهون به علينا مصائب الدنيا . اللهم ارزقنا حزن خوف الوعيد وسرور رجاء الموعود حتى نجد لذة ما نطلب وخوف ما منه نهرب ، اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء واملأ قلوبنا بك فرحا ، وأسكن فى نفوسنا من عظمتك مهابة ، وذلل جوارحنا لخدمتك ، واجعلك أحب إلينا مما سواك ؛ واجعلنا أخشى لك ممن سواك ، نسألك تمام النعمة بتمام التوبة ، ودوام العافية بدوام العصمة ، وأداء الشكر بحسن العبادة ، اللهم إنى أسألك بركة الحياة وخير الحياة ، وأعوذبك من شر الحياة وشر الوفاة . وأسألك خير مابينهما ، أحينى حياة السعداء : حياة من تحب بقاءه . وتوفنى وفاة الشهداء : وفاة من تحب لقاءه ، ياخير الرازقين وأحسن التوابين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين

ورب العالمين ، اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وارحم ماخلقت واغفر ماقدرت وطيب مارزقت وتمم ماأنعمت وتقبل مااستعملت واحفظ مااستحفظت ولاتهتك ماسترت فإنه لا إله إلا أنت ، أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير خدمتك ومن سرور بغير قربك ، ومن كل فرح بغير مجالستك ومن كل شغل بغير معاملتك ؛ اللهم إنى استغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه ، اللهم إنى أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به ، اللهم إنى أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فقويت بها على معصيتك ، اللهم إنى أستغفرك من كل عمل عملته لك فخالطه ماليس لك ، اللهم إنى أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد وأسالك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ، وأعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه ، اللهم احفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ماأعطيتنا ، ياحافظ الحافظين ، وياذاكر الذاكرين ، وياشاكر الشاكرين ، بذكرك ذكروا ، وبفضلك شكروا ، ياغياث يامغيث ، يامستغاث ياغياث المستغيثين ، لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين فاهلك ، ولا إلى أحد من خلقك فاضيع ، اكلأنى كلاءة الوليد ، ولاتخل عنى ، وتولنى بما تتولى به عبادك الصالحين ، أنا عبدك وابن عبدك ناصيتى بيدك ، جار فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، نافذ فى مشيئتك ؛ إن تعذب فاهل ذلك أنا ، وإن ترحم فاهل ذلك أنت ، فافعل اللهم يامولاى يا ألله يارب ما أنت له أهل ولاتفعل اللهم يارب يا ألله ما أنا له أهل ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة ؛ يامن لاتضره الذنوب ولاتنقصه المغفرة ، هب لى مالايضرك وأعطنى مالاينقصك ، ياربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وارزقنا العون على الطاعة ، والعصمة من المعصية ، وإفراغ الصبر فى الخدمة ، وإيذاع الشكر فى النعمة ، وأسالك حسن الخاتمة ، وأسالك اليقين وحسن المعرفة بك ، وأسالك المحبة وحسن التوكل عليك ، وأسالك الرضا وحسن الثقة بك ، وأسألك حسن المنقلب إليك ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد ، واللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا ، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ، اللهم اغفر لى ولوالدى ولمن ولدا وارحمهما كما ربيانى صغيرا ، واغفر لأعمامنا وعماتنا ، وأخوالنا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات يا أرحم الراحمين ياخير الغافرين .

ولما كان الدعاء مخ العبادة أحببنا أن نستوفى من ذلك قسما صالحا نرجو بركته ، وهذه الأدعية استخرجها الشيخ أبو طالب المكى رحمة الله فى كتابه قوت القلوب ، وعلى نقله كل الاعتماد وفيه البركة ، فليدع بهذه الدعوات منفردا أو فى الجماعة ، إماما أو مأموما ويختصر منها مايشاء .

الباب الخمسون : فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات

فمن ذلك أن يلازم موضعه الذى صلى فيه الفجر مستقبل القبلة ، إلا أن يرى انتقاله إلى رواتبه أسلم لدينه لئلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شىء ؛ فإن السكون فى هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين يجده أهل المعاملة وأرباب القلوب . وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة إلى المفلحون ، والآيتين : وإلهكم إله واحد ، وآية الكرسى والآيتين بعدها ، وآمن الرسول والآية قبلها ، وشهد الله ، وقل اللهم مالك الملك ، وإن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض - إلى - المحسنين ، ولقد جاءكم رسول إلى الآخر ، وقل ادعوا الله الآيتين ، وآخر الكهف من : إن الذين آمنوا . الخ وذا النون إذ ذهب مغاضبا - إلى - خير الوارثين فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وسبحان ربك إلى آخر السورة ، ولقد صدق الله ، وأول سورة الحديد - إلى - بذات الصدور ، وآخر سورة الحشر من لو أنزلنا ، ثم يسبح ثلاثا وثلاثين ، وهكذا يحمد مثله ، ويكبر مثله ؛ ويتمها

مائة بلا إله إلا الله وحده لاشريك له ، فإذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظا أو من المصحف ، أو يشتغل بأنواع الأذكار ، ولايزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس ، فإن النوم فى هذا الوقت مكروه جدا ، فإن غلبه النوم فليقم فى مصلاه قائما مستقبل القبلة ، فإن لم يذهب النوم بالقيام يخطو خطوات نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ،ولايستدبر القبلة ، فى إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر فى هذا الوقت : أثر كبير وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك بحمد الله ونوصى به الطالبين ، وأثر ذلك فى حق من يجمع فى الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر ، وهذا الوقت أول النهار ـ والنهار مظنة الآفات ـ فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه وتبتنى أوقات النهار جميعا على هذا البناء ؛ فإذا قارب طلوع الشمس يبتدئ بقراءة المسبعات العشر وهى من تعليم الخضر عليه السلام علمها إبراهيم التيمى وذكر أنه تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينال بالمداومة عليها جميع المتفرق فى الأذكار والدعوات ، وهى عشرة أشياء : سبعة سبعة : الفاتحة ، والمعوذتان ، وقل هو الله أحد ، وقل يا أيها الكافرون ، وآية الكرسى ، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، والصلاة على النبى وآله ، ويستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات، ويقول سبعاً : اللهم افعل بى وبهم عاجلا وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ، ولاتفعل بنا يامولانا ما نحن له أهل إنك غفور حليم جواد كريم رءوف رحيم .

وروى أن إبراهيم التيمى لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الخضر رأى فى المنام أنه دخل الجنة ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة . وقيل : إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم . وقيل : لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة ، فإذا فرغ من المسبعات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس قدر رمح .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لأن أقعد فى مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » ثم يصلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه ، فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلى الركعتين ، وبهاتين الركعتين تتبين فائدة رعاية هذا الوقت ، وإذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد فى باطنه أثراً ونوراً وروحاً وأنساً إذا كان صادقاً ، والذى يجده من البركة ثواب معجل له على عمله هذا ، فى الأولى آية الكرسى ، وفى الأخرى آمن الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية ، وتكون نيته فيها الشكر لله على نعمه فى يومه وليلته ، ثم يصلى ركعتين أخريين يقرأ المعوذتين فيهما فى كل ركعة سورة ، وتكون صلاته هذه ليستعيذ بالله تعالى من شر يومه وليلته ، ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول : أعوذ باسمك وكلماتك التامة من شر السامة والهامة ، وأعوذ باسمك وكلماتك التامة من شر عذابك وشر عبادك ، وأعوذ باسمك وكلماتك التامة من شر ماتجرى به الليل والنهار إن ربى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ويقول بعد الركعتين الأوليين : اللهم إنى أصبحت لاأستطيع دفع ما أكره ولاأملك نفع ما أرجو ، وأصبحت مرتهنا بعملى وأصبح أمرى بيد غيرى فلافقير أفقر منى ، اللهم لاتشمت بى عدوى ولا تسئ بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا مبلغ علمى ، ولا تسلط على من لايرحمنى ، اللهم إنى أعوذ بك من الذنوب التى تزيل النعم ، وأعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم ، ثم يصلى ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمله فى يومه وليلته ، وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق ؛ وإلا فالاستخارة التى وردت بها الأخبار هى التى يصليها أمام كل أمر يريده ، ويقرأ فى هاتين الركعتين ﴿ قل ياأيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره فى غير هذا الباب ، ويقول فيه : كل قول وعمل أريده فى هذا اليوم اجعل فيه الخيرة ثم يصلى ركعتين أخريين يقرأ فى الأولى سورة الواقعة وفى الأخرى سورة الأعلى ، ويقول بعدها : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، واجعل حبك أحب الأشياء إلى وخشيتك أخوف الأشياء عندى ، واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك ، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر عينى بعبادتك ، واجعل طاعتك فى كل شىء يا أرحم الراحمين ،

ثم يصلي بعد ذلك ركعتين يقرأ فيهما شيئاً من حزبه من القرآن ، ثم بعد ذلك إن كان متفرغاً ليس له شغل فى الدنيا يتنقل فى أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى ، وإن كان عن له فى الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليمض لحاجته ومهامه بعد أن يصلي ركعتين لخروجه من المنزل ؛ وهكذا ينبغى أن يفعل أبداً لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلي ركعتين ليقيه الله سوء المخرج ، ولا يدخل البيت إلا ويصلي ركعتين ليقيه الله سوء المدخل بعد أن يسلم على من فى المنزل من الزوجة وغيرها ؛ وإن لم يكن فى البيت أحد يسلم أيضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين . وإن كان متفرغاً فأحسن أشغاله فى هذا الوقت إلى صلاة الضحى الصلاة ؛ فإن كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر ، وإلا فليصل ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن ؛ فقد كان من الصالحين من يختم القرآن فى الصلاة بين اليوم والليلة ، وإلا فليصل أعداداً من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وبالآيات التى فى القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ وأمثال هذه الآية يقرأ فى كل ركعة آية منها إما مرة أو يكررها مهما شاء ، ويقدر للطالب أن يصلي بين الصلاة التى ذكرناها بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة ، وقد كان فى الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة إلى ماءتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة ، ومن ليس له فى الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها فما باله يبطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى قال سهل بن عبدالله التسترى : لايكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله فى الدنيا حاجة .

فإذا ارتفعت الشمس وتنصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والمغرب يصلي الضحى ؛ فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة الضحى إذا رمضت الفصال » وهو أن ينام الفصيل فى ظل أمه عند حر الشمس . وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس ؛ وأقل صلاة الضحى ركعتان ، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ، ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ، ويسبح ويستغفر ؛ ثم بعد ذلك إن كان هناك حق يقضى بما ندب إليه من زيارة أو عيادة يمضى فيه ، وإلا فيديم العمل لله تعالى من غير فتور إما ظاهراً أو باطناً وقالباً وقالبا ، وإلا فباطنا ؛ وترتيب ذلك : أنه يصلي مادام منشرحا ونفسه مجيبة ، فإن سئم ينزل من الصلاة إلى التلاوة ، فإن مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة ، فإن سئم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقلب واللسان فهو أخف من القراءة ، فإن سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلازم بقلبه المراقبة ، والمراقبة علم القلب بنظر الله تعالى إليه فما دام هذا العلم ملازماً للقلب فهو مراقب ، والمراقبة عين الذكر وأفضله ، فإن عجز عن ذلك أيضا وتملكته الوساوس وتزاحم فى باطنه حديث النفس فلينم فني النوم طرد حديث النفس وبه يقسى القلب ككثرة الكلام لأنه كلام من غير لسان فيحترز عن ذلك . قال سهل بن عبدالله أسوأ المعاصى حديث النفس ، والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره ، فإنه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر ما مضى ورأى وسمع كشخص آخر فى باطنه ، فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ، ويمكن للطالب المجد أن يصلي من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى ، وأقل من ذلك عشرون ركعة يصليها خفيفة ، أو يقرأ فى كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر .

والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد أخر من الركعات حسن . قال سفيان : كان يعجبهم إذا فرغوا أن يناموا طلبا للسلامة ، وهذا النوم فيه فوائد : منها أنه يعين على قيام الليل ، ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه ، والنفس إذا استراحت عادت جديدة ، فبعد الانتباه من نوم النهار تجد فى الباطن نشاطا آخر وشغفاً آخر كما كان فى أول النهار ، فيكون للصادق فى النهار نهاران يغتنمهما : بخدمة الله تعالى ، والدءوب فى العمل . وينبغى أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء ، بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذاكراً أو مسبحاً أو تاليا : قال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار ﴾ وقال ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ قيل : قبل طلوع الشمس : صلاة الصبح ، وقبل غروبها : صلاة العصر ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ أراد العشاء الآخرة ﴿ وأطراف النهار ﴾ أراد

الظهر والمغرب ، لأن الظهر صلاة فى آخر الطرف الأول من النهار ، وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب ، فصار الظهر آخر الطرف الأول ، والمغرب آخر الطرف الآخر ، فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر كما استقبل الطرف الأول ، وقد عاد بنوم النهار جديدا كما كان بنوم الليل ، ويصلى فى أول الزوال قبل السنة والفرض أربع ركعات بتسليمة واحدة كان يصليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه صلاة الزوال قبل الظهر فى أول أوقاتها ، ويحتاج أن يراعى لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يفطن الوقت قبل المؤذنين حين يذهب وقت الكراهية بالاستواء ، فيشرع فى صلاة الزوال ويسمع الآذان وقد توسط هذه الصلاة ، ثم يستعد لصلاة الظهر ، فإن وجد فى باطنه كدرا من مخالطة أو مجالسة اتفقت يستغفر الله تعالى ويتضرع إليه ، ولا يشرع فى صلاة الظهر ، إلا بعد أن يجد الباطن عائدا إلى حاله من الصفاء ، والذائقون حلاوة المناجاة لابد أن يجدوا صفو الأنس فى الصلاة ، ويتكدرون بيسير من الاسترسال فى المباح ، ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر ، وقد يكون ذلك بمجرد المخالطة والمجالسة مع الأهل والولد مع كون ذلك عبادة ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العقد وإذهاب الكدر ، وحل العقد بصدق الإنابة والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى ودواء مايحدث من الكدر بمجالسة الأهل والولد : أن يكون فى مجالسته غير راكن إليهم كل الركون ، بل يسترق القلب فى ذلك نظرات إلى الله تعالى ، فتكون تلك النظرات كفارة لتلك المجالسة ، إلا أن يكون قوى الحال لا يحجبه الخلق عن الحق فلا ينعقد على باطنه عقدة ، فهو كما يدخل فى الصلاة لايجدها ويجد باطنه وقلبه ، لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى المجالسة كان استرواح نفسه منغمراً بروح قلبه ، لأنه يجالس ويخالط وعين ظاهره ناظرة إلى الخلق وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية فلا ينعقد على باطنه عقدة ، وصلاة الزوال التى ذكرناها تحل العقد وتهيء الباطن لصلاة الظهر ، فيقرأ فى صلاة الزوال بمقدار سورة البقرة فى النهار الطويل ، وفى القصير ما يتيسر من ذلك . قال الله تعالى : ﴿ وعشيا وحين تظهرون ﴾ وهذا هو الإظهار ، فإن انتظر بعد السنة حضور الجماعة الفرد وقرأ الدعاء الذى بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر لحسن ، وكذلك ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا به إلى صلاة الفجر ، ثم إذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الكرسى ويسبح ويحمد ويكبر ثلاثا وثلاثين مرة كما وصفنا ، ولو قدر على الآيات كلها التى ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الأدعية أيضا كان ذلك خيرا كثيرا وفضلا عظيما .

ومن له همة ناهضة وعزيمة صادقة لايستكثر شيئا لله تعالى ، ثم يحيي بين الظهر والعصر كما يحيي بين العشاءين على الترتيب الذى ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة ، ومن دام سهره ينام نومة خفيفة فى النهار الطويل بين الظهر والعصر ، ولو أحيا بين الظهر والعصر بركعتين يقرأ فيهما ربع القرآن أو يقرأ ذلك فى أربع ركعات فهو خير كثير ، وإن أراد أن يحيي هذا الوقت بمائة ركعة فى النهار الطويل أمكن ذلك ، أو بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة فى كل ركعة خمسين ، ويستاك قبل الزوال إن كان صائما ، وإن لم يكن صائما فأى وقت تغير فيه الفم ، وفى الحديث « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » وعند القيام إلى الفرائض يستحب ، قيل : إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا ، وقيل هو خبر ، وإن أراد أن يقرأ بين الصلاتين فى صلاته فى عشرين ركعة فى كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ فى الركعة الأولى ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ ثم فى الثانية ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ثم ﴿ ربنا لاتؤاخذنا ... ﴾ إلى آخر السورة ، ثم ﴿ ربنا لاتزغ قلوبنا ... الآية ﴾ ثم ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان ... الآية ﴾ ثم ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ... ﴾ ثم ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا ﴾ ثم ﴿ فاطر السموات والأرض أنت ولي ﴾ ثم ﴿ ربنا إنك تعلم مانخفى وما نعلن ... الآية ﴾ ثم ﴿ وقل رب زدنى علما ﴾ ثم ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك ﴾ ثم ﴿ رب لاتذرنى فردا ﴾ ثم ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ ثم ﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا ﴾ ثم ﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾

ثم ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾ ثم ﴿رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ... الآية﴾ من سورة الأحقاف ، ثم ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .. الآية﴾ ثم ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ ثم ﴿رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾ مهما يصل فليقرأ بهذه الآيات ، وبالمحافظة على هذه الآيات فى الصلاة مواطئا للقلب واللسان يوشك أن يرقى إلى مقام الإحسان ، ولو ردد فرد آية من هذه فى ركعتين من الظهر أو العصر كان فى جميع الوقت مناجيا لمولاه وداعيا وتاليا ومصليا ، والدءوب فى العمل واستيعاب أجزاء النهار بلذاذة وحلاوة من غير سآمة لايصح إلا لعبد تركت نفسه بكمال التقوى والاستقصاء فى الزهد فى الدنيا وانتزع منه متابعة الهوى . ومتى بقى على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لايدوم روحه فى العمل ، بل ينشط وقتا ويسأم وقتا ، ويتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعة شىء من الهوى بنقصان تقوى أو محبة دنيا وإذا صح فى الزهد والتقوى ، فإن ترك العمل بالجوارح لايفتر عن العمل بالقلب ، فمن رام دوام الروح واستحلاء الدءوب فى العمل فعليه بحسم مادة الهوى ، والهوى روح النفس لايزول ولكن تزول متابعته ، والنبى عليه السلام ماااستعاذ من وجود الهوى ، ولكن استعاذ من متابعته فقال « أعوذ بك من هوى متبع » ولم يستعذ من وجود الشح فإنه طبيعة النفس ، ولكن استعاذ من طاعته فقال «وشح مطاع» ، ودقائق متابعة الهوى تتبين على قدر صفاء القلب وعلو الحال ، فقد يكون متبعا للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمتهم أو النظر إليهم . وقد يقع الهوى بتجاوز الاعتدال فى النوم والأكل وغير ذلك من أقسام الهوى المتبع ، وهذا شغل من ليس له شغل إلا فى الدنيا ، ثم يصلى العبد قبل العصر أربع ركعات ، فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ، ولو اغتسل كان أفضل ، فكل ذلك له أثر ظاهر فى تنوير الباطن وتكميل الصلاة ويقرأ فى الأربع قبل العصر : إذا زلزلت ، والعاديات ، والقارعة ، والهاكم . ويصلى العصر ويجعل من قراءته فى بعض الأيام : والسماء ذات البروج . وسمعت أن قراءة سورة البروج فى صلاة العصر أمان من الدماميل ، ويقرأ بعد العصر ماذكرنا من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك ، فإذا صلى العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقى وقت الأذكار والتلاوة ، وأفضل من ذلك مجالسة من يزهده فى الدنيا ويسدد كلامه عرى التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوى عزائم المؤمنين ، فإذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الأذكار ، وإن عدمت هذه المجالسة وتعذرت فليتروح بالتنقل فى أنواع الأذكار ، وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه فى هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه فى أول النهار ، ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء ، وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر ، وأجازه المشايخ والصالحون ، ويقول كلما خرج من منزله : بسم الله ماشاء الله ، حسبى الله لاقوة إلا بالله ، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتنى ، وليقرأ الفاتحة والمعوذتين ، ولا يدع أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو تمرة أو لقمة ، فإن القليل بحسن النية كثير . وروى أن عائشة رضى الله عنها أعطت السائل عنبة واحدة وقالت : إن فيهما لمثاقيل ذر كثير . وجاء فى الخبر « كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة مرة لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك ، ومائة مرة لاإله إلا الله الملك الحق المبين ، فقد ورد أن من قال فى يومه مائة مرة لاإله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد فى يومه أفضل من عمله ، ويقول مائة مرة : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ومائة مرة : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله ، ومائة مرة : لاإله إلا الله الملك الحق المبين ، ومائة مرة : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، ومائة مرة : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة ، ومائة مرة : ماشاء الله لاقوة إلا بالله . ورأيت بعض الفقراء من المغرب

بمكة وله سبحة فيها ألف حبة فى كيس له ، ذكر أن ورده أن يديرها كل يوم اثنتى عشرة مرة بأنواع الذكر .

ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم والليلة . ونقل عن بعض التابعين . كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم والليلة ، وليقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح : سبحان الله العلى الديان ، سبحان الله شديد الأركان ، سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار ، سبحان من لايشغله شأن عن شان ، سبحان الله الحنان المنان ، سبحان الله المسبح فى كل مكان .

روى أن بعض الأبدال بات على شاطئ البحر ، فسمع فى هدوء الليل هذا التسبيح ، فقال : من الذى أسمع صوته ، ولا أرى شخصه ؟ فقال : أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر ، أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت ؛ فقال : مااسمك ؟ فقال : مهلهيائيل ؛ فقال : ماثواب هذا التسبيح ؟ قال : من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له .

وروى أن عثمان رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ فقال : سألتنى عن شىء عظيم ماسألنى عنه غيرك ، هو : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله عز وجل ، وأستغفر الله الأول الآخر الظاهر الباطن ، له الملك وله الحمد ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

من قالها عشرا حين يصبح وحين يمسى أعطى ست خصال ؛ فأول خصلة : أن يحرس من إبليس وجنوده . الثانية : أن يعطى قنطارا من الأجر . الثالثة : يرفع له درجة فى الجنة . الرابعة : يزوجه الله من الحور العين . الخامسة : اثنا عشر ملكا يستغفرون له . السادسة : يكون له من الأجر كمن حج واعتمر ، ويقول أيضا فى هذا الوقت وفى أول النهار : اللهم أنت خلقتنى وأنت هديتنى وأنت تطعمنى وأنت تسقينى وأنت تميتنى وأنت تحيينى ، أنت ربى لارب سواك ولا إله إلا أنت وحدك لاشريك لك ، ويقول : ماشاء الله لاقوة إلا بالله ، ماشاء الله كل نعمة من الله ، ماشاء الله الخير كله بيد الله ، ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله ؛ ويقول : حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة ، ويقرأ المسبعات قبل الغروب ، ويديم التسبيح والاستغفار ، بحيث تغيب الشمس وهو فى التسبيح والاستغفار ، ويقرأ عند الغروب أيضا : والشمس والليل والمعوذتين ، ويستقبل الليل كما استقبل النهار . قال الله تعالى ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ فكما أن الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل : ينبغى أن يكون العبد بين الذكر والشكر يعقب أحدهما الآخر ، ولا يتخللهما شىء كما لايتخلل بين الليل والنهار شىء ، والذكر جميعه أعمال القلب ، والشكر أعمال الجوارح . قال الله تعالى ﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ والله الموفق المعين .

الباب الحادى والخمسون : فى آداب المريد مع الشيخ

أدب المريدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب ؛ والقوم فى ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ .

روى عن عبدالله بن الزبير قال : قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى تميم ، فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد . وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ماأردت إلا خلافى ؟ وقال عمر : ماأردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا ... الآية ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ لاتقدموا ﴾ لاتتكلموا بين يدى كلامه . وقال جابر : كان ناس يضحون قبل رسول الله ، فنهوا عن تقديم الأضحية على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : كان قوم يقولون : لو أنزل فى كذا وكذا فكره الله ذلك . وقالت عائشة رضى الله عنها : أى لاتصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الكلبى : لاتسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون

هو الذى يأمركم به ، وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لايتصرف فى نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره . وقد استوفينا هذا المعنى فى باب المشيخة . وقيل ﴿ لاتقدموا ﴾ لاتمشوا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو الدرداء قال : كنت أمشى أمام أبى بكر ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تمشى أمام من هو خير منك فى الدنيا والآخرة » . وقيل : نزلت فى أقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا سئل الرسول عليه السلام عن شىء خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى ، فنهوا عن ذلك ، وهكذا أدب المريد فى مجلس الشيخ ينبغى أن يلزم السكوت ولا يقول شيئا بحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة فى ذلك ، وشأن المريد فى حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه ، فتطلعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله ، وتطلعه إلى القول يرده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شىء لنفسه وذلك جناية المريد .

وينبغى أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ : على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان فى حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد ، لأن الشيخ يكون مستنطقاً نطقه بالحق ، وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه إلى الله ويستمطر ويستسقى لهم ، فيكون لسانه وقلبه فى القول والنطق مأخوذين إلى مهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى مايفتح به عليه : لأن الشيخ يعلم تطلع الطالب إلى قوله واعتداده بقوله ، والقول كالبذر يقع فى الأرض ؛ فإذا كان البذر فاسداً لاينبت ، وفساد الكلمة بدخول الهوى فيها ؛ فالشيخ ينقى بذر الكلام عن شوب الهوى ، ويسلمه إلى الله ، ويسأل الله المعونة والسداد ، ثم يقول ، فيكون كلامه بالحق من الحق للحق ، فالشيخ للمريدين أمين الإلهام ، كما أن جبريل أمين الوحى ، فكما لايخون جبريل فى الوحى لايخون الشيخ فى الإلهام ، وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاينطق عن الهوى فالشيخ مقتدبرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا ، لايتكلم بهوى النفس . وهوى النفس فى القول بشيئين : أحدهما طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه إليه ، وما هذا من شأن الشيوخ . والثانى : ظهور النفس باستجلاء الكلام والعجب ، وذلك خيانة عند المحققين والشيخ فيما يجرى على لسانه راقد النفس تشغلة مطالعة نعم الحق فى ذلك فاقدا الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستجلاء والعجب ، فيكون الشيخ لما يجريه الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كأحد المستمعين ، وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يلق إليه ، وكان يقول : أنا فى هذا الكلام مستمع كأحدكم ، فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال : إذا كان القائل هو يعلم مايقول كيف يكون كمستمع لايعلم حتى يسمع منه ؟ فرجع إلى منزله فرأى ليلته فى المنام . كأن قائلا يقول له : أليس الغواص يغوص فى البحر لطلب الدر . ويجمع الصدف فى مخلاته ، والدر قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ، ويشاركه فى رؤية الدر من هو على الساحل ، ففهم بالمنام إشارة الشيخ فى ذلك . .

فاحسن أدب المريد من الشيخ السكوت والخمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بما له فيه من الصلاح قولا وفعلا . وقيل أيضا فى قوله تعالى ﴿ لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ : لا تطلبوا منزلة وراء منزلته ، وهذا من محاسن الآداب وأعزها .

وينبغى للمريد أن لايحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ ، بل يحب للشيخ كل منزلة عالية ، ويتمنى للشيخ عزيز المنح وغرائب المواهب ، وبهذا يظهر جوهر المريد فى حسن الإرادة ، وهذا يعز فى المريدين ؛ فإرادته للشيخ تعطيه فوق مايتمنى لنفسه ويكون قائما بادب الإرادة . قال السرى رحمه الله : حسن الأدب ترجمان العقل . وقال أبو عبدالله بن حنيف : قال لى رويم : يابنى اجعل عملك ملحا وأدبك دقيقا ، وقيل : التصوف كله أدب ؛ لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب ، فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال ، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث

يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول . ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ كان ثابت بن قيس بن شماس فى أذنه وقر وكان جهورى الصوت ، فكان إذا كلم إنسانا جهر بصوته ، وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته ؛ فأنزل الله تعالى الآية تأديباً له ولغيره .

أخبرنا ضياء الدين عبدالوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبوالفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى قال أخبرنا أبو محمدالجراحى ، قال أخبرنا أبوالعباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبوعيسى الترمذى قال حدثنا محمدبن المثنى ، قال حدثنا مؤمل بن إسمعيل ، قال حدثنا نافع بن عمر بن جميل الجمحى ، قال حدثنى حابس بن أبى مليكة ، قال حدثنى عبد الله ابن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبوبكر : استعمله على قومه ، فقال عمر : تستعمله يارسول الله فتكلما عندالنبي صلى الله عليه وسلم حتى علت أصواتهما ؛ فقال أبوبكر لعمر : ماأردت إلا خلافى ، وقال عمر : ماأردت خلافك ؛ فانزل الله تعالى الآية ، فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لايسمع كلامه حتى يستفهم .

وقيل : لما نزلت الآية آلى أبوبكر أن لايتكلم عندالنبي صلى الله عليه وسلم إلا كأخ السرار ؛ فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ . لاينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام إلا إذا بسطه الشيخ ؛ فرفع الصوت تنحية جلباب الوقار ؛ والوقار إذا سكن القلب عقل اللسان ما يقول ، وقد ينازل باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ مالايستطيع المريد أن يشبع النظر إلى الشيخ . وقد كنت أحم فيدخل على عمى وشيخى أبوالنجيب السهروردى رحمه الله فيترشح جسدى عرقا ـ وكنت أتمنى العرق لتخف الحمى ـ فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ على ، ويكون فى قدومه بركة وشفاء . وكنت ذات يوم فى البيت خاليا وهناك منديل وهبه لى الشيخ وكان يتعمم به ، فوقع قدمى على المنديل اتفاقا ، فتألم باطنى من ذلك وهالنى الوطء بالقدم على منديل الشيخ ، وانبعث من باطنى من الاحترام ما أرجو بركته .

قال ابن عطاء فى قوله تعالى ﴿ لاترفعوا أصواتكم ﴾ زجر عن الأدنى لئلا يتخطى أحد إلى مافوقه من ترك الحرمة .

وقال سهل فى ذلك : لاتخاطبوه إلا مستفهمين . وقال أبوبكر بن طاهر : لاتبدءوه بالخطاب ولاتجيبوه إلا على حدود الحرمة ﴿ ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ أى لاتغالظوا له فى الخطاب ولاتنادوه باسمه : يامحمد ، ياأحمد ، كما ينادى بعضكم بعضاً ، ولكن فخموه واحترموه وقولوا له : يانبى الله ، يارسول الله .

ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ ، وإذا سكن الوقار القلب علم اللسان كيفية الخطاب .

ولما كلفت النفوس بمحبة الأولاد والأزواج وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة وهى تحت وقتها صاغها كلف النفس وهواها ؛ فإذا امتلأ القلب حرمة ووقارا تعلم اللسان العبارة .

وروى : لما نزلت هذه الآية قعد ثابت بن قيس فى الطريق يبكى ، فمر به عاصم بن عدى فقال : مايبكيك ياثابت ؟ قال : هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فى ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ﴾ وأنا رفيع الصوت على النبي صلى الله عليه وسلم أخاف أن يحبط عملى وأكون من أهل النار ، فمضى عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتاً البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول ، فقال لها : إذا دخلت بيت فرسى فسدى على الضبة بمسمار فضربته بمسمار حتى إذا خرجت عطفته وقال : لاأخرج حتى يتوفانى الله أو يرضى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أتى عاصم النبي وأخبره بخبره قال « اذهب فادعه » فجاء عاصم إلى المكان الذى فيه رآه فلم يجده ، فجاء إلى أهله فوجده فى بيت الفرس ، فقال له : إن رسول الله يدعوك ؛ فقال ، اكسر الضبة ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مايبكيك ياثابت ؟ » فقال : أنا صيت وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت فى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أماترضى أن تعيش سعيداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة » فقال : قد رضيت

ببشرى الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتى أبدا على رسول الله ، فأنزل الله تعالى ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ... ﴾ قال أنس : كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين أيدينا ؛ فلما كان يوم اليمامة فى حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهزمت طائفة منهم ؛ فقال : أف لهؤلاء وما يصنعون ، ثم قال ثابت لسالم ابن حذيفة : ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ، ثم ثبتا ولم يزالا يقاتلان حتى قتلا واستشهد ثابت كما وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه درع ؛ فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام فقال له : اعلم أن فلانا رجل من المسلمين نزع درعى فذهب بها وهو فى ناحية من العسكر وعنده فرس يستن فى طيله وقد وضع على درعى برمة ، فائت خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعى ، وائت أبا بكر خليفة رسول الله عليه السلام فقل له : إن على دينا حتى يقضى عنى ، وفلان من عبيدى عتيق ، فأخبر الرجل خالدا فوجد الدرع والفرس على ما وصفه ، فاسترد الدرع ، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته . قال مالك بن أنس رضى الله عنهما : لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فليعتبر المريد الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله ، وأن الذى يعتمده مع الشيخ عوض ما لو كان فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتمده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ أى اختبر قلوبهم وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه ، وكما أن اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لتأدب القلب ، فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ .

قال أبو عثمان : الأدب عند الأكابر وفى مجالسة السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلا والخير فى الأولى والعقبى ، ألا ترى إلى قول الله تعالى ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم﴾ وما علمهم الله تعالى قوله سبحانه ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ وكان هذا الحال من وفد بنى تميم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوا : يا محمد ، اخرج إلينا فإن مدحنا زين وذمنا شين . قال : فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذى ذمه شين ومدحه زين ، فى قصة طويلة ، وكانوا أتوا بشاعرهم وخطيبهم ، فغلبهم حسان بن ثابت وشبان المهاجرين والأنصار بالخطبة .

وفى هذا تأدب للمريد فى الدخول على الشيخ والإقدام عليه وتركه الاستعجال وصبره إلى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته .

سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير زائر يخبر بالفقير فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع إلى خلوته ، وإذا جاء أحد ممن ليس من زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه ، فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار لتركه الخروج إلى الفقير وخروجه لغير الفقير ، فانتهى ما خطر للفقير إلى الشيخ ، فقال : الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية وهو أهل وليس عنده أجنبية فنكتفى معه بموافقة القلوب ونقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر ، وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر ، فمتى لم يوف حقه من الظاهر استوحش ، فحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ .

قيل لأبى منصور المغربى : كم صحبت أبا عثمان ؟ قال خدمته لا صحبته ، فالصحبة مع الإخوان والأقران ، ومع المشايخ الخدمة .

وينبغى للمريد أنه كلما أشكل عليه شىء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى ، وإذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره ، فما ينكره المريد لقلة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ فللشيخ فى كل شىء عذر بلسان العلم والحكمة .

سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد ، فأجابه الجنيد ، فعارضه فى ذلك ! فقال الجنيد : فإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون . فقال بعض المشايخ ؛ من لم يعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب .

وقيل : من قال لأستاذه : لا ، لايفلح أبدا .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا هناد عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتركونى ما تركتكم ، وإذا حدثتكم فخذوا عنى ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » .

قال الجنيد رحمه الله : رأيت مع أبى حفص النيسابورى إنسانا كثير الصمت لايتكلم ، فقلت لأصحابه : من هذا ؟ فقيل لى : هذا إنسان يصحب أبا حفص ويخدمنا ، وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه مايسوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة .

وقال أبو يزيد البسطامى : صحبت أبا على السندى فكنت ألقنه مايقيم به فرضه ، وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صرفا

وقال أبو عثمان : صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث ، فطردنى وقال : لاتجلس عندى ، فلم أجعل مكافأتى له على كلامه أن أولى ظهرى إليه ، فانصرفت أمشى إلى خلف ووجهى مقابل له حتى غبت عنه واعتقدت أن أحفر لنفسى بئرا على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بإذنه ؛ فلما رأى ذلك منى قربنى وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله .

ومن آدابهم الظاهرة : أن المريد لايبسط سجادته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة ، فإن المريد من شأنه التبتل للخدمة ، وفى السجادة إيماء إلى الاستراحة والتعزز ، ولا يتحرك فى السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز ، وهيبة الشيخ تملك المريد عن الاسترسال فى السماع وتقيده . واستغراقه فى الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع .

ومن الأدب : أن لايكتم على الشيخ شيئاً من حاله ومواهب الحق عنده ومايظهر له من كرامة وإجابة ، ويكشف للشيخ من حاله مايعلم الله تعالى منه ، وما يستحى من كشفه يذكره إيماء وتعريضا ، فإن المريد متى انطوى ضميره على شىء لايكشفه للشيخ تصريحاً أو تعريضاً يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق ، وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول .

ومن الأدب : أن لايدخل فى صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه ، وأنه أقوم بالتأديب من غيره ؛ ومتى كان عند المريد تطلع إلى شيخ آخر لاتصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ولايستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه ، فإن المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته ، والمحبة والتألف هو الواسطة بين المريد والشيخ ، وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال ، لأن المحبة علامة التعارف ، والتعارف علامة الجنسية ، والجنسية جالبة للمريد حال الشيخ أو بعض حاله .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا أنس بن أسلم ، قال حدثنا عتبة بن رزين عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغى له أن لايخذله ولا يستأثر عليه ، فمن فعل ذلك فقد فصم عروة من عرى الإسلام » .

ومن الأدب : أن يراعى خطرات الشيخ فى جزئيات الأمور وكلياتها ، ولا يستحقر كراهة الشيخ ليسير حركاته معتمداً على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته .

قال إبراهيم بن شيبان : كنا نصحب أبا عبدالله المغربى ونحن شبان يسافر بنا فى البرارى والفلوات ، وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنة ، فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتغير عليه الشيخ نتشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان .

ومن أدب المريد مع الشيخ : أن لايستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ ، فإن الشيخ علمه أوسع وبابه

المفتوح إلى الله أكبر ؛ فإن كان واقعة المريد من الله تعالى يوافقه الشيخ ويمضيها له ، وما كان من عند الله لا يختلف. وإن كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ، ويكتسب المريد علما بصحة الوقائع والكشوف ، فالمريد لعله فى واقعته يخامره كون إرادة فى النفس فيتشبك كون الإرادة بالواقعة مناما كان ذلك أو يقظة ، ولهذا سر عجيب ، ولا يقوم المريد باستئصال شأفة الكامن فى النفس ، وإذا ذكره للشيخ فما فى المريد من كون إرادة النفس مفقود فى حق الشيخ ، فإن كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ ، وإن كان ينزع واقعته إلى كون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة المريد ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وصحة إيوائه إلى جناب الحق وكمال معرفته .

ومن الأدب مع الشيخ : أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ فى شىء من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه وقوله متفرغ ، وكما أن للدعاء أوقاتا وآدابا وشروطا لأنه مخاطبة الله تعالى ، فللقول مع الشيخ أيضا آداب وشروط ، لأنه من معاملة الله تعالى ، ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الأدب ؛ وقد نبه الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مخاطبته فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ﴾ يعنى أمام مناجاتكم . قال عبد الله بن عباس : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكثروا حتى شقوا عليه وأحفوه بالمسئلة ؛ فأدبهم الله تعالى وفطمهم عن ذلك وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة. وقيل. كان الأغنياء يأتون النبى عليه السلام ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره النبى عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة ، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته ؛ فأما أهل العسرة فلأنهم لم يجدوا شيئا، وأما أهل اليسرة فبخلوا ومنعوا ، فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ﴾ وقيل : لما أمر الله تعالى بالصدقة لم يناج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على بن أبى طالب ، فقدم دينارا فتصدق به . وقال على : فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال « ماترى فى الصدقة كم تكون ، دينارا ؟ » قال على : لا يطيقونه ، قال « كم ؟ » قال على : تكون حبة أو شعيرة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك لزهيد » ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية ، ومانبه الحق عليه بالأمر بالصدقة وما فيه من حسن الأدب وتقييد اللفظ والاحترام مانسخ ، والفائدة باقية .

أخبرنا الشيخ الثقه أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا أبو الفضل أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا مطلب بن شعيب ، قال حدثنا عبد الله بن صالح ، قال حدثنا ابن لهيعة عن أبى قبيل عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » فاحترام العلماء توفيق وهداية ، وإهمال ذلك خذلان وعقوق .

الباب الثانى والخمسون : فى آداب الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والتلامذة

أهم الآداب : أن لا يتعرض الصادق للتقدم على قوم ، ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام محبة للاستتباع ؛ فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه المريدين والمسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة ، يحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحانا من الله تعالى ، والنفوس مجبولة على محبة إقبال الخلق والشهرة ، وفى الخمول السلامة ؛ فإذا بلغ الكتاب أجله وتمكن العبد من حاله وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالإشارة والتعليم للمريدين ، فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه فى دينه ودنياه ، وكل مريد ومسترشد ساقه الله تعالى إليه يراجع الله تعالى فى معناه ويكثر اللجأ إليه أن يتولاه فيه وفى القول معه ، ولا يتكلم مع المريد بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به فى الهداية للصواب من القول .

سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردى رحمه الله يوصى بعض أصحابه ويقول : لا تكلم أحدا من الفقراء إلا فى أصفى أوقاتك ، وهذه وصية نافعة ، لأن الكلمة تقع فى سمع المريد كالحبة تقع فى الأرض ، وقد ذكرنا أن الحبة الفاسدة تهلك وتضيع ، وفساد حبة الكلام بالهوى ، وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم ، فعند الكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغى أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان ، وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند العبد ، فيكون ناظرا إلى الله مصغيا إليه متلقيا مايرد عليه مؤديا للأمانة فيه ، ثم ينبغى للشيخ أن يعتبر حال المريد ويتفرس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة مايتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده ؛ فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار ، ومن المريدين من يكون مستعدا صالحا للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية ، ولكل من الأبرار والمقربين مبادو نهايات فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن يعرف كل شخص ومايصلح له ، والعجب أن الصحراوى يعلم الأراضى والغروس ويعلم كل غرس وأرضه ، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها ، حتى المرأة تعلم قطنها ومايتأتى منه من الغزل ودقته وغلظه ، ولا يعلم الشيخ حال المريد ومايصلح له .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويأمر كل شخص بما يصلح له ؛ فمنهم من كان يأمره بالإنفاق ومنهم من أمره بالإمساك ، ومنهم من أمره بالكسب ، ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصفة ؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أوضاع الناس ومايصلح لكل واحد ، فأما فى رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة لأنه مبعوث لإثبات الحجة وإيضاح المحجة يدعو على الإطلاق ، ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره .

ومن أدب الشيخ : أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسعه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ، ولا تدعى نفسه قوة ظنا منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصليها ويدوم عليها وأوقات يخلو فيها ، فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة قل ذلك أو كثر لطف ذلك أو كثف وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب ، اتخذ ذلك رأس ماله واغتر بطيبة قلبه ، واسترسل فى الممازجة والمخالطة ، وجعل نفسه مناخا للبطالين بلقمة تؤكل عنده وبرفق يوجد منه ، فيقصده من ليس قصده الدين ولا بغيته سلوك طريق المتقين ، فافتتن وافتن ، وبقى فى خطة القصور ، ووقع فى دائرة الفتور ، فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى والتضرع بين يدى الله بقلبه إن لم يكن بقالبه وقلبه ، فيكون له فى كل كلمة إلى الله الرجوع ، وفى كل حركة بين يدى الله خضوع ، وإنما دخلت الفتنة على المغرورين المدعين للقوة والاسترسال فى الكلام والمخالطة ، لقلة معرفتهم صفات النفس واغترارهم بيسير من الموهبة وقلة تأدبهم بالشيوخ .

كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه : لو علمت أن صلاة ركعتين لى أفضل من جلوسى معكم ماجلست عندكم ، فإذا رأى الفضل فى الخلوة يخلو ، وإذا رأى الفضل فى الجلوة يجلس مع الأصحاب ، فتكون جلوته فى حماية خلوته ، وجلوته مزيدا لخلوته . وفى هذا سر : وذلك أن الآدمى ذو تركيب مختلف ، فيه تضاد وتغاير على ما أسلفنا من كونه مترددا بين السفلى والعلوى ، ولما فيه من التغاير له حظ من الفتور عن الصبر على صرف الحق ، ولهذا كان لكل عامل فترة والفترة قد تكون تارة فى صورة العمل وتارة فى عدم الروح فى العمل وإن لم تكن فى صورة العمل ، فى وقت الفترة المريدين والسالكين تضييع واسترواح للنفس وركون إلى البطالة ، فمن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسم فترته إلى الخلق فأفلح الخلق بقسم فترته ، وماضاع قسم فترته كضياعه فى حق المريدين ، فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإقبال على الله ، والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته ويعود إلى أوطان خلوته وعاص حالة بنفس مشرئبة ، أكثر من عود الفقير بحدة إرادته من فترته ، فيعود من الخلق إلى الخلوة منتزع الفتور ، بقلب متعطش وافر النور ، وروح متخلصة عن مضيق مطالعة الأغيار ، قادمة بحدة شغفها إلى دار القرار .

ومن وظيفة الشيخ : حسن خلقه مع أهل الإرادة والطلب ، والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم

للمشايخ واستعماله التواضع .

حكى الرقى قال : كنت بمصر وكنا فى المسجد جماعة من الفقراء جلوسا ، فدخل الزقاق فقام عندا سطوانة يركع ، فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلم عليه ، فلما فرغ جاء إلينا وسلم علينا ، فقلنا : نحن كنا أولى بهذا من الشيخ ، فقال : ماعذب الله قلبى بهذا قط ، يعنى ماتقيدت بأن أحترم وأقصد .

ومن آداب الشيوخ : النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم . قال بعضهم : إذا رأيت الفقير فألقه بالرفق ولاتلقه بالعلم ، فإن الرفق يؤنسه والعلم يوحشه ، فإذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد ببركة ذلك إلى الانتفاع بالعلم فيعامل حينئذ بصريح العلم .

ومن آداب الشيوخ : التعطف على الأصحاب وقضاء حقوقهم فى الصحة والمرض ، ولايترك حقوقهم اعتمادا على إرادتهم وصدقهم . قال بعضهم : لاتضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة .

وحكى عن الجريرى قال : وافيت من الحج فابتدأت بالجنيد وسلمت عليه وقلت حتى لايتعنى ، ثم أتيت منزلى ، فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجنيد خلفى ؛ فقلت : ياسيدى إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى إلى ههنا ، فقال لى : ياأبا محمد ، هذا حقك ، وذاك فضلك .

ومن آداب الشيوخ : أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفا فى مراغمة النفس وقهر هوا اعتماد صدق العزيمة : أن يرفقوا به ويوقفوه على حد الرخصة ، ففى ذلك خير كثير ، وما دام العبد لايتخطى حريم الرخصة فهو حر ، ثم إذا ثبت وخالط الفقراء وتدرب فى لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة .

قال أبو سعيد بن الأعرابى : كان شاب يعرف بإبراهيم الصائغ ، وكان لأبيه نعمة ، فانقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلانسى ، فربما كان يقع بيد أبى أحمد شىء من الدراهم فكان يشترى له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول : هذا خرج من الدنيا وقد تعود النعمة ، فيجب أن نرفق به ونؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ : التنزه عن مال المريد وخدمته والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه ، لأنه بجاءالله تعالى ، فيجعل نفعه وإرشاده خالصاً لوجه الله تعالى ، فما يسدى الشيخ للمريد من أفضل الصدقات . وقد ورد « ما تصدق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثه فى الناس » وقد قال الله تعالى تأديباً على خلوص ماللهوحراسته من الشوائب ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا ﴾ فلا ينبغى للشيخ أن يطلب على صدقته جزاء إلا أن يظهر له فى شىء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى فى قبول الرفق منه ، أو صلاح يتراءى للشيخ فى حق المريد بذلك ، فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد مأمونة الغائلة من جانب الشيخ : قال الله تعالى ﴿ يؤتكم أجوركم ولايسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾ معنى يحفكم : أى يجهدكم ويلح عليكم قال قتادة : علم الله تعالى أن فى خروج المال إخراج الأضغان ، وهذا تأديب من الله الكريم والأدب أدب الله

قال جعفر الخلدى : جاء رجل إلى الجنيد وأراد أن يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر ، فقال له الجنيد : لاتخرج من ماله كله احبس منه مقدار مايكفيك ، وأخرج الفضل ، وتقوت بما حبست ، واجتهد فى طلب الحلال لاتخرج كل ماعندك فلست آمن عليك أن تطالبك نفسك .

وكان النبى عليه السلام إذا أراد أن يعمل عملا تثبت ، وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشىء بكسبه من الحال مالايتطلع به إلى المال ، فحينئذ يجوز له أن يفسح للمريد فى الخروج من المال ، كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيخ : إذا رأى من بعض المريدين مكروها ، أوعلم من حاله اعوجاجا ، أوأحس منه بدعوى ، أو رأى أنه داخله عجب : أن لايصرح له بالمكروه ، بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذى يعلم ، ويكشف عن وجه المذمة مجملا فتحصل بذلك الفائدة للكل ، فهذا أقرب إلى المداراة وأكثر أثرا لتألف القلوب ، وإذا رأى

من المريد تقصيراً فى خدمة ندبه إليها : يحمل تقصيره ويعفو عنه ويعرضه على الخدمة بالرفق واللين ، وإلى ذلك ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال : أخبرنا أبو الفتح الكروخى قراءة عليه ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا رشد بن سعد عن أبى هلال الخولانى عن ابن عباس بن جليد الحجرى عن عبد الله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبى عليه السلام فقال : يارسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟ قال « كل يوم سبعين مرة » .

وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم أحق الناس بإحياء سنته فى كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب .

ومن جملة مهام الآداب : حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون به ويمنحون من أنواع المنح ، فسر المريد لايتعدى ربه وشيخه ، ثم لايحقر الشيخ فى نفس المريد مايجده فى خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شىء من خوارق العادات ويعرّفه أن الوقوف مع شىء من هذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد ، بل يعرفه أن هذه نعمة تشكر ومن ورائها نعم لاتحصى ، ويعرفه أن شأن المريد طلب المنعم لا النعمة حتى يبقى سره محفوظاً عند نفسه وعند شيخه ، ولا يذيع سره ، فإذاعة الأسرار من ضيق الصدر ، وضيق الصدر الموجب لإذاعة السر يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال ، وسبب إذاعة السر أن للإنسان قوتين آخذه ومعطية ، وكلتاهما تتشوف إلى الفعل المختص بها ولولا أن الله تعالى وكل المعطية بإظهار ماعندها ماظهرت الأسرار ؛ فكامل العقل كلما طلبت القوة الفعل قيدها ووزنها بالعقل حتى يضعها فى مواضعها ، فيجل حال الشيوخ عن إذاعة الأسرار لرزانة عقولهم .

وينبغى للمريد أن يحفظ سره من بثه ، فنى ذلك صحته وسلامته وتأييد الله سبحانه وتعالى له بتدارك المريدين الصادقين فى موردهم ومصدرهم .

الباب الثالث والخمسون : فى حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر

المقتضى للصحبة وجود الجنسية ، وقد يدعو إليها أعم الأوصاف ، وقد يدعو إليها أخص الأوصاف ، فالدعاء بأعم الأوصاف : كميل جنس البشر بعضهم إلى بعض ، والدعاء بأخص الأوصاف كميل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض ، ثم أخص من ذلك كميل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض ، وكميل أهل المعصية بعضهم إلى بعض ، فإذا علم هذا الأصل وأن الجاذب إلى الصحبة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى ، فليتفقد الإنسان نفسه عند الميل إلى صحبة شخص ، ولينظر ما الذى يميل به إلى صحبته ؟ ويزن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع ، فإن رأى أحواله مسددة فليبشر نفسه بحسن الحال ، فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له فى مرآة أخيه جمال حسن الحال ، وإن رأى أفعاله غير مسددة فيرجع إلى نفسه بالملائمة والاتهام ، فقد لاح له فى مرآة أخيه سوء حاله ، فبالجدير أن يفر منه كفراره من الأسد ، فإنهما إذا اصطحبا ازدادا ظلمة واعوجاجا ، ثم إذا علم من صاحبه الذى مال إليه حسن الحال وحكم لنفسه بحسن الحال طالع ذلك فى مرآة أخيه ، فليعلم أن الميل بالوصف الأعم مركوز فى جبلته ، والميل بطريقه واقع ، وله بحسبه أحكام ، وللنفس بسببه سكون وركون ، فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأخص ، ويصير بين المتصاحبين استرواحات طبيعية وتلذذات جبلية لايفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون ، وقد ينفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد ، ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذره ، وأهل الصلاح غره صلاحهم فمال إليهم بجنسية الصلاحية ، ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين حقيقة الصحبة لله ، فاكتسب من طريقهم الفتور فى الطلب والتخلف عن بلوغ الأرب ، فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة وليأخذ من الصحبة أصفى الأقسام ويذر منها مايسدى وجه المرام قال بعضهم هل رأيت شرا قط إلامن

تعرف ؛ ولهذا المعنى أنكر طائفة من السلف الصحبة ورأوا الفضيلة في العزلة والوحدة كإبراهيم بن أدهم وداود الطائى وفضيل بن عياض وسليمان الخواص ، وحكى عنه أنه قيل له : جاء إبراهيم بن أدهم أما تلقاه ؟ قال : لأن ألقى سبعا ضاريا أحب إلى من أن ألقى إبراهيم بن أدهم ، قال : لأنى إذا رأيته أحسن له كلامى وأظهر نفسى بإظهار أحسن أحوالها ، وفى ذلك الفتنة ، وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها ، وهذا واقع بين المتصاحبين إلا من عصمه الله تعالى .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة ، قال أخبرنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد ، قال أخبرنا أبو القاسم إسمعيل بن مسعدة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد ، قال أخبرنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابى ، قال أخبرنا محمد بن بكر بن عبد الرازق ، قال حدثنا سليمان بن الأشعث ، قال حدثنا عبدالله بن مسلمة عن مالك عن عبدالرحمن بن أبى صعصعة عن أبيه أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن » قال الله تعالى إخبارا عن خليله إبراهيم ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ﴾ استظهر بالعزلة على قومه . قيل : العزلة نوعان : فريضة وفضيلة ، فالفريضة العزلة عن الشر وأهله ، والفضيلة عزلة الفضول وأهله . ويجوز أن يقال : الخلوة غير العزلة ؛ فالخلوة من الأغيار ، والعزلة من النفس وما تدعو إليه وما يشغل عن الله ، فالخلوة كثيرة الوجود ، والعزلة قليلة الوجود .

قال أبو بكر الوراق : ماظهرت الفتنة إلا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا ، وما سلم إلا من جانب الخلطة . وقيل السلامة عشرة أجزاء ، تسعة فى الصمت ، وواحد فى العزلة وقيل : الخلوة أصل . والخلطة عارض فليلزم الأصل ، ولا يخالط إلا بقدر الحاجة ، وإذا خالط لايخالط إلا بحجة ، وإذا خالط يلازم الصمت ، فإنه أصل والكلام عارض ، ولا يتكلم إلا بحجة ، فخطر الصحبة كثير يحتاج العبد فيه إلى مزيد علم ، والأخبار والآثار فى التحذير عن الخلطة والصحبة كثيرة ، والكتب بها مشحونة وأجمع الأخبار فى ذلك : ماأخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح بإسناده السابق إلى أبى سليمان ، قال حدثنا مسلم بن سليمان النجاد ، قال حدثنا محمد بن يونس الكريمى ، قال حدثنا محمد بن منصور الجشمى ، قال حدثنا مسلم بن سالم ، قال حدثنا السرى بن يحيى عن الحسن عن أبى الأحوص عن عبد الله ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليأتين على الناس زمان لايسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذى يروغ » ، قالوا : ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال : « إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصى الله ، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة » ، قالوا : وكيف ذلك يارسول الله وقد أمرنا بالتزوج ؟ قال « إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه ، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده ، فإن لم يكن له زوجة ولاولد فعلى يد قرابته » قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال « يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف مالا يطيق حتى يورده موارد الهلكة » .

وقد رغب جمع من السلف فى الصحبة والأخوة فى الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا ، فقال سبحانه وتعالى ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ وقد اختار الصحبة والأخوة فى الله تعالى سعيد بن المسيب وعبدالله بن المبارك وغيرهما .

وفائدة الصحبة : أنها تفتح مسام الباطن ، ويكتسب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ، ويتصلب الباطن برزين العلم ، يتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ، ثم التخلص منها بالإيمان ، ويقع بطريق الصحبة والأخوة والتعاضد والتعاون ، وتتقوى جنود القلب ، وتستريح الأرواح بالتشام ، وتتفق فى التوجه إلى الرفيق الأعلى ، ويصير مثالها فى الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام ، وإذا تفردت قصرت عن بلوغ المرام .

ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن كثير بأخيه » .

وقال تعالى مخبراً عمن لاصديق له ﴿ فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم ﴾ والحميم فى الأصل الهميم ، إلا أنه أبدلت الهاء بالحاء لقرب مخرجها ، إذ هما من حروف الحلق . والهميم : مأخوذ من الاهتمام : أى يهتم بأمر أخيه، فالاهتمام بهم الصديق حقيقة الصداقة .

وقال عمر : إذا رأى أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك . وقد قال القائل :

وإذا صفا لك من زمانك واحد ۞ فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال : ياداود ، مالى أراك منتبذاً وحدك ؟ قال : إلهى ، قليت الخلق من أجلك . فأوحى الله إليه : ياداود ، كن يقظانا مرتادا لنفسك إخوانا وكل خدن لايوافق على مسرتى فلا تصحبه فإنه عدوّ يقسى قلبك ويباعدك منى .

وقد ورد فى الخبر « إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون فالمؤمن آلف مألوف » وفى هذا دقيقة : وهى أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون آلفا مألوفا ، فإن هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق الجبلى ، وهذا الخلق يكمل فى كل من كان أتم معرفة ويقينا وأوزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا ، وكان أوفر الناس حظا من هذا الوصف : الأنبياء ثم الأولياء ، وأتم الجميع فى هذا : نبينا صلوات الله عليه، وكل من كان من الأنبياء أتم ألفة كان أكثر تبعا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعا ، وقال « تناكحوا تكثروا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وإنما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ، ومن كان هذا الوصف فيه أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر فى الابتداء ، ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلوة فى أول أمره ، وكان يخلو فى غار حراء ، ويتحنث الليالى ذوات العدد ، وطلب العزلة لايسلب وصف كونه آلفا مألوفا ، وقد غلط فى هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلبا لهذه الفضيلة ، وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ما أسلفنا فى أولى الألباب : أن فى الإنسان ميلا إلى الجنس بالوصف الأعم ، فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل إلى الوصف الأعم لترتق الهمم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح؛ فإذا وفوا التصفية حقها اشرأبت الأرواح إلى جنسها بالتآلف الأصلى الأولى ، وأعادها الله تعالى إلى الخلق وخالطتهم مصفاة ، واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح ، وظهرت صفة الجبلة من الألفة المكملة آلفة مألوفة ، فصارت الألفة مع أهم الأمور عندمن يألف فيؤلف . ومن أدل الدليل على أن الذى اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذى غلط فى ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة ، فصارت العزلة مرغوبا فيها فى وقتها ، والصحبة مرغوبا فيها فى وقتها . قال : محمد بن الحنفية رحمه الله : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لايجد فى معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا .

وكان بشر بن الحارث يقول : إذا قصر العبد فى طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه ، فالأنيس يهبه الله للصادقين رفقا من الله تعالى وثوابا للعبد معجلا ، والأنيس قد يكون مفيداً كالمشايخ وقد يكون مستفيداً كالمريدين ، فصحيح الخلوة والعزلة لايترك من غير أنيس ، فإن كان قاصرا يؤنسه الله بمن يتمم حاله به ، وإن كان غير قاصر يقيض الله تعالى من يؤنسه من المريدين ، وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعم بل هو بالله ومن الله وفى الله .

وروى عبدالله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المتحابون فى الله على عمود من ياقوتة حمراء ، فى رأس العمود سبعون ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضىء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس لأهل الدنيا ، فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين فى الله عز وجل ، فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس لأهل الدنيا ، عليهم ثياب سندس خضر ، مكتوب على جباههم : هؤلاء المتحابون فى الله عز وجل » وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ : إنى أحبك فى الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ، وجوههم كالقمر ليلة البدر : يفزع الناس ولا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ قال : المتحابون فى الله عز وجل » .

وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله عز وجل : حقت محبتى للمتحابين فىّ والمتزاورين فىّ والمتباذلين فىّ والمتصادقين فىّ » .

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة ، قال أخبرنا أحمد بن الحسين بن خيرون ، قال أخبرنا أبو عبدالله أحمد بن عبد الله المحاملى ، قال أخبرنا أبو القاسم عمر بن جعفر بن محمد بن سلام ، قال أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن إسحق الحربى ، قال حدثنا حماد عن يحيي بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة ؟ » قالوا : وماهو ؟ قال « إصلاح ذات البين ، وإياكم والبغضة فإنها هى الحالقة » وبإسناد إبراهيم الحربى عن عبيدالله بن عمر عن أبى أسامة عن عبدالله بن الوليد عن عمران بن رباح قال : سمعت أبامسلم يقول : سمعت أباهريرة يقول الخبر ؛ وفى الخبر تحذير عن البغضة : وهو أن يجفوا المختلى الناس مقتاً لهم وسوء ظن بهم ، وهذا خطأ ، وإنما يريد أن يخلو مقتاً لنفسه وعلماً بما فى نفسه من الآفات ، وحذرا على نفسه من نفسه ، وعلى الخلق أن يعود عليهم من شره ؛ فمن كانت خلوته بهذا الوصف لايدخل تحت هذا الوعيد ، والإشارة بالحالقة ، يعنى أن البغضة حالقة للدين . لأنه نظر إلى المؤمنين والمسلمين بعين المقت .

وأخبرنا الشيخ أبو الفتح بإسناده إلى إبراهيم الحربى ، قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان وقال : إن لله تعالى ملكا نصفه من نار ونصفه من ثلج ، وإن من دعائه اللهم فكما ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج ، ألف بين قلوب عبادك الصالحين .

وكيف لاتتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقته العزيز بقاب قوسين فى وقت لايسعه فيه شىء للطف حال الصالحين وجدهم فى ذلك المقام العزيز وقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ فهم يجتمعون وإن كانوا متفرقين ، وصحبتهم لازمة ، وعزيمتهم فى التواصل فى الدنيا والآخرة جازمة .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو أن رجلا صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب فى الله ولم يبغض فيه مانفعه ذلك .

أخبرنا رضى الدين أحمد بن إسماعيل بن يوسف إجازة إن لم يكن سماعا ، قال أخبرنا أبو المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى قال : سمعت أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت عبدالله بن المعلم يقول : سمعت أبابكر التلمسانى يقول : اصحبوا مع الله ، فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله ، لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله .

وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة . قال أخبرنا عمر بن أحمد الصفار النيسابورى إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبدالرحمن السلمى ، قال سمعت أبا نصر الأصفهانى يقول : سمعت أباجعفر الحداد يقول . سمعت على بن سهل يقول : الأنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله ؛ فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله .

وقد نبه القائل نظما على حقيقة جامعة لمعانى الصحبة والخلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله :

وحـــدة الإنسان خير ٭ من جليس السوء عنده
وجليس الخـــير خـير ٭ من قعود المرء وحده

الباب الرابع والخمسون : فى أداء حقوق الصحبة والأخوة فى الله تعـالى

قال الله تعالى ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ وقال تعالى ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالمرحمة﴾ وقال فى وصف أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة ؛ فمن اختار صحبة أو أخوة فأدبه فى أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والدعاء والتضرع ويسأل البركة فى الصحبة ، فإنه يفتح على نفسه بذلك إما باباً من أبواب الجنة وإما باباً من أبواب النار ؛ فإن كان الله تعالى يفتح بينهما خيراً فهو باب من أبواب الجنة ، قال الله تعالى ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ وقيل: إن أحد الأخوين فى الله تعالى يقال له : ادخل الجنة ، فيسأل عن منزل أخيه ، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله ، فإن قيل له : لم يكن يعمل مثل عملك ، فيقول : إنى كنت أعمل لى وله ، فيعطى جميع مايسأل لأخيه ، ويرفع أخوه إلى درجته . وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحبة شرا ، فهو باب من أبواب النار ، قال الله تعالى ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ﴾ وإن كانت الآية وردت فى قصة مشهورة ، ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله واختيار الصحبة والأخوة اتفاقا من غير نية فى ذلك ، وتثبت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار .

وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى كلام له : وهل يفسد الناس إلا الناس ؛ فالفساد بالصحبة متوقع ، والصلاح متوقع ، وماهذه سبيله كيف لايحذر فى أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار وسؤال البركة والخيرة فى ذلك وتقديم صلاة الاستخارة .

ثم إن اختيار الصحبة والأخوة عمل ، وكل عمل يحتاج إلى النية وإلى حسن الخاتمة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام فى الخبر الطويل « سبعة يظلهم الله تعالى . . فمنهم : اثنان تحابا فى الله فعاشا على ذلك وماتا عليه » إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة ، ومتى أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الأول .

قيل : ما حسد الشيطان متعاونين على بر حسده متآخيين فى الله متحابين فيه ، فإنه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد مابينهما .

وكان الفضيل يقول : إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة ، والأخوة فى الله تعالى مواجهة ، قال الله ﴿ إخوانا على سرر متقابلين ﴾ ومتى أضمر أحدهما للآخر سوءا أو كره منه شيئا ولم ينبه عليه حتى يزيله أو يتسبب إلى إزالته منه فما واجهه ، بل استدبره .

قال الجنيد رحمه الله : ما تواخى اثنان فى الله واستوحش أحدهما إلا لعلة فى أحدهما .

فالمؤاخاة فى الله أصفى من الماء الزلال ، وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه وكل ماصفا دام ، والأصل فى دوام صفائه عدم المخالفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتمار أخاك ولا تمازحه ولاتعده موعدا فتخلفه » .

قال أبو سعيد الخراز : صحبت الصوفية خمسين سنة ماوقع بينى وبينهم خلاف . فقيل له . وكيف ذلك ؟ قال : لأنى كنت معهم على نفسى .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى إجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد الصفار ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى قال : سمعت عبد الله الدارانى قال : سمعت أباعمرو الدمشقى الرازى يقول سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول وقد سأله رجل : على أى شرط أصحب الخلق ؟ فقال : إن لم تبرهم فلا تؤذهم ، وإن لم تسرهم فلا تسوءهم .

وبهذا الإسناد قال أبو عبد الله . لاتضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة ، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقا لم يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه .

ومن حقوق الصحبة : أنه إذا وقع فرقة ومباينة لايذكر أخاه إلا بخير .

وقيل : كان لبعضهم زوجة وكان يعلم منها مايكره ، فكان يقال له استخبارا عن حالها فيقول : لاينبغى للرجل أن

يقول فى أهله إلا خيرا ، ففارقها وطلقها ، فاستخبر عن ذلك فقال : امرأة بعدت عنى وليست منى فى شىء كيف أذكرها ؟ وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى أنه سبحانه يظهر الجميل ويستر القبيح .

وإذا وجد من أحدهما مايوجب التقاطع فهل يبغضه أولا ؟ اختلف القول فى ذلك ، كان أبو ذر يقول : إذا انقلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحببته . وقال غيره لايبغض الأخ بعد الصحبة ولكن يبغض عمله ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون﴾ ولم يقل إنى برىء منكم . وقيل : كان شاب يلازم مجالس أبى الدرداء وكان أبو الدرداء يميزه على غيره ، فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر وانتهى إلى أبى الدرداء ما كان منه ، فقيل له : لو أبعدته وهجرته ! فقال : سبحان الله لايترك الصاحب بشىء كان منه .

قيل : الصداقة لحمة كلحمة النسب . وقيل لحكيم مرة : أيما أحب إليك ، أخوك أو صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقى ، وهذا الخلاف فى المفارقة ظاهراً أو باطناً ، وأما الملازمة باطناً إذا وقعت المباينة ظاهراً فتختلف باختلاف الأشخاص ، ولا يطلق القول فيه إطلاقاً من غير تفصيل ، فمن الناس من كان تغيره رجوعاً عن الله وظهور حكم سوء السابقة ، فيجب بغضه وموافقة الحق فيه . ومن الناس من كان تغيره عثرة حدثت وفترة وقعت يرجى عوده فلا ينبغى أن يبغض ولكن يبغض عمله فى الحالة الحاضرة ، ويلحظ بعين الود منتظرا له الفرج والعود إلى أوطان الصلاح ، فقد ورد : أن النبى عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذى أتى بفاحشة قال « مه » وزجرهم بقوله «ولا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم» .

وقال إبراهيم النخعى . لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه ، فإنه يركبه اليوم ويتركه غداً .

وفى الخبر «اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته» .

وروى أن عمر رضى الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام ، فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال : مافعل أخى ؟ فقال له : ذاك أخو الشيطان . قال له : مه ، قال له : إنه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمر ، فقال . إذا أردت الخروج فآذنى ، قال فكتب إليه ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ ثم عاتبه تحت ذلك وعذله ، فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر ، فتاب ورجع .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت يمينا وشمالا فسأله فقال : يارسول الله ، أحببت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه ، فقال . ياعبدالله ، إذا أحببت أحداً فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله ، فإن كان مريضا عدته ، وإن كان مشغولا أعنته » .

وكان يقول ابن عباس رضى الله عنهما : مااختلف رجل إلى مجلسى ثلاثا من غير حاجة تكون له فعلمت مامكافأته فى الدنيا .

وكان يقول سعيد بن العاص . لجليسى علىّ ثلاث : إذا دنا رحبت به ، وإذا حدث أقبلت عليه ، وإذا جلس أوسعت له .

وعلامة خلوص المحبة لله تعالى : أن لايكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان ، فإن ما كان معلولا يزول بزوال علته ، ومن لايستند فى خلته إلى علة يحكم بدوام خلته .

ومن شرط الحب فى الله إيثار الأخ بكل مايقدر عليه من أمر الدين والدنيا . قال الله تعالى ﴿يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة﴾ فقوله تعالى ﴿لايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أى لايحسدون إخوانهم على مالهم ، وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة ، أحدهما انتزاع الحسد على شىء من أمر الدين والدنيا . والثانى : الإيثار بالمقدور . وفى الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام «المرء على دين خليله ولا خير لك فى صحبة من لايرى لك مثل مايرى لنفسه» .

وكان يقول أبو معاوية الأسود : إخوانى كلهم خير منى . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كلهم يرى لى الفضل عليه ، ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى .

ولبعضهم نظا : تذلل لمن إن تذللت له يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لم يزل على الأصدقاء يرى الفضل له

الباب الخامس والخمسون : فى آداب الصحبة والأخوة

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء فى الصحبة . فقال : حفظ حرمات المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة للأصاغر ، وترك صحبة من ليس فى طبقتهم ، وملازمة الإيثار ، ومجانبة الادخار ، والمساواة فى أمر الدين والدنيا .

فن أدبهم : التغافل عن زلل الإخوان ، والنصح فيما يجب فيه النصيحة ، وكتم عيب صاحبه ، وإطلاعه على عيب يعلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى . وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص من ينبهه على عيوبه . قال جعفر بن برقان . قال لى ميمون بن مهران : قل لى فى وجهى ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه مايكرهه ، فإن الصادق يحب من يصدقه ، والكاذب لايحب الناصح . قال الله تعالى : ﴿ولكن لاتحبون الناصحين﴾ والنصيحة ماكانت فى السر .

ومن آداب الصوفية : القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم ، فبذلك يظهر جوهر الفقير . وروى أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان فى دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة ، فقال له العباس : قلعت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بيده ، فقال : إذن لا يرده إلى مكانه غير يدك ، ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر ، فأقامه على عاتقه ورده إلى موضعه .

ومن أدبهم : أن لايرون لنفسهم ملكا يختصون به ، قال إبراهيم بن شيبان : كنا لانصحب من يقول لعلى .

أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبى المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى قال : سمعت أباحاتم الصوفى قال : سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك . وقال أحمد بن القلانسى : دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فأكرمونى وبجلونى فقلت يوما لبعضهم : أين إزارى ؟ فسقطت من أعينهم .

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه إنسان شارطه على ثلاثة أشياء : أن تكون الخدمة والأذان له ، وأن تكون يده فى جميع مايفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من أصحابه : أنا لاأقدر على هذا . فقال : أعجبنى صدقك وكان إبراهيم بن أدهم ينظر البساتين ويعمل فى الحصاد وينفق على أصحابه .

وكان من أخلاق السلف : أن كل من احتاج إلى شىء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة . قال الله تعالى ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أى مشاع فيه سواء .

ومن أدبهم أنهم إذا استثقلوا صاحبا يتهمون أنفسهم ويتسببون فى إزالة ذلك من بواطنهم ، لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للصاحب وليجة فى الصحبة .

قال أبو بكر الكتانى : صحبنى رجل وكان على قلبى ثقيلا ، فوهبت له شيئا بنية أن يزول ثقله من قلبى ، فلم يزل ، فخلوت به يوما وقلت له : ضع رجلك على خـــدى ، فأبى ، فقلت له : لا بد من ذلك ، ففعل ذلك فزال ما كنت أجده فى باطنى .

قال الرقى : قصدت من الشام إلى الحجاز حتى سألت الكتانى عن هذه الحكاية .

ومن أدبهم : تقديم من يعرفون فضله والتوسعة له فى المجلس والإيثار بالموضع روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا فى صفة ضيقة ، فجاءه قوم من البدريين ، فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم ، فاشتد ذلك عليهم فأنزل الله تعالى ﴿وإذا قيل انشزوا

فانشزوا ... الآية ﴾

وحكى أن علي بن بندار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائراً فتماشيا ، فقال له أبو عبد الله : تقدم ، فقال : بأي عذر ؟ فقال : بأنك لقيت الجنيد وما لقيته :

ومن أدبهم : ترك صحبة من همه شيء من فضول الدنيا : قال الله تعالى ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ .

ومن أدبهم : بذل الإنصاف للإخوان وترك مطالبة الإنصاف : قال أبو عثمان الحيري : حق الصحبة أن توسع على أخيك من مالك ولا تطمع في ماله ، وتنصفه من نفسك ولا تطلب منه الإنصاف ، وتكون تبعا له ولا تطمع أن يكون تبعا لك وتستكثر ما يصل إليك منه وتستقل ما يصل إليه منك .

ومن أدبهم في الصحبة : لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة : قال أبو علي الروذباري : الصولة على من فوقك قحة ، وعلى من مثلك سوء أدب ، وعلى من دونك عجز .

ومن أدبهم : أن لا يجري في كلامهم : لو كان كذا لم يكن كذا وليت كان كذا وعسى ان يكون كذا ، فإنهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضا .

ومن أدبهم في الصحبة : حذر المفارقة والحرص على الملازمة ، قيل : صحب رجل رجلا ثم أراد المفارقة ، فاستأذن صاحبه فقال : بشرط أن لا تصحب أحدا إلا إذا كان فوقنا ، وإن كان فوقنا أيضا فلا تصحب لأنك صحبتنا أولا ، فقال الرجل : زال عن قلبي نية المفارقة .

ومن أدبهم : التعطف على الأصاغر . قيل : كان إبراهيم بن أدهم يعمل في الحصاد ويطعم الأصحاب ، وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل ؛ فقالوا ليلة : تعالوا نأكل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع ؛ فأفطروا وناموا ، فرجع إبراهيم فوجدهم نياما ، فقال : مساكين لعلهم لم يكن لهم طعام ، فعمد إلى شيء من الدقيق فعجنه ، فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعا محاسنه على التراب ، فقالوا له في ذلك فقال : قلت لعلكم لم تجدوا فطورا فنمتم ، فقالوا : انظروا بأي شيء عاملناه وبأي شيء يعاملنا .

ومن أدبهم : أن لا يقولوا عند الدعاء إلى أين ؟ ولم ؟ ولأي سبب ؟ قال بعض العلماء : إذا قال الرجل لصاحب : قم بنا ، فقال : إلى أين ؟ فلا تصحبه ؛ وقال آخر : من قال لأخيه أعطني من مالك فقال : كم تريد ؟ ما قام بحق الإخاء وقد قال الشاعر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

ومن أدبهم : أن لا يتكلفوا للإخوان قيل لما ورد أبو حفص العراق تكلف له الجنيد أنواعا من الأطعمة ؛ فأنكر ذلك أبو حفص وقال : صير أصحابي مثل المخانيث يقدم لهم الألوان .

والفتوة عندنا ترك التكلف وإحضار ما حضر ؛ فإن التكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف ، وبترك التكلف يستوي مقامه وذهابه .

ومن أدبهم في الصحبة : المداراة وترك المداهنة ، وتشبه المداراة المداهنة والفرق بينهما : أن المداراة ما أردت به صلاح أخيك فداريته لرجاء صلاحه واحتملت منه ما تكره . والمداهنة : ما قصدت به شيئا من الهوى من حظ أو إقامة جاه .

ومن أدبهم في الصحبة : رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط : نقل عن الشافعي رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم ، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط .

ومن أدبهم : ستر عورات الإخوان : قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما فكشف الريح عنه ثوبه ؟ قالوا : نستره ونغطيه ، فقال : بل تكشفون عورته قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟ قال : أحدكم يسمع في أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها .

ومن أدبهم : الاستغفار للإخوان بظهر الغيب ، والاهتمام لهم مع الله تعالى في دفع المكاره عنهم .

حكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه فقال : إنى ابتليت بهوى فإن شئت أن لا تعقد على محبتى لله فافعل ، فقال : ما كنت لأحل عقد إخائك لأجل خطيئتك ، وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه ، وطوى أربعين يوما كلما يسأله عن هواه ، يقول : مازال ، فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال ، فأكل وشرب .

ومن أدبهم : أن لا يحوجوا صاحبهم إلى المداراة ولا يلجئوه إلى الاعتذار ولا يتكلفوا للصاحب ما يشق عليه ، بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد الصاحب على مراد أنفسهم . قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : شر الأصدقاء من أحوجك إلى مداراة أو ألجأك إلى اعتذار أو تكلفت له .

وقال جعفر الصادق : أثقل إخوانى على من يتكلف لى وأتحفظ منه وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى ؛ فآداب الصحبة وحقوق الأخوة كثيرة ، والحكايات فى ذلك يطول نقلها . وقد رأيت فى كتاب الشيخ أبى طالب المكى رحمه الله من الحكايات فى هذا المعنى شيئا كثيرا ، فقد أودع كتابه كل شىء حسن من ذلك وحاصل الجميع : أن العبد ينبغى له أن يكون لمولاه ويريد كل ما يريد لمولاه لا لنفسه ، وإذا صاحب شخصا تكون صحبته إياه لله تعالى ، وإذا صحبه لله تعالى يجتهد له فى كل شىء يزيده عند الله زلفى ، وكل من قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها ، ويعرّفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب ، ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة ويفقهه فى ذلك كله ، ولا يفوته شىء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق ، وفيما يرجع إلى حقوق الخلق ، فكل تقصير يوجد من خبث النفس وعدم تزكيتها وبقاء صفاتها عليه ، فإن صحبت ظلمت بالإفراط تارة وبالتفريط أخرى ، وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق ، والحكايات والمواعظ والآداب وسماعها لا يعمل فى النفس زيادة تأثير ، ويكون كبئر يقلب فيه الماء من فوق فلا يمكث فيه ولا ينتفع به ، وإذا أخذت بالتقوى والزهد فى الدنيا نبع منها ماء الحياء وتفقهت وعلمت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتوفيق الله سبحانه وتعالى .

الباب السادس والخمسون : فى معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى ، قال أخبرنا الشريف نور الهدى أبو طالب الزينى ، قال أخبرنا كريمة المروزية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشميهنى قال أخبرنا أبو عبد الله الفربرى ، قال أخبرنا أبو عبد الله البخارى ، قال حدثنا عمر بن حفص ، قال حدثنا أبى ، قال حدثنا الأعمش ، قال حدثنا زيد بن وهب ، قال حدثنا عبد الله ، قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله تعالى إليه ملكا بأربع كلمات ، فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار » .

وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾ أى حريز لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها ، ثم قال بعد ذكر تقلباته ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ قيل هذا الإنشاء نفخ الروح فيه .

واعلم أن الكلام فى الروح صعب المرام والإمساك عن ذلك سبيل ذوى الأحلام ، وقد عظم الله تعالى شأن الروح وأسجل على الخلق بقلة العلم حيث قال ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ وقد أخبرنا الله تعالى فى كلامه عن إكرامه بنى آدم فقال ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ وروى : أنه لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة : يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال : وعزتى وجلالى لا أجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان . فمع هذه الكرامة واختياره سبحانه وتعالى إيام على الملائكة لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة

العلم ، ، وقال ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ... الآية﴾ قال ابن عباس : قالت اليهود للنبي عليه السلام : أخبرنا ما الروح ؟ وكيف تعذب الروح التى فى الجسد ؟ وإنما الروح من أمر الله ولم يكن نزل إليه فيه شيء ، فلم يجبهم ، فأتاه جبرائيل بهذه الآية ، وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالى ووحيه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة ، فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه لا جرم لما تقاضت الأنفس الإنسانية المتطلعة إلى الفضول المتشوقة إلى المعقول المتحركة بوضعها إلى كل ما أمره بالسكون فيه ، والمتسورة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه ، وأطلقت عنان النظر فى مسارح الفكر ، وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت فى التيه وتنوعت آراؤها فيه ، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل فى شيء كالاختلاف فى ماهية الروح . ولو لزمت النفوس حدها معترفة بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولى ؛ فأما أقاويل من ليس متمسكا بالشرائع فنتزه الكتاب عن ذكرها ، لأنها أقوال أبرزتها العقول التى ضلت عن الرشاد وطبعت على الفساد ، ولم يصبها نور الاهتداء ببركة متابعة الأنبياء ، فهم كما قال الله تعالى ﴿كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾ ، ﴿وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فلما حجبوا عن الأنبياء لم يسمعوا ، وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا فأصروا على الجهالات وحجبوا بالمعقول عن المأمول ، والعقل حجة الله تعالى يهدى به قوما ويضل به قوما آخرين ؛ فلم تنقل أقوالهم فى الروح واختلافهم فيه .

وأما المستمسكون بالشرائع الذين تكلموا فى الروح ؛ فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر ، وقوم منهم بلسان الذوق والوجد لا باستعمال الفكر ، حتى تكلم فى ذلك مشايخ الصوفية أيضاً ، وكان الأولى الإمساك عن ذلك والتأدب بأدب النبي عليه الصلاة والسلام .

وقد قال الجنيد : الروح شيء استأثر الله بعلمه ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود ، ولكن نجعل للصادقين محملا لأقوالهم وأفعالهم .

ويجوز أن يكون كلامهم فى ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة ، حيث حرم تفسيره وجوز تأويله ، إذ لا يسع القول فى التفسير إلا نقل . وأما التأويل فتمتد العقول إليه بالباع الطويل ، وهو ذكر ما تحتمل الآية من المعنى من غير القطع بذلك ، وإذا كان الأمر كذلك فللقول فيه وجه ومحمل .

قال أبو عبدالله النباحى : الروح جسم يلطف عن الحس ويكبر عن اللمس ولا يعبر عنه بأكثر من موجود ، وهو وإن منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم ؛ فكأنه عبر عنه .

وقال ابن عطاء الله : خلق الله الأرواح قبل الأجساد ، لقوله تعالى ﴿ولقد خلقناكم﴾ يعنى الأرواح ﴿ثم صورناكم﴾ يعنى الأجساد .

وقال بعضهم : الروح لطيف قائم فى كثيف ، كالبصر جوهر لطيف قائم فى كثيف . وفى هذا القول نظر . وقال بعضهم : الروح عبارة والقائم بالأشياء هو الحق ، وهذا فيه نظر أيضا إلا أن يحمل على معنى الإحياء ؛ فقد قال بعضهم ؛ الإحياء صفة المحيي ، كالتخليق صفة الخالق وقال ﴿قل الروح من أمر ربى﴾ وأمره كلامه ، وكلامه ليس بمخلوق : أى صار الحى حيا بقوله : كن حيا ؛ وعلى هذا لا يكون الروح معنى فى الجسد ، فمن الأقوال ما يدل على أن قائله يعتقد قدم الروح ، ومن الأقوال ما يدل على أنه يعتقد حدوثه .

ثم إن الناس مختلفون فى الروح الذى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فقال قوم : هو جبرائيل . ونقل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، ولكل وجه منه سبعون ألف لسان ، ولكل لسان منه سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ، ويخلق من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

وروى عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما : أن الروح خلق من خلق الله صورهم على صورة بنى آدم ، وما

نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح .

وقال أبو صالح : الروح كهيئة الإنسان وليسوا بناس .

وقال مجاهد : الروح على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورءوس يأكلون الطعام وليسوا بملائكة . وقال سعيد ابن جبير : لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش ، ولو شاء أن يبلع السموات والأرضين السبع فى لقمة لعمل ، صورة خلقه على صورة الملائكة ، وصورة وجهه على صورة الآدميين ، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش والملائكة معه فى صف واحد . وهو ممن يشفع لأهل التوحيد ، ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لحرق أهل السموات من نوره ؛ فهذه الأقاويل لاتكون إلا نقلا وسماعا بلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وإذا كان الروح المسئول عنه شيئا من هذا المنقول فهو غير الروح الذى فى الجسد ؛ فعلى هذا يسوغ القول فى هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعا .

وقال بعضهم : الروح لطيفة تسرى من الله إلى أماكن معروفة لايعبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره .

وقال بعضهم : الروح لم يخرج من « كن» لأنه لو خرج من « كن» كان عليه الذل . قيل : فمن أى شىء خرج ؟ قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامه وحياها بكلامه ؛ فهى معتقة من ذل « كن» .

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح ، أمخلوقة هى ؟ قال : نعم ، ولولا ذلك ما أقرت بالربوبية ، حيث قال «بلى» والروح هى التى قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة ، وبالروح ثبت العقل ، وبالروح قامت الحجة ؛ ولو لم يكن الروح كان العقل معطلا لاحجة عليه ولا له ، وقيل : إنها جوهر مخلوق ولكنها ألطف المخلوقات وأصفى الجواهر وأنورها وبها تتراءى المغيبات وبها يكون الكشف لأهل الحقائق ، وإذا حجبت الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح الأدب ، ولذلك صارت الروح بين تجلّ واستتار وقابض ونازع ، وقيل : الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء ، وقيل الأرواح أقسام : أرواح تجول فى البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة وتسمع ما تتحدث به فى السماء عن أحوال الآدميين وأرواح تحت العرش ، وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت على أقدارها من السعى إلى الله أيام الحياة .

وروى سعيد بن المسيب عن سلمان قال : أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى يردها إلى جسدها .

وقيل : إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا ، ووكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء ، حتى إذا عرض على الأموات مايعاقب به الأحياء فى الدنيا من أجل الذنوب قالوا : نعتذر إلى الله ظاهرا عنه ، فإنه لاأحد أحب إليه العذر من الله تعالى . وقد ورد فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله ، وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة ، فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضا وإشراقا ، فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم .

وفى خبر آخر « إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى ، فإن كان حسنا استبشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لاتمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » .

وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان فى الجسد ، وليست بمعان وأعراض .

سئل الواسطى : لأى علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الخلق ؟ قال : لأنه خلق روحه أولا فوقع له صحبة التمكين والاستقرار ، ألا تراه يقول «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد ، أى لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم : الروح خلق من نور العزة ، وإبليس من نار العزة ، ولهذا قال ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ ولم يدر أن النور خير من النار ، فقال بعضهم : قرن الله تعالى العلم بالروح ، فهى للطافتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء وهذا فى علم الله ، لأن علم الخلق قليل لايبلغ ذلك .

والمختار عند أكثر متكلمي الإسلام : أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقا في الإنسان، والموت يعدمهما ؛ وأن الروح هي الحياة بعينها صار البدن بوجودها حيا : وبالإعادة إليه في القيامة يصير حيا . وذهب بعض متكلمي الإسلام إلى أنه جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر ، وهو اختيار أبي المعالي الجويني ، وكثير منهم مال إلى أنه عرض ؛ إلا أنه ردهم عن ذلك الأخبار الدالة على أنه جسم ، لما ورد فيه من العروج والهبوط والتردد في البرزخ ، فحيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم ، لأن العرض لا يوصف بأوصاف ؛ إذ الوصف معنى والمعنى لا يقوم بالمعنى . واختار بعضهم أنه عرض .

سئل ابن عباس رضي الله عنهما قيل : أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان ؟ فقال : أين يذهب ضوء المصباح عند فناء الأدهان ، قيل له : فأين تذهب الجسوم إذا بليت . قال : فأين يذهب لحمها إذا مرضت .

وقال بعض من يتهم بالعلوم المردودة المذمومة وينسب إلى الإسلام : الروح تنفصل من البدن في جسم لطيف

وقال بعضهم : إنها إذا فارقت البدن تحل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية ، فتكون حينئذ مطالعة للمعاني والمحسوسات ، لأن تجردها من هيآت البدن عند المفارقة غير ممكن ، وهي عند الموت شاعرة بالموت وبعد الموت ؛ متخيلة بنفسها مقبورة ، وتتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة ، وتحس بالثواب والعقاب في القبر. وقال بعضهم: أسلم المقالات أن يقال : الروح شيء مخلوق أجرى الله تعالى العادة أن يحيي البدن ما دام متصلا به ، وأنه أشرف من الجسد يذوق الموت بمفارقة الجسد ، كما أن الجسد بمفارقته يذوق الموت ، فإن الكيفية والماهية يتحاشى العقل فيهما كما يتحاشى البصر في شعاع الشمس . ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم : الموجودات محصورة : قديم، وجسم، وجوهر، وعرض فالروح من اى هؤلاء ؟ فاختار قوم منهم أنه عرض . وقوم منهم أنه جسم لطيف كما ذكرنا ، واختار قوم أنه قديم لأنه أمر والأمر كلام والكلام قديم ، فما أحسن الإمساك عن القول فيما هذا سبيله. وكلام الشيخ أبي طالب المكي في كتابه يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان في الجسد ، وهكذا النفوس ، لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير ، ومن حركتها يظهر نور في القلب يراه الملك فيلهم الخير عند ذلك . وتتحرك للشر، ومن حركتها تظهر ظلمة في القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالإغواء .

وحيث وجدت أقوال المشايخ تشير إلى الروح أقول : ما عندي في ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به ، إذ ميلي في ذلك إلى السكوت والإمساك، فأقول والله أعلم : الروح الإنساني العلوي السماوي من عالم الأمر ، والروح الحيواني البشري من عالم الخلق ، والروح الحيواني البشري محل الروح العلوي ومورده ، والروح الحيواني جسماني لطيف حامل لقوة الحس والحركة ، ينبعث من القلب ـ أعني بالقلب ههنا . المضغة اللحمية المعروفة الشكل المودعة في الجانب الأيسر من الجسد ، وينتشر في تجاويف العروق الضوارب ، وهذه الروح لسائر الحيوانات ، ومنه تفيض قوى الحواس وهو الذي قوامه بإجراء سنة الله بالغذاء غالبا ويتصرف بعلم الطب فيه باعتدال مزاج الأخلاط ولورود الروح الإنساني العلوي على هذا الروح تجنس الروح الحيواني وباين أرواح الحيوانات ، واكتسب صفة اخرى فصار نفسا محلا للنطق والإلهام . قال الله تعالى ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فتسويتها بورود الروح الإنساني عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات ، فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوي وصار تكون النفس التي هي الروح الحيواني من الآدمي من الروح العلوي في عالم الأمر ، كتكون حواء من آدم في عالم الخلق ، وصار بينهما من التألف والتعاشق كما بين آدم وحواء ، وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه قال الله تعالى ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ فسكن آدم إلى حواء ، وسكن الروح الإنساني العلوي إلى الروح الحيواني وصيره نفسا ، وتكون من سكون الروح إلى النفس القلب، وأعني بهذا القلب اللطيفة التي محلها المضغة اللحمية ، فالمضغة اللحمية من عالم الخلق ، وهذه اللطيفة من عالم الأمر ، وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء في عالم الخلق ، ولولا المساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ما تكون القلب ، فمن القلوب قلب

متطلع إلى الأب الذى هو الروح العلوى ميال إليه ، وهو القلب المؤيد الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر ، وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد ، فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها » والقلب المنكوس ميال إلى الأم التى هى النفس الأمارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد فى ميله إليها ، وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة ، والعقل جوهر الروح العلوى ولسانه والدال عليه ، وتدبيره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد للولد البار ، والزوج للزوجة الصالحة ؛ وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق ، والزوج للزوجة السيئة ؛ فمنكوس من وجه ومنجذب إلى تدبيرهما من وجه ؛ إذ لابد له منهما .

وقول القائلين واختلافهم فى محل العقل : فمن قائل إن محله الدماغ ، ومن قائل إن محله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك ، واختلافهم فى ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد ، وانجذابه إلى البار تارة وإلى العاق اخرى وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق ، فإذا رؤى فى تدبير العاق قيل مسكنة الدماغ ، وإذا رؤى فى تدبير البار قيل مسكنه القلب ؛ فالروح العلوى يهم بالارتفاع إلى مولاه شوقا وحنوا وتنزها عن الأكوان ، ومن الأكوان القلب والنفس ؛ فإذا ارتقى الروح يحنو القلب إليه حنو الولد الحنين البار إلى الوالد ، وتحن النفس إلى القلب الذى هو الولد حنين الوالدة الحنينة إلى ولدها ، وإذا حنت النفس ارتقت من الأرض وانزوت عروقها الضاربة فى العالم السفلى وانطوى هواها وانحسمت مادته وزهدت فى الدنيا وتجافت عن دار الغرور وأنابت إلى دار الخلود ، وقد تجلد النفس التى هى الأم إلى الأرض بوضعها الجبلى لتكونها من الروح الحيوانى المجنس ومستندها فى ركونها إلى الطبائع التى هى أركان العالم السفلى . قال الله تعالى ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ فإذا سكنت النفس التى هى الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب المنكوس انجذاب الولد الميال إلى الوالدة المعوجة الناقصة دون الوالد الكامل المستقيم ، وينجذب الروح إلى الولد الذى هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده ، فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه . وفى هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

وقد ورد فى أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان : أين موضع العقل منك ؟ قال : القلب ؛ لأنه قالب الروح ، والروح قالب الحياة .

وقال أبو سعيد القرشى : الروح روحان روح الحياة وروح الممات ؛ فإذا اجتمعا عقل الجسم . وروح الممات هى التى إذا خرجت من الجسد يصير الحى ميتا ، وروح الحياة مابه مجارى الأنفاس وقوة الأكل والشرب وغيرهما .

وقال بعضهم : الروح نسيم طيب يكون به الحياة ، والنفس ريح حارة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات ويقال : فلان حار الرأس وفى الفصل الذى ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس ، وإشارة المشايخ بماهية النفس إلى مايظهر من آثارها من الأفعال المذمومة والأخلاق المذمومة ، وهى التى تعالج بحسن الرياضة إزالتها وتبديلها ، والأفعال الرديئة تزال والأخلاق الرديئة تبدل .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن اسمعيل القزوينى ، قال أخبرنا إجازة أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليلى ، قال أخبرنا القاضى محمد بن سعيد الفرخزادى ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا الحسين بن محمد بن عبد الله السفيانى ، قال حدثنا محمد بن الحسن اليقطينى ، قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلى ، قال حدثنا صفوان بن صالح ، قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وقف ثم قال « اللهم آت نفسى تقواها أنت وليها ومولاها وزكها أنت خير من زكاها » .

وقيل : النفس لطيفة مودعة فى القالب ، منها الأخلاق والصفات المذمومة ، كما أن الروح لطيفة مودعة فى القالب، منها الأخلاق والصفات المحمودة، كما أن العين محل الرؤية،والأذن محل السمع،والأنف محل الشم،والفم محل الذوق، وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة والروح محل الأصاف المحمودة ،وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين، أحدهما الطيش ، والثانى الشره ، وطيشها من جهلها ، وشرهها من حرصها ، وشبهت النفس فى طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس مصوب ، لاتزال متحركة بجبلتها ووضعها ،وشبهت فى حرصها بالفراش الذى يلقى نفسه على ضوء المصباح ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذى فيه هلاكه ، فمن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر، والصبر جوهر العقل ، والطيش صفة النفس ، وهواها ورووحها لايغلبه إلا الصبر،إذ العقل يقمع الهوى،ومن الشره يظهر الطمع والحرص ، وهما اللذان ظهرا فى آدم حيث طمع فى الخلود ، فحرص على أكل الشجرة .

وصفات النفس لها أصول من أصل تكونها ، لأنها مخلوقة من تراب ، ولها بحسبه وصف،وقيل وصف الضعف فى الآدمى من التراب ، ووصف البخل فيه من الطين ، ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون،ووصف الجهل فيه من الصلصال . وقيل قوله ﴿ كالفخار ﴾ فهذا الوصف فيه شىء من الشيطنة لدخول النار فى الفخار ؛ فمن ذلك الخداع والحيل والحسد ؛ فمن عرف أصول النفس وجبلتها عرف أن لاقدرة له عليها إلا بالاستعانة ببارئها وفاطرها ، فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبر دواعى الحيوانية فيه بالعلم والعدل ، وهو رعاية طرفى الإفراط والتفريط ، ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيه والأخلاق المذمومة ، وكمال إنسانيته يتقاضاه أن لايرضى لنفسه بذلك ، ثم تتكشف له الأخلاق التى تنازع بها الربوبية من الكبر والعز ورؤية النفس والعجب وغير ذلك ، فيرى أن صرف العبودية فى ترك المنازعة للربوبية ، والله تعالى ذكر النفس فى كلامه القديم بثلاثة أوصاف؛ بالطمأنينة. قال ﴿ياأيتها النفس المطمئنة﴾ وسماها لوامة ، قال ﴿لاأقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ وسماها أمارة ، فقال ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ وهى نفس واحدة . ولها صفات متغايرة ، فإذا امتلأ القلب سكينة خلع على النفس خلع الطمأنينة ، لأن السكينة مزيد الإيمان ، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح لما منح من حظ اليقين ، وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه النفس إلى محل القلب ، وفى ذلك طمأنينتها ؛ وإذا انزعجت من مقار جبلتها ودواعى طبيعتها متطلعة إلى مقار الطمأنينة فهى لوامة ؛ لأنها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة ثم انجذابها إلى محلها التى كانت فيه أمارة بالسوء ؛ وإذا أقامت فى محلها لايغشاها نور العلم والمعرفة ، فهى على ظلمتها أمارة بالسوء؛ فالنفس والروح يتطاردان ؛ فتارة يملك القلب دواعى الروح ، وتارة يملكه دواعى النفس .

وأما السر فقد أشار القوم إليه . ووجدت فى كلام القوم أن منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح . ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها وألطف . وقالوا : السر محل المشاهدة ،والروح محل المحبة،والقلب محل المعرفة،والسر الذى وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور فى كتاب الله،وإنما المذكور فى كلام الله الروح والنفس ، وتنوع صفاتها والقلب والفؤاد والعقل ، وحيث لم نجد فى كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه ، ورأينا الاختلاف فى القوم فيه وأشار قوم إلى أنه دون الروح ، وقوم إلى أنه ألطف من الروح ؛ فنقول ـ والله أعلم : الذى سموه سرا ليس هو بشىء مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح والنفس ، وإنما لما صفت النفس وتزكت انطلق الروح من وثاق ظلمة النفس ، فأخذ فى العروج إلى أوطان القرب ، وانتزح القلب عند ذلك عن مستقره متطلعا إلى الروح ؛ فاكتسب وصفا زائدا على وصفه ، فانعجم على الواجدين ذلك الوصف حيث رأوه أصفى من القلب فسموه سرا . ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطلعه إلى الروح اكتسب الروح وصفا زائدا فى عروجه وانعجم على الواجدين فسموه سرا ، والذى زعموا أنه ألطف من الروح : روح متصفة بوصف أخص مما عهدوه ، والذى سموه قبل الروح سرا : هو قلب اتصف بوصف زائد غير ماعهدوه ، وفى مثل هـذا الترقى من الروح والقلب تترقى النفس إلى محل القلب ، وتنخدع من وصفها فتصير نفسا مطمئنة تريد كثيرا من مرادات القلب من قبل إذ صار القلب يريد مايريد

مولاه متبرئا عن الحول والقوة والإرادة والاختيار ، وعندها ذاق طعم صرف العبودية حيث صار حرا عن إرادته واختياراته .

وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة ، والبصيرة للروح بمثابة القلب ، والعقل بمثابة اللسان . وقد ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول ماخلق الله العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له اقعد فقعد ، ثم قال له انطق فنطق ، ثم قال له اصمت فصمت ، فقال : وعزتى وجلالى وعظمتى وكبريائى وسلطانى وجبروتى ماخلقت خلقا أحب إلى منك ولاأكرم على منك ، بك أعرف وبك أحمد ، وبك أطاع وبك آخذ وبك أعطى ، وإياك أعاتب ، ولك الثواب وعليك العقاب ، وما أكرمتك بشىء أفضل من الصبر » وقال عليه السلام « لايعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ماعقدة عقله » . وسألت عائشة رضى الله عنها النبى صلى الله عليه وسلم قالت : قلت يارسول الله : بأى شىء يتفاضل الناس ؟ قال : « بالعقل فى الدنيا والآخرة » قالت : قلت أليس يجزى الناس بأعمالهم ؟ قال « ياعائشة ، وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل فبقدر عقولهم يعملون وعلى قدر مايعملون يجزون » ، وقال عليه السلام « إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلى وصلاته لاتعدل جناح بعوضة ، وإن الرجل ليأتى المسجد فيصلى وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنهما عقلا » قيل : وكيف يكون أحسنهما عقلا ؟ قال « أورعهما عن محارم الله وأحرصهما على أسباب الخير وإن كان دونه فى العمل والتطوع » .

وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشتاتا ، فإن الرجلين يستوى علمهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذرة فى جنب أحد » .

وروى عن وهب بن منبه أنه قال : إنى أجد فى سبعين كتابا أن جميع ماأعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل فى جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهيئة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا .

واختلف الناس فى ماهية العقل ، والكلام فى ذلك يكثر ، ولا نؤثر نقل الأقاويل ، وليس ذلك من غرضنا ، فقال قوم : العقل من العلوم ؛ فإن الخالى من جميع العلوم لايوصف بالعقل ، وليس العقل جميع العلوم ؛ فإن الخالى عن معظم العلوم يوصف بالعقل . وقالوا : ليس من العلوم النظرية ، فإن من شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل ؛ فهو إذن من العلوم الضرورية وليس هو جميعها ، فإن صاحب الحواس المختلة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية .

وقال بعضهم : العقل ليس من أقسام العلوم ؛ لأنه لو كان منها لوجب الحكم بأن الذاهل عن ذكر الاستحالة والجواز لايتصف بكونه عاقلا ونحن نرى العاقل فى كثير من أوقاته ذاهلا وقالوا : هذا العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم

ونقل عن الحارث بن أسد المحاسبى وهو من أجل المشايخ أنه قال : العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم ، وعلى هذا يتقرر ماذكرناه فى أول ذكر العقل : أنه لسان الروح ؛ لأن الروح من أمر الله ، وهى المتحملة للأمانة التى أبت السموات والأرضون أن يحملنها ، ومنها يفيض نور العقل وفى نور العقل تتشكل العلوم ؛ فالعقل للعلوم بمثابة اللوح المكتوب ، وهو بصفته منكوس متطلع إلى النفس تارة ومنتصب مستقيم تارة ، فمن كان العقل فيه منكوسا إلى النفس فرقه فى أجزاء الكون وعدم حسن الاعتدال بذلك وأخطأ طريق الاهتداء ، ومن انتصب العقل فيه واستقام : تأيد العقل بالبصيرة التى هى للروح بمثابة القلب ، واهتدى إلى المكون ، ثم عرف الكون بالمكون : مستوفيا أقسام المعرفة بالمكون والكون ؛ فيكون هذا العقل عقل الهداية ؛ فكما أحب الله إقباله فى أمر دله على إقباله عليه ، وماكرهه الله فى أمر دله على الإدبار عنه ؛ فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجتنب مساخطه ، وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالته على الرشد ونهيه عن الغى .

قال بعضهم : العقل على ضربين : ضرب يبصر به أمر دنياه ، وضرب يبصر به أمر آخرته ، وذكر أن العقل الأول من نور الروح ، والعقل الثانى من نور الهداية ؛ فالعقل الأول موجود فى عامة ولد آدم ، والعقل الثانى

موجود فى الموحدين مفقود من المشركين .

وقيل : إنما سمى العقل عقلا لأن الجهل ظلمة ، فإذا غلب النور بصره فى تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقالا للجهل .

وقيل : عقل الإيمان مسكنه فى القلب ومتعمله فى الصدر بين عينى الفؤاد ، والذى ذكرناه من كون العقل لسان الروح ـ وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ، ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء فى مواضعها ، وهذا العقل هو المستضىء بنور الشرع ؛ لأن انتصابه واعتداله هداه إلى الاستضاءة بنور الشرع ، لكون الشرع ورد على لسان النبى المرسل ، وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية ومكاشفة بصيرته التى هى الروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأييد البصيرة ، فالبصيرة تحيط بالعلوم التى يستوعبها العقل والتى يضيق عنها نطاق العقل ، لأنها تستمد من كلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها ، والعقل ترجمان تؤدى البصيرة إليه من ذلك شطرا ، كما يؤدى القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان ، ولهذا المعنى من جمد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظى بعلوم الكائنات التى هى الملك ، والملك ظاهر الكائنات . ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت ، والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أرباب البصائر والعقول دون الجامدين على مجرد العقول ، وقد قال بعضهم : إن العقل عقلان ، عقل للهداية مسكنه فى القلب وذلك للمؤمنين الموقنين ومتعمله الصدر بين عينى الفؤاد ، والعقل الآخر مسكنه فى الدماغ ومتعمله فى الصدر بين عينى الفؤاد ، فبالأول يدبر أمر الآخرة ، وبالثانى يدبر أمر الدنيا ، والذى ذكرناه أنه عقل واحد إذا تأيد بالبصيرة دبر الأمرين ، وإذا تفرد دبر أمر واحد وهو أوضح وأبين . وقد ذكرنا فى أول الباب من تدبيره للنفس المطمئنة والأمارة ما ينتبه الإنسان به على كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصيرة تارة ومنفردا بوصفه تارة . والله الملهم للصواب .

الباب السابع والخمسون : فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال أخبرنا هناد ، قال أخبرنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ، ثم قرأ ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ » ، وإنما يتطلع إلى معرفة اللمتين وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف إلى ذلك تشوف العطشان إلى الماء ، لما يعلم من وقع ذلك وخطره وفلاحه وصلاحه وفساده ، ويكون ذلك عبدا مرادا بالحظوة بصفو اليقين ومنح الموقنين ، وأكثر التشوف إلى ذلك المقربين ومن أخذ به فى طريقهم . ومن أخذ فى طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف ، لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والإرادة والحظ من الله الكريم ، ومن هو فى مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلع إلى معرفة اللمتين ولا يهتم بتمييز الخواطر ، ومن الخواطر ما هى رسل الله تعالى إلى العبد ، كما قال بعضهم : لى قلب إن عصيته عصيت الله ، وهذا حال عبد استقام قلبه ، واستقامة القلب لطمأنينة النفس ، وفى طمأنينة النفس يأس الشيطان ، لأن النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب ، وإذا تكدر طمع الشيطان وقرب منه ، لأن صفاء القلب محفوف بالتذكر والرعاية ، وللذكر نور يتقيه الشيطان كاتقاء أحدنا النار . وقد ورد فى الخبر « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى تولى وخنس ، وإذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه » ، وقال الله تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ وقال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ فبالتقوى وجود خالص الذكر ، وبها ينفتح

بابه ، ولايزال العبد يتقى حتى يحمى الجوارح من المكاره ثم يحميها من الفضول ومالايعنيه ، فتصير أقواله وأفعاله ضرورة ، ثم تنتقل تقواه إلى باطنه ويطهر الباطن ويقيده عن المكاره ثم من الفضول ، حتى يتقى حديث النفس. قال سهل بن عبدالله : أسوأ المعاصى حديث النفس ، ويرى الاصغاء إلى ماتحدّث به النفس ذنبا فيتقيه ، ويتقد القلب عند هذا الاتقاء بالذكر اتقاد الكواكب فى كبد السماء ، ويصير القلب سماء محفوظا بزينة كواكب الذكر ؛ فإذا صار كذلك بعد الشيطان ، ومثل هذا العبد يندر فى حقه الخواطر الشيطانية ولماته ، ويكون له خواطر النفس ويحتاج إلى أن يتقيها ويميزها بالعلم ، لأن منها خواطر لايضر إمضاؤها ، كمطالبات النفس بحاجاتها ، وحاجاتها تنقسم إلى الحقوق والحظوظ ، ويتعين التمييز عند ذلك واتهام النفس بمطالبات الحظوظ . قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ أى فتثبتوا ، وسبب نزول الآية الوليد بن عقبة حيث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق فكذب عليهم ونسبهم إلى الكفر والعصيان ، حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، ثم بعث خالدا إليهم فسمع آذان المغرب والعشاء ، ورأى مايدل على كذب الوليد بن عقبة ؛ فأنزل الله تعالى الآية فى ذلك ؛ فظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر ، وصار ذلك تنبيها من الله عباده على التثبت فى الأمور . قال سهل فى هذه الآية : الفاسق الكذاب ، والكذب صفة النفس لأنها تملى أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها ، فتعين التثبت عند خاطرها وإلقائها فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب التثبت ولايستفزه الطبع ولايستعجله الهوى ، فقد قال بعضهم : أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة .

ومن الأدب عند الاشتباه : إنزال الخاطر بمحرك النفس وخالقها وبارئها وفاطرها ؛ وإظهار الفقر والفاقة إليه ، والاعتراف بالجهل وطلب المعرفة والمعونة منه ، فإنه إذا أتى بهذا الأدب يغاث ويعان ، ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق ؟ فإن كان للحق أمضاه ، وإن كان للحظ نفاه ، وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم ؛ لأن الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل فى ظاهر العلم ، ثم من الناس من لا يسعه فى صحته إلا الوقوف على الحق دون الحظ وإن أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب .

ومن الناس من يدخل فى تناول الحظ ويمضى خاطره بمزيد علم لديه من الله . وهو علم السعة لعبد مأذون له فى السعة عالم بالإذن ؛ فيمضى خاطر الحظ ، والمراد بذلك على بصيرة من أمره يحسن به ذلك ويليق به عالم بزيادته ونقصانه عالم بحاله محكم لعلم الحال ، وعلم القيام لايقاس على حاله ولايدخل فيه بالتقليد ؛ لأنه أمر خاص لعبد خاص ، وإذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس فى مقام تخلصه من لمات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك ، وتصير الخواطر الأربعة فى حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان إلا نادرآ لضيق مكانه من النفس ؛ لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس ، واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاد إلى الأرض ، ومن ضايق النفس على التمييز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط محل الشيطان إلا نادرا لدخول الابتلاء عليه ؛ ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقربين من إذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر ، يصير قلبه سماويا يترقى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته فى طبقات السموات ، وكلما ترقى تتضاءل النفس المطمئنة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات بعروج باطنه ، كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهره وقالبه؛ فإذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس لتستره بأنوار القرب وبعدت عنه النفس وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا لأن الخاطر رسول والرسالة إلى من بعد وهذا قريب . وهذا الذى وصفناه نازل ينزل به ولايدوم ، بل يعود فى هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطرها فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك ، وذلك أن الخواطر تستدعى وجودا . وما أشرنا إليه حال الفناء ولاخاطر فيه ، وخاطر الحق انتفى لمكان القرب ، وخاطر النفس بعد عنه لبعد النفس ، وخاطر الملك تخلف عنه كتخلف جبريل فى ليلة المعراج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : لو دنوت أنملة لاحترقت . قال محمد بن على الترمذى : المحدث والمكلم إذا تحققا فى درجتهما لم يخافا من حديث النفس ؛ فكما أن النبوة محفوظة من إلقاء الشيطان كذلك محل المكالمة والمحادثة محفوظ من إلقاء النفس وفتنتها ومحروس بالحق والسكينة ؛ لأن السكينة

حجاب المتكلم والمحدث مع نمسه .

وسمعت الشيخ أبا محمد بن عبدالله البصرى بالبصرة يقول : الخواطر أربعة : خاطر من النفس ، وخاطر من الحق ، وخاطر من الشيطان ، وخاطر من الملك . فأما الذى من النفس : فيحس به من أرض القلب ، والذى من الحق : من فوق القلب ، والذى من الملك : عن يمين القلب ، والذى من الشيطان : عن يسار القلب . والذى ذكره إنما يصح لعبد أذاب نفسه بالتقوى والزهد ، وتصفى وجوده ، واستقام ظاهره وباطنه ، فيكون قلبه كالمرآة المجلوة : لا يأتيه الشيطان من ناحية إلا ويبصره ، فإذا أسود القلب وعلاه الزين لا يبصر الشيطان .

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن نزع واستغفر وتاب صقل وإن عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه . قال الله تعالى ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾

سمعت بعض العارفين يقول كلاما دقيقاً كوشف به فقال : الحديث فى باطن الإنسان . والخيال الذى يراءى لباطنه ويخيل بين القلب وصفاء الذكر : هو من القلب وليس هو من النفس ، وهذا بخلاف ما تقرر ، فسألته عن ذلك ؛ فذكر أن بين القلب والنفس مناغاة ومحادثات وتألفا وتوددا ، وكلما انطلقت النفس فى شىء بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر ، فإذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى ، أقبل القلب بالمعاتبة للنفس ، وذكر النفس شيئا من فعلها وقولها كاللائم للنفس والمعاتب لها على ذلك ، فإذا كان الخاطر أول الفعل ومفتتحه فمعرفته من أهم شأن العبد ، لأن الأفعال من الخواطر تنشأ ، حتى ذهب بعض العلماء إلى أن العلم المفترض طلبه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » هو علم الخواطر ، قال : لأنها أول الفعل ، وبفسادها فساد الفعل ، وهذا لعمرى لايتوجه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب ذلك على كل مسلم ، وليس كل المسلمين عندهم من القريحة ، والمعرفة ما يعرفون به ذلك ، ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر ، فمنها ماهو بذر السعادة ، ومنها ما هو بذر الشقاوة .

وسبب اشتباه الخواطر أحد أربعة أشياء لاخامس لها : إما ضعف اليقين ، أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها ، أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى ، أو محبة الدنيا جاهها ومالها وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس . فمن عصم عن هذه الأربعة : يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان . ومن ابتلى بها : لايعلمها ولايطلبها ، وانكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض ، وأقوم الناس بتمييز الخواطر أقومهم بمعرفة النفس ومعرفتها صعبة المنال لاتكاد تتيسر إلا بعد الاستقصاء فى الزهد والتقوى .

واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لايفرق بين الإلهام والوسوسة .

وقال أبو على الدقاق : من كان قوته معلوما لايفرق بين الإلهام والوسوسة ، وهذا لايصح على الإطلاق إلا بقيد ، وذلك أن من المعلوم مايقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبد بإذن يسبق إليه فى الأخذ منه والتقوت به ، ومثل هذا المعلوم لايحجب عن تمييز الخواطر إنما ذلك يقال فى حق من دخل فى معلوم باختيار منه وإيثار ، لأنه ينحجب لموضع اختياره ، والذى أشرنا إليه منسلخ من إرادته فلا يحجبه المعلوم .

وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان ، وقالوا : إن النفس تطالب وتلح ، فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها ، والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى ، إذ لاغرض له فى تخصيص ، بل مراده الإغواء كيفما أمكنه . وتكلم الشيوخ فى الخاطرين إذا كانا من الحق أيهما يتبع ؟ قال الجنيد : الخاطر الأول لأنه إذا بقى رجع صاحبه إلى التأمل ، وهذا شرط العلم . وقال ابن عطاء : الثانى أقوى لأنه ازداد قوة بالأول . وقال أبو عبدالله ابن خفيف : هما سواء لأنهما من الحق فلا مزية لأحدهما على الآخر .

قالوا : الواردات أعم من الخواطر ، لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو مطالبة ، والواردات تكون تارة خواطر وتارة تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط .

وقيل : بنور التوحيد يقبل الخاطر من الله تعالى ، وبنور المعرفة يقبل من الملك ، وبنور الإيمان ينهى النفس ، وبنور الإسلام يرد على العدو . ومن قصر عن درك حقائق الزهد وتطلع إلى تمييز الخواطر يزن الخاطر أولا بميزان الشرع ، فما كان من ذلك نفلا أو فرضا يمضيه ، وما كان من ذلك محرما أو مكروها ينفيه ؛ فإن استوى الخاطران في نظر العلم ينفذ أقربهما إلى مخالفة هوى النفس ، فإن النفس قد يكون لها هوى كامن في أحدهما ، والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلى الدون ، وقد يلم الخاطر بنشاط النفس والعبد يظن أنه بنهوض القلب ، وقد يكون من القلب نفاق بسكونه إلى النفس ، يقول بعضهم : منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى نفسي ساعة ، فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر تشتبه بخواطر الحق على من يكون ضعيف العلم ، فلا يدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الراسخون ، وأكثر ما تدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل ، وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم .

وينبغي أن يعلم العبد قطعا أنه مهما بقي عليه أثر من الهوى وإن دق وقل يبقى عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر ، ثم قد يغلط في تمييز الخواطر من هو قليل العلم ، ولا يؤاخذ بذلك ما لم يكن عليه من الشرع مطالبة ، وقد لا يسامح بذلك بعض الغالطين لما كوشفوا به من دقيق الخفاء في التمييز ، ثم استعجالهم مع علمهم وقلة التثبت .

وذكر بعض العلماء أن لمة الملك ولمة الشيطان وجدتا لحركة النفس والروح ، وأن النفس إذا تحركت انقدح من جوهرها ظلمة تتمكن في القلب همة سوء ، فينظر الشيطان إلى القلب فيقبل بالإغواء والوسوسة ، وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس ، أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي ، أو دعوى حركة أو سكون وهي آفة العقل ومحبة القلب ، ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة : بجهل ، أو غفلة ، أو طلب فضول . ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب نفيه ، فإنها ترد بخلاف مأمور أو على وفق منهي . ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات ، وذكر أن الروح إذا تحركت انقدح من جوهرها نور ساطع يظهر من ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة : إما بفرض أمر به ، أو بفضل ندب إليه ، وإما بمباح يعود صلاحه إليه ، وهذا الكلام يدل على أن حركتي الروح والنفس هما الموجبتان للمتين . وعندي والله أعلم أن اللمتين يتقدمان على حركة الروح والنفس ، لحركة الروح من لمة الملك ، والهمة العالية من حركة الروح ، وهذه الحركة من الروح ببركة لمة الملك . وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة ، وهي من شؤم لمة الشيطان . فإذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبل حكيم . وقد تكون هاتان اللمتان متداركتين وينمحي أثر إحداهما بالأخرى . والمتفطن المتيقظ ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار في ذاته باب أنس ، ويبقى أبدا متفقدا حاله مطالعا آثار اللمتين .

وذكر خاطر خامس : وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة ، يكون مع النفس والعدو لوجود التمييز وإثبات الحجة على العبد ، ليدخل العبد في الشيء بوجود عقل ، إذ لو فقد العقد سقط العقاب والعتاب ، وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختارا ويستوجب به الثواب .

وذكر خاطر سادس : وهو خاطر اليقين ، وهو روح الإيمان ومزيد العلم ، ولا يبعد أن يقال : الخاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع إلى ما يرد من خاطر الحق وخاطر العقل أصله تارة من خاطر الملك ، وتارة من خاطر النفس ، وليس من العقل خاطر على الاستقلال ، لأن العقل كما ذكرنا غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم ويتهيأ بها الانجذاب إلى دواعي النفس تارة وإلى دواعي الملك تارة ، وإلى دواعي الروح تارة وإلى دواعي الشيطان تارة فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر غير اللمتين ، وهاتان اللمتان هما الأصل ، والخاطران الآخران فرع عليهما ، لأن لمة الملك إذا حركت الروح واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة إلى حظائر القرب ، فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق ، وإذا تحقق بالقرب يتحقق بالفناء ، فتثبت الخواطر الربانية عند ذلك ، كما ذكرناه قبل لموضع قربه ، فيكون أصل خواطر الحق لمة الملك ، ولمة الشيطان إذا حركت النفس هوت بجبلتها إلى

مركزها من الغريزة والطبع ، فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها ، فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان ؛ فأصلها لمتان وينتجان أخريين ، وخاطر اليقين والعقل مندرج فيهما . والله أعلم .

الباب الثامن والخمسون : فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما

قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام ، واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك ، ووجود الاشتباه لمكان تشابههما فى نفسهما وتداخلهما ، فتراءى للبعض الشىء حالا وتراءى للبعض مقاما ، وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ، ولابد من ذكر ضابط يفرق بينهما ، على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق ؛ فالحال سمى حالا لتحوّله ، والمقام مقاما لثبوته واستقراره ، وقد يكون الشىء بعينه حالا ثم يصير مقاما ، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول ، فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ، ثم يحوّل الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ويغلب حال المحاسبة وتنقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة مقامه ومستقره ومقامه ، فيصير فى مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة ، ثم ينازله حال المراقبة ، فن كانت حال المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال ، ثم يحوّل حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتداركه الله عبدا بالمعونة ، فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ولايستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة ، ولايستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة ؛ فإذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ، ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستتار ويظهر بالتجلى ، ثم يصير مقاما وتتخلص شمسه عن كسوف الاستتار ، ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص إلى البقاء ، والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين ، وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى » .

قال سهل بن عبد الله : للقلب تجويفان ، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه ، والتجويف الثانى ظاهر القلب وفيه العقل ، ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين ، وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذى فى سواد العين ، ومنه تنبعث الأشعة المحيطة والمحيطة بالمرئيات ، فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات ، وهذه الحالة التى خرقت شغاف القلب ووصلت إلى سويدائه وهى حق اليقين : هى أسنى العطايا وأعز الأحوال وأشرفها ، ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الآجر من التراب ، إذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم آجرا ، فالمشاهدة هى الأول والأصل ، يكون منها الفناء كالطين ، ثم البقاء كاللبن ثم هذه الحالة وهى آخر الفروع

ولما كان الأصل فى الأحوال هذه الحالة وهى أشرف الأحوال وهى محض موهبة لاتكتسب سميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالا ، لأنها غير مقدورة للعبد بكسبه ، فأطلقوا القول وتداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب ، والأحوال مواهب ، وعلى الترتيب الذى درجناه عليه كلها مواهب ، إذ المكاسب محفوفة بالمواهب ، والمواهب محفوفة بالمكاسب ، فالأحوال مواجيد ، والمقامات طرق المواجيد ، ولكن فى المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب ، وفى الأحوال بطل الكسب وظهرت المواهب ، فالأحوال مواهب علوية سماوية ، والمقامات طرقها ، وقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : سلونى عن طرق السموات فإنى أعرف بها من طرق الأرض : إشارة إلى المقامات والأحوال ، فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات . فإن السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا ، وهى طرق السموات ومتنزل البركات ، وهذه الأحوال لايتحقق بها إلا ذو قلب سماوى قال بعضهم الحال هو الذكر الخفى ، وهذا إشارة إلى شىء مما ذكرناه ، وسمعت المشايخ بالعراق يقولون : الحال ماهنّ الله ، فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون : هذا ماهنّ العبد ، فإذا لاح للمريد شىء من المواهب والمواجيد قالوا : هذا ماهنّ الله ، وسموه حالا إشارة منهم إلى أن الحال موهبة .

وقال بعض مشايخ خراسان : الأحوال مواريث الأعمال .

وقال بعضهم . الأحوال كالبروق ، فإن بقى فحديث النفس ، وهذا لايكاد يستقيم على الإطلاق وإنما يكون ذلك فى بعض الأحوال فإنها تطرق ثم تستلبها النفس ؛ فأما على الإطلاق فلا ، والأحوال لاتمتزج بالنفس كالدهن لايمتزج بالماء .

وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لاتكون إلا إذا دامت ، فأما إذا لم تدم فهى لوائح وطوالع وبوادر ، وهى مقدمات الأحوال وليست بأحوال .

واختلف المشايخ فى أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذى هو فيه قبل إحكام حكم مقامه . قال بعضهم : لاينبغى أن ينتقل عن الذى هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه .

وقال بعضهم : لايكمل المقام الذى هو فيه إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه فينظر من مقامه العالى إلى مادونه من المقام فيحكم أمر مقامه . والأولى أن يقال ـ والله أعلم ـ : الشخص فى مقامه يعطى حالا من مقامه الأعلى الذى سوف يرتقى إليه ، فبوجدان ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذى هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ، ولايضاف الشىء إلى العبد أنه يرتقى أولا يرتقى ، فإن العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات ، والأحوال مراهب ترقى إلى المقامات التى يمتزج فيها الكسب بالموهبة ، ولايلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه ، فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزائد الأحوال ، فعلى ماذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة ، ولاتعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام ، وفى الزهد حال ومقام ، وفى التوكل حال ومقام ، وفى الرضا حال ومقام .

قال أبو عثمان الحيرى : منذ أربعين سنة ماأقامنى الله فى حال فكرهته ، أشار إلى الرضا ويكون منه حالا ثم يصير مقاما ، والمحبة حال ومقام ، ولايزال العبد يتتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب ، وطروق حال التوبة بالانزجار أولا قال بعضهم : الزجر هيجان فى القلب لايسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى اليقظة ، فإذا تيقظ أبصر الصواب من الخطأ . وقال بعضهم : الزجر ضياء فى القلب يبصر به خطأ قصده . والزجر فى مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه : زجر من طريق العلم ، وزجر من طريق العقل ، وزجر من طريق الإيمان ، فينازل التائب حال الزجر ، وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة ، ولايزال بالعبد ظهور هوى النفس يمحوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما ، وهكذا فى الزهد لايزال يتزهد بنازلة حال تريه لذة ترك الاشتغال بالدنيا وتقبح له الإقبال عليها ، فتمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة حتى تتداركه المعونة من الله الكريم ، فيزهد ويستقر زهده ويصير الزهد مقامه ، ولاتزال نازلة حال التوكل تقرع باب قلبه حتى يتوكل ، وهكذا حال الرضا حتى يطمئن على الرضا ، ويصير ذلك مقامه ، وههنا لطيفة : وذلك أن مقام الرضا والتوكل يثبت ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع ، ولايحكم ببقاء حال الرضا مع وجود داعية الطبع ، وذلك مثل كراهة يجدها الراضى بحكم الطبع ، ولكن علمه بمقام الرضا يغمر حكم الطبع وظهور حكم الطبع فى وجود الكراهية المغمورة بالعلم لايخرجه عن مقام الرضا ، ولكن يفقد حال الرضا لأن الحال لما تجردت موهبة أحرقت داعية الطبع ، فيقال . كيف يكون صاحب مقام فى الرضا ولايكون صاحب حال فيه والحال مقدمة المقام والمقام أثبت ، نقول : لأن المقام لما كان مشوبا بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه ، والحال لما كانت موهبة من الله نزهت عن مزج الطبع فحال الرضا أشرف ، ومقام الرضا أمكن ، ولابدّ للمقامات من زائد الأحوال ، فلا مقام إلا بعد سابقة حال ، ولاتفرد للمقامات دون سابقة الأحوال .

وأما الأحوال فمنها مايصير مقاما ، ومنها مالايصير مقاما ، والسر فيه ماذكرناه : أن الكسب فى المقام ظهر والموهبة بطنت ، وفى الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن ، فلما كان فى الأحوال الموهبة غالبة لم تتقيد وصار الأحوال إلى ما لانهاية لها ، ولطف سنى الأحوال أن يصير مقاما ، ومقدورات الحق غير متناهية ، ومواهبه غير متناهية ، ولهذا قال بعضهم : لو أعطيت روحانية عيسى ومكالمة موسى وخلة إبراهيم عليه السلام لطلبت ماوراء ذلك ، لأن مواهب الله

لاتنحصر ؛ وهذه أحوال الأنبياء والأولياء والأولياء . ولكن هـذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما فيه من أمر الحق تعالى ؛ لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نبه على عدم القناعة وقرع باب الطلب واستنزال بركة المزيد بقوله عليه السلام « كل يوم لم أزدد فيه علما يقربنى إلى الله فلا بورك لى فى صبيحة ذلك اليوم » . وفى دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف فيه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فأنا أرغب إليك وأسألك إياه » .

فاعلم أن مواهب الحق لاتنحصر ، والأحوال مواهب وهى متصلة بكلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها وتنفد أعداد الرمال دون أعدادها . والله المنعم المعطى .

الباب التاسع والخمسون : فى الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله ، قال أخبرنا أبو منصور بن خيرون إجازة ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن على بن محمد الجوهرى إجازة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن صاعد ، قال أخبرنا الحسين بن الحسن المروزى ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا الهيثم ابن جميل ، قال أخبرنا كثير بن سليم المدائنى ، قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال . يارسول الله ، إنى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أين أنت من الاستغفار ؟ فإنى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة » وروى أبو هريرة رضى الله عنه فى حديث آخر « فإنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى كل يوم مائة مرة » وروى أبو بردة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » .

وقال الله تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ وقال الله عزوجل ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ وقال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ﴾ التوبة أصل كل مقام ، وقوام كل مقام ، ومفتاح كل حال ، وهى أول المقامات ، وهى بمثابة الأرض للبناء ؛ فمن لا أرض له لا بناء له ، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له ؛ وإنى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهدى اعتبرت المقامات والأحوال وثمراتها ؛ فرأيتها بجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمـان وعقوده وشروطه ، فصارت مع الإيمـان أربعة ، ثم رأيتها فى إفادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الأربع التى جعلها الله تعالى بإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ، ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلج ملكوت السموات ويكاشف بالقدر والآيات ، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات ويحظى بجميع الأحوال والمقامات فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيأت وتأكدت ، فأخذ الثلاث بعد الإيمان : التوبة النصوح . والثانى : الزهد فى الدنيا . والثالث : تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقالبية من غير فتور وقصور ، ثم يستعان على إتمـام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمـامها وقوامها ، وهى قلة الكلام ، وقلة الطعام ، وقلة المنام ، والاعتزال عن الناس . واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الأربع بها تستقر المقامات وتستقيم الأحوال ، وبها صار الأبدال أبدالا بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه . وتبين بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج فى صحة هذه ، ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها ، أولها بعد الإيمان : التوبة ، وهى فى مبدإ صحتها تفتقر إلى أحوال وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال ، ولابد فى ابتدائها من وجود زاجر ووجدان الزاجر حال ، لأنه موهبة من الله تعالى على ماتقرر أن الأحوال مواهب ، وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها .

قال رجل لبشر الحافى : مالى أراك مهموما ؟ قال : لأنى ضال ومطلوب ، ضللت الطريق والمقصد وأنا مطلوب به ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطابت ، ولكن سنة الغفلة أدركتنى وليس لى منها خلاص إلا أن أزجر فأنزجر

وقال الأصمعى : رأيت أعرابيا بالبصرة يشتكى عينيه وهما يسيل منهما المـاء ، فقلت له : ألا تمسح عينيك؟ فقال : لا ؛ لأن الطبيب زجرنى ، ولا خير فيمن لا ينزجر .

فالزاجر في الباطن حال يهبها الله تعالى ، ولابد من وجودها للتائب ؛ ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه .

قال بعضهم : من لزم مطالعة الطوارق انتبه . وقال أبو يزيد : علامة الانتباه خمس : إذا ذكر نفسه افتقر ، وإذا ذكر ذنبه استغفر ، وإذا ذكر الدنيا اعتبر ، وإذا ذكر الآخرة استبشر ، وإذا ذكر المولى اقشعر .

وقال بعضهم : الانتباه أوائل دلالات الخير ، إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى التيقظ ؛ فإذا تيقظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشد فيطلب ، وإذا طلب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع إلى باب توبته ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ .

قال فارس : أوفى الأحوال التيقظ والاعتبار . وقيل : التيقظ تبيان خط المسلك بعد مشاهدة سبيل النجاة .

وقيل : إذا صحت اليقظة كان صاحبها في أوائل طريق التوبة .

وقيل : اليقظة طردة من جهة المولى لقلوب الخائفين تدلهم على طلب التوبة ، فإذا تمت يقظته نقل بذلك إلى مقام التوبة ؛ فهذه أحوال ثلاثة تتقدم التوبة ، ثم التوبة في استقامتها تحتاج إلى المحاسبة ، ولا تستقيم التوبة إلا بالمحاسبة .

نقل عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا العرض الأكبر على الله ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ فالمحاسبة بحفظ الأنفاس وضبط الحواس ورعاية الأوقات وإيثار المهمات ، ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم والليلة رحمة منه لعلمه سبحانه بعبده واستيلاء الغفلة عليه ، كي لا يستعبده الهوى وتسترقه الدنيا ؛ فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية ، ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى ، ويسد مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية ، ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار ؛ لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تتمكن في القلب نكتة سوداء وتعقد عليه عقدة ، والمتفقد المحاسب يهيئ الباطن للصلاة بضبط الجوارح ويحقق مقام المحاسبة ؛ فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته إلى الصلاة الأخرى ، فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته ، ووقته منورا معمورا بنور صلاته .

وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات في قرطاس ، ويدع بين كل صلاتين بياضا ، وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة أو أمر آخر خط خطا ، وكلما تكلم أو تحرك فيما لا يعنيه نقط نقطة ، ليميز ذنوبه وحركاته فيما لا يعنيه لتضييق المحاسبة مجارى الشيطان والنفس الأمارة بالسوء لموضع صدقه في حسن الافتقاد وحرصه على تحقيق مقام العباد ، وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة .

قال الجنيد : من حسنت رعايته دامت ولايته . وسئل الواسطي : أي الأعمال أفضل ؟ قال : مراعاة السر ، والمحاسبة في الظاهر ، والمراقبة في الباطن ، ويكمل أحدهما بالآخر ، وبهما تستقيم التوبة . والمراقبة والرعاية حالان شريفان ويصيران مقامين شريفين يصحبان بصحة مقام التوبة ، وتستقيم التوبة على الكمال بهما ؛ فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف أبي بكر الشيرازي قال : سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت الحسن الفارسي يقول : سمعت الجريري يقول : أمرنا هذا مبني على فصلين : وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى ، ويكون العلم على ظاهرك قائما

وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السر لملاحظة الحق في كل لحظة ولفظة . قال الله تعالى ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وهذا هو علم القيام ، وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والنقصان : وهو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله ، وكل هذا ملازم لصحة التوبة ، وصحة التوبة ملازم لها ، لأن الخواطر مقدمات العزائم ، والعزائم مقدمات الأعمال ، لأن الخواطر تحقق إرادة القلب ، والقلب أمير الجوارح ، ولا تتحرك الجوارح إلا بتحرك القلب بالإرادة وبالمراقبة حسم مواد الخواطر الرديئة ، فصار من تمام المراقبة التوبة ، لأن من حصر الخواطر كفى مؤونة الجوارح ، لأن بالمراقبة اصطلام عروق إرادة المكاره من القلب ، وبالمحاسبة استدراك ما انفلت من المراقبة .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن السلمي قال : سمعت أباعثمان المغربي يقول : أفضل مايلزم الإنسان في هذا الطريق المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالعلم ، وإذا صحت التوبة صحت الإنابة .

قال إبراهيم بن أدهم إذا صدق العبد في توبته صار منيبا ، لأن الإنابة ثاني درجة التوبة .

وقال أبو سعيد القرشي : المنيب الراجع عن كل شيء يشغله عن الله إلى الله .

قال بعضهم : الإنابة الرجوع منه إليه لا من شيء غيره ، فمن رجع من غيره إليه ضيع أحد طرفى الإنابة ، والمنيب على الحقيقة : من لم يكن له مرجع سواه ، فيرجع إليه من رجوعه ثم يرجع من رجوع رجوعه ، فيبقى شبحا لا وصف له قائما بين يدى الحق مستغرقا في عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال . والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة .

قال أبو سليمان : مااستحسنت من نفسى عملا فأحتسبه . وقال أبو عبدالله السجزى : من استحسن شيئا من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته ، إلا أن يرجع إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانيا ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق فيه له وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال . ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإنابة وهو في تحقيق مقام التوبة . ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة . ولا يصدق العبد في المجاهدة إلا بوجود الصبر .

وروى فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : والمجاهد من جاهد نفسه ، ولا يتم ذلك إلا بالصبر ، وأفضل الصبر الصبر على الله بعكوف الهم عليه ، وصدق المراقبة بالقلب ، وحسم مواد الخواطر . والصبر ينقسم إلى فرض وفضل ؛ فالفضل كالصبر على أداء المفترضات ، والصبر عن المحرمات .

ومن الصبر الذى هو فضل : الصبر على الفقر ، والصبر عند الصدمة الأولى ، وكتمان المصائب والأوجاع ، وترك الشكوى ، والصبر على إخفاء الفقر ، والصبر على كتم المنح والكرامات ورؤية العبر والآيات .

ووجوه الصبر فرضا وفضلا كثيرة ، وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر ، ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفى الخواطر ، فإذاً حقيقة الصبر كائنة في التوبة كينونة المراقبة في التوبة ، والصبر من أعز مقامات الموقنين ، وهو داخل في حقيقة التوبة .

قال بعض العلماء : أى شيء أفضل من الصبر ـ وقد ذكره الله تعالى في كلامه في نيف وتسعين موضعا ! وماذكر شيئا بهذا العدد وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه .

ومن الصبر : الصبر على النعمة : وهو أن لا يصرفها في معصية الله تعالى ، وهذا أيضا داخل في صحة التوبة .

وكان سهل بن عبد الله يقول : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء .

وروى عن بعض الصحابة : بلينا بالضراء فصبرنا ، وبلينا بالسراء فلم نصبر .

ومن الصبر : رعاية الاقتصاد في الرضا والغضب ، والصبر عن محمدة الناس ، والصبر على الخمول . والتواضع والذل : داخل في الزهد وإن لم يكن داخلا في التوبة ، وكل ماقات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد في الزهد ، وهو ثالث الأربعة التي ذكرنا .

وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس ، وطمأنينتها من تزكيتها ، وتزكيتها بالتوبة ؛ فالنفس إذا تزكت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية ، وقلة الصبر من وجوه الشراسة للنفس وإبائها واستعصائها . والتوبة النصوح تلين النفس وتخرجها من طبيعتها وشراستها إلى اللين ؛ لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفئ نيرانها المتأججة بمتابعة الهوى ، وتبلغ بطمأنينتها محل الرضا ومقامه ، وتطمئن في مجارى الأقدار .

قال أبو عبد الله النباجي : لله عباد يستحيون من الصبر ويتلقون مواضع أقداره بالرضا تلقفا .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول : أصبحت ومالى سرور إلا مواقع القضاء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حين وصاه « اعمل لله باليقين في الرضا ، فإن لم يكن فإن في الصبر خيرا كثيرا » وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من خير ماأعطى الرجل : الرضا بما قسم الله تعالى له » .

فالأخبار والآثار والحكايات فى فضيلة الرضا وشرفه أكثر من أن تحصى ، والرضا ثمرة التوبة النصوح ، وما تخلف عبد عن الرضا إلا بتخلفه عن التوبة النصوح ، فإذاً تجمع التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر وحال الرضا ومقام الرضا . والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين، وهما كائنان فى صلب التوبة النصوح؛ لأن خوفه حمله على التوبة ، ولولا خوفه ماتاب ،ولولا رجاؤه ماخاف ؛ فالرجاء والخوف يتلازمان فى قلب المؤمن، ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبة : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى سياق الموت فقال : « كيف تجدك ؟ » قال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى . فقال « ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجا وأمنه مما يخاف » .

وجاء فى تفسير قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول : قد هلكت لاينفعنى عمل ؛ فالتائب خاف فتاب ورجا المغفرة ، ولا يكون التائب تائبا إلا وهو راج خائف ؛ ثم إن التائب حيث قيد الجوارح عن المكاره واستعان بنعم الله على طاعة الله . فقد شكر النعم ؛ لأن كل جارحة من الجوارح نعمة ، وشكرها قيدها عن المعصية واستعمالها فى الطاعة ،وأى شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم ؛ فإذاجمع مقام التوبة هذه المقامات كلها ، فقد جمع مقام التوبة : حال الزجر ، وحال الانتباه ، وحال التيقظ ، ومخالفة النفس ، والتقوى ، والمجاهدة ، ورؤية عيوب الأفعال ، والإنابة ، والصبر ، والرضا ، والمحاسبة ، والمراقبة ، والرعاية ، والشكر ، والخوف ، والرجاء .

وإذا صحت التوبة النصوح وتزكت النفس انجلت مرآة القلب وبان قبح الدنيا فيها ، فيحصل الزهد ، والزاهد يتحقق فيه التوكل لأنه لايزهد فى الموجود إلا لاعتماد على الموعود ، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين التوكل ، وكلما بقى على العبد بقية فى تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه : بزهده فى الدنيا ، وهو ثالث الأربعة .

أخبرنا شيخنا قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن العباس ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن ساعدة ، قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى ، قال حدثنا عبد الله بن المبارك ، قال حدثنا الهيثم بن جميل ، قال أخبرنا محمد بن سليمان عبدالله بن بريدة قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فبدأ بفاطمة رضى الله عنها فرآها قد أحدثت فى البيت سترا وزواهد فى يديها ، فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل ، ثم جلس لجل ينكت فى الأرض ويقول : مالى وللدنيا، مالى وللدنيا ، فرأت فاطمة أنه إنما رجع من أجل الستر ، فأخذت الستر والزواهد وأرسلت بهما مع بلال وقالت له : اذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقل له : قد تصدقت به ، فضعه حيث شئت ، فأتى بلال إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قالت فاطمة قد تصدقت به فضعه حيث شئت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « بأبى وأمى قد فعلت ، بأبى وأمى قد فعلت ، اذهب فبعه » .

وقيل فى قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ قيل : الزهد فى الدنيا .

سئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الزهد ؟ فقال : هو أن لاتبالى بمن أكل الدنيا مؤمن أو كافر .

وسئل الشبلى عن الزهد فقال : ويلكم أى مقدار لجناح بعوضة أن يزهد فيها ؟ ! .

وقال أبو بكر الواسطى : إلى متى تصول بترك كنيف ، وإلى متى تصول بإعراضك عما لا يزن عند الله جناح بعوضة ! ؟ .

فإذا صح زهد العبد صح توكله أيضا ؛ لأن صدق توكله مكنه من زهده فى الموجود؛ فمن استقام فى التوبة وزهد فى الدنيا وحقق هذين المقامين استوى سائر المقامات وتكون فيها وتحقق بها .

وترتيب التوبة مع المراقبة وارتباط إحداهما بالأخرى : أن يتوب العبد ، ثم يستقيم فى التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا ، ثم يرتقى من تطهير الجوارح عن المعاصى إلى تطهير الجوارح عما لا يعنى فلا يسمع بكلمة فضول

ولا حركة فضول ، ثم ينتقل الرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن وتستولى المراقبة على الباطن : وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه ثم خواطر الفضول ؛ فإذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح وتستقيم توبته . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾ أمره الله تعالى بالاستقامة فى التوبة أمراً له ولأتباعه وأمته . وقيل : لا يكون المريد مريدا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا عشرين سنة ، ولا يلزم من هذا وجود العصمة ولكن الصادق التائب فى النادر إذا ابتلى بذنب ينمحى أثر الذنب من باطنه فى ألطف ساعة لوجود الندم فى باطنه على ذلك ، والندم توبة فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا ؛ فإذا تاب توبة نصوحا ثم زهد فى الدنيا حتى لا يهتم فى غدائه لعشائه ولا فى عشائه لغدائه ولا يرى الادخار ، ولا يكون له تعلق هم بغد ، فقد جمع فى هذا الزهد ، والفقر ، والزهد أفضل من الفقر ، وهو فقر وزيادة ، لأن الفقير عادم للشيء اضطرارا ، والزاهد تارك للشيء اختيارا ، وزهده يحقق توكله ، وتوكله يحقق رضاه ، ورضاه يحقق الصبر ، وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة وحبس النفس لله يحقق خوفه ، وخوفه يحقق رجاءه ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات . والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع صحة الإيمان وعقوده وشروطه يعوز هذه الثلاثة رابع به تمامها وهو دوام العمل ، لأن الأحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة ، وتيسير بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام العمل . وكثير من الزهاد المتحققين بالزهد المستقيمين فى التوبة تخلفوا عن كثير من سنى الأحوال لتخلفهم عن هذا الرابع ، ولا يراد الزهد فى الدنيا إلا لكمال الفراغ المستعان به على إدامة العمل لله تعالى . والعمل لله : أن يكون العبد لا يزال ذاكراً أو تالياً أو مصليا أو مراقبا ، لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعى أو مهم لا بد منه طبيعى ، فإذا استولى العمل القلبى على القلب مع وجود الشغل الذى أداه إليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل ، فإذا كان مع الزهد والتقوى متمسكا بدوام العمل فقد أكمل الفضل وما آلى جهدا فى العبودية .

قال أبو بكر الوراق : من خرج من قالب العبودية صنع به ما يصنع بالآبق .

وسئل سهل بن عبدالله التسترى : أى منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية ؟ قال : إذا ترك التدبير والاختيار .

فإذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتى ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار ، ثم يصل إلى أن يملك الاختيار ، فيكون اختياره من اختيار الله تعالى لزوال هواه ووفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه .

قال يحيى بن معاذ الرازى : مادام العبد يتعرف يقال له لا تختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف ، فإذا عرف وصار عارفا يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختر ؛ لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت ، وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار ؛ فإنك بنا فى الاختيار وفى ترك الاختيار . والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز ـ الذى هو الغاية والنهاية : وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار ـ إلا بإحكامه هذه الأربعة التى ذكرناها ، لأن ترك التدبير فناء ، وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده ورده إلى الاختيار تصرف بالحق ، وهو مقام البقاء ، وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق ، وهذا العبد ما بقى عليه من الاعوجاج ذرة ، واستقام ظاهره وباطنه فى العبودية ، وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه ، وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدى الله عز وجل متمسكة بالاستكانة والافتقار ، متحققة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك ولا إلى أحد من خلقك فأضيع ، اكلأنى كلاءة الوليد ولا تخل عنى » .

الباب الستون : فى ذكر إشارات المشايخ فى المقامات على الترتيب

قولهم فى التوبة

قال رويم : معنى التوبة أن يتوب من التوبة . قيل : معناه قول رابعة : أستغفر الله العظيم من قلة صدقى فى قولى أستغفر الله

وسئل الحسن المغازلى عن التوبة ؟ فقال : تسألنى عن توبة الإنابة أو عن توبة الاستجابة ؟ فقال السائل :ماتوبة الإنابة ؟ فقال : أن تخاف من الله عزوجل من أجل قدرته عليك . قال : فما توبة الاستجابة ؟ قال: أن تستحى من الله لقربه منك ، وهذا الذى ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب فى صلاته من كل خاطر يلم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه ، وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب ، كما قيل :

* وجودك ذنب لايقاس به ذنب *

قال ذو النون : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ماناله غيرهم .

سئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته ، فقال : الحلاوة طبع البشرية ولابد من الطبع ، وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى ، وينكره بقلبه ، ويلزم نفسه الإنكار ولايفارقه ، ويدعو الله أن ينسيه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته . قال: وإن غفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن لايسلم وتعمل الحلاوة فى قلبه ، ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن ، فإنه لايضره . وهذا الذى قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته . والعارف القوىّ الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه ويسهل عليه ذلك . وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين ، فأى حلاوة تبقى فى قلبه ، وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله .

وسئل السوسى عن التوبة ؟ فقال : التوبة من كل شيء ذمه العلم إلى مامدحه العلم ، وهذا وصف يعمّ الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم ، لأنه لابقاء للجهل مع العلم ، كما لابقاء الليل مع طلوع الشمس ، وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام ، وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأعم أوصافها .

وقال أبو الحسن النورى : التوبة أن تتوب عن كل شيء سوى الله تعالى .

قولهم فى الورع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ملاك دينكم الورع » أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف عن أبى عبد الرحمن السلمى إجازة ، قال أخبرنا أبوسعيد الخلال ، قال حدثنى ابن قتيبة قال حدثنا عمر بن عثمان ، قال حدثنا بقية عن أبى بكر بن أبى مريم عن حبيب بن عبيد عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله فى النهر وقال : يبلغه الله عز وجل قوما ينفعهم .

قال عمر بن الخطاب : لاينبغى لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا . قال معروف الكرخى احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم .

نقل عن الحارث بن أسد المحاسبى أنه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق .

سئل الشبلى عن الورع ؟ فقال : الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين .

وقال أبو سليمان الدارانى : الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا .

وقال يحيى بن معاذ : الورع الوقوف على حدّ العلم من غير تأويل .

سئل الخواص عن الورع ؟ فقال : أن لايتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت محمد بن داود الدينورى يقول : سمعت ابن الجلاء يقول : أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاه بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئاً .

وقال الخواص : الورع دليل الخوف ، والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة .

قولهم فى الزهـــد

قال الجنيد : الزهد خلوّ الأيدى من الأملاك والقلوب من التتبع .

وسئل الشبلى عن الزهد ؟ فقال : لا زهد فى الحقيقة ، لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد ، أو يزهد فيما هو له فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده ؟ فليس إلا ظلف النفس وبذل مواساة : يشير إلى الأقسام التى سبقت بها الأقلام ، وهذا لواطرد هدم قاعدة الاجتهاد والكسب ، ولكن مقصود الشبلى : أن يقلل الزهد فى عين المتعبد بالزهد لئلا يغتر به .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهداً فى الدنيا ومنطقا ، فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة » .

وقد سمى الله عز وجل الزاهدين علماء فى قصة قارون فقال تعالى ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير ﴾ قيل هم الزاهدون .

وقال سهل بن عبد الله : للعقل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ، وأوّل كل اسم منه ترك الدنيا .

وقيل فى قوله تعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ قيل : عن الدنيا .

وفى الخبر « العلماء أمناء الرسل مالم يدخلوا فى الدنيا فإذا دخلوا فى الدنيا فاحذروهم على دينكم » .

وجاء فى الأثر : لاتزال « لاإله إلا الله » تدفع عن العباد سخط الله مالم يبالوا ما انتقص من دنياهم ؛ فإذا فعلوا ذلك وقالوا لاإله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

وقال سهل : أعمال البر كلها فى موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم .

وقيل : من سمى باسم الزهد فى الدنيا فقد سمى بألف اسم محمود ؛ ومن سمى باسم الرغبة فى الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم .

وقال السرى : الزهد ترك حظوظ النفس من جميع مافى الدنيا ، ويجمع هذا : الحظوظ المالية ، والجاهية ، وحب المنزلة عند الناس ، وحب المحمدة والثناء .

وسئل الشبلى عن الزهد فقال : الزهد غفلة ، لأن الدنيا لاشىء ، والزهد فى لاشىء غفلة .

وقال بعضهم : لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا فى زهدهم فى الدنيا لهوانها عندهم ، وعندى أن الزهد فى الزهد غير هذا ، وإنما الزهد فى الزهد بالخروج من الاختيار فى الزهد ، لأنّ الزاهد اختار الزهد وأراده ، وإرادته تستند إلى علمه ، وعلمه قاصر ، فإذا أقيم فى مقام ترك الإرادة وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده ، فيترك الدنيا بمراد الحق لا بمراد نفسه ، فيكون زهده بالله تعالى حينئذ . أو يعلم أن مراد الله منه التلبس بشىء من الدنيا ، فما يدخل بالله فى شىء من الدنيا لا ينقص عليه زهده ، فيكون دخوله فى الشىء من الدنيا بالله وبإذن منه زهداً فى الزهد ، والزهد فى الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها ، إن تركها تركها بالله ، وإن أخذها أخذها بالله ، وهذا هو الزهد فى الزهد : وقد رأينا من العارفين من أقيم فى هذا المقام . وفوق هذا مقام آخر فى الزهد : وهو لمن يردّ الحق إليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه فى مقام البقاء ، فيزهد زهداً ثالثاً ويترك الدنيا بعد أن مكن من ناصيتها وأعيدت عليه موهوبة ، ويكون تركها فى هذا المقام باختياره ، واختياره من اختيار الحق ؛ فقد يختار تركها حيناً تأسيا بالأنبياء والصالحين ، ويرى أن أخذها فى مقام الزهد رفق أدخل عليه لموضع ضعفه عن درك شأو الأقوياء من الأنبياء

والصديقين ؛ فيترك الرفق من الحق بالحق للحق ، وقد يتناوله باختياره رفقاً بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم : وهذا مقام التصرف لأقوياء العارفين : زهدوا ثالثاً بالله ، كما رغبوا ثانياً بالله ، كما زهدوا أوّلا لله .

قولهم فى الصبر

قال سهل : الصبر انتظار الفرج من الله وهو أفضل الخدمة وأعلاها .

وقال بعضهم : الصبر أن تصبر فى الصبر : أى لا تطالع فيه الفرج : قال الله تعالى ﴿والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ .

وقيل : لكل شيء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل ، وجوهر العقل الصبر ؛ فالصبر : عرك النفس ، وبالعرك تلين والصبر جار فى الصابر مجرى الانفاس ، لأنه يحتاج الى الصبر عن كل منهى ومكروه ومذموم ظاهراً وباطنا ، والعلم يدل والصبر يقبل ، ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر ومن كان العلم سائسه فى الظاهر والباطن لا يتم ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه . والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ، ومصدرهما الغريزة العقلية ، وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما ، وبالصبر يتحامل على النفس ، وبالعلم يترقى الروح ، وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما فى مستقره ، وفى ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال ، وبانفصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعنى النفس والروح ، وبيان ذلك يدق . وناهيك بشرف الصبر قوله تعالى ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ كل أجير أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب . وقال الله تعالى لنبيه : ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به .

قيل : وقف رجل على الشبلى فقال : أى صبر أشد على الصابرين ؟ فقال : الصبر فى الله ؛ فقال : لا . فقال : الصبر لله ، فقال : لا . فقال : الصبر مع الله ، فقال : لا . فغضب الشبلى وقال : ويحك ، أى شيء هو ؟ فقال الرجل : الصبر عن الله . قال : فصرخ الشبلى صرخة كاد أن تتلف روحه وعندى فى معنى الصبر عن الله وجه ، ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه : وذلك أن الصبر عن الله يكون فى أخص مقامات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا ، وتنطبق بصيرته خجلا وذوبانا ، ويتغيب فى مفاوز استكانته وتخفيه لإحساسه بعظيم أمر التجلى ، وهذا من أشد الصبر لأنه يود استدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال ، والروح تود أن تكتحل بصيرتها باستطلاع نور الجمال ، وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر ، فالروح فى هذا الصبر منازعة ، فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك .

وقال أبو الحسن بن سالم : هم ثلاثة : متصبر ، وصابر ، وصبار ؛ فالمتصبر : من صبر فى الله ؛ فمرة يصبر ، ومرة يجزع . والصابر : من يصبر فى الله ولله ولا يجزع ، ولكن تتوقع منه الشكوى ، وقد يمكن منه الجزع . وأما الصبار : فذاك الذى صبره فى الله ولله وبالله ، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة ، لا من جهة الرسم والخلقة ، وإشارته فى هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة .

وكان الشبلى يتمثل بهذين البيتين :

إن صوت المحب من ألم الشو ... ق وخوف الفراق يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث به الصبـ ... ـر فصاح المحب للصبر صبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله : أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر وجعل الحظ الأعلى للرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعل صبره بالله لا بنفسه ، فقال ﴿وما صبرك إلا بالله﴾ .

وسئل السرى عن الصبر ، فتكلم فيه ، فدب على رجله عقرب ، فجعل يضربه بإبرته ، فقيل له : لم لا تدفعه ؟ قال : أستحى من الله تعالى أن أتكلم فى حال ثم أخالف ما أتكلم فيه

أخبرنا أبو زرعة إجازة ، عن أبى بكر بن خلف إجازة ، عن أبى عبد الرحمن قال : سمعت محمد بن خالد يقول : سمعت الفرغانى يقول : سمعت الجنيد رحمه الله يقول : إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالإيمان ، وأكرم الإيمان بالعقل

وأكرم العقل بالصبر ، فالإيمان زين المؤمن ، والعقل زين الإيمان ، والصبر زين العقل .

وأنشد عن إبراهيم الخواص رحمه الله :

صبرت على بعض الأذى خوف كله ودافعت عن نفسى لنفسى فعزّت
وجرّعتها المكروه حتى تدرّبت ولولم أجرّعها إذن لاشمأزّت
ألا ربّ ذل ساق للنفس عزّة ويارب نفس بالتذلل عزت
إذا مامددت الكف ألتمس الغنى إلى غير من قال اسألونى فشلت
سأصبر جهدى إن فى الصبر عزة وأرضى بدنياىا وإن هى قلت

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ماأنعم الله على عبد من نعمة ثم انتزعها فعاضه مما انتزع منه الصبر ، إلا كان ماعاضه خيرا مما انتزعه منه . وأنشد اسمنون :

تجرّعت من حاليه نعمى وأبؤسا زمانا إذا أجرى عزاليه احتسى
فكم غمرة قد جرّعتنى كؤوسها لجرعتها من بحر صبرى أكؤسا
تدرّعت صبرى والتحفت صروفه وقلت لنفسى الصبر أو فاهلكى أسى
خطوب لو ان الشم زاحم خطبها لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

قولهم فى الفقر

قال ابن الجلاء : الفقر أن لايكون لك ؛ فإذا كان لك لايكون لك حتى تؤثر .

وقال الكتانى : إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى ، لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر .

وقال النورى : نعت الفقراء السكون عند العدم ، والبذل عند الوجود . وقال غيره : والاضطراب عند الموجود

وقال الدراج : فتشت كنف أستاذى أريد مكحلة ، فوجدت فيها قطعة فتحيرت ، فلما جاء قلت له : إنى وجدت فى كنفك هذه القطعة . قال : قد رأيتها ردها ، ثم قال : خذها واشتر بها شيئا ، فقلت : ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك ؟ فقال : مارزقنى الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها ، فأردت أن أوصى أن تشدّ فى كفنى فأردها إلى الله .

وقال ابراهيم الخواص : الفقر رداء الشرف ولباس المرسلين وجلباب الصالحين .

وسئل سهل بن عبد الله عن الفقير الصادق ؟ فقال : لايسأل ولايرد ولايحبس .

وقال أبو على الروذبارى رحمه الله : سألنى الزقاق فقال : ياأبا على ، لم ترك الفقراء أخذ البلغة فى وقت الحاجة ؟ قال : قلت لأنهم مستغنون بالمعطى عن العطايا . قال . نعم ، ولكن وقع لى شىء آخر ، فقلت . هات أفدنى ماوقع لك؟ قال . لأنهم قوم لاينفعهم الوجود ، إذ لله فاقتهم ، ولاتضرهم الفاقة ، إذ لله وجودهم . قال بعضهم : الفقر وقوف الحاجة على القلب ومحوها عما سوى الرب .

وقال المسوحى . الفقير : الذى لاتغنيه النعم ولاتفقره المحن .

وقال يحيى بن معاذ : حقيقة الفقر أن لايستغنى إلا بالله ، ورسمه عدم الأسباب كلها .

وقال أبو بكر الطوسى : بقيت مدة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الأشياء ؟ فلم يجبنى أحد بجواب يقنعنى ، حتى سألت نصر بن الحمامى فقال لى : لأنه أول منزل من منازل التوحيد ، فقنعت بذلك .

وسئل ابن الجلاء عن الفقر ؟ فسكت حتى صلى ، ثم ذهب ورجع ثم قال إنى لم أسكت إلا لدرهم كان عندى فذهبت فأخرجته ، واستحييت من الله تعالى أن أتكلم فى الفقر وعندى ذلك ، ثم جلس وتكلم .

قال أبو بكر بن طاهر عن حكم الفقير : أن لايكون له رغبة ، فإن كان ولابدّ لاتجاوز رغبته كفايته :

قال فارس : قلت لبعض الفقراء مرة ـ وعليه أثر الجوع والضر : لم لاتسأل فيطعموك ؟ فقال : إنى أخاف أن

أسألهم فيمنعوني فلا يفلحون .

وأنشد لبعضهم :

قالوا غدا عيد ماذا أنت لابسه ... فقلت خلعة ساق عبده الجرعا

فقر وصبر هما ثوبان تحتهما ... قلب يرى ربه الأعياد والجمعا

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به ... يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا

الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى ... والعيد مادمت لى مرأى ومستمعا

قولهم فى الشكر

قال بعضهم : الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : لست بشاكر مادمت تشكر وغاية الشكر التحير ، وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها .

وفى أخبار داود عليه السلام : إلهى كيف أشكرك وأنا لاأستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمتك ؟ فأوحى الله إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتنى .

ومعنى الشكر فى اللغة : هو الكشف والإظهار ، يقال : شكر وكشر ، إذا كشف عن ثغره وأظهره ، فنشر النعم وذكرها وتعدادها باللسان من الشكر . وباطن الشكر : أن تستعين بالنعم على الطاعة ولاتستعين بها على المعصية فهو شكر النعمة .

وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم :

أوليتنى نعما أبوح بشكرها ... وكفيتنى كل الأمور بأسرها

فلأشكرنك ماحييت وإن أمت ... فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر ، وظلم فاستغفر ، قيل : فما باله ؟ قال ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

قال الجنيد فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان .

وفى الحديث « أفضل الذكر لاإله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » .

وقال بعضهم فى قوله تعالى ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ قال الظاهرة العوافى والغنى ، والباطنة البلاوى والفقر ، فإن هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء .

وحقيقة الشكر أن يرى جميع المقضى له به نعما غير ما يضره فى دينه ، لأن الله تعالى لايقضى للعبد المؤمن شيئا إلا وهو نعمة فى حقه ؛ فإما عاجلة يعرفها ويفهمها ، وإما آجلة بما يقتضى له من المكاره ، فإما أن تكون درجة له أو تمحيصا أو تكفيرا ؛ فإذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل ما منه نعم ، فقد شكر .

قولهم فى الخوف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأس الحكمة مخافة الله » وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « كان داود النبى عليه السلام يعوده الناس يظنون أن به مرضا وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه » .

قال أبو عمر الدمشقى الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان .

وقال بعضهم ليس الخائف من يخاف ويمسح عينيه ولكن الخائف التارك مايخاف أن يعذب عليه .

وقيل الخائف الذى لايخاف غير الله . قيل أى لايخاف لنفسه إنما يخاف إجلالا له ، والخوف للنفس خوف العقوبة وقال سهل الخوف ذكر والرجاء أنثى أى منهما تتولد حقائق الإيمان ، قال الله تعالى ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ قيل . هذه الآية قطب القرآن ، لأن مدار الأمر كله على هذا .

وقيل : إن الله تعالى جمع للخائفين مافرقه على المؤمنين : وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، فقال تعالى : ﴿هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ وقال ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وقال ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ .

وقال سهل : كمال الإيمان بالعلم ، وكمال العلم بالخوف . وقال أيضا : العلم كسب الإيمان ، والخوف كسب المعرفة .

وقال ذو النون : لا يسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه .

وقال فضيل بن عياض . إذا قيل لك : تخاف الله ؟ اسكت ، فإنك إن قلت لا ، كفرت ، وإن قلت نعم ؛ كذبت ، فليس وصفك وصف من يخاف .

قولهم فى الرجاء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عزوجل أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ثم يقول : وعزتى وجلالى لا أجعل من آمن بى ساعة من ليل أونهار كمن لا يؤمن بى » .

وقيل : جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من يلى حساب الخلق ؟ فقال « الله تبارك وتعالى » قال : هو بنفسه ؟ قال « نعم » فتبسم الأعرابى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « مم ضحكت يا أعرابى ؟ » فقال إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سمح .

وقال شاه الكرمانى : علامة الرجاء حسن الطاعة ، وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال ، وقيل : قرب القلب من ملاطفة الرب .

قال أبو على الروذبارى : الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم فى طيرانه .

قال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو ، قال مطرف : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا .

والخوف والرجاء للإيمان كالجناحين ، ولا يكون خائفا إلا وهو راج ، ولا راجيا إلا وهو خائف ، لأن موجب الخوف الإيمان ، وبالإيمان رجاء ، وموجب الرجاء الإيمان ، ومن الإيمان خوف ولهذا المعنى روى عن لقمان أنه قال لابنه : خف الله تعالى خوفا لا تأمن فيه مكره ، وارجه أشد من خوفك ، قال : فكيف أستطيع ذلك إنما لى قلب واحد ؟ : أما علمت أن المؤمن ذو قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر ؟ وهذا لأنهما من حكم الإيمان .

قولهم فى التوكل

قال السرى : التوكل الانخلاع من الحول والقوة . وقال الجنيد : التوكل أن تكون لله كما لم تكن ، فيكون الله لك كما لم يزل .

وقال سهل : كل المقامات لها وجه وقفا ، غير التوكل فإنه وجه بلا قفا .

قال بعضهم : يريد توكل العناية لا توكل الكفاية ، والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ وقال ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وقال لنبيه ﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت﴾ .

وقال ذو النون : التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة .

وقال أبو بكر الرقاق : التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد .

وقال أبو بكر الواسطى : أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار وأن لا يفارق التوكل فى أمانيه ولا يلتفت بصره إلى توكله لحظة فى عمره .

وقال بعضهم : من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه وينس الدنيا وأهلها ، لأن حقيقة التوكل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله .

وقال سهل : أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدى الله تعالى كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف أراد ولايكون له حركة ولاتدبير . وقال حمدون القصار : التوكل هو الاعتصام بالله وقال سهل أيضاً : العلم كله باب من التعبد ، والتعبد كله باب من الورع ، والورع كله باب من الزهد ، والزهد كله باب من التوكل . وقال : التقوى واليقين مثل كفتى الميزان ، والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان .

ويقع لى أن التوكل على قدر العلم بالوكيل ، فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلا ، ومن كمل توكله غاب فى رؤية الوكيل عن رؤية توكله ، ثم إن قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل فى القسمة ، وأن الأقسام نصبت بإزاء المقسوم لهم عدلا وموازنة ، فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل فى النفس ، وكل ما أحس بشىء يقدح فى توكله يراه من منبع النفس ، فنقصان التوكل يظهر بظهور النفس ، وكماله يثبت بغيبة النفس ، وليس للأقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم وإنما شغلهم فى تغييب النفس بتقوية مراد القلب ، فإذا غابت النفس انحسمت مادة الجهل فصح التوكل والعبد غير ناظر إليه ، وكلما تحرك من النفس بقية يرد على ضميرهم سر قوله تعالى ﴿ إن الله يعلم مايدعون من دونه من شىء ﴾ فيغلب وجود الحق الأعيان والأكوان ، ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون فى نفسه ، ويصير التوكل حينئذ اضطرارا ، ولايقدح فى توكل مثل هذا المتوكل مايقدح فى توكل الضعفاء فى التوكل من وجود الأسباب والوسائط ، لأنه يرى الأسباب مواتا لاحياة لها إلا بالتوكل ، وهذا توكل خواص أهل المعرفة .

قولهم فى الرضا

قال الحارث الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم . وقال ذوالنون : الرضا سرور القلب بمر القضاء . وقال سفيان عند رابعة : اللهم ارض عنا ، فقالت له : أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض ، فسألها بعض الحاضرين : متى يكون العبد راضيا عن الله تعالى ؟ فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة .

وقال سهل : إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة ﴿ فطوبى لهم وحسن مآب ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا » وقال عليه السلام « إن الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » .

وقال الجنيد : الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب ، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا ، وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء ، فإنهما حالان لايفارقان العبد فى الدنيا والآخرة لأنه فى الجنة لايستغنى عن الرضا والمحبة .

وقال ابن عطاء الله : الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، لأنه اختار له الأفضل فيرضى له وهو ترك السخط .

وقال أبو تراب . ليس ينال الرضا من الله من للدنيا فى قلبه مقدار .

وقال السرى : خمس من أخلاق المقربين : الرضا عن الله فيما تحب النفس وتكره ، والحب له بالتحبب إليه ، والحياء من الله ، والأنس به والوحشة مما سواه .

وقال الفضيل : الراضى لايتمنى فوق منزلته شيئا . وقال ابن شمعون : الرضا بالحق والرضا له والرضا عنه ، فالرضا به مدبرا ومختارا ، والرضا عنه قاسما ومعطيا ، والرضا له إلها وربا .

سئل أبو سعيد : هل يجوز أن يكون العبد راضيا ساخطا ؟ قال : نعم . يجوز أن يكون راضيا عن ربه ساخطا على نفسه وعلى كل قاطع يقطعه عن الله . وقيل للحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما . إن أباذر يقول : الفقر أحب إلى من الغنى ، والسقم أحب من الصحة ! قال : رحم الله أباذر ، أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه فى غير الحالة التى اختار الله له .

وقال على رضى الله عنه : من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ، ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله فى كل حال .

وقال يحيى : يرجع الأمر كله إلى هذين الأصلين : فعل منه لك ، وفعل منك له ، فترضى بما عمل وتخلص فيما تعمل .

وقال بعضهم : الراضى من لم يندم على فائت من الدنيا ولم يتأسف عليها .

وقيل ليحيى بن معاذ : متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا ؟ قال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ، يقول : إن أعطيتنى قبلت ، وإن منعتنى رضيت ، وإن تركتنى عبدت ، وإن دعوتنى أجبت .

وقال الشبلى رحمه الله بين يدى الجنيد : لاحول ولا قوة إلا بالله . قال الجنيد : قولك ذا ضيق صدر ، فقال : صدقت قال : فضيق الصدر ترك الرضا بالقضاء ، وهذا إنما قاله الجنيد رحمه الله تنبيها منه على أصل الرضا ، وذلك أن الرضا يحصل لانشراح القلب وانفساحه ، وانشراح القلب من نور اليقين . قال الله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتحت عين البصيرة وعاين حسن تدبير الله تعالى فينتزع السخط والضجر ، لأن اتساع الصدر يتضمن حلاوة الحب وفعل المحبوب بموقع الرضا عن المحب الصادق ؛ لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره ، فيفنى فى لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه ، كما قيل :

* وكل مايفعل المحبوب محبوب *

الباب الحادى والستون : فى ذكر الأحوال وشرحها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله ، قال أخبرنا أبو طالب الزينبى ، قال أخبرتنا كريمة المروزية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشميهنى ، قال أخبرنا أبو عبدالله الفربرى ، قال أخبرنا أبو عبدالله البخارى ، قال حدثنا سليمان بن حرب ، قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله ، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » .

وأخبرنا شيخنا أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبدالرحمن ، قال أخبرنا أبو عمر بن حيوة ، قال حدثنى أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه ، قال حدثنى بشر بن محمد ، قال حدثنا عبدالملك بن وهب عن إبراهيم بن أبى عبلة عن العرباض بن سارية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو « اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى وسمعى وبصرى وأهلى ومالى ومن الماء البارد » فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب خالص الحب ، وخالص الحب : هو أن يحب الله تعالى بكليته ، وذلك أن العبد قد يكون فى حال قائما بشروط حاله بحكم العلم ، والجبلة تتقاضاه بضد العلم ، مثل أن يكون راضيا والجبلة قد تكره ، ويكون النظر إلى الانقياد بالعلم لا إلى الاستمساك بالجبلة ؛ فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان ، ويحب الأهل والولد بحكم الطبع .

والمحبة وجوه . وبواعث المحبة فى الإنسان متنوعة : فمنها محبة الروح ، ومحبة القلب ، ومحبة النفس ، ومحبة العقل ؛ فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الأهل والمال والماء البارد : معناه استئصال عروق المحبة بمحبة الله تعالى حتى يكون حب الله تعالى غالبا ، فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكليته ، حتى يكون حب الله تعالى أغلب فى الطبع أيضا والجبلة من حب الماء البارد ، وهذا يكون حبا صافيا لخواص تنعم به وبنوره نار الطبع والجبلة ، وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بعكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب .

قال الواسطى فى قوله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته ، فالهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات .

وقال بعضهم : الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة ، فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة ، فإذاً الحب حبان : حب عام ، وحب خاص ، فالحب العام مفسر بامتثال الأمر ، وربما كان حبا من معدن العلم بالآلاء والنعماء ، وهذا الحب مخرجه من الصفات ، وقد ذكر جمع من المشايخ الحب فى المقامات ، فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذى يكون لكسب العبد فيه مدخل .

وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح ، وهو الحب الذى فيه السكرات ، وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه ، وهذا الحب يكون من الأحوال ؛ لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل ، وهو مفهوم من قول النبى صلى الله عليه وسلم « أحب إلى من الماء البارد » لأنه كلام عن وجدان روح تلتذ بحب الذات ، وهذا الحب روح ، والحب الذى يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإيمان قالب هذا الروح ، ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿ أذلة على المؤمنين ﴾ لأن المحب يذل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه ، وينشد :

لعين تفـــدّى ألف عين وتتقى ٭ ويكرم ألف للحبيب المكرم

وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها ، وهو فى الأحوال كالتوبة فى المقامات ؛ فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل على ماشرحناه أولا : ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك ؛ والتوبة لهذا الحب أيضا بمثابة الجسمان ؛ لأنها مشتملة على الحب العام الذى هو لهذا الحب كالجسد ، ومن أخذ فى طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يتكمل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذى تشتمل عليه التوبة النصوح ، وعند ذلك لايتقلب فى أطوار المقامات ، لأن التقلب فى أطوار المقامات والترقى من شىء منها إلى شىء طريق المحبين ، ومن أخذ فى طريق المجاهدة من قوله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ ومن قوله تعالى ﴿ ويهدى إليه من ينيب ﴾ أثبت كون الإنابة سببا للهداية فى حق المحب ، وفى حق المحبوب صرح بالاجتباء غير معلل بالكسب فقال الله تعالى ﴿ الله يجتبى إليه من يشاء ﴾ فمن أخذ فى طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه صفوها وخالصها بأتم وصفها ، والمقامات لاتقيده ولا تحبسه وهو يقيدها ويحبسها بترقيه منها وانتزاعه صفوها وخالصها ، لأنه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها ، والمقامات كلها مصفية للنعوت والصفات النفسانية ، فالزهد يصفيه عن الرغبة ، والتوكل يصفيه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس ، والرضا يصفيه عن ضربان عرق المنازعة ، والمنازعة لبقاء جمود فى النفس ماأشرق عليها شموس المحبة الخاصة فبقى ظلمتها وجمودها ، فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جمودها ، فماذا ينزع الزهد منه من الرغبة ورغبة الحب أحرقت رغبته ! وماذا يصفى منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته ! وماذا يسكن فيه الرضا من عروق المنازعة والمنازعة ممن لم تسلم كليته ؟

قال الروذبارى مالم تخرج من كليتك لاتدخل فى حد المحبة . وقال أبو يزيد : من قتلته محبته فديته رؤيته ، ومن قتله عشقه فديته منادمته .

أخبرنا بذلك أبو زرعة عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن قال : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت الحسين ابن علويه يقول : قال أبو يزيد ذلك ، فإذاً التقلب فى أطوار المقامات لعوام المحبين ، وطى بساط الأطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون : تخلفت عن هممهم المقامات ، وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات ، وهى مواطن من يتعثر فى أذيال بقاياه .

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص : إلى ماذا أدى بك التصوف ؟ فقال : إلى التوكل ، فقال : تسعى فى عمران باطنك ! أين أنت من الفناء فى التوكل برؤية الوكيل ؟

فالنفس إذا تحركت بصفتها متفلتة من دائرة الزهد يردها الزاهد إلى الدائرة بزهده ، والمتوكل إذا تحركت نفسه يردها بتوكله ، والراضى يردها برضاه ، وهذه الحركات من النفس بقايا وجودية تفتقر إلى سياسة العلم ، وفى ذلك تنسم روح القرب من بعيد : وهو أداء حق العبودية مبلغ العلم وبحسبه الاجتهاد والكسب . ومن أخذ فى طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتستر بأنوار فضل الحق . ومن اكتسى ملابس نور أهل القرب بروح دائمة العكوف محمية عن الطوارق والصروف لايزعجه طلب ولا يوحشه سلب ، فالزهد والتوكل والرضا كائن فيه ، وهو غير كائن فيها ، على معنى أنه كيف تقلب كان زاهدا وإن رغب ، لأنه بالحق لا بنفسه ، وإن رؤى منه الالتفات إلى الأسباب

فهو متوكل ، وإن وجد منه الكراهة فهو راض ، لأن كراهته انفسه ونفسه للحق وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة محولة ملطوف بها ، صار عين الداء دواءه وصار الإعلال شفاءه ، وناب طلب الله له مناب كل طالب من زهد وتوكل ورضا ، أو صار مطلوبه من الله ينوب عنه كل مطلوب من زهد وتوكل ورضا .

قالت رابعة : محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه

وقال أبو عبدالله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببت كلك ولا يبقى لك منك شيء .

وقال أبو الحسين الوراق : السرور بالله من شدة المحبة له ، والمحبة فى القلب نار تحرق كل دنس .

وقال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ، واعجبا كيف يصبر الإنسان عن حبيبه !

وقال بعضهم : من ادعى محبة الله من غير تورع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى محبة الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب ، ومن ادعى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير حب الفقراء فهو كذاب . وكانت رابعة تنشد :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وإذا كان الحب للأحوال كالتوبة للمقامات فن ادعى حالا يعتبر حبه ، ومن ادعى محبة تعتبر توبته ، فإن التوبة قالب روح الحب ، وهذا الروح قيامه بهذا القالب ، والأحوال أعراض قوامها بجوهر الروح .

وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « المرء مع من أحب » فهم مع الله تعالى .

وقال أبو يعقوب السوسي : لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب ولم يكن هذا بالمحبة ، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة .

سئل الجنيد عن المحبة ؟ قال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب . قيل : هذا على معنى قوله تعالى « فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا » ، وذلك أن المحبة إذا صفت وكملت لا تزال تجذب بوصفها إلى محبوبها ، فإذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت والرابطة متأصلة متأكدة ، وكال وصف المحبة أزال الموانع من المحب ، وبكمال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفا على المحب المخلص من موانع قادحة فى صدق الحب ، ونظرا إلى قصوره بعد استنفاد جهده ، فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب ، فيقول عند ذلك .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

وهذا الذي عبر عنه حقيقة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخلقوا بأخلاق الله » ، لأنه بنزاهة النفس وكمال التزكية يستعد للمحبة والمحبة موهوبة غير معللة بالتزكية ، ولكن سنة الله جارية أن يزكي نفوس أحبابه بحسن توفيقه وتأييده ، وإذا منح نزاهة النفس وطهارتها ثم جذب ووهب محاذب المحبة خلع عليه خلع الصفات والأخلاق ، ويكون ذلك عنده رتبة فى الوصول ، فتارة ينبعث الشوق من باطنه إلى ماوراء ذلك لكون عطايا الله غير متناهية ، وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذى يسكن نيران شوقه ، وبباعث الشوق تستقر الصفات الموهوبة المحققة رتبة الوصول عند المحب ، ولولا باعث الشوق رجع القهقرى وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه ، ومن ظن من الوصول غير ماذكرناه أو تخايل له غير هذا القدر ، فهو متعرض لمذهب النصارى فى اللاهوت والناسوت .

وإشارات الشيوخ فى الاستغراق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب ، وتحقيق حق اليقين بزوال أعوجاج البقايا ، وأمنت البقايا الوجودي من بقاء صفات النفس . وإذا صحت المحبة ترتبت عليها الأحوال وتبعتها .

سئل الشبلى عن المحبة ؟ فقال : كأس لها وهج إذا استقر فى الحواس وسكن فى النفوس تلاشت .

وقيل : للمحبة ظاهر وباطن ، ظاهرها اتباع رضا المحبوب ، وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شىء ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه ؛ فمن الأحوال السنية فى المحبة الشوق ، ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا ، لأن أمر الحق تعالى لا نهاية له ؛ فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأتم :

حوى لحسنك لا لذا أمـد * ينهى إليه ولا لذا أمد

ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس من كسبه ، وإنما هو موهبة خص الله بها المحبين .

قال أحمد بن أبى الحوارى : دخلت على أبى سليمان الدارانى فرأيته يبكى ، فقلت : ما يبكيك رحمك الله ؟ قال : ويحك يا أحمد ، إذا جن هذا الليل افترشت أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم ، وأشرف الجليل جل جلاله عليهم يقول : يعنى من تلذذ بكلامى واستراح إلى مناجاتى ، وإنى مطلع عليهم فى خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم ، يا جبريل ناد فيهم ما هذا البكاء الذى أراه فيكم ؟ هل خبركم مخبر أن حبيبا يعذب أحبابه بالنار ؟ كيف يجمل بى أن أعذب قوما إذا جن عليهم الليل تملقوا إلى ؟ فى حلفت إذا وردوا القيامة على أن أسفر لهم عن وجهى وأبيحهم رياض قدسى .

وهذه أحوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشرق ، والشوق من المحبة كالزهد من التوبة : إذا استقرت التوبة ظهر الزهد ، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق .

قال الواسطى فى قوله تعالى ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ قال شوقا واستهانة بمن وراءه ﴿ قال هم أولاء على أثرى ﴾ من شوقه إلى مكالمة الله ، ورمى بالألواح لما فاته من وقته .

قال أبو عثمان : الشوق ثمرة المحبة ، فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه . وقال أيضاً فى قوله تعالى ﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ تقرية للمشتاقين ، معناه : إنى أعلم أن شوقكم إلى غالب ، وأنا أجلت للقائكم أجلا ، وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه .

وقال ذو النون : الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات ، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه ورجاء للقائه والنظر إليه .

وعندى : أن الشرق الكائن فى المحبين إلى رتب يتوقعونها فى الدنيا ، غير الشوق الذى يتوقعون به ما بعد الموت ، والله تعالى يكاشف أهل وده بعطايا يجدونها علما ويطلبونها ذوقا ؛ فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقا ، وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت ، ورجاء الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى ، كما قال الجليل لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾ فمن كانت حياته لله ، منحه الكريم لذة المناجاة والمحبة ، فتمتلئ عينه من النقد ، ثم يكاشفه من المنح والعطايا فى الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق إلى ما بعد الموت .

وأنكر بعضهم مقام الشوق وقال : إنما يكون الشوق لغائب ، ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق ؟ ولهذا سئل الأنطاكى عن الشوق ؟ فقال : إنما يشتاق إلى الغائب وما غبت عنه منذ وجدته ، وإنكار الشوق على الإطلاق لا أرى له وجها ؛ لأن رتب العطايا والمنح من أنصبة القرب إذا كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من المحب ؟ فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد ، ولكن يكون مشتاقا إلى ما لم يجد من أنصبة القرب ، فكيف يمنع حال الشوق والأمر هكذا ؟ ووجه آخر : أن الإنسان لابد له من أمور يردها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته وعدم وقوفه على حد العلم الذى يقتضيه حكم الحال ، ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق ، ولا نعنى بالشوق إلا مطالبة تنبعث من الباطن إلى الأولى والأعلى من أنصبة القرب ، وهذه المطالبة كائنة فى المحبين ، فالشوق إذا كائن لا وجه لإنكاره .

وقد قال قوم : شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبوبة ، فيكون فى حال الغيبوبة مشتاقاً إلى اللقاء ، ويكون فى حال اللقاء والمشاهدة مشتاقاً إلى زوائد ومبار من الحبيب وإفضاله ، وهذا هو الذى أراه وأختاره .

وقال فارس : قلوب المشتاقين منورة بنور الله ، فإذا تحركت اشتياقاً أضاء النور مابين المشرق والمغرب ، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول . هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أنى إليهم أشوق .

وقال أبو يزيد : لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار .

سئل ابن عطاء الله عن الشوق فقال : هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الأكباد من البعد بعد القرب .

سئل بعضهم : هل الشوق أعلى أم المحبة : فقال : المحبة ؛ لأن الشوق يتولد منها ، فلا مشتاق إلا من غلبه الحب ، فالحب أصل والشوق فرع .

وقال النصراباذى : للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق ، ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار .

ومنها الأنس : وقد سئل الجنيد عن الأنس ؟ فقال : ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة .

وسئل ذو النون عن الأنس ؟ فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب . قيل : معناه قول الخليل ﴿ أرنى كيف تحيى الموتى ﴾ وقول موسى ﴿ أرنى أنظر إليك ﴾ . وأنشد رويم :

شغلت قلبى بما لديك فلا * ينفك طول الحياة عن فكر
آنستنى منك بالوداد فقد * أوحشتنى من جميع ذا البشر
ذكرك لى مؤنس يعارضنى * يوعدنى عنك منك بالظفر
وحيثما كنت يامدى هممى * فأنت منى بموضع النظر

وروى أن مطرف بن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز : ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه ، فإن لله عباداً استأنسوا بالله وكانوا فى وحدتهم أشد استئناساً من الناس فى كثرتهم ، وأوحش مايكون الناس آنس مايكونون ، وآنس مايكون الناس أوحش ما يكونون .

قال الواسطى : لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها .

وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم ، لأن كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا الله تعالى ، فإنك لاتزداد به أنساً إلا ازددت منه هيبة وتعظيما .

قالت رابعة : كل مطيع مستأنس . وأنشدت :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى * وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس * وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمى قلبه وضيع عمره .

قيل لبعضهم : من معك فى الدار ؟ قال : الله تعالى معى ولا يستوحش من أنس بربه .

وقال الخراز : الأنس محادثة الأرواح مع المحبوب فى مجالس القرب .

وصف بعض العارفين صفة أهل المحبة الواصلين فقال : جدد لهم الود فى كل طرفة بدوام الاتصال ، وآواهم فى كنفه بحقائق السكون إليه حتى أنت قلوبهم وحنت أرواحهم شوقاً . وكان الحب والشوق منهم إشارة من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله ، فذهبت منام وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم ، ولو أن الحق تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم ماسألوه بعض ماأعد لهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق علمه ، وكان نصيبهم معرفتهم بموفراغ همهم عليه واجتماع أهوائهم فيه ، فصار يحصدهم من عبيده العموم : أن رفع عن قلوبهم جميع الهموم وأنشد فى معناه :

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت إذ رأتك النفس أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

وقد يكون من الأنس: الأنس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه وسائر أبواب القربات، وهذا القدر من الأنس نعمة من الله تعالى ومنحة منه، ولكن ليس هو حال الأنس الذي يكون للمحبين، والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد وكمال التقوى وقطع الأسباب والعلائق ومحو الخواطر والهواجس، وحقيقته عندي: كنس الوجود بثقل لائح العظمة وانتشار الروح في ميادين الفتوح، وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب فيجمعه بنعت الهيبة، وفي الهيبة اجتماع الروح ورسوبه إلى محل النفس، وهذا الذي وصفناه من أنس الذات وهيبة الذات يكون في مقام البقاء بعد العبور على ممر الفناء، وهما غير الأنس والهيبة اللذين يذهبان بوجود الفناء؛ لأن الهيبة والأنس قبل الفناء ظهرا بمطالعة الصفات من الجلال والجمال وذلك مقام التلوين، وما ذكرناه بعد الفناء في مقام التمكين والبقاء من مطالعة الذات.

ومن الأنس: خضوع النفس المطمئنة، ومن الهيبة: خشوعها، والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك بإيماء الروح.

ومنها: القرب، قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام «واسجد واقترب» وقد ورد «أقرب ما يكون العبد من ربه في سجوده» فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون، ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب قال بعضهم: إني لأجد الحضور فأقول: يا الله، أو يارب؛ فأجد ذلك على أثقل من الجبال. قيل: ولم؟ قال: لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليسا ينادي جليسه؟ وإنما هي إشارات وملاحظات ومناغاة وملاطفات، وهذا الذي وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب، ولكنه مشعر بمحو، ومؤذن بسكر، يكون ذلك لمن غابت نفسه في نور روحه لغلبة سكره وقوة محوه؛ فإذا صحا وأفاق تتخلص الروح من النفس والنفس من الروح، ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه، فيقول: يا الله ويارب، بلسان النفس المطمئنة العائدة إلى مقام حاجتها ومحل عبوديتها، والروح قستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الأقوال، وهذا أتم وأقرب من الأول؛ لأنه وفي حق القرب باستقلال الروح بالفتوح، وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى محل الافتقار، وحظ القرب لا يزال يتوفر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس.

وقال الجنيد: إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه، فانظر ماذا يقرب من قلبك.

وقال أبو يعقوب السوسي: مادام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب. وقد قال قائلهم:

قد تحققت في السر فناجاك لساني
فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عياني
فلقد صيرك الوجد من الأحشاء داني

قال ذوالنون: ما ازداد أحد من الله قربة إلا ازداد هيبة. وقال سهل: أدنى مقام من مقامات القرب الحياء.
وقال النصراباذي: باتباع السنة تنال المعرفة، وبأداء الفرائض تنال القربة، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة.

ومنها: الحياء، والحياء على الوصف العام والوصف الخاص؛ فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله «استحيوا من الله حق الحياء» قالوا: إنا نستحي يارسول الله. قال «ليس ذلك، ولكن من

استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحى من الله حق الحياء ، وهذا الحياء من المقامات .

وأما الحياء الخاص فمن الأحوال : وهو مانقل عن عثمان رضى الله عنه أنه قال : إنى لأغتسل فى البيت المظلم فأنطوى حياء من الله .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت أحمد السقطى ابن صالح يقول : سمعت محمد بن عبدون يقول سمعت أبا العباس المؤدب يقول : قال لى سرى : احفظ عنى ماأقول لك إن الحياء والأنس يطرقان بالقلب ، فإذا وجدا فيه الزهد والورع حطا ، وإلا رحلا ، والحياء إطراق الروح إجلالا لعظم الجلال . والأنس التذاذ الروح بكمال الجمال ؛ فإذا اجتمعا فهو الغاية فى المنى والنهاية فى العطاء . وأنشد شيخ الإسلام

أشتاقه فإذا بدا أطرقت من إجلاله لاخيفة بل هيبة وصيانة لجماله
الموت فى إدباره والعيش فى إقباله وأصد عنه إذا بدا وأروم طيف خياله

قال بعض الحكماء : من تكلم فى الحياء ولا يستحى من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج .

وقال ذو النون الحياء وجود الهيبة فى القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك .

وقال ابن عطاء الله : العلم الأكبر الهيبة والحياء ؛ فإذا ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه .

وقال أبو سليمان : إن العباد عملوا على أربع درجات : على الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والحياء . وأشرفهم منزلة : من عمل على الحياء ، لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال استحيا من حسناته أكثر مما استحيا العاصون من سيئاتهم .

وقال بعضهم : الغالب على قلوب المستحيين الإجلال والتعظيم دائما عند نظر الله إليهم .

ومنها الاتصال قال النورى الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار وقال بعضهم الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول . وقال بعضهم الاتصال أن لايشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه. وقال سهل بن عبد الله حركوا بالبلاء فتحركوا ، ولو سكنوا اتصلوا . وقال يحيى بن معاذ الرازى العمال أربعة تائب ، وزاهد ، ومشتاق ، وواصل ؛ فالتائب محجوب بتوبته ، والزاهد محجوب بزهده ، والمشتاق محجوب بحاله ، والواصل لايحجبه عن الحق شىء .

وقال أبو سعيد القرشى الواصل الذى يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبدا ، والمتصل الذى يجهده يتصل ، وكلما دنا انقطع ، وكأن هذا الذى ذكره حال المريد والمراد ، لكون أحدهما مبادأ بالكشوف وكون الآخر مردودا إلى الاجتهاد .

وقال أبو يزيد الواصلون فى ثلاثة أحرف همهم لله ، وشغلهم فى الله ، ورجوعهم إلى الله .

وقال السيارى الوصول مقام جليل ، وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبدا أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب إليه البعيد .

وقال الجنيد الواصل هو الحاصل عند ربه . وقال رويم أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم ، فهم محفوظو القوى ، ممنوعون من الخلق أبدا .

وقال ذو النون مارجع من رجع إلا من الطريق ، وماوصل إليه أحد فرجع عنه .

واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليه الشيوخ ، وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ، ثم يتفاوتون ، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة فى التجلى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ، ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار ، وهذه رتبة فى الوصول . ومنهم من يوقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال ، وهذا تجلى طريق الصفات وهو رتبة فى الوصول ، ومنهم

من ترقى لمقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغيبا فى شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين ، وهذا المقام رتبة فى الوصول ، وفوق هذا حق اليقين ، ويكون من ذلك فى الدنيا للخواص لمح : وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه ، وهذا من أعلى رتب الوصول ؛ فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد فى أول المنزل فأين الوصول؟ هيهات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدى ، فكيف فى العمر القصير الدنيوى ؟

ومنها القبض والبسط : وهما حالان شريفان ، قال الله تعالى ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ وقد تكلم الشيوخ وأشاروا بإشارات هى علامات القبض والبسط ، ولم أجد كشفا عن حقيقتهما لأنهم اكتفوا بالإشارة ، والإشارة تقنع الأهل ، وأحببت أن أشبع الكلام فيهما لعله يتشوق إلى ذلك طالب ويحب بسط القول فيه والله أعلم .

واعلم أن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم لا يكونان قبله ولا يكونان بعده ، ووقتهما وموسمهما فى أوائل حال المحبة الخاصة لا فى نهايتها ، ولا قبل حال المحبة الخاصة ؛ فمن هو فى مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط ، وإنما يكون له خوف ورجاء ، وقد يجد شبه حال القبض وشبه حال البسط ، ويظن ذلك قبضا وبسطا ، وليس هو ذلك ، وإنما هو هم يعتريه فيظنه قبضا ، واهتزاز نفسانى ونشاط طبيعى يظنه بسطا ، والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها ، وما دامت صفة الأمارة فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز والنشاط والهم : وهيج ساجور النفس ، والنشاط : ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع ؛ فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال وذا قلب وذا نفس لوامة ، ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك ؛ لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان وحال المحبة الخاصة ، فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى

قال الواسطى : يقبضك عمالك ويبسطك فيما له : وقال النورى : يقبضك بإياك ، ويبسطك لإياه .

واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها ، وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته ، والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوبة ، وتارة غالبة ، والقبض والبسط باعتبار ذلك منها ، وصاحب القلب تحت حجاب نورانى لوجود قلبه ، كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلمانى لوجود نفسه ، فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيده الحال ولا يتصرف فيه ، فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ ، فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلصا من الوجود النورانى الذى هو القلب ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب ؛ فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء ، يعود إلى الوجود النورانى الذى هو القلب ، فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك ، ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط .

قال فارس : أولا القبض ثم البسط ، ثم لا قبض ولا بسط ، لأن القبض والبسط يقع فى الوجود ، فأما مع الفناء والبقاء فلا ، ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإفراط فى البسط ، وذلك أن الوارد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحا وفرحا واستبشارا ، فتسترق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها ، فإذا وصل أثر الوارد إلى النفس طغت بطبعها وأفرطت فى البسط حتى تشاكل البسط نشاطا ، فتقابل بالقبض عقوبة ، وكل القبض إذا فتش لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها ، ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض ، ومادام روحه وأنسه . ورعاية الاعتدال الذى يسد باب القبض متلقى من قوله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ فوارد الفرح مادام موقوفا على الروح والقلب لا يكثف ولا يستوجب صاحبه القبض سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالإيواء إلى الله ، وإذا لم يلتجئ بالإيواء إلى الله تعالى تطالعت النفس وأخذت حظها من الفرح ، وهو الفرح بما أوتى الممنوع منه ، فمن ذلك القبض فى بعض الأحايين ، وهذا من ألطف الذنوب الموجبة للقبض . وفى النفس من حركاتها وصفاتها وثبات متعددة موجبة للقبض ، ثم الخوف والرجاء لا يعدمها صاحب القبض والبسط ولا صاحب الأنس والهيبة ، لأنهما من ضرورة الإيمان فلا ينعدمان . وأما القبض والبسط فينعدمان عند صاحب الإيمان لنقصان الحظ من القلب ، وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب ، وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف

سببهما ، ولايخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذى لم يحكم علم الحال ولا علم المقام ، ومن أحكم علم الحال والمقام لايخفى عليه سبب القبض والبسط ، وربما يشتبه عليه سبب القبض والبسط كما يشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط ، وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه ، ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة لاتتقدح من جوهرها نار توجب القبض ، ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط ، وربما صار لمثل هذا القبض والبسط فى نفسه لامن نفسه ، فتكون نفسه المطمئنة بطبع القلب فيجرى القبض والبسط فى نفسه المطمئنة ، وما للقلب قبض ولا بسط ؛ لأن القلب متحصن بشعاع نور الروح مستقر فى دعة القرب فلا قبض ولا بسط . ومنها : الفناء والبقاء . وقد قيل : الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له فى شىء حظ ، بل يفنى عن الأشياء كلها شغلا بمن فنى فيه . وقد قال عامر بن عبدالله : لاأبالى امرأة رأيت أم حائطا ، ويكون محفوظا فيما لله عليه مصروفا عن جميع المخالفات . والبقاء يعقبه ، وهو أن يفنى عما له ويبقى بما لله تعالى .

وقيل الباقى أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا ، فيكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفته ، فكان فانيا عن المخالفات باقيا فى الموافقات .

وعندى أن هذا الذى ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح ، وليس من الفناء والبقاء فى شىء .

ومن الإشارة إلى الفناء ماروى عن عبدالله بن عمر أنه سلم عليه إنسان وهو فى الطواف فلم يرد عليه . فشكاه إلى بعض أصحابه ، فقال له كنا نتراءى الله فى ذلك المكان .

وقيل الفناء هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل .

وقال الخراز الفناء هو التلاشى بالحق . والبقاء هو الحضور مع الحق .

وقال الجنيد الفناء استعجام الكل عن أوصافك واشتغال الكل منك بكليته .

وقال إبراهيم بن شيبان : علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة .

وسئل الخراز ماعلامة الفانى ؟ قال : علامة من ادّعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى .

وقال أبو سعيد الخراز : أهل الفناء فى الفناء صحتهم أن يصحبهم علم البقاء ، وأهل البقاء فى البقاء صحتهم أن يصحبهم علم الفناء .

واعلم أن أقاويل الشيوخ فى الفناء والبقاء كثيرة ، فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة النصوح ، فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل ، وهذا يقتضيه الزهد . وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة ، وهذا يقتضيه تزكية النفس . وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق ، وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه . ولكن الفناء المطلق هو مايستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد ، فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد ، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن ، فأما الفناء الظاهر : فهو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال ويسلب عن العبد اختياره وإرادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا إلا بالحق ، ثم يأخذ فى المعاملة مع الله تعالى بحسبه ، حتى سمعت أن بعض من أقيم فى هذا المقام من الفناء كان يبقى أياما لايتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ويقيض الله تعالى له من يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب ، وهذا لعمرى فناء ، لأنه فنى عن نفسه وعن الغير نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله . والفناء الباطن : أن يكاشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات . فيستولى على باطنه أمر الحق حتى لايبقى له هاجس ولا وسواس . وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه ، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص ، وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق .

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبدالله البصرى وقلت له : هل يكون بقاء المتخيلات فى السر ووجود الوسواس

من الشرك الخفى ؟ ـ وكان عندى أن ذلك من الشرك الخفى ـ فقال لى : هذا يكون فى مقام الفناء . ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفى أم لا ؟ ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان فى الصلاة فوقعت اسطوانة فى الجامع فانزعج لهدّتها أهل السوق ، فدخلوا المسجد فرأوه فى الصلاة ولم يحسّ بالأسطوانة ووقوعها ؛ فهذا هو الاستغراق والفناء باطنا ، ثم قد يتسع وعاؤه حتى لعله يكون متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ، ولا يغيب عن كل ما يجرى عليه من قول وفعل ، ويكون من أقسام الفناء : أن يكون فى كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الإذن فى كليات أموره ليكون فى الأشياء بالله لا بنفسه ؛ فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان ، وصاحب الانتظار لإذن الحق فى كليات أموره راجع إلى الله بباطنه فى جزئياتها فان ، ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه فى التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للإذن هو باق ، والباقى فى مقام لا يحجبه الحق عن الخلق ، ولا الخلق عن الحق ، والفانى محجوب بالحق عن الخلق ، والفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال ، والفناء الباطن لمن أطلق عن وثاق الأحوال ، وصار بالله لا بالأحوال ، وخرج من القلب فصار مع مقلبه لا مع قلبه .

الباب الثانى والستون

فى شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال فى اصطلاح الصوفية

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى بن سليمان إجازة ، قال أخبرنا أبو الفضل حمد بن أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى ، قال حدثنا محمد بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو مسلم الكشى ، قال حدثنا مسور بن عيسى ، قال حدثنا القاسم بن يحيى ، قال حدثنا ياسين الزيات عن أبى الزبير عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن من معادن التقوى تعلمك إلى ما قد علمت علم مالم تعلم ، والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه ، وإنما يزهد الرجل فى علم مالم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم » فمشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى ، وتعلموا العلم لله تعالى ، وعملوا بما علموا لموضع تقواهم ، فعلمهم الله تعالى مالم يعلموا من غرائب العلوم ودقيق الإشارات ، واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار وترسخ قدمهم فى العلم قال أبو سعيد الخراز أول الفهم لكلام الله العمل به ، لأن فيه العلم والفهم والاستنباط . وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقوله تعالى ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ وقال أبو بكر الواسطى : الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب ، وفى سر السر ، فعرفهم ما عرفهم ، وأراد منهم من مقتضى الآيات مالم يرد من غيرهم ، وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فانكشف لهم من مدخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص ، فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة .

وقد ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة أنه قال : إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله ؛ فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله .

أخبرنا أبو زرعة ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال حدثنا أبو عبد الرحمن ، قال سمعت النصراباذى يقول : سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشى يقول هى أسرار الله تعالى يبديها إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة ، وهى من الأسرار التى لم يطلع عليها إلا الخواص .

وقال أبو سعيد الخراز للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة يتكلمون فيها بلسان الأبدية ويخبرون عنها بعبارة الأزلية ، وهى من العلم المجهول ، فقوله بلسان الأبدية وعبارة الأزلية ، إشارة إلى أنهم بالله ينطقون . وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «بى ينطق» وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حق الخضر ﴿ آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾ فما تداولته ألسنتهم من الكلمات تفهيما من بعضهم للبعض ، وإشارة منهم إلى أحوال يجدونها ومعاملات قلبية يعرفونها . قولهم الجمع والتفرقة ، قيل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ فهذا جمع ثم فرق فقال ﴿والملائكة وأولوا العلم﴾ وقوله تعالى ﴿ آمنا بالله ﴾ جمع ثم فرق بقوله

﴿ وما أنزل إلينا ﴾ والجمع أصل والتفرقة فرع ؛ فكل جمع بلا تفرقة زندقة ، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل .

وقال الجنيد : القرب بالوجد جمع ، وغيبته فى البشرية تفرقة . وقيل : جمعهم فى المعرفة وفرقهم فى الأحوال . والجمع اتصال لايشاهد صاحبه إلا الحق ، فمتى شاهد غيره فما جمع ، والتفرقة شهود لمن شاء بالمباينة ، وعباراتهم فى ذلك كثيرة والمقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد ، وأشاروا بالتفرقة إلى الاكتساب ، فعلى هذا لاجمع إلا بتفرقة ، ويقولون فلان فى عين الجمع ، يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه ، فإذا عاد إلى شىء من أعماله عاد إلى التفرقة ؛ فصحة الجمع بالتفرقة . وصحة التفرقة بالجمع ؛ فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله ، والتفرقة من العلم بأمر الله ، ولا بد منهما جميعا .

قال المزين : الجمع عين الفناء بالله ، والتفرقة العبودية متصل بعضها بالبعض . وقد غلط قوم وادعوا أنهم فى عين الجمع وأشاروا إلى صرف التوحيد وعطلوا الاكتساب فتزندقوا . وإنما الجمع حكم الروح ، والتفرقة حكم القالب . ومادام هذا التركيب باقيا فلا بد من الجمع والتفرقة .

وقال الواسطى : إذا نظرت إلى نفسك فرقت وإذا نظرت إلى ربك جمعت ، وإذا كنت قائما بغيرك فأنت فان فلا جمع ولا تفرقة .

وقيل : جمعهم بذاته ، وفرقهم فى صفاته ، وقد يريدون بالجمع والتفرقة : أنه إذا أثبت لنفسه كسبا ونظر إلى أعماله فهو فى التفرقة ، وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو فى الجمع ، ومجموع الإشارات ينبىء أن الكون يفرق والمكون يجمع ؛ فمن أفرد المكون جمع ، ومن نظر إلى الكون فرق ؛ فالتفرقة عبودية ، والجمع توحيد ؛ فإذا أثبت طاعته نظرا إلى كسبه فرق ، وإذا أثبتها بالله جمع ، وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع ، ويمكن أن يقال : رؤية الأفعال تفرقة ، ورؤية الصفات جمع ، ورؤية الذات جمع الجمع .

سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام فى وقت الكلام فقال : أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ، ثم كلم فكان المكلم والمتكلم هو ، وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب ورد الجواب لولا إياه سمع ، ومعنى هذا : أن الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع ، ولولا تلك القوة ما قدر على السمع ، ثم أنشد القائل متمثلا :

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ٭ برق تألق موهنا لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه ٭ صعب الذرى متمنع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق ٭ نظرا إليه ورده أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه ٭ والماء ما سمحت به أجفانه

ومنها قولهم : التجلى والاستتار . قال الجنيد : إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب ، فالتأديب : محل الاستتار وهو للعوام ، والتهذيب للخواص وهو التجلى ، والتذويب للأولياء وهو المشاهدة .

وحاصل الإشارات فى الاستتار والتجلى راجع إلى ظهور صفات النفس .

ومنها الاستتار : وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب . ومنها التجلى ، ثم التجلى قد يكون بطريق الأفعال ، وقد يكون بطريق الصفات ، وقد يكون بطريق الذات ، والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم ؛ فأما لهم فلأنهم به يرجعون إلى مصالح النفوس ، وأما لغيرهم فلأنه لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقهم فى جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار .

قال بعضهم : علامة تجلى الحق للأسرار هو أن لايشهد السر ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم ، فمن عبر أو فهم فهو صاحب استدلال لا ناظر إجلال .

وقال بعضهم : التجلى : رفع حجبه البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل . والاستتار : أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب .

ومنها : التجريد والتفريد ، الإشارة منهم فى التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله ، لا يأتى

بما يأتى به نظرا إلى الأغراض فى الدنيا والآخرة ، بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادا والتفريد : أن لايرى نفسه فيما يأتى به بل يرى منة الله عليه ، فالتجريد ينفى الأغيار ، والتفريد ينفى نفسه واستغراقه عن رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه ، ومنها:الوجد والتواجد والوجود؛فالوجد:مايردعلى الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا ، ويغيره عن هيئته ويتطلع إلى الله تعالى،وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى . والتواجد : استجلاب الوجد بالذكر والتفكر،والوجود:اتساع فرجه الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان،فلاوجدمع الوجدان،ولاخبرمع العيان،فالوجدبعرضية الزوال والوجود ثابت بثبوت الجبال،وقد قيل:

قد كان يطربنى وجـــدى فأقعدنى * عن رؤية الوجد من فى الوجد موجود

والوجد يطرب من فى الوجد راحته * والوجد عند حضور الحق مفقود

ومنها : الغلبة والغلبة وجد متلاحق ، فالوجد كالبرق يبدو ، والغلبة كتلاحق البرق وتواتره يغيب عن التبين؛ فالوجد ينطفىء سريعا ، والغلبة تبقى للأسرار حرزا منيعا .

ومنها:المسامرة : وهى تفرد الأرواح بخفى مناجاتها ولطيف مناغاتها فى سر السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرد الروح بها فتلتذ بها دون القلب .

ومنها السكر والصحو : فالسكر : استيلاء سلطان الحال ، والصحو:العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال، قال محمد بن خفيف : السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب ، وقال الواسطى : مقامات الوجد أربعة: الذهول ، ثم الحيرة ، ثم السكر ، ثم الصحو ؛ كمن سمع بالبحر ، ثم دنا منه ، ثم دخل فيه ، ثم أخذته الأمواج؛فعلى هذا : من بقى عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر ، ومن عاد كل شىء منه إلى مستقره فهو صاح ؛ فالسكر لأرباب القلوب ، والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب .

ومنها . المحو والإثبات ، المحو : بإزالة أوصاف النفوس ، والإثبات : بما أدير عليهم من آثار الحب كؤوس. أو المحو : محو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى نفسه وما منه ، والإثبات : إثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به ؛ فهو بالحق لابنفسه بإثبات الحق إياه مستأنفا بعد أن محاه عن أوصافه .

قال ابن عطاء الله : يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم .

ومنها: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، فعلم اليقين : ما كان من طريق النظر والاستدلال . وعين اليقين ما كان من طريق الكشوف والنوال . وحق اليقين : ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال بورود رائد الوصال

قال فارس : علم اليقين لااضطراب فيه ، وعين اليقين : هو العلم الذى أودعه الله الأسرار والعلم إذا انفرد عن نعت اليقين كان علما بشبهة ، فإذا انضم إليه اليقين كان علما بلا شبهة . وحق اليقين : هو حقيقة ما أشار إليه علم اليقـين وعين اليقين .

وقال الجنيد : حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك ، وهو أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيـان ، ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق ، كما أخبر الصديق حين قال لما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماذا أبقيت لعيالك ؟ ، قال : الله ورسوله وقال بعضهم : علم اليقين حال التفرقة ، وعين اليقين حال الجمع، وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد .

وقيل : لليقين : اسم ، ورسم ، وعلم ، وعين وحق؛ فالاسم والرسم للعوام ، وعلم اليقين للأولياء ، وعين اليقين لخواص الأولياء ، وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

ومنها : الوقت ، والمراد بالوقت : ماهو غالب على العبد ، وأغلب ما على العبد وقته ، فإنه كالسيف يمضى الوقت بحكمه ويقطع . وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لابكسبه ، فيتصرف فيه فيكون بحكمه . يقال : فلان بحكم الوقت ، يعنى مأخوذا عما منه بما للحق .

ومنها : الغيبة والشهود ؛ فالشهود : هو الحضور وقتا بنعت المراقبة ، ووقتا بوصف المشاهدة ؛ فادام العبد موصوفا بالشهود والرعاية فهو حاضر ؛ فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب، وقد يعنون بالغيبة الغيبة عن الأشياء بالحق ؛ فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء .

ومنها : الذوق والشرب والرى ، فالذوق : إيمان ، والشرب : علم ، والرى : حال ؛ فالذوق لأرباب البواده ، والشرب لأرباب الطوالع واللوائح واللوامع ، والرى لأرباب الأحوال : وذلك أن الأحوال هي التي تستقر ؛ فما لم يستقر فليس بحال وإنما هي لوامع وطوالع . وقيل : الحال لا تستقر لأنها تحول ، فإذا استقرت تكون مقاما .

ومنها : المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة : فالمحاضرة لأرباب التلوين ، والمشاهدة لأرباب التمكين ، والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر ؛ فالمشاهدة والمحاضرة لأهل العلم ، والمكاشفة لأهل العين ، والمشاهدة لأهل الحق : أى حق اليقين .

ومنها : الطوارق ، والبوادى ، والباده ، والواقع ، والقادح ، والطوالع ، واللوامع واللوائح : وهذه كلها ألفاظ متقاربة المعنى ، ويمكن بسط القول فيها ، ويكون حاصل ذلك راجعا إلى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة فيه ، والمقصود أن هذه الأسماء كلها مبادى الحال ومقدماته ، وإذا صح الحال استوعب هذه الأسماء كلها ومعانيها .

ومنها : التلوين والتمكين : فالتلوين لأرباب القلوب لأنهم تحت حجب القلوب ، وللقلوب تخلص إلى الصفات، والصفات تعدد بتعدد جهاتها ؛ فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات ، ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات . وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الأحوال، وخرقوا حجب القلوب ، وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات ؛ فارتفع التلوين لعدم التغير فى الذات ، إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات ؛ فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلى الذات ارتفع عنهم التلوين ، فالتلوين حينئذ يكون فى نفوسهم لأنها فى محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها ، والتلوين الواقع فى النفوس لا يخرج صاحبه عن حالة التمكين ، لأن جريان التلوين فى النفس لبقاء رسم الإنسانية ، وثبوت القدم فى التمكين كشف حق الحقيقة ، وليس المعنى بالتمكين : أن لا يكون للعبد تغير فإنه بشر ، وإنما المعنى به : أن ما كوشف به من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا يتناقص بل يزيد ، وصاحب التلوين قد يتناقص الشيء فى حقه عند ظهور صفات نفسه ، وتغيب عنه الحقيقة فى بعض الأحوال ، ويكون ثبوته على مستقر الإيمان وتلوينه فى زوائد الأحوال .

ومنها النفس ، ويقال النفس للمنتهى ، والوقت للمبتدى ، والحال للمتوسط ، فكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدئ بطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر ، والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه ، والمنتهى صاحب نفس متمكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور ، بل تكون المواجيد مقرونة بأنفاسه مقيمة لا تتناوب عليه . وهذه كلها أحوال لأربابها ، ولهم منها ذوق وشرب ، والله ينفع ببركتهم آمين

الباب الثالث والستون : فى ذكر شىء من البدايات والنهايات وصحتها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى ، قال أخبرنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزينى ، قال أخبرتنا كريمة المروزية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكى الكشميهنى ، قال أخبرنا أبو عبدالله محمد بن يوسف الفربرى ، قال حدثنا أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى ، قال حدثنا الحميدى ، قال حدثنا سفيان بن عيينة ، قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى ، قال أخبرنى محمد بن إبراهيم التيمى أنه سمع علقمة بن وقاص ، قال : سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول على المنبر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ، النية أول العمل ، وبحسبها يكون العمل ، وأهم ما للمريد فى ابتداء أمره فى طريق القوم : أن يدخل طريق الصوفية ويتزيا بزيهم ويجالس طائفتهم لله تعالى ، فإن دخوله فى طريقهم هجرة حاله

وروده ، وقدورده المهاجر من هجر مانهاه الله عنه ، وقدقال الله تعالى ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ فالمريد ينبغى أن يخرج إلى طريق القوم لله تعالى ؛ فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل ، وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله ، وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن عن ابن أبى العباس البغدادى عن جعفر الخلدى قال : سمعت الجنيد يقول : أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء ، فالمريد فى أول سلوك هذا الطريق يحتاج إلى إحكام النية ، وإحكام النية : تنزيهها من دواعى الهوى ، وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل ، حتى يكون خروجه خالصا لله تعالى .

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز : اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك .

وكتب بعض الصالحين إلى أخيه : أخلص النية فى أعمالك يكفك قليل من العمل ، ومن لم يهتد إلى النية بنفسه يصحب من يعلمه حسن النية .

قال سهل بن عبد الله التسترى : أول ما يؤمر به المريد المبتدئ : التبرى من الحركات المذمومة ، ثم النقل إلى الحركات المحمودة ، ثم التفرد لأمر الله تعالى ، ثم التوقف فى الرشاد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ثم الموالاة ؛ ويكون الرضا والتسليم مراده ، والتفويض والتوكل حاله ، ثم يمن الله تعالى بعد هذه بالمعرفة ، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة ؛ وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام . هذا من كلام سهل جمع فيه ما فى البداية والنهاية .

ومتى تمسك المريد بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ، ولا يحقق صدقه وإخلاصه شىء مثل متابعة أمر الشرع وقطع النظر عن الخلق ؛ فكل الآفات التى دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم إلى الخلق . وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغر » إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقيد بعاداتهم .

قال أحمد بن خضرويه : من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصدق ، فإن الله تعالى مع الصادقين ، وقد ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصدق يهدى إلى البر » ولابد للمريد من الخروج من المال والجاه والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس ، وأنفع شىء للمريد معرفة النفس ؛ ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له فى الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات ، أو عليه من الهوى بقية .

قال زيد بن أسلم : خصلتان هما كمال أمرك تصبح لا تهم لله بمعصية وتمسى ولا تهم لله بمعصية ؛ فإذا أحكم الزهد والتقوى انكشفت له النفس وخرجت من حجبها وعلم طريق حركتها وخفى شهواتها ودسائسها وتلبيساتها . ومن تمسك بالصدق فقد تمسك بالعروة الوثقى . قال ذو النون : لله تعالى فى أرضه سيف ما وضع على شىء إلا قطع وهو الصدق .

ونقل فى معنى الصدق : أن عابدا من بنى إسرائيل راودته ملكة عن نفسه فقال : اجعلوا لى ماء فى الخلاء أتنظف به ، ثم صعد على موضع فى القصر فرمى بنفسه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبدى ، فلزمه ووضعه على الأرض وضعا رفيقا ، فقيل لإبليس ألا أغويته . فقال ليس لى سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى .

وينبغى للمريد أن تكون له فى كل شىء نية لله تعالى حتى فى أكله وشربه وملبوسه ، فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله ، لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس إذا كانت لله لا تستعصى النفس وتجيب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص ، وإذا دخل فى شىء من رفق النفس لا لله بغير نية صالحة صار ذلك وبالا

عليه . وقد ورد فى الخبر « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر ، ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة » .

وقيل : كان أنس يقول : طيبوا كفى بمسك ، فإن ثابتا يصافحنى ويقبل يدى وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك إلى الله بنيتهم : فالمريد ينبغى أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله ولا يسامح نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى ، وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوى عند كل لقمة ويقول بلسانه أيضا : آكل هذه اللقمة لله تعالى ، ولاينفع القول إذا لم تكن النية فى القلب ؛ لأن النية عمل القلب ، وإنما اللسان ترجمان ؛ فما لم تشتمل عليه عزيمة القلب لله لاتكون نية .

ونادى رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال : هاتى المدرى ، أراد الميل ليفرق شعره ، فقالت له امرأته : أجىء بالمدرى والمرآة ، فسكت ثم قال : نعم ، فقال له من سمعه : سكت وتوقفت عن المرآة ثم قلت نعم ؛ فقال : إنى قلت لها هات المدرى بنية ، فلما قالت : المرآة لم يكن لى فى المرآة نية ، فتوقفت حتى هيأ الله تعالى لى نية ، فقلت نعم ، وكل مبتدئ لايحكم أساس بدايته بمهاجرة الألاف والأصدقاء والمعارف وبتمسك بالوحدة لاتستقر بدايته . وقد قيل : من قلة الصدق كثرة الخلطاء ، وأنفع ماله لزوم الصمت وأن لا يطرق سمعه كلام الناس ؛ فإن باطنه يتغير ويتأثر بالأقوال المختلفة ، وكل من لايعلم كمال زهده فى الدنيا وتمسكه بحقائق التقوى لايعرفه أبدا ، فإن عدم معرفته يفتح عليه خيرا ، وبواطن أهل الابتداء كالشمع تقبل كل نقش ، وربما استضر المبتدئ بمجرد النظر إلى الناس ، ويستضر بفضول النظر أيضا وفضول المشى ، فيقف من الأشياء كلها على الضرورة ، فينظر ضرورة ؛ حتى لو مشى فى بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذى يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره ، ثم يتق موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالرعاية والاحتراز ؛ فإن علم الناس منه بذلك أضر عليه من فعله ، ولايستحقر فضول المشى ، فإن كل شىء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة جر إلى الفضول ، ثم يجر إلى تضييع الأصول .

قال سفيان : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول ، فكل من لايتمسك بالضرورة فى القول والفعل لايقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ، ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه وانحلت شيئا بعد شىء

قال سهل بن عبدالله : من لم يعبد الله اختيارا يعبد الخلق اضطرارا ، وينفتح على العبد أبواب الرخص والاتساع ويهلك مع الهالكين .

ولا ينبغى للمبتدى أن يعرف أحدا من أرباب الدنيا ، فإن معرفته لهم سم قاتل . وقد ورد « الدنيا مبغوضة الله فمن تمسك بحبل منها قادته إلى النار » وما حبل من حبالها إلا كأبنائها ، والطالبين لها والمحبين ، فمن عرفهم انجذب إليها شاء أو أبى .

ويحترز المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لايقولون بقيام الليل وصيام النهار ، فانه يدخل عليه منهم أشر مايدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا ، وربما يشيرون إلى أن الأعمال شغل المتعبدين ، وأن أرباب الأحوال ارتقوا عن ذلك ، ويبغى للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان فحسب ! ولاينبغى أن يدخل هذا الكلام سمعه رأسا ، فإنا اختبرنا ومارسنا الأمور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين ، ورأينا أن الذين يقولون هذا القول ويرون الفرائض دون الزيادات والنوافل تحت القصور مع كونهم أصحاء فى أحوالهم . فعلى العبد التمسك بكل فريضة وفضيلة ، فبذلك يثبت قدمه فى بدايته ، ويراعى يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصا لايمزجه بشىء من أحوال نفسه ومآربها ، ويبكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة ، وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك لحسن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أباهريرة اغتسل للجمعة ولو اشتريت الماء بعشائك ، وما من نبى إلا وقد أمره الله تعالى أن يغتسل للجمعة ، فإن غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين » ويشتغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاو وأنواع الأذكار من غير فتور إلى أن يصلى الجمعة ، ويجلس معتكفا فى الجامع إن أن يصلى فرض العصر وبقية النها

يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه يرى بركة ذلك في جميع الأسبوع حتى يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة

وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الأسبوع لأنه يوم المزيد لكل صادق ، ويكون ما يجده يوم الجمعة معيارا يعتبر به سائر الأسبوع الذي مضى ؛ فإنه إذا كان الأسبوع سليما يكون يوم الجمعة فيه مزيد الأنوار والبركات ، وما يجد في يوم الجمعة من الظلمة وسآمة النفس وقلة الانشراح ، فلما ضيع في الأسبوع يعرف ذلك ويعتبر .

ويتقي جدا أن يلبس للناس : اما المرتفع من الثياب أو ثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد ؛ ففي لبس المرتفع للناس هوى ، وفي لبس الخشن رياء ، فلا يلبس إلا لله .

بلغنا أن سفيان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبه على ذلك بعض الناس ، فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال : لبسته بنية لله فلا أغيره فألبسه بنية للناس ؛ فليعلم العبد ذلك وليعتبره .

ولا بد للمبتدئ أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه ، فيحفظ من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ، ولا يصغى إلى قول من يقول : ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن ؛ فإنه يجد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى . وإنما اختار بعض المشايخ بديم المريد ذكرا واحدا ليجتمع الهم فيه ، ومن لازم التلاوة وتمسك بالوحدة تفيده التلاوة والصلاة أوفى ما يفيده الذكر الواحد ؛ فإذا سئم في بعض الأحايين يصانع النفس على الذكر مصانعة ، وينزل من التلاوة إلى الذكر فإنه أخف على النفس .

وينبغي أن يعلم أن الاعتبار بالقلب ، فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد ؛ فإنه عمل ناقص

ولا يحقر الوساوس وحديث النفس فإنه مضر وداء عضال ؛ فيطالب نفسه أن تصير في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه ، فكما أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر ، هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس ، وإن كان أعجميا لا يعلم معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه ، فيشغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس ؛ فإن بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة .

قال مالك : قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة ، فليتمسك المريد بهذه الأصول ، وليستعن بدوام الافتقار إلى الله ، فبذلك ثبات قدمه .

قال سهل : على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء ، وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله ، فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير ومفتاح كل علم دقيق في طريق القوم ، وهذا الافتقار مع كل الأنفاس لا يتشبث بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها ، وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيرا قطعا ، علمنا ذلك وتحققناه .

وقال سهل : من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله ، وأدنى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يعنيه وتركه ما يعنيه .

وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم : لمن هذه الدار ؟ ثم رجع إلى نفسه وقال : مالي وهذا السؤال ؟ وهل هذه الكلمة لا تعنيني ؟ وهل هذا إلا الاستيلاء نفسي وقلة أدبها ؟ وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة ، فبالصدق نالوا ما نالوا ، وبقوة العزائم ـ عزائم الرجال ـ بلغوا ما بلغوا .

أخبرنا أبو زرعة إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن ، قال سمعت منصورا يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطي يقول : سمعت الجنيد يقول : لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان

مافاته من الله أكثر مما ناله ، وهذه الجملة يحتاج المبتدئ أن يحكمها ، والمنتهى عالم بها عالم بحقائقها ؛ فالمبتدئ صادق والمنتهى صديق .

قال أبو سعيد القرشي : الصادق الذى ظاهره مستقيم وباطنه يميل أحيانا إلى حظ النفس ، وعلامته أن يجد الحلاوة فى بعض الطاعة ولا يجدها فى بعض ، وإذا اشتغل بالذكر نور الروح ، وإذا اشتغل بحظوظ النفس يحجب عن الأذكار . والصديق : الذى استقام ظاهره وباطنه يعبد الله تعالى بتلوين الأحوال ، لا يحجبه عن الله وعن الأذكار أكل ولا نوم ولا شرب ولا طعام ، والصديق يريد نفسه لله . وأقرب الأحوال إلى النبوة الصديقية .

وقال أبو يزيد : آخر نهايات الصديقين أول درجة الأنبياء .

واعلم أن أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله ، وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفس ووطئت بساط القرب ، ونفوسهم منقادة مطواعة صالحة مع القلوب مجيبة إلى كل ماتجيب إليه القلوب ، أرواحهم متعلقة بالمقام الأعلى ، انطفأت فيهم نيران الهوى ، وتخمر فى بواطنهم صريح العلم وانكشفت لهم الآخرة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق أبى بكر رضى الله عنه ، من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر ، إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ما كوشف به من صريح العلم الذى لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ فأرباب النهايات ماتت أهويتهم وخلصت أرواحهم .

قال يحيى بن معاذ ـ وقد سئل عن وصف العارف ؛ فقال : رجل معهم بائن منهم . وقال مرة : عبد كان فبان .

فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم معوقين بتوقيت الآجل ، جعلهم الله تعالى من جنوده فى خلقه ، بهم يهدى وبهم يرشد وبهم يجذب أهل الإرادة ، كلامهم دواء ونظرهم دواء ، ظاهرهم محفوظ بالحكم ، وباطنهم معمور بالعلم .

قال ذو النون : علامة العارف ثلاثة : لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ، ولا يحمله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار محارم الله ؛ فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية ، وكلما ازدادوا دنيا ازدادوا قربا ، وكلما ازدادوا جاها ورفعة ازدادوا تواضعا وذلة ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منهم شكرا صافيا ، يتناولون الشهوات تارة رفقا بالنفوس لأنها معهم كالطفل الذى يلطف بالشىء ويهدى له شىء ؛ لأنه مقهور تحت السياسة مرحوم ملطوف به . وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيا بالأنبياء واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية .

قال يحيى بن معاذ : الدنيا عروس تطلبها ماشطتها ، والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها ، والعارف بالله مشتغل بسيده ولا يلتفت إليها .

واعلم أن المنتهى مع كمال حاله لا يستغنى أيضا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر ، وقد غلط فى هذا خلق ، وظنوا أن المنتهى استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال فى تناول الملاذ والشهوات ، وهذا خطأ لا من حيث إنه يحجب العارف عن معرفته ، ولكن يوقف عن مقام المزيد . وقوم لما رأوا أن هذه الأشياء لا تؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجبة ركنوا إليها واسترسلوا فيها وقنعوا بأداء الفرائض واتسعوا فى المأكل والمشرب ، وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال ، وتقيد بنور الحال ، وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق ، ومن تخلص من نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر ويوقف نفسه مقام العبيد ، كأحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البر حتى بإماطة الأذى عن الطريق ، ولا يستكبر ولا يستنكف أن يعود فى صور عوام المؤمنين من إظهار الإرادة بكل بر وصلة ، فيتناول الشهوات وقتا رفقا بالنفس المطهرة المزكاة المنقادة المطواعة لأنها أسيرته ، ويمنعها الشهوات وقتا لأن فى ذلك صلاحها ، واعتبر هذا سواء بحال الصبى ، فإنه إن جاوز حد الاعتدال من إعطاء المراد وقتا ومنعه وقتا انفسد طبعه ؛ لأن الجبلة لا بد من قمعها بسياسة العلم ، ومادامت الجبلة باقية لا بد من سياسة العلم ، وهذا باب غامض دخل فى النهايات على المنتهى من ذلك دواخل ووقع الركون وانسد

له باب المزيد ؛ فالمنتهى ملك ناصية الاختيار فى الأخذ والترك ، ولا بد له من أخذ وترك فى الأعمال والحظوظ ؛ فنى الأعمال لابد له من أخذ وترك ، فتارة يأتى بالأعمال كآحاد الصادقين ، وتارة يترك زيادة الأعمال رفقا بالنفس ، وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رفقا بالنفس ، وتارة يتركها افتقاداً للنفس بحسن السياسة ، فيكون فى ذلك كله مختارا ؛ فمن ساكن ترك الحظوظ بالكلية ؛ فهو زاهد تارك بالكلية . ومن استرسل فى أخذها فهو راغب بالكلية . والمنتهى شمل الطرفين ، فإنه على غاية الاعتدال ، واقف على الصراط بين الإفراط والتفريط ، فمن ردت إليه الأقسام فى النهاية فأخذها زاهدا فى الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار ، وتارك الاختيار الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال . وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار ، فكذلك الزاهد فى الزهد الآخذ من الدنيا ما سيق إليه لرؤيته فعل الله مقيدا بالأخذ ، وإذا استقرت النهاية لا يتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتا واختياره من اختيار الله ، ويأخذ وقتا واختياره من اختيار الله ، وهكذا صومه النافلة وصلاته النافلة يأتى بها وقتا ويسمح للنفس وقتا ، لأنه مختار صحيح فى الاختيار فى الحالين ، وهذا هو الصحيح ونهاية النهاية ، وكل حال يستقر ويستقيم يشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ، ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان ويتناول الشهوات . ولما قال الرجل إنى عزمت أن لا آكل اللحم ، قال : فإنى آكل اللحم وأحبه ، ولو سألت ربى أن يطعمنى كل يوم لأطعمنى . وذلك يدلك على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مختارا فى ذلك ، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل ، وكان يترك الأكل اختيارا ، وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كذا يقولون : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرعا ، وهذا إذا قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسى به جهل محض ؛ فإن الرخصة الوقوف على حد قوله ، والعزيمة التأسى بفعله . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الرخص وفعله لأرباب العزائم ، ثم إن المنتهى يحاكى حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام فى دعاء الخلق إلى الحق ، فكل ما كان يعتمده رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغى أن يعتمده ، فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لا يخلو : إما أنه كان ليقتدى به ، وإما أنه كان لمزيد كان يجده بذلك ، فإن كان ليقتدى به فالمنتهى أيضا مقتدى به ينبغى أن يأتى بمثل ذلك ، والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء ، بل كان يجد بذلك زيادة ، وهو ما ذكرناه من تهذيب الجبلة . قال الله تعالى خطابا له ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ لأنه بذلك ازداد استمداداً من الحضرة الإلهية وقرع باب الكرم ، والنبى عليه الصلاة والسلام مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى غير مستغن عن ذلك ، ثم فى ذلك سر غريب : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق ، ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انتفعوا به ، وبين نفسه الطاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ، ورابطة التأليف : أن النفوس ألفت آنفا ، كما أن الأرواح ألفت أولا . ولكل روح مع نفسه تأليف خاص ، والسكون والتأليف والامتزاج واقع بين الأرواح والنفوس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم العمل لتصفية نفسه ونفوس الاتباع ، فما احتاج إليه نفسه من ذلك ناله ، وما فضل من ذلك وصل إلى نفوس الأمة ، وهكذا المنتهى مع الأصحاب والأتباع على هذا المعنى ، فلا يتخلف عن الزيادات والنوافل ، ولا يسترسل فى الشهوات واللذات إلا بدلا لقضاء النفس ، ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة ، وكل من يحتاج إلى صحة الجلوة للغير لابد له من خلوة صحيحة بالحق ، حتى تكون جلوته فى حماية خلوته .

ومن يتراءى له أن أوقاته كلها خلوة وأنه لا يحجبه شىء وأن أوقاته بالله ولله ولا يرى نقصانا لأن الله ما فطنه لحقيقة المزيد ، فهو صحيح فى حاله ، غير أنه تحت قصور ، لأنه ما نبه لسياسة الجبلة ، وما عرف سر تمليك الاختيار ، ما وقف من البيان على البيضاء النقية . وقد نقلت عن المشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه ، فقد يسمعها الإنسان ويبنى عليها ، والأولى أن يفتقر إلى الله تعالى فى أى كلمة يسمعها حتى يسمعه الله من ذلك الصواب .

نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعت المتفرقات ، واستوت الأحوال والأماكن ، وسقطت

رؤية التمييز . ومثل هذا القول يوهم أن لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ، ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا ، يعنى أن حظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال ، وهذا صحيح ، لأن حظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه ، ولكن حظ المريد يتغير ويحتاج إلى التمييز ، وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه .

قيل لمحمد بن الفضل : حاجة العارفين إلى ماذا ؟ قال : حاجتهم إلى الخصلة التى كملت بها المحاسن كلها ألا وهى الاستقامة ، وكل من كان أتم معرفة كان أتم استقامة ؛ فاستقامة أرباب النهاية على التمام ، والعبد فى الابتداء مأخوذ فى الأعمال محجوب بها عن الأحوال . وفى التوسط محفوظ بالأحوال فقد يحجب عن الأعمال . وفى النهاية لا تحجبه الأعمال عن الأحوال ولا الأحوال عن الأعمال ، وذلك هو الفضل العظيم .

سئل الجنيد عن النهاية فقال : هى الرجوع إلى البداية ، وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال : معناه أنه كان فى ابتداء أمره فى جهل ، ثم وصل إلى المعرفة ، ثم رد إلى التحير والجهل ، وهو كالطفولية : يكون جهل ثم علم ثم جهل . قال الله تعالى ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئا ﴾ .

وقال بعضهم : أعرف الخلق بالله أشدهم تحيرا فيه ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه يبادىء الأعمال ، ثم يرقى إلى الأحوال ، ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال ، وهذا يكون المنتهى المراد المأخوذ فى طريق المحبوبين تنجذب روحه إلى الحضرة الإلهية وتستتبع القلب ، والقلب يستتبع النفس ، والنفس تستتبع القالب ، فيكون بكليته قائما بالله ساجدا بين يدى الله تعالى ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سجد لك سوادى وخيالى » ، وقال الله تعالى ﴿ ولله يسجد من السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ والظلال القوالب تسجد بسجود الأرواح وعند ذلك تسرى روح المحبة فى جميع أجزائهم وأبعاضهم . فيتلذذون ويتنعمون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه محبة وودا ، فيحبهم الله تعالى ويحببهم إلى خلقه نعمة منه عليهم وفضلا ، على ما أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله قال أخبرنا أبو طالب الزينى ، قال أخبرتنا كريمة المروزية ، قال أخبرنا أبو الهيثم الكشميهنى ، قال أخبرنا أبو عبد الله الفربرى ، قال أخبرنا أبو عبد الله البخارى ، قال حدثنى إسحق ، قال حدثنا عبد الصمد ، قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض » ، وبالله العون والعصمة والتوفيق .

تم بحمد الله المعيد المبدى

كتاب عوارف المعارف للإمام السروردى

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس

ملحق كتاب علوم الدين

صحيفة
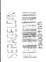
صحيفة

